التراث الروحي

مَدينَةُ اللّٰه
للقِدِّيس أَوغسْطِينُس

المجلّد الثّالث
الكتب (١٨-٢٢)

نَقَلَهُ إلى العَرَبيّة
الخورأسْقف يُوحَنّا الحُلو

دار المشرق - بيروت

مَدينة اللّه للقدّيس أوغسطينس

المجلّد الثالث
الكتب (١٨-٢٢)

١٤

منشورات :
دار المشرق - ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠، لبنان

التوزيع :
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب. ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان

صدر في سلسلة «التراث الروحيّ»

١- **أناشيد من الشرق**، اختارها ونقلها إلى العربيّة جورج يونس.
٢- **إعترافات القدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
٣- **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
٤- **خواطر فيلسوف في الحياة الروحيّة للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
٥- **مجموعة الرسائل الروحيّة ليوحنّا الدلياتيّ، الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.
٦- **كتاب الصلوات لغريغوريوس الناريكيّ**، نقله عن الفرنسيّة الأب جورج عقل اليسوعيّ.
٧- **أفراهاط الحكيم الفارسيّ: المقالات**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.
٨- **أقوال الشيوخ، حِكَم آباء البرّيّة**، اختارها ونقلها إلى العربيّة الأب كميل حشيمه اليسوعيّ.
٩- **ثيودورُس أسقف المصّيصة: العظات التعليميّة**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.
١٠- **الرياضة الروحيّة أو الحاشية في تدبير رياضة المتروّضين للمطران جرمانوس فرحات**، حقّقها وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.
١١- **مجموعة الميامر الروحيّة ليوحنّا الدلياتيّ، الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.
١٢- **مدينة الله للقدّيس أوْغُسْطينُس، المجلّد الأوّل** (الكتب ١-١٠)، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٣- **مدينة الله للقدّيس أوْغُسْطينُس، المجلّد الثاني** (الكتب ١١-١٧)، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٤- **مدينة الله للقدّيس أوْغُسْطينُس، المجلّد الثالث** (الكتب ١٨-٢٢)، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٥- **ميتوديوس الأولمبيّ: الوليمة**، نقله عن الفرنسيّة الأب صبحي حموي اليسوعيّ.
١٦- **القدّيس أوْغُسطينُس: محاورة الذات**، نقله عن اللاتينيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٧- **أرستيدُس الفيلسوف الأثينائيّ: الدفاع** (بحسب رواية بَرْلعام ويوآصاف)، نقله إلى العربيّة وقدّم له وعلّق عليه ووضعَ فهارسه الأب جوزيف كميل جبارة.

مَدينَـةُ اللّٰه

للقِدِّيس أَوغسْطِينُس

المجَـلّد الثَـالث

الكُتب (١٨ - ٢٢)



مَدينَةُ الله
للقِدِّيس أَوغسْطِينُس

المجلّد الثّالث
الكتب (١٨-٢٢)

نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّة
الخورأسْقف يُوحَنّا الحُلو

طبعة ثانية

دار المشرق - بيروت

دار المشرق ش.م.م،
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5227-4

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي – سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦، بيروت، لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ – ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

مترجم عن النسخة الفرنسيّة التي عنوانها:
La Cité de Dieu, Volume 3, Livres XVIII à XXII
Éditions du Seuil, Paris, mai 1994.

الكتاب الثامن عشر

مقدمة

في هذا الكتاب يقدّم لنا المؤلّف عدّة مفاجآت: إلى جانب التاريخ المقارن بين التاريخ المسيحيّ والتاريخ المدنيّ أو العالميّ، يُقيم أوغسطينس، من جديد، مقامًا للأنبياء الذين يهمّه أمرهم، بقدر ما يبشّرون بأسرار المسيح وكنيسته. ويعطي مجالًا للفلاسفة اليونانيّين: مثلًا بين الحكماء السبعة، في التقليد الإغريقيّ، والأنبياء، مقارنةٌ ورهان على مَن يحقّ لهم أن يعلّموا الناس؛ وينهيه لمصلحة الأنبياء؛ وبخاصّة، لأنّ أقوال الأنبياء نقلت إلى اللغة اليونانيّة في (السبعون) *La Septante*. في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، يبرزُ الكاتب، دورَ الكنيسة في نصٍّ طافح بالأمل والرجاء، فيرى تحقيق النبوءات التي تحدّث عنها، سابقًا، بواسطة الكنائس التي تمتدّ في العالم كلّه؛ وتشتُّت الشعب اليهوديّ في العالم كلّه يهيّئ انتشار الكنيسة ويشهد لمصلحتها؛ وعلى هذا النحو، فإنّ الشعب اليهوديّ، والاضطهادات نفسها، تساعد على ترسيخ الأمانة لدى الأبرار، وعلى التعمّق في درس العقيدة المسيحيّة. وينهي الكتاب على هذا المشهد، وهو أنّ الشرّ قد يُستعمل لخدمة الخير؛ بينما الرؤية الدينيّة العميقة تبقى أرحب وأوسع على بحر العالم الذي فيه «يسبح الجميع بلا نظام» على أمل البقاء أحياء.

١

مجرى التاريخ حتّى زمن المخلّص كما يناقش في الكتاب

أصل المدينتين وتقدّمهما وغايتهما الحتميّة، إحداهما مدينة الله، والأخرى مدينة العالم؛ فيها تسافر الأولى اليوم، لكونها تختصّ بالبشريّة؛ ذاك هو الموضوع الذي وعدتُ بمعالجته بعد أن دحضت، بمعاونة النعمة الإلهيّة، أعداء المدينة المقدّسة الذين يُؤْثِرون ملوكهم على المسيح مؤسّسها؛ وبواسطة شعور بالغيرة يحمل الشؤم إليهم، أعلنوا على المسيحيّين كراهية شديدة؛ وهذا هو ما قمت به في الكتب العشرة الأولى من هذا المؤلَّف. أمّا هذا الوعد الثلاثيّ الذي ذكرته الآن فإنّي عرضت لأصل هاتين المدينتين في الكتب الأربعة التالية للعاشر: تقدّمهما، منذ الإنسان الأوّل، حتّى الطوفان، في كتاب واحد هو الخامس عشر من هذا المؤلَّف؛ ومنذ ذلك الحين، سارت هاتان المدينتان، في كتابي، كما سارتا في الزمان. ولكن، من البطريرك إبراهيم حتّى ملوك إسرائيل، حيث أنهينا الكتاب السادس عشر؛ ومن هنالك حتّى مجيء المخلّص بالجسد، الذي يوصلنا إليه الكتاب السابع عشر، تبدو مدينة الله، وحيدةً، في ما نسرده؛ مع أنّها لم تبدُ وحيدة في العالم، وبالعكس فإنّ كلتيهما في البشريّة، كما هي الحال منذ البدء، قد تبدّلتا في الزمن بواسطة تقدّمهما المتوازن. واتّبعت ذلك التصميم حتّى إنّه، منذ أن بدأتْ وعود الله تنكشف حتّى الولادة العجائبيّة التي حقّقتها بالتمام، فإنّ مسيرة مدينة الله بدت، أكثر وضوحًا، في تخلّصها من المدينة المناوئة لها، وإن يكن تقدّمها لم ينجلِ تمامًا، خلال الظلال، إلّا بالوحي، الذي

ظهر في العهد الجديد. وعليه، فمن الضروريّ الآن، العودة إلى متابعة المسيرة المتوقّفة للمدينة الزمنيّة منذ عهد إبراهيم، لكي يتمكّن القارئ من المقارنة بين كلٍّ من المدينتين.

٢

المدينة الأرضيّة؛ ملوكها وتواريخها، منذ ولادة إبراهيم

إنّ المجتمع البشريّ، المنتشر فوق الأرض كلّها، في الأمكنة والمناخات، الأكثر تنوّعًا، وقد جمعت بين أبنائه ربطٌ طبيعيّة واحدة؛ بينما كلّ فرد فيه، وقد انشغل بمصالحه وأهوائه لا يلاحق إلّا شيئًا عاجزًا عن تلبية حاجات الجميع وحاجاته الشخصيّة، لأنّ هذا الشيء ليس غاية الإنسان الحقيقيّة؛ وأقول إنّ المجتمع، غالبًا ما ينقسم على ذاته، والأقوى فيه، يطغى على الآخر؛ والمغلوب يخضع لسيطرة الغالب، ويدفع، من حرّيّته ومن حياته، ثمنًا غاليًا؛ وعلى هذا النحو، ينظر الناس، بإعجاب، إلى الذين فضّلوا الموت على العبوديّة. وفي الواقع، وكأنّي بالطبيعة لدى كلّ الشعوب تعلن على الملأ أنّه من الأفضل الخضوع للمنتصر على أن يتعرّض الإنسان لما تجرُّه الحروب من انتقامات ومواقف ثأريّة ودمويّة. ومن هنا القرار، وللعناية الإلهيّة مقامٌ، لأنّها الحَكَم في الانتصارات، كما في الهزائم، بفرض الطاعة على ناسٍ والسلطة لناسٍ آخرين. ولكن، بين الدول الكثيرة التي قسّمت المجتمع أو مدينة الأرض: إثنتان قلّصت عظمتهما سائر الدول في العالم هما المملكة الأشوريّة والأمبراطوريّة الرومانيّة وكلتاهما مختلفتان في المكان والزمان.

وإن كانت إحداهما، ظهرت، قبل الأخرى، فتلك في الشرق، وهذه في الغرب، كما كانت نهاية الواحدة بداية للأخرى؛ وأقول إنّ سائر الدول الأخرى أو ممالك الأرض، كانت، تقريبًا خاضعة لتَيْنِك الأمبراطوريّتين.

إنّ نينوس الذي خلف بالوس أوّل ملك على أشور كان يملك عندما ولد إبراهيم في بلاد الكلدانيّين. وكانت آنذاك مملكة السيونيّين الصغيرة قائمة؛ ومنذ ذلك الحين، كما في عهد متأخّر، أخذ فرّون يكتب تاريخ الشعب الرومانيّ ثمّ انتقل من ممالك السيونيّين إلى الأثينيّين، ومنهم إلى اللاتين فالرومان؛ بيد أنّ تلك الأمبراطوريّة التي قامت قبل أن تتأسّس رومة صغيرةٌ جدًّا بالنسبة إلى مملكة الأشوريّين. وإنّ سللوستوس المؤرّخ الرومانيّ، مع اعترافه باشتهار الأثينيّين في اليونان، يتحفّظ حول القدرة التي عزتها إليهم شهرتهم فيقول: «إنّ مآثر الأثينيّين بلغت من المجد والشهرة حدًّا مرموقًا؛ إنّما بقيت دون المستوى الذي يحكى عنهم علنًا؛ لأنّ أثينا أعطت نوابغ كثيرة لكي تكتب عنهم، حتّى إنّ العالم ينظر بإعجاب وعظمة إلى أبطالها الفضلاء الذين أشادت بهم فصاحة العقول الكبيرة والكثيرة. وليس من أمجاد أثينا البسيطة أن تعتبر مدرسةً للآداب والفلسفة. من حيث القوّة، ما من أمبراطوريّة بلغت في سالف الأزمان ما بلغته أمبراطوريّة الأشوريّين، وبسطت حدودها حتى حدود أشور؛ لأنّ نينوس بن بلّوس مسيطر، كما يقال، على آسيا بكاملها، حتّى حدود ليبيا، ثالث قسم من العالم بحسب التقسيم العدديّ والثاني بحسب المساحة. وحدهم الهنود، من بين شعوب الشرق، نَجوا من حكمها؛ غير أنّ سميراميس، أرملته، حاولت بعد موته أن

تخضعهم. شعوب تلك المناطق وملوكها خضعوا للأشوريّين وقوانينهم. إذ ذاك ولد إبراهيم في عهد نينوس في مملكته، في بلاد كلدان. ولكن بما أنّنا نعرف أحداث التاريخ اليونانيّ أكثر ممّا نعرف أحداث تاريخ أشور وأنّ مسيرة الزمن تقود من الإغريق إلى اللاتين، ومن اللاتين إلى أحفادهم الرومان الذين سبروا غور مهد روما التاريخيّة، أليس من الموافق أن نذكر هنا الملوك الأشوريّين لنظهر كيف أنّ بابل، روما القديمة، تتقدّم، في مجرى الزمن، مع مدينة الله الغريبة في هذا العالم؟ أمّا الأحداث التي تنفع في هذا المؤلَّف، للمقارنة بين المدينتين، فيجب أن نأخذها عن الإغريق واللاتين الذين تقوم بينهم بابل الثانية؛ علمًا أنّ نينوس، لدى ولادة إبراهيم، كان ثاني ملك على الأشوريّين وأورويس على السيشيونيّين؛ أحدهما خلف بالوس والآخر أجياليوس. وحين وعد الله إبراهيم بنسلٍ كثير ومباركة الشعوب في ذريته كان الأشوريّون تحت حكم ملكهم الرابع والسيشيونيّون تحت حكم ملكهم الخامس. لأنّ ابن نينوس ملك على الأشوريّين بعد أن قتل أمّه، كما قيل، لكي يضع حدًّا لمغامراتها الجنسيّة الأثيمة، مع ذوي قرباها؛ بعضهم ينسب إلى تلك المرأة بناء بابل؛ ولربّما لأنّها أعادت بناءها. أمّا زمان تأسيسها وكيف كان فهذا قد قلناه في كتابنا السادس عشر. فيما يختصّ بذاك الابن لنينوس وسميراميس الذي خلف أمّه على العرش فبعضهم يدعوه أيضًا نينوس والبعض الآخر يسمّيه نينياس المشتقّ من اسم أبيه؛ وآنذاك كان تلكسيونوس ملكًا على السيشيونيّين وكان ملكه زمن سعادة وسلام على شعبه، حتّى إنّهم كرّموه كإله بتقديم الضحايا وإقامة الألعاب للمرّة الأولى على شرفه.

٣

الملوك الأشوريّون والسيشيّون
حتّى ولادة إسحق وولادة عيسو ويعقوب

وفي عهده أعطي إسحق لإبراهيم في السنّ المائة من عمره وامرأته سارة التي كان العقر والشيخوخة قد حجبا عنها كلّ أمل بالولادة، إسحق، الولد الذي وعد الله به، كان أراليوس خامس ملك على الأشوريّين وكان عمر إسحق ستّين سنة وله من زوجته رفقا ابنان توأمان عيسو ويعقوب؛ ووُلدا له في حياة جدّهما إبراهيم البالغ من العمر آنذاك مائة وستّين سنة ومات إبراهيم في السنة المائة والخامسة والسبعين من عمره في عهد الملك كزركس «Xerkes» المدعوّ بالاوس، على الأشوريّين، وكان تورياكوس ملكًا على السيشيونيّين أو كما يسمّيه كثيرون تورماكوس؛ وكلاهما سابع ملك على شعبيهما. أمّا مملكة الأرجيانيّين التي عرفت أوّل ملكٍ عليها، المدعوّ أيناخوس، فهذا قد وُلد في زمن ولادة أحفاد إبراهيم. لا ننسينَّ بأن نذكر ما جاء في تقرير فرّون عن أن السيشيونيّين قد تعوّدوا إقامة الذبائح على قبر ملكهم السابع توريماكوس. وفي عهد أرماميتريوس ولوسيبوس ثامن ملكين، أحدهما على الأشوريّين والآخر على السيشيونيّين وفي عهد الملك أيناخوس الأوّل على الأرجيانيّين، كلّم الله إسحق وجدّد له الوعد الذي كان لأبيه، القائل بإعطائه أرض كنعان له، ولذرّيّته، ولجميع الشعوب، التي تتبارك في ذرّيّته. وهي وعود تكرّرت إلى ابنه حفيد إبراهيم المدعوّ يعقوب ثمّ إسرائيل في عهد بالوكوس الملك التاسع على الأشوريّين وفي عهد فورونيوس بن أيناخوس ثاني ملك على الأرجيانيّين بينما كان لوسيبوس ملكًا على السيشيونيّين. وبدأت اليونان تشتهر في بعض مؤسّساتها السياسيّة والمدنيّة أيّام الملك فورونيوس، علمًا أنّ فاغوس، ثاني أشقّائه، حصل بعد موته على ما يكرّم به الآلهة؛ فأقيم فوق قبره هيكل تقدّم فيه الثيران ذبائح؛ وعلى ما أظنّ، فإنّ ما جعله أهلًا لذلك التكريم هو أنّه قد بنى معابد للآلهة وعلّم، استنادًا إلى تقسيم الأشهر والسنين، حساب الأزمنة وقياسها، في الجزء من المملكة الذي أعطاه إيّاه والده، خلال حياته، ليملك هو على قسم وأخوه على القسم الآخر. وإذ أُعجب الناس العاديّون بما كان يجدّد في مملكته آمنوا به كإله، وأحبّوا أن يكرموه بعد موته بتلك الطريقة. وفي الواقع، إنّ إيو، ابنة أيناخوس المسمّاة إيزيس، قيل إنّ المصريّين راحوا يكرمونها كإلهة، وإن زعم آخرون أنّها أتت من بلاد الحبشة لتملك على مصر حيث عرف عهدها المجد والعدل، واستحقّت بسببهما، بعد موتها، أن تكرَّم كإلهة حتّى إنّ مَن يدّعي بأنّها كسائر البشر يُتّهم بارتكاب جرم كبير.

٤

أيّام يعقوب ويوسف

كان يملك على الأشوريّين باليوس الملك العاشر وعلى السيشيونيّين ملكهم التاسع المدعوّ دي سابوس أو كما يسمّيه بعضهم أيضًا سافيزيوس (إذا كان هذان الاسمان لإنسان واحد أو بالأحرى إن كان الذين يذكرون في كتاباتهم الاسم الآخر لا يعنون به إنسانًا آخر. وفي عهد أبيسيوس ملك الأرجيانيّين توفّي

٦

وأشور حتّى ... - وفاة يعقوب في مصر

جيانيّين، لا الـ... المصريّين، يموت في مصر،
أعطى الأرجـ... جيانيّين اسمهم لأنّه في عهد
الوطن ولا ... سكّانه يُدعون بهذا الاسم.
وأراتوس ملـ... ـلك السيشيونيّين دباليوس لا
ين حين مات ... يعقوب في مصر في السنة
من عمره و... هو يبارك على فراش الموت
ف مبشّرًا بالـ... المسيح في هذه الكلمات
لا يزول صولـ... جان من يهوذا ومشترع من
طيعه الشعوب» «...». (تك ٤٩/ ١٠). في عهد
تجمع غلّات ... أرضها وتلقي في أثلامها
مناطق الأخرى...؛ وبعد موته تكرّم أرغوس
وذبائح وهي أ... أمور تكريميّة حظي بها في
ادِيّ يدعى هو...موجيروس قتلته صاعقة؛
ن إلى المحرا... ث.

٧

ملوك حتّى موت... يوسف

، الملك الثا... ني عشر على الأشوريّين،
Plemn الحادي... عشر على السيشيونيّين،
ملك على الأر... رجيانيّين، توفّي يوسف في

مصر، في السنة المائة من عمره. وبعد موته نما الشعب، شعبُ الله، نموًّا عظيمًا، وبقي في مصر على مدى مائة وخمس وأربعين سنة، مطمئنًّا، هادئًا، طوال حياة الناس الذين عرفوا يوسف. إنّما أصبح نموّ ذاك الشعب فيما بعد، موضوع قلق وتطلّع إلى خلاصه؛ فراح المصريّون يضطهدونه، بقسوة، والله يزيد من إخصاب ذاك الشعب ونموّه، فسحقه الطغاة تحت ثقل عبوديّة لا تحتمل؛ غير أنّ أشور واليونان لم يعرفا تبدّلًا في الحكم.

٨

عهد الملوك حتّى مولد موسى وما حدث خلاله من أمور

حين كان سفروس الملك الرابع عشر على الأشوريّين، وأرتوبوليس الملك الثاني عشر على السيشيونيّين وكريازوس، الملك الخامس على الأرجيانيّين، ولد موسى في مصر، محرّر شعب الله، فحطّم نير العبوديّة الذي كان يئنّ تحته الشعب المختار، توّاقًا إلى مساعدة خالقه. وبحسب ما قال بعضهم، كان يعيش بروموثيوس في عهد الملوك الذين ذكرتهم سابقًا. وبما أنّه كان على قسط وافر من الحكمة، نسب إليه بعضهم أنّه صنع رجالًا من فخار دون أن يعرف أحد شيئًا عن حكماء زمانه. قيل إنّ أخاه أطلس كان منجّمًا عظيمًا فراحت الأسطورة تضع السماء على كتفيه؛ مع أنّ جبلًا بهذا الاسم ثبّت ارتفاعه تلك الأسطورة، على ما يبدو في نقطة ارتكاز للسماء؛ وانتشرت في ذلك الزمان أيضًا أساطير أخرى في اليونان. ولكن حتّى زمن سيكروبس، ملك الآثينيّين، الذي فيه أعطيت أثينا ذلك الاسم،

إسحق في السنة المائة والثمانين من عمره، تاركًا بعده ابنيه في المائة والعشرين من عمرهما. الأصغر، ابن مدينة الله، يصدّ البكر؛ ويعقوب يلد اثني عشر ولدًا؛ أحدهم يوسف يبيعه إخوته إلى تجّار، ذاهبين إلى مصر، وكان جدّهم إسحق، لا يزال حيًّا. وكبر يوسف بالقرب من فرعون ورُفع من الدرك الأسفل إلى أعلى قمم الكرامة في الثلاثين من عمره؛ ذلك لأنّه فسّر بما يفوق الطبيعة أحلام الملك وتنبّأ عن سبع سنوات السعد التي يعقبها سبع سنوات من القحط، تقضي على ما جمعته السبع الأولى؛ وعهد إليه فرعون بإدارة مصر و إخراجه من السجن الذي أدخله إليه حبّه للعفّة التي دافع عنها بسخاء ضدّ شهوة معلّمته المخجلة التي راحت تشي به إلى معلّمها، حاملة بيديها الأثيمتين ثوبه، انتقامًا، لما أظهر تجاهها من احتقار، هروبًا منها. وفي السنة الثانية من السنوات السبع العجاف جاء يعقوب مع جماعته لرؤية ابنه، في مصر، البالغ من العمر ثلاثين عامًا، بحسب جوابٍ أعطاه للملك؛ في حين أنّ يوسف كان ابن تسعٍ وثلاثين سنة إذ قد وجب إضافة سبع سنوات سعد وسنتين من القحط إلى الثلاثين التي كانت له عندما أغدق الملك عليه إنعاماته.

٥

ملك الأجيانيّين المدعوّ أبيس
جاء بحرًا إلى مصر وحمل اسم سيرابيس

في ذلك الزمان كان ملك الأجيانيّين أبيس Apis قد جاء إلى مصر بحرًا؛ فمات فيها وأصبح اسمه سيرابيس أعظم الآلهة لدى

المصريّين. ولِمَ تحوّل اسمه من أبيس إلى سيرابيس بعد مماته؟ فرّون يشرح ذلك ببساطة. وفي الواقع، نعش، أو بنوع عامّ، «ناووس» «sarcophage» يعبّر عنه باليونانيّة بلفظة وإذ قد كرّم نعش أبيس قبل أن يُقام على اسمه هيكل تكريمًا له أعطي اسم Sorapis (Soros - Apis) ثمّ تغيّر حرف في التسمية كما يجري عادة فصار اسمه Sérapis سيرابيس. وهُدِّد بالقتل كلّ مَن يقول عنه إنّه إنسان. وفي جميع هياكل إيزيس وسيرابيس كانت التماثيل تحرّم الصمت على الناظر إليها، الداخل إلى الهيكل، من خلال وضع إصبع صاحب التمثال على شفتيه، دعوةً إلى الصمت. ويشرح هذا الأمر فرّون بأنّه تحريم القول إنّ أصحاب التماثيل بشر. أمّا الثور الذي كان المصريّون يؤمنون، بغرابة، به، ويكرّمونه، كما كان يعبد حيًّا؛ وليس في النعش، يسمّى Sérapis. وكانوا يبحثون عن خَلَفٍ لذلك الثور المائت، شرط أن يحملَ مثلَه بعض البقع البيضاء؛ وهو أمر غريب من نوعه، كان المصريّون يظنّون بأنّهم مدينون به للآلهة؛ وهل كان يصعب على الشياطين المتحرّقين شوقًا إلى خداع تلك الشعوب أن يضعوا أمام عجلة ثنيّة خصية صورة ثور شبيه لا يراه سواها؟ وهي صورة تتوق الأمّ إلى أن تأخذ عنها، ما تريد من ملامح، لما يتكوّن في حشاها جسديًّا. لقد حصّل يعقوب، بواسطة عصيّ مرقّشة، عنزًا وغنمًا مختلفي الألوان؛ وكما كان البشر يؤثّرون، من خلال ألوانٍ متنوّعة، على التناسل الحيوانيّ، تلك هي حال الشياطين، من خلال رسوم وصور خياليّة.

٦

ملوك الأرجيانيّين وأشور حتّى وفاة يعقوب في مصر

إنّ أبيس ملك الأرجيانيين، لا المصريّين، يموت في مصر، فيخلفه ابنه أرغوس الذي أعطى الأرجيانيّين اسمهم لأنّه في عهد الملوك السابقين ما كان الوطن ولا سكّانه يُدعون بهذا الاسم. لقد كان ملك الأرجيانيّين وأراتوس ملك السيشيونيّين دباليوس لا يزال ملكًا على الأشوريّين حين مات يعقوب في مصر في السنة المائة والسابعة والأربعين من عمره وهو يبارك على فراش الموت أبناءه وأحفاده من يوسف مبشّرًا بالمسيح في هذه الكلمات الواضحة جدًّا ليهوذا «لا يزول صولجان من يهوذا ومشترع من صلبه حتّى يأتي شيلو وتطيعه الشعوب». (تك ٤٩/ ١٠). في عهد أرغوس أخذت اليونان تجمع غلّات أرضها وتلقي في أثلامها البذور التي تأتيها من المناطق الأخرى؛ وبعد موته تكرّم أرغوس كإله؛ وقدّموا له هيكلًا وذبائح وهي أمور تكريميّة حظي بها في عهده؛ وقبله مواطن عاديّ يدعى هوموجيروس قتلته صاعقة؛ وكان أوّل مَن ربط الفدّان إلى المحراث.

٧

عهد الملوك حتّى موت يوسف

وفي عهد ماميتوس، الملك الثاني عشر على الأشوريّين، وعهد بليمانيوس Plemnaeus الحادي عشر على السيشيونيّين، وكان أرغوس لا يزال يملك على الأرجيانيّين، توفّي يوسف في

مصر، في السنة المائة من عمره. وبعد موته نما الشعب، شعبُ الله، نموًّا عظيمًا، وبقي في مصر على مدى مائة وخمس وأربعين سنة، مطمئنًّا، هادئًا، طوال حياة الناس الذين عرفوا يوسف. إنّما أصبح نموّ ذاك الشعب فيما بعد، موضوع قلق وتطلّع إلى خلاصه؛ فراح المصريّون يضطهدونه، بقسوة، والله يزيد من إخصاب ذاك الشعب ونموّه، فسحقه الطغاة تحت ثقل عبوديّة لا تحتمل؛ غير أنّ أشور واليونان لم يعرفا تبدّلًا في الحكم.

٨

عهد الملوك حتّى مولد موسى وما حدث خلاله من أمور

حين كان سفروس الملك الرابع عشر على الأشوريّين، وأرتوبوليس الملك الثاني عشر على السيشيونيّين وكريازوس، الملك الخامس على الأرجيانيّين، ولد موسى في مصر، محرّر شعب الله، فحطّم نير العبوديّة الذي كان يئنّ تحته الشعب المختار، توّاقًا إلى مساعدة خالقه. وبحسب ما قال بعضهم، كان يعيش بروموتيوس في عهد الملوك الذين ذكرتهم سابقًا. وبما أنّه كان على قسط وافر من الحكمة، نسب إليه بعضهم أنّه صنع رجالًا من فخار دون أن يعرف أحد شيئًا عن حكماء زمانه. قيل إنّ أخاه أطلس كان منجّمًا عظيمًا فراحت الأسطورة تضع السماء على كتفيه؛ مع أنّ جبلًا بهذا الاسم ثبّت ارتفاعه تلك الأسطورة، على ما يبدو في نقطة ارتكاز للسماء؛ وانتشرت في ذلك الزمان أيضًا أساطير أخرى في اليونان. ولكن حتّى زمن سيكروبس، ملك الآثينيّين، الذي فيه أعطيت أثينا ذلك الاسم،

وفيه أيضًا أخرج الله شعبه بواسطة موسى من مصر؛ وفي هذيان عادة أثيمة رفع اليونان، وقد سيطرت عليهم الخرافة، بعض الأموات، إلى مصاف الآلهة؛ ومن بينهم ميلانتومسيوس زوجة الملك كريازوس؛ كما رفعوا إلى ذاك المصاف أيضًا فورباس ابنهما ساوس ملكًا على الأرجيانيّين بعد أبيه؛ كما رفعوا جازوس ابن ملكهم السابع تريوباس وملكهم التاسع ستينيلاس أوستينلايوس أو ستينلوس، لأنّ اسمه يتغيّر بحسب الكتّاب والمؤلّفين. ويقال أيضًا إنّ مركور حفيد أطلس، من مايا ابنته، حسب ما قاله شهود بارزون جدًّا؛ كما اشتهر ببراعته، في عدّة فنون، سلّمها إلى الناس؛ وهو عمل طيّب رفعه بعد موته إلى مصاف الآلهة؛ وراح الناس يعبدونه كإله. ويُقال إنّ هركول جاء بعده، غير أنّه ينتمي إلى عهد الأرجيانيّين، وإن اعتبره الكثيرون أقدم من مركور. أظنّ أنّ هذا الأمر خطأ. ولكن، أيًّا يكن زمن ولادتهما، فإنّ أهمّ مؤرّخي تلك الأزمنة القديمة متّفقون على أنّ الاثنين كانا بشرًا؛ وتقديرًا للخدمات التي قدّماها للناس، تخفيفًا عن الحياة الحاضرة، نالا منهم إكرامًا يليق بالآلهة. أمّا مينرفا فهي أقدم منهم، لأنّهم يدّعون بأنّها ظهرت في زمن أوجيجاس، في سنّ فتاة صبيّة، على ضفاف بحيرة ترتين، فأخذت اسم تريتونيا؛ وإليها ينسب اختراع عدّة فنون نافعة؛ وتردّدوا في أن يؤمنوا بها إلهة، كما أنّ أصلها غير معروف. أمّا خروجها العجيب من رأس جوبيتر فتلك مسألة شعريّة وخرافيّة ولا تمتّ إلى التاريخ والأحداث بصلة؛ لكنّ المؤرّخين لا يتوافقون على الزمن الذي اختبأوا في الفلك؛ وهو حدث يجهله التاريخ الوثنيّ اليونانيّ واللاتينيّ؛ غير أنّه طوفانٌ أكبر من طوفان دوكاليون الذي حدث

فيما بعد؛ لأنّ فرّون يبدأ كتابه في ذلك الزمن الذي، عنه تكلّمت سابقًا، وصولًا إلى أعياد روما الاحتفاليّة؛ وفرّون لا يجد حدثًا أبعد، في التاريخ القديم، من الطوفان أوجيجاس. أمّا مؤرّخونا أوسابيوس وإيرونيموس اللذان يتمسّكان، هنا، بما كتبه مؤرّخون سابقون يؤرّخون طوفان أوجيجاس بثلاثمائة سنة قبل التاريخ المعطى له؛ ويجعلونه في عهد فورونيوس الملك الثاني على الأرجيانيّين. وأيًّا يكن الزمن فمينرفا كانت تكرَّم كإلهة بينما كان سيروبس ملكًا على الأثينيّين؛ ولهذا يقال إنّ أثينا قد أعيد بناؤها، أو تأسّست، تحت حكم ذلك الملك.

٩

كلام فرّون عن اسم الأثينيّين

ولكن، من أين لأثينا الاسم؟ وهو اسم أخذته من مينرفا المدعوّة باللغة اليونانيّة. Αθηνά، وهو الأصل الذي يشير إليه فرّون. نبتت زيتونة من الأرض فجأة؛ وفي مكان آخر تفجّر من الأرض ينبوع ماء حيّ. تأثّر الملك بهذا الأمر العجيب فأرسل يستشير الإله دلف Delphes ليعرف ما يجب عليه أن يفكّر ويعمل؛ وكان الجواب أنّ[الزيتونة رمز لمينرفا والماء رمز لنبتون؛ وعلى المواطنين أن يختاروا اسمًا لمدينتهم واحدًا من اسمَي هذين الإلهين. أمام هذا الجواب دعا سيكروبس المواطنين نساءً ورجالًا إلى الانتخاب، إذ إنّ العادة جرت منذ القديم على دعوة النساء أيضًا إلى الاستشارات العموميّة. وتمّت الاستشارات فصوّت الرجال لمصلحة نبتون والنساء لمينرفا؛ وبما أنّ أصوات

النساء فاق أصوات الرجال بواحد نجحت مينرڤا. إذ ذاك غضب نبتون وفجّر أمواج البحر فغمرت أرض الأثنيّين. وهل يصعب، تاليًا، على الشياطين أن يفيضوا على العبيد المياه؟ وعمل الأثينيّون على تهدئة غضب ذلك الإله فضربوا النساء ضربات مثلّثة: لن يعود لهم حقّ في المستقبل في المشاركة في الانتخابات؛ لا يحقّ لأيّ ولد لدى ولادته بأن يحمل اسم أمّه؛ وأخيرًا لم يعد لأي كان أن يسمّيهنّ أثينيّات. وهكذا أمام سخرية الأبالسة الذين لعبوا دورًا في عراك الآلهة، الذكر والأنثى، وأمام النصر الذي أحرزته المرأة للنساء، حُقَّ لتلك المدينة، حاضنة الفنون الحرّة ووالدة الكثيرين من مشاهير الفلسفة ومجد اليونان، أن تُسمّى أثينة. ومع ذلك، وقد ضربها الإله المهزوم، فقد اضطرّت إلى معاقبة الآلهة وخافت من مياه نبتون أكثر من أسلحة مينرڤا. وفي النساء اللواتي نلن ذلك العقاب ظهرت مينرڤا المنتصرة مهزومة، ولم تمدّ يد المساعدة إلى اللواتي ساعدن بأصواتهنّ. ليستعضن عن الحقّ الذي خسرنه، والجفاء الذي به حرم الأبناء من أن يحملوا اسم أمّهاتهم، فيسمح لهنّ على الأقلّ بأن يُدْعَيْنَ أثينيّات ويحمِلنَ اسم الإلهة التي ربحت المعركة بفضل أصواتهنّ!! وأيّ شيء يبقى أن نقوله ها هنا لولا واجب الإسراع في متابعة هذا الحديث؟؟

١٠

موقف فرّون الرافض لمحكمة أثينا وتسميتها وكلامه عن طوفان دوكاليون

لكنّ فرّون يرفض أن يثق بتلك القصص الخياليّة غير المناسبة لمصالح الآلهة ويخشى الإعلان عن رأي غير جدير بجلالهم؛ وكذلك لم يشأ أن تكون محكمة أثينا العليا (L'Aréopage) حيث ناقش الرسول بولس مع أهل أثينا؛ والقضاة يحملون اسمها، قد اتّخذت اسمها بمناسبة اتّهام مارس بالقتل وقد أحضر أمام اثني عشر إلهًا ثمّ أُخلي سبيله بعد أن تساوى عدد القضاة في حكمهم؛ وهذه المناصفة كانت تحمل البراءة للمتّهم. ورفض فرّون هذا الرأي المعمول به، بشكل عامّ، وراح يبحث في مخلّفات التقاليد المنسيّة والغامضة عمّا يساعده على إيجاد شيء جديد يستند إليه، رافضًا التركيبة المعروفة للفظة المكوّنة من لفظة Mars, Aris لفظة PagusBourg وكأنّها إهانة موجّهة للآلهة الذين ينفي عنهم الاعتراضات وقرارات العدل، ويؤكّد أنّ دعوى مارس هذه تتساوى في الخطأ والنقاش الدائر، على حدّ ما قيل، بين الإلهات الثلاث جونون ومينرڤا وفينوس في دعواهنّ أمام محكمة باريس Paris بخصوص التفّاحة الذهبيّة التي يجب أن تكون جائزة الجمال؛ ويُودع هذا الموضوع الكذبات الأثيمة التي تنسب إلى الآلهة، فرحًا معيبًا، في تمثيل جرائمهم الحقيقيّة أو المفترضة وسط الأغاني والرقص والتصفيق على المسرح. ذاك ما يرفضه فرّون كشيء مخالف لطبيعة الآلهة وأخلاقهم؛ ومع ذلك حين يطلب من التاريخ، وليس من الأسطورة، أصل اسم أثينا يقبل في

كتابه حكاية ذلك الخلاف، ما بين مينرفا ونبتون، وكلّ منهما يجاهد بقوّة لإعطاء اسمه؛ إنّه خلاف يستشار فيه أبلّون فلا يجرؤ أن يحسم الموقف بينهما وعلى مثال جوبيتر في الخلاف الناشب بين الإلهات الثلاث يترك الحكم بين نبتون ومينرفا للناس؛ انتصرت مينرفا في عدد الأصوات لكنّها انهزمت أمام عقاب اللواتي ضمِنَّ لها النصر؛ اتّخذت ضدّ الرجال أخصامها، اسم أثينا، دون أن تضمن للنساء صديقاتها اسم «الأثينيّات». في ذلك الزمن وفي عهد كرانايوس خليفة سيكروبس، بحسب فرّون، وفي عهد سيكروبس بحسب أوسابيوس وإيرونيموس، حلّ طوفان ده دوكاليون، المسمّى هكذا، لأنّ البلاد التي كان يحكمها ذاك الملك تحمّلت الكثير من المياه الطاغية. بيد أنّ ذاك الطوفان لم يصل إلى مصر ولا إلى المناطق المجاورة.

١١

تاريخ الخروج من مصر وعهد الملوك حتّى موت يشوع

إنّ موسى الذي حرّر شعب الله من عبوديّة المصريّين في نهاية عهد سيكروبس، لدى الأثينيّين، وفي عهد أسكاتاد على الأشوريّين وماراتوس على السيشيونيّين وتريوباس على الأرجيانيّين أعطى الشعب المحرّر، الشريعة التي تسلّمها من الله فوق جبل سينا، المسمّاة بالعهد القديم، لأنّه لم ينَلْ سوى وعود أرضيّة، وأنّ يسوع المسيح سوف يوحي بالجديد الواعد بملكوت السماوات؛ وكان من الواجب هنا المحافظة على ذاك النظام بحسب ما يجري في كلّ إنسان، يتقدّم إلى الله، وكما لاحظ الرسول قائلًا:

«ليس الروحانيّ أوّلًا بل الحيوانيّ وبعد ذلك الروحانيّ» (١ قور ١٥/٤٦) يضيف حقًّا: «الإنسان الأوّل من الأرض أرضيّ والإنسان الثاني من السماء سماويّ». حكم موسى الشعب طوال أربعين سنة في الصحراء وكان له من العمر، حين مات مائة وعشرين سنة، وقد تنبّأ عن المسيح برموز الممارسات الشرعيّة، بتابوت العهد والكهنوت والذبائح، وسائر الرسوم السرّيّة. وخلفه يشوع الذي أقام الشعب في أرض الميعاد، بعد ما قضى نهائيًّا بأمر من الله على سكّان تلك المنطقة الأوائل، وحكم الشعب بعد موسى على مدى سبع وعشرين سنة، وتوفّي في عهود أمينتاس على الأشوريّين الملك الثامن عشر، وكوراكس السادس عشر على السيشيونيّين ودانووس العاشر على الأرجيانيّين وأريختون الرابع على الأثينيّين.

١٢

دخول العبادات الكاذبة إلى اليونان في ذلك العهد

وخلال ذلك الوقت، منذ الخروج من مصر، حتّى موت يشوع الذي ملّك الشعب أرض الميعاد، أقام ملوك اليونان إكرامًا للآلهة الكذبة، احتفالات دينيّة تحيي باستمرار في ذاكرة الناس الذين خلصوا من الطوفان، تلك الكارثة والأزمنة التي تاهوا فيها على الجبال ليعودوا من جديد إلى السهول؛ وهكذا تُفهم مسيرات الكهنة صعودًا ونزولًا على الطريق المقدّسة ويمثّلون هكذا مَن كان طوفان المياه يدفعهم إلى الجبال، وانحسارها يردّهم إلى السهول. وفي ذلك الزمن يُقَالُ عن ديونيزوس المدعوّ أيضًا ليبار

Liber الذي رفع بعد موته إلى مصاف الآلهة أنّه كان يُعلّم في منطقة الأتيك من بلاد اليونان؛ حيث أثينا العاصمة، زراعة الكرمة. كما كانت تُقام ألعاب موسيقيّة إكرامًا لأبلّون الدلفاوي، (de Delphe) إخمادًا لنار غضبه، وكان الشعب يظنّ أنّ أرض اليونان مصابةٌ بالعقم الذي ضربها به ذاك الإله، انتقامًا لحريق هيكله، الذي لم يعرفوا كيف يدافعون عنه ضدّ دانايوس الذي احتلّه؛ وبناءً لطلب الآلهة كانت تُقام تلك الألعاب للمرّة الأولى في أيّام الملك أرخيتون تكريمًا له وللملكة مينرڤا؛ وكانت الزيتونة جائزةً للمنتصرين لأنّ زراعتها تعود إلى مينرڤا كما الفضل في الكرمة يعود إلى ليبار. وفي ذلك الوقت اختطف ملك كريت المدعوّ كزانتوس، والذي أعطاه آخرون اسمًا غير الذي عرف به، أوروب؛ ورزق منها رادامنت وسربيدون ومينوس المعروفين بأبناء جوبيتر وأوروب. لكنّ عبّاد أولئك الآلهة الباطلين ينسبون إلى حقيقة التاريخ ما سبق وقلته عن ملك كريت؛ أمّا ما يذاع عن جوبيتر، على ألسنة الشعراء وأناشيدهم على المسارح الفخمة والصارخة في الأعياد الشعبيّة؛ فكلُّ ذلك كذبٌ من صنع الخيال؛ وهو مادّة لتلك الألعاب التي تمثّل الجرائم المنسوبة إلى الآلهة تهدئةً لغضبهم. آنذاك كان هركول شهيرًا في تيرنتيا (Thyrinthia) وهركول، آخر، غير الذي سبق الكلام عنه؛ لأنّ مَن يرفع حجب التاريخ يجد كثيرين باسم ليبار وكثيرين باسم هركول الذي اشتهر بأعماله الاثني عشر دون أن يكون المنتصر على أنتيوس الإفريقيّ؛ بل ذاك الذي يحرق نفسه على جبل أوتا Oata. إنّ الشجاعة التي كانت تسيطر على الجبابرة سقطت تحت الألم. حينذاك راح الملك، أو بالأحرى، ذاك الطاغي

بوزيريس، يقدّم ضيوفه ذبائح للآلهة. وكان معروفًا بابن نبتون وليبيا بنت أبافوس. على أنّني أوافق على عدم نسبة هذا الجرم إلى نبتون، وتلك الشكوى عن الآلهة؛ ولتنسب إلى الشعراء والمسارح، تفاديًا لغضب السماء. إنّ أريختون ملك الأثينيّين الذي كان على حافة قبره لدى وفاة يشوع، هو، على حدّ قول الناس، ابن فولكاين ومينرڤا؛ ولكن، بما أنّ الناس يريدون أن تكون مينرڤا عذراء، ادّعوا بأنّ فولكاين في الخلاف الناشب بين إلهين، اضطرب جدًّا وألقى بزرعه فوق الأرض فكان أريختون من حيث المولد والاسم (في اليونانيّة لفظة ἔρις تعني نقاشًا ولفظة χθών تعني أرض) غير أنّ العلماء يرفضون هذه القصّة وينبذونها لكونها أسطورة ويجدون لها أصلًا في ما يلي: لم يكن في أثينا لفولكاين ومينرڤا؛ سوى هيكل واحد حيث وُجد في أحد الأيّام ولد ملفوف بحيّة وهي ترمز إلى ما سوف ينتظره في المستقبل من عظمة ومجد؛ وإذ بقي أمّه وأبوه مجهولين، نسب تقديس الهيكل المشترك ذاك الولد إلى فولكاين ومينرڤا؛ غير أنّ أصل الاسم هذا، تفسّره الأسطورة بطريقة أفضل ممّا في التاريخ؛ ولكن ما هم؟ الخبر التاريخيّ، أليس في سبيل تعليم البشر المتديّنين، والأسطورة الكاذبة في سبيل إرضاء الأبالسة الأثمّة الذين يعبدهم أولئك المدينون كآلهة؟ وإذا ما أنكروا على الآلهة ما ينقل عنهم التقليد فلن يقدروا على تنقيتهم من أوساخ المسرح؛ لأنّ الاحتفال بالألعاب يُقام، بناءً لطلبهم، وهو إخراج لألعاب يجدر بالإنسان العاقل أن ينكرها؛ يا لها من كذبات وسفالات مهدّئة للآلهة! وعبثًا تعلن الأسطورة عن بطلان جرائمهم. إنّ التلذّذ بجرائم مفترضة، جرم حقيقيّ. أليس كذلك؟؟.

١٣

شيوع الخرافات في العالم الوثنيّ في بداية عهد الملوك

بعد موت يشوع كان لشعب الله قضاة؛ وعرفت تلك الحقبة الزمنيّة أوقات ذلّ وبؤس وأوقات عزّ وازدهار، بسبب ما ارتكب إسرائيل من خطايا أو ما غمره الله به من رحمات؛ في ذلك الوقت بدأت الأساطير. إنّه تريبتوليم المحمول على أجنحة حيّاتٍ، بأمر من سيراميس، يوزّع، وهو يطير، القمح على البلدان الجائعة؛ إنّه مينطور، القزم المحبوس ضمن لولب، لا مجال للخروج منه، بحيث لا يستطيع الداخل إليه أن يخرج منه؛ إنّها الحيوانات الجامعة في طبيعتها بين الحصان والإنسان؛ إنّه كلب جهنّم ذو الرؤوس الثلاثة؛ إنّهما فريكسوس وأخته هللا يطيران فوق كبش؛ إنّها غرغون ذات شعر الحيّات التي تحوّل إلى حجارة كلّ مَن ينظر إليها؛ إنّه بلاروفون يعتلي صهوة حصان، ذي جناحين، يُدعى بيغاز؛ إنّه أمفيون الذي يسحر الصخور ويجذبها بعذوبة ألحان قيثارته؛ إنّه ديدال اللبق وابنه إيكار يطيران بأجنحة اصطناعيّة؛ إنّه أوديب الذي يحلّ اللغز غير القابل للحلّ الذي يقدّمه القزم ذو الوجه البشريّ والأربع الأرجل؛ وهو انتصار يطرح أبا الهول بسرعة في القعر الخاصّ به؛ إنّه أنته Antée ابن الأرض الذي يخنقه هركول، لأنّه بسقوطه على أمّه، كان يقوم أقوى ممّا كان عليه؛ وهناك خرافات أخرى لا أذكرها؛ وسائر الأساطير المختلفة حتّى الوصول إلى حرب طروادة حيث ينهي فرّون كتابه الثاني «الآثار الرومانيّة»؛ وهي خرافات تأخذها المخيّلة البشريّة عن حكايات حقيقيّة دون أن تجعل منها منبع

تحقير الآلهة. ولكن الذين يفترضون أنّ جوبيتر قد اختطف ولدًا جميلًا، وهو جرم اقترفه الملك تنتال، وتعزوه الأسطورة إلى الإله؛ أو أنّ جوبيتر تحت مطر ذهبيّ يصل إلى فراش دانايه؛ تلك لعمري أسطورة تجعلنا ندرك أنّ المرأة تُشترى بالذهب. وسواها من الأفعال الحقيقيّة أو الخياليّة يقترفها أناس ويعزونها إلى جوبيتر؛ مَن ذا الذي يستطيع أن يعرف الحدّ الذي يصل إليه الإنسان في تقدير الانحطاط الخلقيّ لدى الناس فيصدّق إمكانيّة قبولهم لتلك الكذبات التي اعتنقوها بحرّيّتهم؟ ومع ذلك فبقدر ما يؤلّهون جوبيتر يعملون بقسوة على معاقبة أولئك المجدفين عليه بجسارة. وبدلًا من أن يسخطوا عليهم، نراهم يخشون غضب الآلهة أنفسهم إن لم يقوموا لهم بتلك التمثيليّات المعيبة. في ذلك الزمن ولد «لاطون» أبلّلون لا هذا الذي ذكرت من مدّة وجيزة آراءه التي يلجأ إليها الناس، عادة، بل ذاك الذي كان مع هركول في خدمة «أدميت»؛ مع أنّه مقبول بين الآلهة حتّى لا يُعرف، عادة، الواحد من الآخر. آنذاك حمل ليبار Liber الحرب إلى الهند وكان جيشه يضمّ مجموعة من النساء والباخوسيات (Bacchantes) المعروفات بغيظهنّ الشديد، من غير جرأة. ويقول بعضهم إنّ ليبار قد انهزم ووقع أسيرًا؛ والآخرون يقولون إنّه قتل في إحدى المعارك، علمًا أنّ قبره مجهول؛ ومع ذلك، تُقام باسمه، وكأنّه إله، تحت تأثير الأرواح الشرّيرة، الاحتفالات الباخوسيّة؛ وهي أعياد بلغت بها القحة اللاأخلاقيّة حدًّا لا يطاق، خجل منه مجلس الشيوخ في روما، فطردها إلى الخارج؛ كان ذلك الزمن زمن برسه وزوجته أندروماد اللذين رُفعا إلى السماء بعد موتهما، اقتناعًا بألوهيّتهما، حتّى إنّ

الإشارة إلى صورتهما تتمّ بواسطة نجوم تحمل اسميهما، بلا خجل.

١٤

الشعراء اللاهوتيّون

آنذاك، شعراء يُسمّون أيضًا لاهوتيّين، لكونهم ينظّمون الشعر تكريمًا لآلهة؛ ومع أنّهم آلهة، فقد كانوا بشرًا عظماء من هذا العالم الذي خلقه الله؛ ولربّما قد رُفعوا إلى الأعالي من المراكز، بإرادة الله، دون أيّ استحقاق من قبلهم. إن كانوا قد ضمّنوا في الأخطاء والأكاذيب التي قالوها شيئًا ما عن الإله الحقّ وخلطوا بينه وبين مَن ليسوا آلهة؛ وبما أنّهم قدّموا لتلك الأصنام العبادة الواجبة للإله الحقّ فلم يقدّموا إلى الله الخدمة اللازمة؛ حتّى إنّ الشعراء أنفسهم: أورفايوس وموزايوس ولينوس ما استطاعوا إلّا أن يشوّهوا سمعة آلهتهم بتلك الإهانات الخرافيّة. إنّما أولئك اللاهوتيّون كرّموا آلهتهم؛ ولم يُكرَّموا، بدورهم، كآلهة؛ مع أنّ مدينة الأئمّة تعطي أورفيوس نوعًا من السلطة على الذبائح أو على الأعمال الجهنّميّة المنتهكة للقدسيّات. إينو زوجة الملك أثناماس لَقِيَت مع ابنها مليسرت، في قعر المياه، الموت، بحرّيّتهما. والرأي العامّ وضعهما في مصاف الآلهة مع عدد كبير من الناس المعاصرين لهما ومنهم أيضًا كستور وبوللكس. وقد سمّى اليونان تلك الأمّ لوكوتيوس وسمّاها اللاتين ماتوتا واعتبرها الشعبان إلهة.

١٥

نهاية مملكة الأرجيانيّين وقيام مملكة اللورنثينيّين

وفي ذلك الزمن كانت نهاية مملكة الأرجيانيّين التي انتقلت إلى أيدي ميسّان، وطن أغامنون؛ وقامت مملكة اللورنثينيّين حيث بيكوس بن ساتورن كان ملكها الأوّل بينما كانت دبّورة قاضية على العبرانيّين أو بالأحرى كان روح الله عليها لأنّها نبيّة. لكنّ الغموض كان يلفّ تلك النبوءات وقد نضطرّ إلى تفسيرها مطوّلًا لنبيّن علاقتها بالمسيح. كان اللورنثينيّون يتولّون الحكم في إيطاليا؛ وهم الذين كانوا أصل الرومان بعد الإغريق. وكانت لا تزال مملكة أشور قائمة تحت رعاية ملكهم الثالث والعشرين المدعوّ لمباريس وذلك حين تسلّم السلطة على اللورنثينيّين الملك بيكوس. أمّا ساتورن، والد هذا الأخير، فإنّ عباد أولئك الآلهة التعساء قد قرّروا ما يجب أن يفكّروا به؛ لأنّهم أنكروا أن يكونوا إنسانًا. وآخرون كتبوا أنّه ملك على إيطاليا قبل ابنه بيكوس؛ وقد قال فيه أبياتًا من الشعر شهيرة الشعبُ المنتشرُ فوق الجبال العالية؛ وسنّ له الشرائع؛ وأراد أن يسمّي ذاك البلد لاتيوم حيث وجد موطنًا أمينًا؛ وكان عهده عهدًا ذهبيًّا ومزدهرًا. عليهم أن يتركوا ذلك الخبر بين الأكاذيب الشعريّة وليعطوا سترس Sterce أبًا ليكوس، وهو المزارع البارع الذي، كما قيل، قد تصوّر أنّ الحقول تخصب بواسطة سماد الحيوانات، فسُمّي السماد ستاركوس والمخترع سمّي ستاركوسيوس. وأيًّا يكن السبب الذي دعا الناس إلى تسميته ساتورن، فمن الأكيد الثابت أنّ إله الزراعة قد سمّي سترس أو ستاركوسيوس. ومن بين الآلهة المقبولين،

ابنه بيكوس، المعروف بأنّه رجل حرب وعرّاف. وولد بيكوس فونوس الملك اللورتينيّ الثاني، وكان أيضًا إلهًا لهم. وقد أعطي ذاك التكريم الإلهيّ لأناسٍ مائتين قبل حرب طروادة.

١٦

تأليه ديوميد بعد سقوط طروادة

بعد سقوط طروادة الذي دوّى في الأرض كلّها، ولن ينسى الناس خرابها، حتّى الأطفال أنفسهم يتذكّرونه، لكثرة ما كتب الأدباء عنها؛ ولأهمّيّتها بين البلدان؛ حتّى إنّ جميع الأموات نقلوا ذلك الخبر؛ إنّ ذاك الحدث الذي جرى في عهد لاتينوس بن فوتوس الذي استبدل شعبه اسم اللورنثيّين باسم اللاتين؛ وحين انتصر الإغريق وتركوا طروادة وجدوا لدى رجوعهم إلى بيوتهم كوارث رهيبة شتّتتهم وحطّمتهم؛ لكنّ المصائب عينها قدّمت لهم آلهة جددًا. جعلوا من ديوميد إلهًا؛ لعقاب إلهيّ حرمه من وطنه وصوّروه هدفًا لعقاب. وقد تحوّل رفاقه إلى طيور، لا بحسب ما ترسمه الأسطورة الكاذبة، بل بحسب شهادة التاريخ؛ ولم يتمكّنوا من أن يطلبوا من رئيسهم الذي أصبح إلهًا أن يعيدهم إلى طبيعتهم الأولى؛ إمّا لأنّه غير قادر على ذلك؛ وإمّا لأنّ جوبيتر القدير استقبل رافضًا ذلك الضيف الجديد. ويؤكّدون على أنّ ديوميد يَنْعَمُ بهيكل في جزيرة ديوميدا، على مقربة من جبل غرغان في أبوليا؛ ويضيفون أنّ تلك الطيور تحوم حول الهيكل المعهود وتكرمه بشكل معيّن، إذ تملأ مناقيرها بالماء لتسقيه به؛ وإن جاء إغريق اغريقي أو أفراد من أصل يونانيّ إلى

ذلك المكان لا تتظاهر فقط بالهدوء بل باللطف أيضًا؛ حتّى إذا رأت غرباء حوّمت فوق رؤوسهم وضربتهم بمناقيرها حتّى يموتوا؛ ويُقال إنّها ذات مناقير قاسية وقويّة تؤهلها لأن تقوم بتلك المعارك الرهيبة.

١٧

معلومات عن تحوّلٍ لا يصدّق لكائنات بشريّة

إستنادًا إلى هذا الحدث يستشهد فرّون بأحداث أخرى لا تصدّق؛ ويروي عن تلك الساحرة الرهيبة المدعوّة سيرسا Circé التي تحوّل إلى حيواناتٍ رفاق أوليس؛ كما يخبر عن الأركاديّين الذين يعيّنهم الحظّ لاجتياز غدير ماءٍ سباحةً يتحوّلون فيه إلى ذئاب ثمّ ينتقلون إلى أمكنة مقفرة، في تلك المنطقة، ليعيشوا مع تلك الحيوانات التي أصبحوا من جنسها؛ حتّى إذا امتنعوا عن أكل لحوم البشر على مدى تسع سنوات وعادوا واجتازوا الغدير سباحةً يستعيدون صورة البشر. وأخيرًا يحكي بالاسم عن شخص يدعى دامانيتوس Demaenetos تناول لحم ولد قدّمه الأركاديّون ذبيحةً إلى إلههم، ليكايوس، فتحوّل إلى ذئب ثمّ استعاد صورته البشريّة، بعد عشر سنوات، فأحرز جائزة الملاكمة في الألعاب الأولمبيّة. وبحسب ما يقول المؤرّخ نفسه فإنّ ذاك الاسم الخاصّ في أركاديا بانليكايوس وجوبيتر ليكايوس يعود، في الأصل إلى تحوّل البشر إلى ذئاب ولا يصير برأيهم إلّا بفعلٍ من القدرة الإلهيّة. لأنّ لفظة «ذئب» Loup تعني في اليونانيّة λυκος ومنها جاءت كلمة Lycaeos. وأخيرًا يزعم فرّون أنّ الكهنة Luperques (أناس يحمون قطعان الغنم من الذئاب) هم نوعًا ما

من نسل تلك الأسرار.

١٨

وهل علينا أن نؤمن بتلك التحوّلات الظاهريّة؟

لكن الذين يقرأون ما أكتبه ينتظرون رأيي حول تلك الألعاب الشيطانيّة الخدّاعة؛ وماذا ينتظرون مني أن أقول سوى وجوب الخروج من دائرة بابل؛ إنّها لمشورة نبويّة علينا أن نفهمها، فهمًا روحيًّا، فنهرب من مدينة العالم، حيث يجتمع الناس والملائكة الأشرار، سائرين نحو الله الحيّ، بخطى الإيمان والمحبّة. وفي الواقع، بقدر ما تبدو لنا قدرة الشياطين، ها هنا، هائلة بقدر ذلك، يجب علينا أن نتعلّق، بشدّة، بالوسيط الذي يرفعنا معه. وهل يجب أن ننبذ كلّ إيمان بتلك الغرائب العجائب؟ في أيّامنا الحاضرة شهود، لا يزالون يؤكّدون بأنّ أحداثًا مماثلة أثّرت على عيونهم ومسامعهم. ألم نسمع، نحن أيضًا، خلال إقامتنا في إيطاليا، أنّ بعض النواحي من تلك المنطقة تضمّ نساءً مسؤولات عن الخدمة في الفنادق تدرّبن على ممارسة الأعمال المخالفة للقدسيّات، يخبّئن في قطعة من الجبن، يقدّمنها إلى هذا المسافر، أو ذاك، يرغبن في تحويله، بطريقة سرّيّة، إلى دابّة يحمّلنها أمتعتهنّ؛ وعندما تنتهي المهمّة يعود الشخص إلى طبيعته؛ علمًا أنّ ذاك التحوُّل لا يصل إلى عقلهم، الذي يبقى لهم عقلًا، بشريًّا، سليمًا، كما يخبر عن نفسه أبولايوس في قصّة أو خرافة «الحمار الذهبيّ» الذي، إذ سُقِيَ شرابًا مسمومًا، تحوّل إلى حمار، دون أن يفقد عقله. كلّ ذلك كذب وحوادث نادرة

يجدر بالإنسان العاقل ألّا يصدّقها. أمّا ما يجب تصديقه فهو أنّ الله بقدرته الفائقة الوصف، يستطيع أن يعمل، ما شاء، تلبيةً لعدله أو لرحمته؛ وأنّ الشياطين، المخلوقات الملائكيّة، التي فسدت بإرادتها، لا تفعل في نطاق قدرتها الطبيعيّة إلّا بإذنٍ ممّن تكون أحكامه، في أغلب الأحيان، خفيّةً ودائمًا عادلة. وإذا وضعنا جانبًا ما اشتهر به الشياطين، فلا شكّ بأنّهم لا يستطيعون أن يخلقوا طبائع جديدة إنّما يبدّلون في مظاهر مخلوقات الله لتبدو في غير مظهرها الحقيقيّ. وعلى هذا النحو، لن أقبل بأن يكون للشياطين فنّ أو طريقة يسمح لها بالقدرة على تغيير النفس. ماذا أقول؟ هذا غير ممكن أيضًا في جسم الإنسان، وفي جسم الحيوان وتكاوينه. أعتقد بأنّ مخيّلة الإنسان، إذ تتكيّف بحسب مجموعة، لا حدّ لها، من الأشياء التي توحي بها الفكرة أو الناس، وإن لم تكن مادّيّة، تندفع بسرعة عجيبة إلى إنتاج تشابهٍ في الأجسام؛ إذ ذاك تستطيع صورة خياليّة في الإنسان، في نوع من الإغفاءة العميقة أو الخمول، الوصول بطريقة، لا أعرفها، تحت مظهر جسديّ إلى إدراكنا الحسّيّ، في حين يبقى جسم الإنسان منطرحًا في مكان آخر، حيًّا ولا شكّ، ولكن في غيبوبة أعمق من تلك يعيشها في نومه. وعلى هذا النحو تظهر تلك الصورة الخياليّة في الإنسان أمام حواسّنا مندمجة مع صورةٍ لحيوان؛ وفي تلك الحال، وكأنّ الإنسان في هذيان يحلم بأنّه يحمل أثقالًا. وهل الأثقال حقيقيّة؟ الشياطين تحمل الأثقال لتخدع الإنسان فيتصوّر ذاته حيوانًا خياليًّا محمّلًا أثقالًا حقيقيّة. إنّ رجلًا ما يدعى پرستنسيوس أخبر عن أبيه أنّه أكل جبنة مسمومة، صدفة في بيته. وبقي في سريره كأنّه نائم دون أن

يتمكّن أحد من إيقاظه. وإذ عاد إلى وعيه، بعد أيّام، أخبر عمّا حدث له، وكأنّه حلم؛ رأى نفسه في الحلم حصانًا إلى جانب دواب أخرى ينقل إلى الجنود مؤنًا ملفوفة بشِباك. الشيء حدث كما أخبره؛ بينما كان بالنسبة إليه حلمًا. إنسان آخر أخبر أنّه ذات ليلة قبل أن يستلقي إلى الراحة شاهد فيلسوفًا أفلاطونيًّا آتيًا إليه؛ لقد كان يعرفه وقد استوضحه بعض نقاط غامضة في تعليم أفلاطون سبق فأباها عليه بالرغم من إلحاحه؛ وإذ سئل ذلك الفيلسوف لماذا قبل خارجًا عن بيته ما قد رفضه فيه أجاب: «أنا ما عملته إنّما حكمت به». وهكذا فالواحد نال مستيقظًا، تحت أنظاره، بواسطة صورة خياليّة، ما قد رآه الآخر في نومه.

أمور وصلتنا، لا بواسطة أناس عاديّين لا يجوز لنا أن نثق بهم، بل على أيدي أناسٍ لا نراهم قادرين على أن يخدعونا. وعلى هذا النحو، فإنّ ما يحكيه لنا التقليد أو الآثار الأدبيّة عمّا يأتيه الآلهة أو بالأحرى الأبالسة عن تحوّلات الأركاديّين العاديّة إلى ذئاب أو عن أعمال «سيرسة» السحريّة التي حوّلت رفاق أوليس؛ كلّ ذلك قد حصل، ولا شكّ، (إن كان الشيء صحيحًا) بحسب ما قلته. أمّا عصافير ديوساد التي استمرّ جنسها حتّى وصل إلينا فهذا لم ينتج عن تحوّل بشريّ، بل بواسطة استبدال مماثل لما حصل لأيّلةٍ قُدّمت ضحيّةً عوضًا عن إيفيجيني ابنة أغاممنون؛ وهل تبقى غرائب، من هذا النوع يسمح الله بها، صعبةً على الشياطين؟؟ وكما أنّ تلك الفتاة وجدت حيّةً بعد الذبيحة، يفهم الإنسان بسهولة أنّ أيّلةً حلّت محلّها، بينما رفاق ديوميد الذين اختفوا فجأة دون أن يعودوا إلى الظهور، قد ضحّى بهم الملائكة الأشرار، خدّام الغضب الإلهيّ، واعتقد الناس

بأنّهم قد تحوّلوا إلى تلك الطيور التي جيء بها من حيث تقيم؛ وللحال أخذت محلّ جماعة ديوميد. أمّا الماء الذي كانت تملأ به مناقيرها لتسقي به هيكل ديوميد، وأمّا ملاطفتها للاغريق وغضبها على الغرباء، فهل نعجب من أن نجد في موقفها ذاك خبث الشياطين الغيارى من تأليه ديوميد إبقاءً للناس في ذاك الضلال المشؤوم الذي يحتقر، في سبيل الآلهة الكذبة، الإله الحقيقيّ ويستخفّ من أناسٍ قد ماتوا دون أن يحيوا حياة حقيقيّة ويمتهنون كرامة الإله الحقّ وربّ الحياة في سبيل تلك الهياكل والمذابح والذبائح التي تقام عليها على أيدي أولئك الكهنة؟؟

١٩

وصول إينه إلى إيطاليا يوم كان لبدون قاضيًا على العبرانيّين

في ذلك الزمن بعد أن خربت طروادة أبحر إينه Enée على رأس عشرين سفينة تحمل بقايا الطروادّيين إلى إيطاليا في عهد لاتينوس بينما كان يملك على الأثينيّين مينستيوس Mnenstheos وعلى السيشيونيّين بولينيروس وعلى الأشوريّين توتان؛ ومن القضاة لبدون Labdon على العبرانيّين. وبعد وفاة لاتينوس مَلَكَ إينه، ثلاث سنوات، خلال حكم ذينك الملكين، ساعدا ملك السيشيونيّين وقاضي العبرانيّين اللذين خلفهما بلاسغوس وشمشون الذي شابه بقوّته الهائلة هركول. وإذ اختفى إينه بعد موته جعل منه اللاتين إلهًا. وأقام السابيّون (Les Sabius) سكّان أحد الجبال الإيطاليّة أوّلَ ملكٍ عليهم إلهًا؛ وهو المدعوّ سنكوس أو بحسب بعضهم سنكتوس إذ ذاك تقدّم كودروس Codros ملك

الأثينيّين، متخفّيًا نحو أعدائهم البلوبونزيانيّين Peloponésiens فضربوه ومات، كما قيل، في سبيل خلاص وطنه لأنّ الآلهة كانوا قد وعدوا البلوبونزيانيّين بالغلبة إن لم يقتلوا ملك الأثينيّين. فخدعهم كودروس بمجيئه إليهم، في ثياب رثّة، متحدّيًا بالشتائم غضبهم وموته: «شتائم كودروس» (فرجل) فكرّمه الأثينيّون إلهًا وقدّموا له الذبائح. وفي عهد سيلفيوس رابع ملك على اللاتين، ابن إينه، من لافينيا بنت لاتينوس وليس من كريوز والدة إسكانيا ثالث ملك على ذلك الشعب. في عهد سلفيوس الذي ولد لاينه بعد موته بينما كان أونيوس Oneus الملك التاسع والعشرون على الأشوريّين وميلانتس السادس عشر على الأثينيّين وعظيم الكهنة عالي قاضيًا على العبرانيّين انتهت مملكة السيشيونيّين التي دامت على حدّ قولهم تسعمئة وتسعًا وخمسين سنة.

٢٠

قيام الملكيّة مع شاول وانقسامها إلى مملكتين في عهد رحبعام

وللحال، وخلال حياة أولئك الملوك في المناطق التي سمّيتها وقد ألغي حكم القضاة، بدأت الملكيّة في إسرائيل مع شاول؛ إنّه زمن النبيّ صموئيل وهو أيضًا زمن أولئك الملوك اللاتين المدعوّين سيلفيان باسم ابن إينه الذي كان أوّل مَن سُمّي سيلفيوس؛ وسائر الملوك الذين خلفوه أخذوا أسماءً خاصّة بهم إضافة إلى هذا اللقب كما سمّي فيما بعد خلفاء يوليوس قيصر قيصريّين. بعد أن شُجب شاول واقتطعت ذرّيّته مات الملك الذي دام عهده أربعين سنة وخلفه داود. إذ ذاك ومنذ أن مات كودروس Codrus انتهت

الملكيّة في أثينا واستلم حكم الجمهوريّة قضاة. بعد أن ملك داود أربعين سنة أيضًا ترك الملك لابنه سليمان الذي بنى هيكل أورشليم العظيم. في أيّامه تأسّست ألب عند اللاتين واتّخذ ملوكها اسمها منذ أن بناها اللاتين وتخلّوا عن اسم لاتين وأصبحوا يسمّون ألبان. وخلف رحبعام أباه سليمان وفي عهده انقسمت المملكة إلى اثنتين، لكلّ منهما مَلكها.

٢١

ملوك لاتيوم، بينهما ملكان تألّها: إينه وأفنتينوس

بعد إينه، الذي عملوا منه إلهًا، توالى على حكم اللاتيوم Latium أحد عشر ملكًا لم يعرف أحد منهم التكريم الإلهيّ؛ غير أنّ آفنتان الثاني عشر الذي خلف إينه وقد مات في معركة ودفن على جبل لا يزال يحمل اسمه حتّى اليوم، جاء ليزيد من عدد الآلهة، كما تعوّدوا أن يعملوا منهم آنذاك لأنفسهم. واستنادًا إلى تقليد آخر يقول إنّه لم يمت في المعركة قتلًا بل اختفى ولم يُسمَّ الجبل باسمه شخصيًّا؛ بل سُمّي هكذا لدى وصول سرب من الطيور؛ ومن بعده لم يعد ينتج اللاتيوم من آلهةٍ سوى رومولوس مؤسّس روما. ولكن بين هذين الملكين نجد اثنين آخرين؛ أوّلهما والخلَف المباشر لافنتينوس Aventinus هو للكلام مع فرجل «ذاك الشهير بروكاس مجد الطروادييّن».

في أيّامه بينما كانت إيطاليا، وكأنّها تعمل على ولادة روما بعد مدّة طويلة جدًّا جاءت النهاية من أعظم ممالك الأرض، من مملكة أشور وانتقل الحكم إلى المادييّن بعد ألفٍ وثلاثمائة وخمسين سنة

بدءًا بزمن بللُّوس، والد نينوس، الذي كان أوّل ملك؛ وحدّد طموحه في إطار ضيّق من هذه المملكة الناشئة. بروكاس حكم قبل أموليوس. ويقال إنّ هذا الأخير قد جعل من ابنة أخيه نوميتور عذراء مكرّسة لفستا. وهي تدعى ريّا أو إيليا والدة رومولوس؛ ويدّعي الناس، تمجيدًا لما لحق بها من عار أو اعتذارًا عنه، بأنّها وضعت توأمين من الإله مارس؛ وبرهانًا على ذلك فإنّ أو الوَلَدين المعروضين أرضعتهما لبوءة وهي حيوان مختصّ كما قيل بمارس؛ ويقال إنّ اللبوءة قدّمت ثدييها للطفلين اللذين رأت فيهما ابنَي سيّدها. وبحسب آراء أناس آخرين، وهم كثرة، كان التوأمان المتروكان يبكيان حين التقطتهما امرأة بغي، وراحت تغذّيهما من ثدييها، إذ ذاك دُعيت البغيات لبوءات ومنها أخذت أمكنة الدعارة هذا الاسم **Lupanar** ولربّما استلمهما راع يدعى فوستولوس وربّتهما زوجته أكّا. وعندما أراد هذا الملك أن يهلكهما، تحت الماء، مرتكبًا ذاك العار، بما فيه من قسوة، نجّى الله من المياه هذين الولدين المؤهَّلين لتأسيس مملكة واسعة عظيمة؛ وإسكاتًا لصراخهما قدّمهما إلى لبوءة لتطعمهما من حليبها. وهل من عجب في ذلك؟ وانتقل الملك من اللاتيوم من يد أميليوس إلى نوميتور جد رومولوس وفي السنة الأولى من ملكه تأسّست روما. وعلى هذا النحو بدأ يحكم بالتوافق مع حفيده رومولوس.

٢٢

تأسيس روما توافق مع نهاية مملكة أشور وبداية ملك حزقيّا في اليهوديّة

أُوجزُ، تأسّست روما كبابل الثانية، ابنة للأولى؛ أراد الله أن يستخدمها للسيطرة على الكون؛ ولكي يخضعه لوحدة الجمهوريّة وشرائعها ويهيمن السلام فيه حتّى آخر حدوده؛ آنذاك كانت الشعوب قويّة ورجال حرب، والأمم تمارس الحروب وتقاوم، بعناد، ولم يكن النصر إلّا نتيجة أخطار كبيرة تعرفها الشعوب؛ ولا يتحقّق إلّا بعد جهاد دمويّ لا ينتهي إلّا بالقضاء كلّيًّا على الشعب المهزوم. لمّا أخضعت الدولة الأشوريّة آسيا تقريبًا بكاملها، انتهى الاجتياح بالحرب ولم تكن حروبًا شرسة جدًّا حملت معها الكوارث لأنّ الشعوب لم تكن تعرف آنذاك فنون الحرب وكانت قليلة العدد وضعيفة؛ ومنذ ذلك الطوفان الهائل والشامل الذي لم ينج منه سوى ثمانية رجال وجدوا الخلاص في سفينة نوح، وما كادت تنقضي عليه ألف سنة حتّى أخضع نينوس آسيا ما عدا الهند. ولكنّ السيطرة على روما استلزمت مزيدًا من الوقت وجهودًا لم يعرفها، للاستيلاء على الشرق والغرب، اللذين يخضعان اليوم لروما التي راحت تتوسّع، شيئًا فشيئًا، وتلقى على طريقها شعوبًا قويّة ومحاربة؛ إذ إنّه لدى تأسيس روما كان الشعب الإسرائيليّ يعد منذ دخوله أرض الميعاد سبعمئة وثماني عشرة سنة منها سبع وعشرون سنة معروفة بعهد يشوع وثلاثمئة وتسع وعشرون معروفة بعهد القضاة وثلاثمئة واثنتان وستّون سنة ثلث مجيء الملوك. وكان يملك آنذاك على اليهوديّة

آحاز أو كما تقول حسابات أخرى فإنّ الذي خلفه هو حزقيا المعروف جدًّا بفضله وتقواه؛ وقد عاصر رومولوس. في ذلك الوقت استلم هوشيّا الحكم في إسرائيل.

٢٣

العرّافة الأريتريّة ونبوءتها عن المسيح

كثيرون ينسبون أقوال عرّافة الأريتريّين إلى ذلك الزمن. ولكنّ فرّون يقول بوجود عدّة عرّافات غير أنّ عرّافة الأريتريّين أدّت للمسيح بعض شهادات واضحة؛ لقد قرأناها شعرًا في أبيات من اللغة اللاتينيّة تكاد تكون صحيحة لانعدام الكفاءة لدى المترجم المجهول كما عرفت فيما بعد؛ لأنّ فلاكسيانوس الشهير، القنصل المعروف بطلاقة لسانه، وفصاحته وسعة اطّلاعه، قدّم لنا في حديث معه عن المسيح نسخة باللغة اليونانيّة قال إنّها مجموعة أبيات شعريّة للعرّافة المعروفة بعرّافة أريتريا ونبّهنا إلى مقطع منها تضمّ الحرف الأوّل من كلّ بيت فيه مجموعة الكلمات التالية اليونانيّة التي تُتَرجم على هذا النحو: «يسوع المسيح، المخلّص، ابن الله» أنّ الأبيات التي تجمع في أحرفها الأولى المعنى الذي قلناه بحسب تفسير آخر لأبيات شعريّة لاتينيّة منظومة تعلن عن النبوءة التالية: «علامةً من الربّ: سوف تُغطّي الأرض رذاذ جليديّ وينزل ملك الدهور من السماء ويظهر إنسانًا ليدين الكون كما يظهر أمام أعين المؤمن والكافر، في المجد، مع قدّيسيه، في آخر الأزمنة؛ وتقوم الأنفس بأجسادها، أمام عرشه، حين تبدو الأرض قاحلة، يغطّيها العوسج والعلّيق، ويلقي الناس

بخيراتهم وأموالهم بعيدًا عنهم؛ وتلتهم النار الأرض وتصل إلى البحر والسماء وتحطّم أبواب أڤرن (Averne) المظلمة وتكتسي أجساد القدّيسين بنور صافٍ؛ ويُسلَّم المذنبون إلى النار الأبديّة؛ وإذ يكشف كلّ واحد عن أعماله الخفيّة، يبوح بأسرار قلبه، ويكشف الله عن خفايا الضمائر. إنّها ساعة البكاء وصريف الأسنان؛ الشمس تسقط من عليائها وجميع الكواكب تنطفئ؛ الشمس تحتجب ونور القمر في خوف. الروابي تهوي والوديان ترتفع من الأعماق؛ ولن يعود شيءٌ ما للإنسان يبدو من علُ؛ وها هي الجبال وسطوح البحار اللازورديّة تتساوى مع السهول؛ كلّ شيء يتوقّف عن الحركة والأرض تتحطّم. النيران تلتهم الينابيع والأنهر؛ إذ ذاك من أعالي السماوات يذيع البوق على العالم بأسره صوتًا جنائزيًّا رهيبًا يعلن عن الكارثة المؤسفة والعذابات المتنوّعة؛ وإذ انفتحت الأرض أظهرت الفوضى الهائلة السائدة في أسافل الجحيم حيث الملوك والإنسان العاديّ يقفون للدينونة أمام الربّ؛ السماوات تسكب نهرًا من النار والكبريت» (أقوال عرّافين) في تلك الأبيات اللاتينيّة المنقولة بشكل سيّئ عن اليونانيّة فإنّ المعنى الذي يتكوّن من مجموع الحروف الأولى للكلمات لا يمكن أن يحصل حين يبدأ بيت الشعر بحرف Y لأنّ اللغة اللاتينيّة لا تتضمّن كلمة تبدأ بذاك الحرف. والأبيات الناقصة ثلاثة: الخامس والثامن عشر والتاسع عشر؛ علمًا بأنّنا إذا جمعنا الحروف الأولى لكلّ بيت شعريّ ما عدا الأبيات الثلاثة التي سنستبدل فيها حرف Y كما لو أنّ كلًّا من تلك الأبيات يبدأ بذلك الحرف فإنّنا نقرأ خمس كلمات، يونانيّة وغير لاتينيّة تعني ما يلي: «يسوع المسيح ابن الله

المخلّص». فضلًا عن ذلك فإنّ ذلك المقطع يتكوّن من سبعة وعشرين بيت شعر؛ وهو رقم يعني مثلّث مكعّب العدد ٣. وإذا جمعنا الحروف الأولى من الكلمات اليونانيّة الخمس تكوّنت لفظة سمكة Ἰχθύς اسم يرمز إلى المسيح الذي استطاع، في أعماق ميتوتتنا، كما في أعماق البحر، أن يبقى وحده حيًّا، معصومًا من كلّ خطيئة.

أمّا العرّافة المعروفة بعرّافة الأريتريّين والمنسوبة إلى كوم Cumes بحسب ما يقول البعض فإنّ نشيدها الشعريّ الذي أوردت منه عددًا قليلًا من الأبيات لا يقدّم أيّ إكرام لأولئك الآلهة، مخلوقات الإنسان، أو النفاق؛ ماذا أقول؟ إنّها تقوم، بقوّة، ضدّهم وضدّ عبّادهم، حتّى يمكن وضعها في مصاف أبناء الله. إنّ لكتانس نفسه قد أدخل في كتابه بعضًا من أقوال المعرّفة عن المسيح؛ ولا يقول شيئًا عنها، لكنّ الأقوال التي أخذها عنها واستشهد بها في كتاباته، مرارًا، بشكل موجز، فقد أخذت على نفسي أن أقدّم عنها مجموعة كاملة.

تقول العرّافة: «سوف يقع بين أيدي الكفرة، فيصفعون، بأيديهم النجسة الله؛ ويبصقون عليه السمّ والنجاسة. أمّا هو فسيكتفي بأن يقدّم ظهره البريء لضرباتهم ويحتفظ بالصمت حين يجلدونه، حتّى لا يعرف أحد مَن هو الكلمة هذا، ولا من أين يأتي، لكي يتحدّث إلى الجحيم ويكلّل بالشوك. يجوع فيقدّمون له المرّ؛ ويعطش فيقدّمون الخلّ؛ ويرفضون استضافته، يا لك من عديمة الإحساس! أنت ما عرفت إلهك الذي يهزأ بقول أبناء البشر فكلّلته بالشوك وسقيته خلًّا ومرًّا! حجاب الهيكل يتمزّق؛ وفي وسط النهار تغمر الأرض غيمة سوداء على مدى ثلاث

ساعات، يموت موتًا وينام طوال ثلاثة أيّام وإذ يعود من الجحيم الأوّل ومن جديد يتراءى للمختارين ويُظهر لهم بواكير القيامة».

(Lactance institutines 1v, 18)

تلك هي نصوص العرّافة التي يذكرها لاكتانس، متقطّعة، بحسب ما تحتاج البراهين التي يبغي صياغتها. نصوص نجمعها حزمةً دون توقّف؛ ومبتغانا الوحيد تقييم الحروف الأولى من كلّ لفظة شرط ألّا يهملها الكتّاب فيما بعد، وبحسب بعض المؤلّفين ما كانت العرّافة الأريتريّة، تعيش في عهد رومولوس، بل في زمن حرب طروادة.

٢٤

الحكماء السبعة المعاصرون لرومولوس وأسر بني إسرائيل

وبينما كان يملك رومولوس هذا يقال إنّ تالس ده ميلات Talès de Milat أحد الحكماء السبعة الذين سمّوا هكذا منذ الشعراء اللاهوتيّين، وكان أرفيوس أشهرهم، في ذلك الزمان انهزم أسباط إسرائيل العشرة أمام الكلدانيّين وساقوهم أسرى، في حين أنّ سبطيّ يهوذا، وعاصمتهما القدس، بقيا في اليهوديّة. ولـمّا مات رومولوس واختفى أثره رفعه الرومان إلى مصاف الآلهة؛ وهي عادة أُلغيت منذ زمن طويل؛ وأعيدت خدعةً في عهد القياصرة؛ وصنع شيشرون لرومولوس تكريمًا عظيمًا لكونه يستحقّ ذلك التكريم، لا في زمن الجهل والبذاءة، حيث كان من السهل، أن يغشّ الناس بل في عصر الثقافة والحضارة؛ وإن لم يكن الفلاسفة بعد قد ظهروا بما لديهم من غزارة أخّاذة، في

عرض أفكارهم. ولكن إن لم تكن العصور التي تلت ذلك العصر قد رفعت على الهياكل أمواتًا فلم يكفَّ المعاصرون عن أن يكرموا، كآلهة، مَن كان الأقدمون يكرّسونهم... وماذا أقول؟ من خلال الأصنام التي يجهلها الأقدمون، تضاف خرافة حمقاء تنتهك حرمة القدسيّات. يا لها من قوّة في الأرواح الدنسة ومن أقوال خدّاعة تؤثر على قلوب البشر!! لم يعد العصر في ظلام لكي ينسب الجرائم إلى الآلهة؛ ومع ذلك فإنّ الألعاب المسرحيّة تدعو الإنسان إلى تبنّي عبادة الآلهة الكذبة! وخلف فوما رومولوس؛ وأقام في المدينة مجموعة لا تحصى من الآلهة الكذبة؛ لم يحظَ بعد موته بأن يكون في مصاف أولئك الآلهة. كما لو أنّه لم يبقَ له مكان في تلك السماء حيث تكدّس الآلهة... خلال ملكه في روما، وفي بداية عهد منسّى، لدى العبرانيّين الملك الأثيم، الذي قتل النبيّ أشعيا؛ أجل، آنذاك كانت تعيش عرّافة صاموس.

٢٥

بريسكوس ملك على روما وصدقيا ملك على العبرانيّين: آنذاك سقطت أورشليم وهُدم الهيكل

كان صدقيا ملكًا على العبرانيّين وتركينوس القديم ملكًا على الرومان وهو الذي خلف أوكوس مرسيوس Aucus Martios وفي ذلك الوقت اقتيد الشعب العبرانيّ أسيرًا إلى بابل بعد خراب أورشليم والهيكل الذي بناه سليمان. تلك مأساة تكلّم عنها الأنبياء في توجيه انتقادات إلى اليهود على ما كانوا يرتكبون من

آثام ومخازي؛ وبخاصّة إرميا الذي حدّد لهم السنة. آنذاك كان يعيش أحد الحكماء السبعة المدعوّ بيتاكوس ده متيلان Pittacos de Métyléne، وأوسابيوس يُعيد إلى زمن الأسر العصر الذي كان يعيش فيه الخمسة الآخرون الذين يؤلّفون الحكماء السبعة مع تالِس الذي ذكرناه سابقًا وبيتاكوس Pittacos؛ وهؤلاء هم سولون الأثينيّ وشيلون وبرياندر القورنثيّ وكليوبيل الليندوسيّ وبياس من بريان (Priène). جميعهم سبعة حكماء ظهروا بعد الشعراء اللاهوتيّين؛ طريقة حياتهم رفعتهم، في بعض النواحي، فوق سائر البشر؛ تدين لهم البشريّة ببعض تعاليم أخلاقيّة دقيقة مصوغة بإيجاز؛ ذاك كلّ ما تركوه للخلف، ما عدا صولون الذي أعطى، كما قيل، عدّة قوانين للأثينيّين؛ وتالِس أكبَّ على درس الطبيعة وترك مقالات تتضمّن تعاليمه. هنالك أيضًا علماء فيزيائيّون برزوا طوال الأسر في بابل؛ أناكسيمندر وأناكسيمان وكزينوفان؛ والعصر أيضًا هو عصر بيتاغور الذي كان أوّل مَن سمّي فيلسوفًا.

٢٦

خلال أسر اليهود تحرّرت روما من الملوك الطغاة

في ذلك الزمن تقريبًا امتدّ سلطان سيروس ملك الفرس على الكلدانيّين والأشوريّين، مخفّفًا التشديد على اليهود؛ فأرسل منهم خمسين ألفًا إلى اليهود لكي يعيدوا بناء الهيكل، لكنّهم وضعوا فقط الأساسات الأولى وأقاموا مذبحًا؛ بيد أنّ عملهم توقّف من جرّاء هجمات الأعداء؛ وظلّ متوقّفًا إلى أن جاء داريوس. في ذلك الحين حصلت الأحداث التي يتكلّم عنها كتاب يهوديت

الذي لم يقبل به اليهود كتابًا قانونيًا. وعلى هذا النحو، وقد انتهت تحت حكم داريوس ملك الفرس السبعون سنة التي تنبّأ عنها إرميا وتحرّر اليهود من الأسر؛ آنذاك كان تركونيوس ملكًا على الرومان وهو سابع ملك عليهم، ثمّ طرد وتحرّر هكذا الرومان من حكم ملوكهم. وحتّى ذلك الزمن كان لليهود أنبياء ولكن، بالنسبة إلى عددهم، قليلون هم الذين تركوا كتابات شرعيّة، سواء أكانت قانونيّة، بنظر اليهود، أم بنظرنا. لقد وعدت في نهاية الكتاب السابق، بأن أقول بعض الشيء حول هذا الموضوع وأرى أن أفي بوعدي.

٢٧

الأنبياء في زمن سقوط أشور وتراجع روما

وتوضيحًا للزمن الذي عاشوا فيه، لنعد قليلًا إلى الوراء، إذ إنّه في بداية كتاب النبيّ هوشع جاء ما يلي: «كلمة الربّ التي كانت إلى هوشع بن بئيري في أيّام عزّيا ويوتام وآحاز وحزقيا ملك يهوذا وفي أيّام ياربعام بن يوآش ملك إسرائيل». (هو ١/١) لقد كتب عاموص بأنّه تنبّأ في أيّام عزّيا، مضيفًا أيضًا ياربعام ملك إسرائيل الذي كان يعيش آنذاك. إنّ أشعيا ابن النبيّ عاموص أو ابن لآخر، وهو الأرجح، دون أن يكون نبيًّا، كان يحمل الاسم ذاته في رأس كتابه هؤلاء الملوك الأربعة الذين يسمّيهم هوشع؛ ويقول أيضًا إنّه تنبّأ في أيّامهم. إنّ ميخا يطبع زمن نبوءاته بطابعه، بعد عزّيا، لأنّه يسمّي الملوك الثلاثة خلفاء له؛ وهؤلاء هم الذين سمّاهم هوشع: يونان وآحاز وحزقيا. أولئك هم الأنبياء الذين، بحسب

شهادته الخاصّة، ظهروا في العصر ذاته؛ وتجب إضافة يونان تحت حكم الملك عزّيا؛ ويوئيل تحت حكم يوتان الذي خلف عزّيا؛ لسنا نجد في كتبهم أيّ ذكر للزمن الذي عاشوا فيه؛ بل في كتب المؤرّخين نجد ذكرًا له؛ غير أنّ تلك الحقبة الزمنيّة تمتدّ من عهد بروكاس، ملك اللاتين أو من عهد خلفه أفنتينوس حتّى رومولوس، الملك الذي يبدأ عهد روما، أو حتّى بداية عهد خلفه نوما بوبيليوس. وفي الواقع إنّ عهد حزقيا، ملك اليهوديّة، يمتدّ حتّى تلك الحقبة. وخلال تلك الحقبة الزمنيّة تفجّرت تلك الينابيع النبويّة معًا، بينما كانت المملكة الأشوريّة تنتهي لتبدأ الأمبراطوريّة الرومانيّة. وكما أنّ إبراهيم قد كان في بداية العهد الأشوريّ ليقبل الوعود الإلهيّة بمباركة الشعوب في ذرّيّته كان عليها أيضًا أن تذاع مع ولادة بابل الغريبة، التي عليها أن ترى في عهدها ولادة المسيح الذي يحقّق في ذاته أقوال الأنبياء؛ وعن مجيئه أيضًا تشهد الكتب؛ إذ إنّ الأنبياء كانوا دومًا حاضرين في الشعب الإسرائيليّ منذ أيّام الملوك لمصلحة الشعب. لكنّ عصر النبوءات، الأقلّ غموضًا، الموجّهة إلى الأمم، بدأ مع العصر الرومانيّ الذي سيسود على الأمم بأسرها.

٢٨

نبوءات هوشع وعاموص تنبئ بأخبار المسيح

إنّ هوشع النبيّ، في عمقه، لن يُفهَمَ بسهولة، إنّما، عليّ أن آخذ منه مقاطع، وأنقلها تنفيذًا لما وعدت به: «سيكون أنّه في الموضع الذي يقال لهم فيه لستم بشعبي إنّهم هناك يُدعَون أبناء

الله الحيّ». (هو ١/ ١٠) تلك هي نبوءة الدعوة الموجّهة إلى الأمم الذين ليسوا من شعب الله؛ هكذا فهمها الرسول؛ وبما أنّ الأمم كانت في عداد أبناء إبراهيم، بالروح، ومدعوّة حقًّا، إسرائيل، يضيف النبيّ قائلًا: «ويجتمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل جميعًا ويجعلون لهم رأسًا واحدًا ويصعدون من الأرض». (هو ١/ ١١) كلّ تفسير لهذا الكلام يجعله تافهًا. لنتذكّر حجر الزاوية والسورين: أحدهما من اليهود والآخر من الأمم؛ يعرف الواحد باسم يهودا والآخر باسم إسرائيل كلاهما في جسد واحد يرتفعان من الأرض تحت رأس واحد. أمّا هؤلاء الإسرائيليّون الجسديّون الذين يرفضون الآن الإيمان بالمسيح فالنبيّ ذاته يقول إنّهم سوف يؤمنون به في يوم من الأيّام، أي أبناؤهم، لأنّهم بموتهم يجوزون. ويقول النبيّ: «لأنّ بني إسرائيل يقعدون أيّامًا كثيرة لا ملك لهم ولا رئيس ولا ذبيحة ولا نُصُب ولا أفود ولا ترافيم». (هو ٣/ ٤) ومَن ذا الذي لا يدرك هنا حالة اليهود الراهنة؟ فلنصغ إلى ما يقول أيضًا: «وبعد ذلك يرجع بنو إسرائيل ويطلبون الربّ إلههم وداود ملكهم ويهابون الربّ وجودته في آخر الأيّام». (هو ٣/ ٥) إنّها نبوءة واضحة جدًّا يرمز داود فيها إلى المسيح المولود على حدّ قول الرسول بالجسد من نسل داود (روم ١/ ٣) ويتنبّأ النبيّ ذاته أيضًا عن قيامة المسيح في اليوم الثالث بما يستوجب ذاك السرّ من عمق قائلًا: «فيشفينا بعد يومين لنقوم في ثالث يوم». (هو ٦/ ٢) واستنادًا إلى تلك العبارة يقول الرسول: «إذن إن كنتم قد قمتم مع المسيح فابتغوا ما هو فوق». (قول ٣/ ١) وعاموص يتنبّأ حول هذا الموضوع قائلًا: «إنّك لذلك أصنع بك هكذا يا إسرائيل وبما أنّي أصنع بك هذا فاستعدّ للقاء إلهك يا

إسرائيل. فإنّه هو صانع الجبال خالق الريح المبيّن للبشر ما فكره الجاعل الظلمة فجرًا الواطئ مشارف الأرض واسمه الربّ إله الجنود». (عا ٤ ١٢) ويقول في محلّ آخر: «في ذلك اليوم أُقيم مسكن داود الذي سقط وأسدُّ ثُلَمَه وأُقيم ما تهدَّم منه وأبنيه، كما كان في الأيّام القديمة لكي يرثوا بقيّة أدوم وجميع الأمم، الذين دُعيَ اسمي عليهم، يقول الربّ الصانع هذا». (عا ٩/ ١١)

٢٩

نبوءات أشعيا حول المسيح وكنيسته

إنّ النبيّ أشعيا لا يُعدُّ بين الأنبياء الاثني عشر الصغار الذين كتبوا القليل بالنسبة إلى الذين يسمّون أنبياء كبارًا، تجاوبًا مع ما كتبوه من نبوءات طويلة. من بين هؤلاء الكبار أشعيا أضيفه إلى الاثنين الكبيرين اللذين سبق ذكرهما، لكونه معاصرًا لهما. وفضلًا عن التهديدات واللعنات التي يلاحق بها الشعب الخاطئ، فإنّ كلامه يتضمّن الكثير من النبوءات التي لا توجد عند سواه، المختصّة بالمسيح وكنيسته، أي الملك والمدينة التي يؤسّسها؛ حتّى إنّ بعضهم سمّاه إنجيليًّا بدلًا من نبيّ. وبغية الإسراع في إنهاء هذا الكتاب لن أستشهد هنا إلّا بمقطع من مقاطع كثيرة، يحكي فيه باسم الله الآب فيقول: «هوذا عبدي يعمل بالحزم يتعالى ويرتفع ويتسامى جدًّا. كما أنّ كثيرين دهشوا منك هكذا يتشوّه منظره أكثر من الإنسان وصورته أكثر من بني البشر. هو ينضح أممًا كثيرة وأمامه يسدّ الملوك أفواههم لأنّهم رأوا ما لم يُخبروا به وعاينوا ما لم يسمعوا به». (أش ٥٢/ ١٣-

١٥) مَن آمن بما سمع منّا ولمَن أعلنت ذراع الربّ. فإنّه ينبت كفرخ أمامه وكجرثومة من أرض قاحلة لا صورة له ولا بهاء فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه. مزدرى ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومتمرّس بالعاهات، ومثل ساترٍ وجهه عنّا. مزدرًى فلم نعبأ به. إنّه لقد أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا فحسبناه ذا برصٍ مضروبًا من الله ومذلّلًا. جُرح لأجل معاصينا وسُحِقَ لأجل آثامنا فتأديب سلامنا عليه وبشدخه شفينا. كلّنا ضللنا كالغنم، كلّ واحدٍ مال إلى طريقه، فألقى الربّ عليه إثم كلّنا. قُدّم، وهو خاضع، ولم يفتح فاه. كشاةٍ سيق إلى الذبح وكحملٍ صامت، أمام الذين يجزّونه، ولم يفتح فاه. من الضيق والقضاء أخذ ومَن يصف مولده. إنّه قد انقطع من أرض الأحياء ولأجل معصية شعبي أصابته الضربة. فمُنِح المنافقين بقبره والأغنياء بموته لأنّه لم يصنع جورًا ولم يوجد في فمه مكر. والربّ رضي أن يسحقه بالعاهات فإنّه إذ جعل نفسه ذبيحة إثم يرى ذرّيّةً وتطول أيّامه ومرضاة الربّ تنجح على يده. لأجل عناء نفسه يرى ويشبع وبعلمه يبرّر الصدّيق عبدي كثيرين وهو يحمل آثامهم. فلذلك أجعل الكثيرين نصيبًا له والأعزّاء غنيمته لأنّه أفاض للموت نفسه وأحصي مع العصاة وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة». ذاك ما يقوله النبيّ عن المسيح. (أش ٥٣/ ١-١٢).

إنّ ما يتبع يتعلّق بالكنيسة، فلنصغ إليه: «رنّمي أيّتها العاقر التي لم تلد إندفعي بالترنيم واصرخي أيّتها التي لم تتمخّض فإنّ بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الربّ. وسّعي موضع خبائك ولتُبسط شقق مساكنك. لا تُمسكي طوّلي أطنابك وثبّتي أوتادك. فإنّك تتبسّطين إلى اليمين وإلى الشمال ويرث

نسلك الأمم ويُعمّر المدن الخربة. لا تخافي فإنّك لا تخزَين؛ ولا تخجلي فإنّك لا تفتضحين لأنّك ستنسين خزي صبائك ولا تذكرين عار إرمالك من بعد. لأنّ بعلك هو صانعك الذي ربُّ الجنود اسمه وفاديك هو قدّوس إسرائيل الذي يدعى إله الأرض كلّها». (أش ٥٤/ ١-٥) حسبنا ما ذكرنا. قد تحتاج مقاطع من هذا النصّ، إلى شروح، إنّما يكفي ما سواها على ما أظنّ إذ إنّ وضوحها ثابت يفرض ذاته على أعدائنا فيفهمونها.

٣٠

نبوءات ميخا، يونان ويوئيل

إنّ النبيّ ميخا يتكلّم على هذا النحو وهو يصوّر المسيح بشكل جبل عالٍ: «ويكون في آخر الأيّام أنّ جبل بيت الربّ يوطّد في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه الشعوب وينطلق أمم كثيرون ويقولون هلمّوا نصعد إلى جبل الربّ وبيت إله يعقوب وهو يعلّمنا طرقه فنسلك في سبله لأنّها من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الربّ. ويحكم بين الشعوب الكثيرين ويقضي للأمم الأقوياء إلى بعيد فيضربون سيوفهم سككًا وأسنّتهم مناجل فلا ترفع أمّة على أمّة سيفًا ولا يتعلّمون الحرب من بعد». (مي ٤/ ١-٣) وهذا النبيّ يتنبّأ أيضًا عن المكان الذي يولد فيه يسوع: «وأنت يا بيت لحم أفراتة إنّك صغيرة في ألوف يهوذا ولكن منك يخرج لي مَن يكون متسلّطًا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيّام الأزل. لذلك يتركهم إلى حين تلد الوالدة فترجع بقيّة إخوته إلى بني إسرائيل. ويقف ويرعى بعزّة الربّ وبعظمة اسم الربّ إلهه

فيكونون ساكنين لأنّه حينئذ يتعاظم إلى أقاصي الأرض». (مي ٥/ ٢-٤).

أمّا النبيّ يونان فقد تنبأ عن المسيح أكثر بآلامه، نوعًا ما، وهي نبوءة أشدّ وضوحًا، بكلّ تأكيد، من نبوءة الكلام وقد تكلّم فيها عن آلامه وموته وقيامته؛ ولِمَ يُحكى عن بقائه في جوف الحوت وخروجه منه، بعد ثلاثة أيّام، إن لم يكن للدلالة على خروج المسيح في اليوم الثالث من أعماق الجحيم؟

وقد يقودنا يوئيل إلى شروحات طويلة، منبئًا عن المسيح وكنيسته، على أنّ لديه نصًّا يستعين به الرسل أنفسهم وهو الذي يقول، بحسب وعد المسيح، إنّ الروح القدس يحلّ من الأعالي على المؤمنين المجتمعين؛ إنّي لا أستطيع أن ألزم الصمت أمام النصّ التالي: «وسيكون بعد هذه أفيض روحي على كلّ بشرٍ فيتنبّأ بنوكم وبناتكم ويرى شبّانكم رؤًى ويحلم شيوخكم أحلامًا. وعلى عبيدي أيضًا وإمائي أفيض روحي في تلك الأيّام». (يؤ ٢/ ٢٨).

٣١

النبوءات المختصّة بالخلاص بواسطة المسيح في عوبديا وناحوم وحبقوق

ثلاثة أنبياء صغار هم عوبديا وناحوم وحبقوق لا يقولون شيئًا عن الزمن الذي فيه تنبّأوا؟ وأمّا أوسابيوس وإيرونيموس فيحتفظان بالصمت حيال هذا الموضوع. صحيح أنّهم مجمعون بين عوبديا

وميخا إنّما في غير الموضع الذي فيه يتحدّد زمن نبوءته، استنادًا إلى ما جاء في كتب ميخا؛ وهو خطأ تجب نسبته إلى إهمال في النسخ؛ أمّا الاثنتان الأخريان فما استطعنا أن نجد لهما ذكرًا في كتب التاريخ التي استشرناها. ولكن، طالما أنّها في الكتب المعترف بها قانونًا، فلا يجوز لنا أن نلزم الصمت تجاهها. إنّ عوبديا، الأوجز بين جميع الأنبياء، ويقوم ضد الأدوميّين أو الشعب المتحدّر من عيسو أحد ابني إسحق، أحفاد إبراهيم، البكر الذي خذله أبوه. ولكن إن أردنا أن نعني بالشعب الأدوميّ الأمم بأسرها تحت شعار اتّخاذ الجزء بمعنى الكلّ يمكننا أن نطبّق على المسيح ما جاء في جملة أقواله: «وفي جبل صهيون تكون النجاة ويكون قدسًا ويرث آل يعقوب الذين ورثوهم». ثمّ في نهاية النبوءة: «ويصعد مخلصون على جبل صهيون ليدينوا جبل عيسو ويكون الملك للربّ». لأنّ هذا الحدث قد تحقّق عندما خلّصوا من جماعة صهيون، أي أبناء اليهوديّة، الذين آمنوا بالمسيح؛ وهنا نرى، بنوع خاصّ، الرسل الصاعدين ليخلّصوا جبل عيسو. وكيف لهم أن يخلّصوه، إن لم يكن بكرازة الإنجيل فَيخلّصون الذين آمنوا من سلطان الظلام وينقلونهم إلى ملكوت الله؟ وهذا ما يشير إليه بوضوح مضيفًا: «ويكون الملك للربّ». وفي الواقع، إنّ جبل صهيون يعني اليهوديّة التي منها يخرج في المستقبل الخلاص والقداسة، أي يسوع المسيح، وجبل عيسو هو الشعب الأدوميّ، رمز كنيسة الأمم التي وجدت محامين عنها، المختارين الذين خلّصوا من جبل صهيون ليكون الملك للربّ. وأيّ شيء أقرب إلى الغموض قبل إتمام النبوءة؟ ولكن أمام عيني الإيمان لا مجال للغموض.

إنّ النبيّ ناحوم، أو بالأحرى إنّ الله، على لسانه، يتكلّم هكذا: «إنّي أستأصل المنحوتات والمسبوكات؛ وهناك أجعل قبرك لأنّك صرت حقيرًا. ها إنّ على الجبال أقدام المبشّرين، المسمعين بالسلام. يا يهوذا عيّد أعيادك وأوفِ نذورك فإنّه لا يعود يمرّ بك من بعد بليعال فقد انقرضوا جميعًا». (نحو ١/ ١٤-١٥) مَن ذا الذي صعد من الجحيم ونفخ في وجه يهوذا أي، التلاميذ اليهود، الروح القدس؟ سمّه أنت الذي تذكّر بالإنجيل. لأنّ الذي تتجدّد أيّام أعيادهم، روحيًّا، فلا يعودون يعرفون الشيخوخة، هم المنتسبون إلى العهد الجديد إذ إنّنا أخذنا نرى المنحوتات والمسبوكات تتحطّم، أمام الإنجيل ومهملة وكأنّها صارت في القبر ولا نزال نرى تحقيقًا لتلك النبوءة.

أمّا النبيّ حبقوق فعن أيّ مجيء يتكلّم إن لم يكن عن مجيء المسيح حين يقول؟ «أكتب الرؤيا وأنقشها على الألواح حتى يُسرَع في قراءتها. فإنّ الرؤيا للميقات وفي الانقضاء تظهر ولا تكذب. إن أبطأت فانتظرها فإنّها ستأتي إتيانًا ولا تتأخّر». (حب ٢/ ٢-٤) ما القول؟

٣٢

النبوءة في صلاة حبقوق ونشيده

وفي صلاة نشيده لمَن يقول إن لم يكن للمسيح الربّ: «يا ربّ إنّي سمعت سماعك فخفت. يا رب أحْيِ عملك في وسط السنين وفي وسط السنين عرّف به»؟ (حب ٣/ ٢) ماذا يعني ذاك الكلام؟

أوليس في المفاجأة الغير الموصومة التي سبّبها له ذلك الحدث الغريب الكامن في خلاص البشر الذين عرّفه به؟ «سوف تعرف وسط حيوانين» ألا يعني ذلك بين عهدين أو بين لصّين أو بين موسى وإيليّا المتحدّثين معه على الجبل؟ ها هي السنوات تقترب فتُعرف، والوقت حان ليعرّف عنك؛ كلمة لا تحتاج إلى تفسير. «عندما تقع نفسي تتذكّر في غضبك رحمتك» ألا يمثّل في ذاته اليهود، بني شعبه، الذين بقي الله لهم أمينًا فرحمهم في حين أنّهم، في غضبهم وثورتهم، صلبوه؛ فراح يتوسّط عنهم قائلًا: «إغفر لهم يا أبتِ لأنّهم لا يدرون ما يعلمون» الله يأتي من تيمان، والقدّوس من الجبل المغطّى بالظلال الكثيفة؟ مفسّرون آخرون يضعون بدل تيمان «منطقة الجنوب أو أفريقيا. الجنوب يعني حرارة المحبّة وبهاء الحقيقة. أمّا الجبل الذي تكسوه ظلال كثيفة وإن تكن له عدّة معانٍ فإنّي أفضّل أن يعني عمق الكتب المقدّسة التي تبشّر بالمسيح. لأنّها تتضمّن عدّة مقاطع تساعد العقل الذي يغوص في ظلماتها وتدرّبه على اكتناه الحقيقة. ويخرج المسيح من تلك العتمة بفضل العقل الذي يسعى إلى اكتشافه. «لقد ملأت قدرته السماوات وعمّ الأرض مجده» ماذا يعني ذاك القول؟ هو ما جاء في المزمور: «اللهمّ إرتفع على السماوات وليكن مجدك على جميع الأرض». (مز ٥٦/ ٦)؛ سيكون بهاؤه كالنور؛ وهذا يعني أنّ شهرته تفتح عيون المؤمنين؛ بين يديه قرنان وهذا يعني علامة الصليب؛ «على أصول المحبّة يعتمد» وهذا أمر واضح؛ الكلمة تسير أمامه بكلّ أمانة أليس هو الذي تحدّثت عنه النبوءات ومنذئذ بشّرت به؟ لقد توقّف فارتجفت الأرض؛ لقد توقّف لمساعدتنا وارتجفت الأرض بقصد

الإيمان. لقد نظر فمجّد الأمم؛ وبتعبير آخر لقد أشفق فأوحى بالندامة إلى الشعوب «تحطّمت الجبال بقوّة»؛ وكبرياء العظماء زالت أمام قوّة عجائبه؛ «والتلال الأبديّة انخفضت؛ لقد انخفضت إلى حين لكي ترتفع إلى الأبد. لقد شاهدت مداخله الأبديّة التي كوفئ بها على أعماله. رأيت أنّ عمل المحبّة أجره الأبديّ». الذعر يجتاح خيمة الأثيوبيّين ويلج منازل بلاد مدين؛ أنّ الشعوب التي تضطرب فجأة لما يحدث من عجائب حتّى الأمم المستقلّة في روما ينضمّون إلى الشعب المسيحيّ. «هل غضبت أيّها الربّ على الأنهر؟ وهل ترسل غضبك على الأنهر وعلى البحر؟ لم يأتِ الآن ليدين العالم بل ليخلّص العالم؛ «تمتطي صهوة جيادك؛ وحلبة جهادك هو الخلاص؛ أي إنّ الإنجيليّين يحملونك وأنت تسيّرهم. وإنجيلك هو الخلاص لجميع الذين يؤمنون بك. تضبط قوسك عن السلطة يقول الربّ. «وسوف تهدّد بحكمك ملوك الأرض» و«الأرض تمزّقها الأنهر» أي تحت أنهار كلمة مَن يبشّرونك فإنّ قلوب الناس الذين قيل لهم: «مزّقوا قلوبكم ولا تمزّقوا ثيابكم» سوف تنفتح للاعتراف بك. ما معنى: سوف تراك الشعوب ويحزنون» وتسير بهم أحزانهم إلى السعادة. ما معنى: تتفجّر المياه تحت خطاك» سوى أنّك بسيرك في مَن يبشّرون بك في كلّ مكان، تنشر في كلّ مكان أنهارًا من التعليم؟ ما معنى: «القعر أسمع صوته؟» أليس هو قعر؛ القلب البشريّ الذي لم يستطع أن يحتفظ بما يبدو له أنّه منك؟ «عمق مخيّلته» وكأنّه تفسير لما سبق لأنّ العمق هو قعر؛ على أنّه حين يزيد: «من مخيّلته» يجب أن ندرك ضمنًا: «أسمع دوي صوته» أي إنّه أعلن ما يرى. وفي الواقع، إنّ المخيّلة هي

رؤية لم يستطع القلب أن يحتفظ بها ولا أن يخفيها بل أعلنها لمجد الله. الشمس أشرقت وثبت القمر في نظامه» المسيح صعد إلى السماء والكنيسة انتظمت تحت مليكها. «سهامك تطير إلى النور»؛ أنت تطلق كلامك في وضح النهار، لا بالسرّ، بل بالعلانيّة؛ «وعلى بريق أسلحتك» يُفهم «بأنّ سهامك تنطلق» لأنّه قال لتلاميذه «ما أقوله لكم في الظلمة قولوه أنتم في النور» (متّى ١٠/ ٢٧)؛ «تضيق الأرض أمام تهديداتك ويذلّ البشر». «وأمام غضبك تسقط الأمم»؟. والذين يتكبّرون تحطّمهم؛ أنت ظهرت لخلاص شعبك ومسحائك؛ وقضيت على أعدائك بالموت؛ وهذا شيء واضح؛ «وكبّلت أعناقهم بالسلاسل» قد تعني السلاسل هنا سلاسل الحكمة السعيدة لكي تقيّد أرجلهم بعقباتها وأعناقهم بأغلالها؛ «القد حطّمتها فروّعتهم»، أي السلاسل لأنّك شدّدت قيود الصالحة وحطّمت العاطلة؛ التي قيل فيها «القد حطّمت القيود فروّعتهم» أي بأعجوبة. «يتأثّر بذلك رؤوس العظماء الذين يفتحون أفواههم كما لو كانوا يعضّون كالمسكين الذي يأكل خفيةً».

وفي الواقع، جاء عظماء من الشعب اليهوديّ إلى المسيح، معجبين بما يعمل ويقول؛ وإذ كانوا جائعين إلى خبز تعاليمه راحوا يتناولونه سرًّا، خوفًا من اليهود على حدّ قول الإنجيل (يو ٣/ ١؛ ١٩/ ٣٨). «القد ألقيت بأحصنتك في البحر وعكّرت مياهه» أي الشعوب. وفي الواقع، أناس منهم لا يهتدون إلى الحقيقة عن خوف؛ وأناس لا يضطهدون بقوّة لو لم يكونوا بأجمعهم مضطربين. وفكّرت فاضطربتْ أحشائي لدى سماع كلمات شفتيَّ؛ اخترق الخوف عظامي واضطربت في داخلي.

«إنّه يفكّر بما قال وهو ذاته مضطرب أمام ما يتنبّأ عنه حيث المستقبل بادٍ أمامه. في وسط تلك الشعوب المضطربة يرى ما يهدّد الكنيسة من عذابات وهو عضو فيها فيهتف صارخًا: «في يوم الشدّة أستريح» لأنّه من أولئك الذين يغتبطون بالرجاء وفي الشدّة يصبرون» (روم ١٢/١٢) ويقول: «لكي أرتفع حتّى الشعب الذي كان على مثالي مسافرًا» مبتعدًا عن ذاك الشعب اللعين، عن تلك القرابة الجسديّة التي ليست بغريبة فوق هذه الأرض ولا تسعى إلى الوطن السماويّ؛ «التينة لن تحمل ثمرًا والكروم لن تعطي عنبًا ولن تنفع زراعة الزيتون؛ والحقول لن تؤمّن الغذاء، ولن تجد القطعان مراعي لها وتقفر الزرائب من ثيرانها». إنّه يرى أن الأمّة التي تقتل المسيح سوف تفتقر إلى الخيرات الروحيّة التي يرمز إليها خصب الأرض؛ وبما أنّ هذه الأمّة قد جهلت برّ الله فقد حاولت إقامة برّها، مضيفًا: أمّا أنا فبالربّ أفرح وأبتهج بالله مخلّصي؛ الربّ إلهي هو قوّتي؛ وإلى الأبد يثبت قدمي ويرفعني عاليًا لكي أتمجّد بنشيده؛ هذا النشيد الذي يُحكى عنه في المزمور بكلمات متشابهة: «أقام على الصخرة قدميّ؛ ثبّت خطواتي وجعل في فمي نشيدًا جديدًا تسبيحةً لإلهنا». (مز ٣٩/٣) إنّ الذي ينتصر في نشيد الربّ هو الذي يسّر بمدائح الله ولا يركن إلى مدائحه» لأنّ الذي يفتخر فبالربّ يفتخر». (١ قور ١/ ٣٠) إنّي أوثر التعبير التالي: إنّي أفرح بالله، يسوعي؛ الاسم الذي أغفله المفسّرون اللاتين هو محبّب إليّ وعذب التلفّظ به!!

٣٣

نبوءات إرميا وصفنيا حول المسيح ودعوة الأمم

إرميا هو أحد الأنبياء الكبار مثل أشعيا؛ ولا كالصغار الذين استشهدت ببعض مقاطع من نبوءاتهم. وتنبّأ في عهد يونان في القدس وفي عهد أنكوس مارسيوس عند الرومان قبيل أسر الشعب اليهوديّ بقليل. وامتدّت نبوءته حتّى الشهر الخامس من ذلك الأسر بحسب شهادته الشخصيّة؛ ويضاف إليه صفنيا أحد الأنبياء الصغار؛ لأنّه هو أيضًا، كما يؤكّد شخصيًّا، قد تنبّأ في زمن يونان؛ ولكن حتّى لا يقول. وتنبّأ إرميا حتّى زمن تركينوس، القديم الملك الرومانيّ الخامس، متخطّيًا عهد أنكوس مارسيوس لأنّ عهد تركونيوس يبدأ مع الأسر ويتكلّم إرميا متنبّئًا عن المسيح قائلًا: «روح أفواهنا مسيحُ الربّ أُخِذَ في حُفَرِهِمْ» (مر ٤/ ٢٠) مبيّنًا بكلمات وجيزة أنّ يسوع المسيح ربّنا قد تألّم لأجلنا. وفي مكان آخر: «هذا هو إلهنا ولا يُعتبر حذاءه آخر. هو وجد طريق التأدّب بكماله وجعله ليعقوب عبده ولإسرائيل حبيبه. وبعد ذلك تراءى على الأرض وتردّد بين البشر». (با ٣/ ٣٦/ ٣٨). من الناس مَنْ لا ينسبون هذه الشهادة إلى إرميا بل إلى باروك الكاتب لديه؛ ولكنّها منسوبة بوجه عامّ إلى إرميا. ويقول النبيّ ذاته أيضًا عن المسيح: «ها إنّها ستأتي أيّام يقول الربّ أقيم فيها لداود نبتًا صدّيقًا ويملك ملك يكون حكيمًا ويجري الحكم والعدل في الأرض. في أيّامه يُخلّص يهوذا ويسكن إسرائيل في الدعة. وهذا اسمه الذي يُدعى به الربُّ برُّنا». (إر ٢٣/ ٥). أمّا دعوة الأمم التي ستأتي والتي نراها اليوم

قد تحققت يقول النبيّ بشأنها: «أيّها الربّ عزي وحصني وملجإي في يوم الضيق إليك تأتي الأمم من أقاصي الأرض وتقول إنّما ورث آباؤنا الزور والباطل ولا فائدة فيه». (إر ١٦/ ١٩) بيد أنّ اليهود، ولم يعرفوه، فقد قتلوه فيقول النبيّ أيضًا عنهم: «قلبهم أخدع كلّ شيءٍ وأخبثه؛ إنّه إنسان فمَن يعرفه؟» (إر ١٧/ ٩) وإرميا صاحب ذلك المقطع الذي استشهدت به في الكتاب السابع عشر عن العهد الجديد فيصف المسيح بأنّه الوسيط: «ها إنّها تأتي أيّام يقول الربّ أقطع فيها مع آل إسرائيل وآل يهوذا عهدًا جديدًا». (إر ٣١/ ٣١) والباقي.

أمّا صفنيا الذي تنبأ مع إرميا فإنّي أريد أن أعرض لبعض ما يقول عن المسيح: «لذلك انتظروني يقول الربّ إلى يوم أقوم للشهادة لأنّ حكمي هو أن أجمع الأمم وأحشد الممالك لأصبّ عليهم حنقي، كل اضطرام غضبي، لأنّ الأرض كلّها ستؤكل بنار غيرتي». (صف ٣/ ٨) ثمّ يقول: «إنّ الربّ رهيب عليهم فيستأصل جميع آلهة الأرض وله يسجد الناس كلّ واحدٍ من موضعه جميع جزائر الأمم». (صف ٢/ ١١) وبعد قليل يقول: «لأنّي حينئذ أجعل للشعوب شفةً نقيّةً ليدعوا جميعهم باسم الربّ وليعبدوه بكتفٍ واحدة؛ من عبر أنهار كوش المتضرّعون إليّ. بنو شتاتي يقرّبون لي تقدمةً. في ذلك اليوم لا تخزَين بشيءٍ من أعمالك التي عاصيتني بها لأنّي حينئذ أنزع من بينك المرحين معك فلا تعودين تتشامخين من بعد في جبل قدسي. وأُبقي فيما بينك شعبًا وديعًا فقيرًا فيعتصمون باسم الربّ». (صف ٣/ ٩-١١) وما بقي يقول فيهم الرسول بعد نبيّ آخر: «وأشعيا يهتف من جهة إسرائيل، وإن يكن عدد بني إسرائيل كرمل البحر، فالبقيّة ستخلص». (روم ٩/ ٢٧) لأنّ البقيّة من تلك الأمّة آمنت بالمسيح.

٣٤

نبوءات دانيال وحزقيال وتجانسها مع المسيح والكنيسة

خلال الأسر في بابل، نبيّان كبيران دانيال وحزقيال أخذا يتنبّآن؛ وراح دانيال يحدّد عدد السنوات وزمن مجيء المسيح وآلامه. يطول بنا الكلام هنا إذا أردنا إجراء حسابها؛ وكثيرون ممّن سبقونا أكدّوه لنا مرارًا؛ أمّا قوّة المخلّص ومجده فإنّ النبيّ يعبّر عنهما بالشكل التالي: «ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن البشر آتيًا على سحاب السماء فبلغ إلى القديم الأيّام وقرّبَ إلى أمامه وأوتي سلطانًا ومجدًا وملكًا فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه وسلطانه سلطان أبديّ لا يزول وملكه لا ينقرض». (دا ٧/ ١٣-١٤).

وحزقيال أيضًا كسائر الأنبياء يرمز إلى المسيح بداود لأنّه من نسل داود أخذ طبيعة بشريّة، وبصورة العبد تلك، أصبح إنسانًا واستحقّ بها اسم ابن الله، عبد الله؛ بهذه الطريقة يتكلّم عنه حزقيال ويبشّر به في شخص الله الآب: «لأنّه هكذا قال السيّد الربّ هاءنذا أنشد غنمي وأفتقدها أنا كما يفتقد الراعي قطيعه يوم يكون في وسط غنمه المنتشرة كذلك أفتقد أنا غنمي وأنقذها من جميع المواضع التي شُتّتت فيها يوم الغمام والضباب وأخرجها من بين الشعوب وأجمعها من الأرض وآتي بها إلى أرضها وأرعاها وهم يكونون لي شعبًا وأكون لهم إلهًا وعبدي داود يكون لهم ملكًا وراعيًا وحيدًا».

٣٥

أقوال الأنبياء الثلاثة حجّاي وزكريّا وملاخي

يبقى ثلاثة أنبياء صغار تنبّأوا عن نهاية الأسر وهم حجّاي وزكريا وملاخي. حجّاي هو الذي تنبأ عن المسيح وكنيسته بدقّة ووضوح كلّيّ قائلًا: إليكم ما يقول ربّ القوّات: «إنّي مرّةً بعد عن قليل أزلزل السماء والأرض والبحر واليَبس وأزلزل جميع الأمم ويأتي مُتمنّى جميع الأمم». (حج ٢/ ٧) بالطبع إنّ هذه النبوءة قد تمّت في جزءٍ منها والباقي يضمن لنا تحقيقها مستقبلًا. وفي الواقع، إنّ المسيح يزعزع السماء بالشهادة التي يؤدّيها الملائكة والكواكب لتجسّده ويحرّك الأرض بالأعجوبة العظيمة التي تتمثّل بالولادة من عذراء؛ إنّه يحرّك السماء والأرض واليابسة حين يُبشّر به في الجزائر وفي الكون بأسره. وهكذا فإنّنا نرى جميع الشعوب تتأثّر وتؤمن به. أمّا الكلمات التالية: «وسيأتي متمنّى جميع الأمم» فإنّها تعبّر عن مجيئه الأخير المنتظر؛ لأنّ ذلك الانتظار وذلك الشوق يسبقهما الحبّ والإيمان.

هكذا يتكلّم زكريّا عن المسيح والكنيسة قائلًا: «إبتهجي جدًّا يا ابنة صهيون واهتفي يا بنت أورشليم هوذا ملكك يأتيك صدّيقًا مخلّصًا وديعًا راكبًا على أتان وجحش ابن أتان ويكون سلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض». (زك ٩/ ٩) متى يحين الوقت الذي يستعمل فيه الربّ تلك الدابّة؟ الإنجيل ينبئنا به؛ ويأخذ عن تلك النبوءة ما يراه مناسبًا؛ وفي مكان آخر، إذ يتكلّم، بروح نبويّ، مع المسيح نفسه، عن مغفرة الخطايا

بإراقة دمويّة يقول: «وبدم عهدك أنت أيضًا أطلق أسراك من الجبّ الذي لا ماء فيه». (زك ٩/ ١١). ماذا تعني تلك البحيرة؟ أكثر من معنى يعترف به الإيمان؛ على أنّنا لا ندركه حقًّا إلّا إذا وضعناه في إطار البؤس البشريّ الذي لا تُجدّد مهده اليابس والعقيم مياه العدل الحيّة؛ ولا تغذّي سوى بؤرة الإثم. وعن تلك البحيرة يتكلّم صاحب المزامير قائلًا: وانتاشني من جبّ الهلاك ومن طين الحمأة». (مز ٣٩/ ٣).

وإذ يبشّر ملاخي بالكنيسة التي نراها تزهر بالمسيح يقول اليهود بوضوح في شخص الله: إنّي لا مسرّة لي بكم قال ربّ الجنود ولا أرضى تقدمةً من أيديكم. لأنّه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم في الأمم وفي كلّ مكان تقتَّر وتقرّب لاسمي تقدمة طاهرة لأنّ اسمي عظيم في الأمم يقول الربّ» (ملا ١/ ١٠-١٢) من مشرق الشمس إلى مغربها تقرّب هذه التقدمة أمام أعيننا بواسطة كهنوت المسيح، بحسب مليكصادق؛ وحين تلغى حقًّا ذبيحة اليهود التي قيل بها: «لا حسرة لي بكم ولا أرضى تقدمة من أيديكم»؛ ولماذا لا يزالون ينتظرون مسيحًا آخر طالما أنّ النبوءة التي يقرأونها ويرونها تتحقّق ولا يمكن أن تتحقّق إلّا به؟ بعد قليل قال النبيّ، تلقائيًّا، في شخص الله: «إنّما كان عهدي معه للحياة والسلام وآتيته التقوى فأتقاني وهاب اسمي. شريعة الحقّ كانت في فمه والإثم لم يوجد في شفتيه. سار معي بالسلام والاستقامة وردَّ كثيرين عن الإثم لأن شفتَي الكاهن تحفظان العلم ومِن فيه يطلبون الشريعة إذ هو ملاك ربّ الجنود». (ملا ٢/ ٥-٧) ولا عجب في أن يسمّى يسوع المسيح ملاك الله القدير. إنّه عبد، بسبب هيئة العبد التي بها جاء بين الناس؛ وهو ملاك بسبب

الإنجيل الذي يبشّرهم به لأنّ «الإنجيل» يعني البشارة والملاك يعني «الرسول» ويقول النبيّ أيضًا عن نفسه: «هاءنذا مرسل ملاكي فيهيّئ الطريق أمامي وللوقت يأتي إلى هيكله السيّد الذي تلتمسونه وملاك العهد الذي ترتضون به. ها إنّه آتٍ قال ربّ الجنود فمَن يتحمّل يوم مجيئه ومَن يقوم عند ظهوره؟» ينبئ به عن مجيء المسيح الأوّل والثاني؛ عن الأوّل حين يقول: «ها إنّه آتٍ، قال ربّ الجنود، في هيكله أي بجسده، الذي تكلّم عنه شخصيًا في الإنجيل بما يلي: «إنقضوا هذا الهيكل وأنا في ثلاثة أيّام أقيمه». (يو ٢/ ١٩) وعن الثاني: «ها إنّه آتٍ قال ربّ الجنود؛ ومَن يستطيع أن يتقبّل ظهوره البهيّ ويساند حضوره؟» أمّا العبارة: «إنّ الربّ الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تريدونه» فهي تعني، بكلّ تأكيد، أنّ اليهود في كتبهم يطلبون المسيح ويتوقون إليه؛ ولكنّ كثيرين لا يعرفون أنّ الذي يطلبونه ويتوقون إليه قد جاء حقًّا، لشدّة ما بهم من عمًى، ولأنّ خطاياهم الماضية تغطّي قلوبهم. أمّا العهد الذي عنه يتكلّم سابقًا حين يقول: «إنّ عهدي معه» فهو أمّا حين يسمّي ملاك العهد وهذا يعني حقًّا العهد الجديد الواعد بالخيرات الأبديّة؛ وليس القديم الذي لا يحمل سوى الوعود بالخيرات الزمنيّة؛ وهذا ما يثير القلق للكثيرين من الضعفاء، المتعلّقين بأمور الأرض، والذين يعبدون الإله الحقيقيّ من أجل تلك المكافأة الدنيئة حين يرون ازدهار الأثمة. وعلى هذا النحو وبغية التمييز بين سعادة العهد الجديد الأبديّة التي تعطى للصالحين وسعادة العهد القديم الأرضيّة التي غالبًا ما تكون من حظّ الأشرار يقول النبيّ: «لقد اشتدّت عليّ أقوالكم قال الربّ. وتقولون بمَ تكلّمنا عليك. إنّكم قلتم عبادة الله باطلة وما المنفعة

في حفظنا محفوظاته وفي مشينا بالحداد أمام ربّ الجنود؟ والآن فإنّا نغبط المتكبّرين فإنّ صانعي النفاق قد ابتنوا. جرّبوا الله ونجوا. حينئذٍ تكلّم خائفو الربّ الواحد مع صاحبه وأصغى الربّ وسمع وكُتب كتاب تذكرةٍ أمامه لخائفي الربّ المتفكّرين باسمه». (ملا ٣/ ١٣-١٦) وذاك الكتاب يشير إلى العهد الجديد فلنصغ إلى ما يلي: «إنّهم سيكونون خاصّةً لي يقول ربّ الجنود يوم أعمل وأُشفق عليهم كما يشفق الإنسان على ابنه الذي يخدمه فتتوبون وتميّزون بين الصدّيق والمنافق، بين الذي يعبد الله، والذي لا يعبده. فإنّه هوذا يأتي اليوم المضطرم كالتنّور، فيكون جميع المتكبّرين، وجميع صانعي النفاق، عصافةً فيحرقهم اليوم الآتي، قال ربّ الجنود، حتّى لا يستبقي لهم جرثومة ولا أفنانًا. وتشرق لكم أيّها المتّقون لاسمي شمس البرّ والشفاء في أجنحتها فتسرحون وتطفرون كعجول المعلف وتطأون المنافقين وهم رماد تحت أخامص أقدامكم يوم أعمل أنا قال ربّ الجنود». (ملا ٣ و٤) إنّ ذاك اليوم هو يوم الدينونة الذي سنتكلّم عنه، بشكل أوسع، في حينه، إن شاء الله.

٣٦

أسدراس وأسفار المكابيّين

في ذلك الزمن الذي فيه تحرّر اليهود من أسر بابل كتب أسدراس بعد الأنبياء الثلاثة حجّاي وزكريا وملاخي وهو الذي يعتبر مؤرّخًا أكثر منه نبيًّا؛ وعلى هذا النحو يعتبر صاحب كتاب أستير، المرأة التي تعود أعمالها التي قامت بها، تمجيدًا لله، إلى

تلك الأيّام. وهل يمكننا أن نرى في أسدراس نبوءة المسيح حين يذكّر بالنقاش القائم بين شبّان، لمعرفة الأقوى في العالم؛ بعضهم يؤكّد أنّ الأقوى هم الملوك؛ وبعضهم الآخر يقول الخمر؛ وآخرون يعتقدون بأنّ الأقوى هو العنصر النسائيّ الذي عادة ما يأمر الملوك؛ وهذا الأخير أو أسدراس نفسه ينهي كلامه بإقامة تغلّب الحقيقة على الباقي بأكمله، علمًا بأنّ الإنجيل إذا استشرناه يعلّمنا أنّ المسيح هو الحقيقة. منذ أن أُعيد بناء الهيكل، لم يعد لليهود ملوك بل أُمراء، وصولًا إلى أريستوبول. حساب تلك الأزمنة لا مجال له في الكتب المسمّاة قانونيّة بل في كتب أخرى في أسفار المكابيّين التي لا يقبل بها اليهود، بين كتبهم القانونيّة. وبالعكس فإنّ الكنيسة تتبنّاها لتمجّد الآلام القاسية والبطوليّة التي تحمّلها بعض الشهداء الذين، قبل أن يجيء المسيح بالجسد، قاتلوا في سبيل الشريعة الإلهيّة، حتّى الاستشهاد، بعد أن ذاقوا مرَّ العذاب.

٣٧

السلطة النبويّة تسبق مجيء الفلسفة الوثنيّة

في زمن الأنبياء الذين بلّغوا كتاباتهم جميع الأمم ما كان للشعوب الأخرى الأمميّة فلاسفتهم، سوى بيتاغور الساموي، الذي كان أوّل مَن حمل ذاك الاسم لديهم هو الذي ما بدأ يشتهر إلّا في نهاية أسر بابل لليهود. الفلاسفة الآخرون جاؤوا بعد الأنبياء. وفي الواقع سقراط نفسه، الأثينيّ، ومعلّم الذين اشتهروا، هو مَن تقلّد الحكم على هذا الجزء من الفلسفة

المسمّاة أدبيّة أو ناشطة، لم يأتِ، تاريخيًّا، إلّا بعد أسدراس. بعد مدّة وجيزة ولد أفلاطون، فسيطر من علُ، على سائر تلاميذ سقراط؛ فضلًا عنهم، سبقهم رجال لم يُدعَوا فلاسفة بل حكماء؛ وهم سبعة؛ ثمّ الفيزيائيّون، خلفاء تاليس Talès الذين نهجوا نهجه في البحث عن أسرار الطبيعة أناكسيمندر وأناكسيمان وأناكساغور وآخرون عاشوا قبل أن يتبنّى بيتاغور علنًا «محبّة الحكماء»؛ جميعهم لم يتميّزوا عن سائر الأنبياء بالأقدميّة لأن تالِس أقدمهم ولم يظهر، كما قيل، إلّا في عهد رومولوس، الذي فيه تفجّرت ينابيع أنهار النبوءات في إسرائيل فغمرت العالم كلّه. وهكذا فالشعراء اللاهوتيّون أورفيوس Orphée ولينوس Linos وموزيوس Musée ولربّما عدد قليل جدًّا سواهم من الإغريق سبقوا في الزمن الأنبياء العبرانيّين المعروفين شرعًا. لكنّ اللاهوتيّ الحقيقيّ، موسى، الشاعر الصحيح، للإله الواحد الحقّ الذي اعترفت بكتاباته أعلى سلطة قانونيّة، ألم يكن سابقًا لهم؟ وعلى هذا النحو، لا يحقّ للإغريق الذين أضفوا بلغتهم على الآداب الإنسانيّة جمالًا أخّاذًا أن يطالبوا لحكمتهم لا بالأقدميّة ولا بالمقام الأوّل؛ لأنّ ديانتنا تحتوي على الحكمة الحقيقيّة؛ إنّما يجب الإقرار بوجود نوع من الحكمة؛ قبل موسى، لا في اليونان، بل عند شعوب البربر كما هي الحال في مصر؛ وإلّا لما جاء في الكتب المقدّسة أنّ موسى تفقّه في العلوم المعروفة لدى المصريّين حيث وُلد وتبنّته ابنة فرعون، غير أنّ العلم لدى المصريّين لم يسبق علم أنبيائنا إذ إنّ إبراهيم هو أيضًا نبيّ. وأيّ علم يمكن أن يسبق في مصر ما قدّمته لهم تلك المرأة المعروفة باسم إيزيس Isis باختراعها الحروف فراحوا يكرمونها كإلهة بعد

وفاتها؛ على أنّ الكلّ يشهد بأنّ إيزيس هي ابنة إيناخوس أوّل ملك على الأرجيانيّين الذي عاش في زمنٍ كان لإبراهيم فيه أولاد.

٣٨

أسفار غير مقبولة شرعًا لعدم قانونيّتها وقِدَمها المشكوك فيه

أعود إلى الأزمنة القديمة إلى ما قبل الطوفان فأجد نوحًا بطريركنا الذي أسمّيه، بحقٍّ، نبيًّا، لأنّ السفينة التي صنعها ولجأ إليها هو وجماعته تعدُّ في زمننا نبوءة. وماذا أقول في أحنوخ المتحدّر السابع من آدم الإنسان الأوّل؟ ألا تقول رسالة يهوذا الرسول المعترف بها شرعًا بأنّه تنبّأ؟ إذا كان لا يقول في كتابات أولئك الناس، لا عندنا، ولا عند اليهود، فلأنّها قديمة جدًّا في الزمن، ومدعاة إلى الشكّ، خوفًا من أن تتضمّن أخطاءً تعتبر مع تقادم الزمن حقائق. ومع ذلك فهناك بعض أسفار يقدّمها هؤلاء الناس الذين يصدّقون ما يهوَوْنه؛ لكنّ صفاء الشرع غير قابل للطعن، لا في سبيل الطعن بسلطة أولئك الصدّيقين، الذين عرفوا أن يرضوا الله، بل لأنّ صحة تلك الأسفار التاريخيّة مشكوك فيها. وعليه، فهل من الغرابة، الشكّ بأسفار مكتوبة تحت اسم قديم الشهرة حين نجد في التاريخ الخاصّ بملوك يهوذا وإسرائيل، وهو الذي يشكّل مادّة إيماننا بالكتب القانونيّة، وفيه مناسبات عدّة، لا تذكرها تلك الأسفار ويقال إنّها موجودة في كتب أخرى كتبها أنبياء معروفون بأسمائهم؟ وهي أسفار لا يشملها الشرع المقبول لدى شعب الله. إنّي أقرّ وأعترف بأنّني أجهل السبب، إلّا إذا كان الناس الذين أوحى إليهم الروح

القدس بما يجب الركون إليه دينيًّا، قد كتبوا أشياء، بصفتهم بشرًا، بكلّ دقّة تاريخيّة وكتبوا أشياء أخرى، بصفتهم أنبياء، تحت وحي من الروح القدس فجرى التمييز بين الشيئين فظنّ الناس أنّه من الضروريّ أن يُنسب إليهم بعض الأشياء والبعض الآخر إلى الله الذي يتكلّم بلسانهم؛ بعضها متعلّق بالمجال العلميّ، وبعضها الآخر بسلطة الدين التي ترعى الشرع؛ بحيث إنّ الكتب التي تظهر تحت اسم الأنبياء الأقدمين، خارجًا عن السلطة، غير مقبولة حتّى في المجال العلميّ، لأنّ الشكّ في أصالتها قائم؛ ولا ثقة بها، لا سيّما، إن تضمّنت بعض المقاطع المنافية لإيمان الكتب الشرعيّة؛ وهذا أمر كافٍ للاقتناع بعدم صحّتها.

٣٩

العبرانيّة لغة مكتوبة منذ البدء

لا تعتبرنَّ، استنادًا إلى أقوال بعض الناس، أنّ اللغة العبريّة قد حافظ عليها وحدها البطريرك المدعوّ عابر، الذي سمّي العبرانيّون باسمه، وسلّمها شخصيًّا إلى إبراهيم؛ في حين أنّ الأحرف العبريّة تعود إلى شريعة موسى؛ ولكن من المرجّح أن تكون اللغة قد استمرّت بأحرفها على مدى الأجيال الأولى البدائيّة. وأخيرًا هوذا موسى يُقيم بعض الناس رؤساء في تعليم الكتابة، استعدادًا للتعرّف إلى الشريعة الإلهيّة. والكتاب يسمّي أولئك الناس «رؤوس أسباط مدرّبين على التعليم» لأنّهم كانوا يُدخلونها في عقول تلامذتهم، أو بالأحرى يوصلون تلامذتهم إليها. وعلى هذا النحو، لا يفاخرنَّ شعب من شعوب الأرض بأصالة علمه،

كأنّه سابق لبطاركتنا أو أنبيائنا الذين كانوا يتقنون العلم الإلهيّ عندما لا تستطيع مصر ذاتها التي درجت على أن تسبغ على أصالة تعاليمها القديمة، مزاعم باطلة وكاذبة، أن تدّعي، لأجل معارفها القليلة، الأسبقيّة على علم بطاركتنا. وفي الواقع لا أحد يجرؤ على أن يفاخر بحكمة المصريّين قبل معرفة العلوم أي قبل مجيء إيزيس التي أشركتهم بذلك الاكتشاف. وما كانت تلك الحكمة والمعرفة التي تغنّوا بهما كثيرًا، سوى علم النجوم أو أيّ علم آخر مماثل ترويضًا للعقل دون أن يكون نورًا للنفس؟ أمّا الفلسفة التي تهتمّ بتعليم الناس أن يكونوا سعداء فلم تعرف الازدهار إلّا في عهد مركور تريسماجيت Mercure Trismégiste وذلك، بزمن طويل حقًّا، قبل الحكماء أو الفلاسفة في اليونان؛ ولكن بعد إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف، وحتّى بعد موسى لأنّه حين ولد موسى كان يعيش أطلس Atlas ذلك العالم الكبير بالنجوم، شقيق بروموثيوس وجَدّ مركور العظيم من أمّه، الذي كان مركور تريسماجيت حفيدًا له.

٤٠

لا شيء يثبت أسبقيّة الكتابة المصريّة

وإنّه لادّعاء باطل وسخافة كلاميّة واستحكاك في اللسان يحمل الكثيرين على القول إنّه منذ أن راحت مصر تراقب سير الكواكب انقضى أكثر من مائة ألف سنة. وفي أي من الكتب وجدوا هذا الحساب، هم الذين ما تعلّموا الكتابة، إلّا من إيزيس، منذ ما لا يزيد عن الألفي سنة؟ إنّ فرّون المعروف باطّلاعه التاريخيّ

الواسع يؤكّد لنا ذلك دون أن يكون متناقضًا مع حقيقة الكتب الدينيّة. وفي الحقيقة، كما أنّه منذ وجود الإنسان الأوّل، آدم، لم تنقضِ أكثرُ من ستّة آلاف سنة أليست السخرية أفضل من الدحض للذين يقدّمون آراء غريبة عن تلك الحقيقة المعترف بها ومناقضة لها كلّيًّا؟ لمَن يمكننا، يا ترى، أن نعود بشأن الماضي، أفضل من ذاك الذي تنبّأ مستقبلًا عمّا نراه يتحقّق الآن؟ إنّ الخلاف القائم بين المؤرّخين يسمح لنا بأن نصدّق، بشكل مفضّل، أولئك الذين لا يخالفون تاريخنا المقدّس. عندما يرى مواطنو المدينة الأثيمة؛ المنتشرون فوق الأرض بأسرها، كتّابًا علماء لا يشكّ أحد بمقدرتهم، منقسمين حول أحداث متقادمة العهد جدًّا، وبعيدة عن عصرنا، لا يعرفون أيًّا منها يصدّقون؛ أمّا نحن وبخصوص ما يتعلّق بتاريخ ديانتنا فإنّنا نتّكل على السلطة الإلهيّة ولا نشكّ البتّة بأنّ مَن يناقضها لعلى خطأ كبير، سواء أكانت الشهادات العالميّة، الصادقة فيها أو الخاطئة، لخيرنا أم لا.

٤١

التناقضات الفلسفيّة والتناغم الكتابيّ

لندع الآن جانبًا ما يلقي علينا التاريخ من أضواء، ونتّجه إلى الفلاسفة، هم الذين يبدون كأنّهم لا يهدفون من خلال دروسهم إلّا إلى اكتشاف نوع خاصّ من الحياة يؤمّن السعادة؛ ولِمَ معلّمون وطلّاب، وطلّاب، فيما بينهم، يختلفون، إلّا لكونهم ساروا في ذلك البحث كبشر، بعواطف وتفكير بشريّ؟ لا شكّ في أنّ

الأسلوب الذي اتّخذوه مبنيّ على التنافس في سبيل مجد باطل ورغبة جامحة في أن يَظهَروا أعلى من سواهم في الحكمة والفهم، متحرّرين من رأي الآخر، ذوي تعاليم وآراء شخصيّة؛ على أنّي أقول بوجود كثيرين أو حتّى إنّ عددًا كبيرًا منهم تخلّى عن معلّميهم أو عن بعضهم بعضًا كتلاميذ، حبًّا بالحقيقة، مدافعين، عن رأيهم، بالقوّة عمّا يعتبرونه حقيقةً، عن خطأ أو عن صواب. ولكن، في النهاية، أيّ طريق يدّعي البؤس البشريّ أنّه يجب سلوكه، وصولًا إلى السعادة، إذا لم يسترشد بالسلطة الإلهيّة؟ أمّا كتّابنا الذين يؤلّفون، بحقٍّ، الشرع الثابت والمحدَّد للأسفار المقدّسة، فما أبعدهم عن التناقض، وإن بسيطًا.

كما، وأنّه لا يجوز أن نتعجّب من أنّهم يعتقدون بأنّ الله نفسه أملى كتبهم، وأنّ كلماتها هي كلام الله، وإنّ هذا الاعتقاد ليس مقتصرًا على فئة صغيرة من الخطباء في إطار بعض المدارس، بل انتشر أيضًا بين العلماء والجهال في الأرياف والمدن. وكان الخطباء قليلي العدد خوفًا من أن يُضعِفَ عددُهم الثقة بما تقدّسه الديانة؛ كما أنّ العدد لم يتضاءل حتّى يجعل من توافقهم التامّ نوعًا من الأعجوبة؛ ومن الصعب أن يجد المرء بين هذه الكثرة من الفلاسفة الذين تركوا كتبًا أدبيّة رائعة عبّروا فيها على آرائهم، مَن كانوا على توافق تامّ، في جميع تعاليمهم؛ وهذا الأمر يتطلّب منّا أن نتبسّط في درسه طويلًا.

وفي الواقع، مَن هو رئيس الفئة الذي ينال موافقة المدينة المتعبّدة للشيطان على شجب كلّ مَن يخالفها في التفكير ويناقض آراءها؟ ألا نجد في أثينا ازدهارًا للأبيكوريّين فيؤكّدون أنّ الآلهة لا يهتمّون بأمور الناس، بخلاف الرواقيّين، الذين يزعمون بأنّ

مسيرتهم تحظى بعون الآلهة ورعايتهم؟ وأعجب أيضًا للحكم الصادر بحقّ أناكساغور Anaxagore لأنّه قال إنّ الشمس ليست سوى حجر ملتهب وليست إلهًا؛ في حين أنّ لا شيء في المدينة ذاتها يشوّه عظمة أبيكور وأمنه الذي لا ينكر فقط ألوهة الشمس والكواكب بل يؤكّد أنّ لا وجود في الكون لجوبيتر ولله الذي ترتفع إليه صلوات الناس وتوسّلاتهم. أليس في أثينا ذاتها يضع أريستيب الخير الأسمى في اللذّة الجسديّة ويضعه أنتيستين في فضيلة النفس؟ وكلاهما فيلسوف شهير؛ وكلاهما تلميذ لسقراط؛ إنّما يقولان لمصير الإنسان النهائيّ بما يتناقضان فيه ويختلفان عليه. أحدهما يقول إنّه يجب على الحكيم أن يتهرّب من إدارة الجمهوريّة؛ بينما يقول الآخر بعكس ذلك تمامًا؛ ولكلّ منهما تلاميذه؛ وفي وضح النهار، تحت المدخل الشهير والرحب، وفي المحافل الأكاديميّة وفي الحدائق والساحات العامّة والخاصّة مزيج من الآراء أو المذاهب؛ بعضهم يقول بوجود عالم واحد؛ وبعضهم يقول بتعدّد العوالم؛ بعضهم يقول إنّ للعالم بداية والبعض الآخر يقول أنْ لا بداية له؛ البعض يقول بنهايته والآخر يقول بأبديّته، هؤلاء يقولون برعاية العناية له؛ وأولئك يقولون إنّه مرهون للقدَر والأحداث؛ ثمّ إنّ البعض يقول بخلود النفس والآخر يقول بموتها؛ وممَّن يعترفون بخلودها، أناس يؤكّدون أنّها تعود إلى أجسام حيوانات؛ وينكر موقفهم هذا آخرون. وممَّن يؤكّدون أنّها تموت، بعضهم يقول إنّها تموت مع الجسد؛ وآخرون يقولون إنّها تحيا بعد موت الجسد، إلى حين، ثمّ تموت؛ هؤلاء يضعون الخير النهائيّ في الجسد وأولئك يضعونه في النفس؛ وفئة ثالثة تضعه في الاثنين معًا. أمّا الخيور

الخارجيّة فبعضهم يتركها على عاتق الحواسّ وبعضهم، من وقت لآخر؛ والآخرون يرفضون هذا الرأي كلّيًا. أيّ شعب أو مجلس شيوخ أو سلطة أو قضاء في مدينة أثيمة أخذ على عاتقه أمر محاكمتهم فيصادق على ما يقولون قابلًا به أو شاجبًا به وناقضًا ولم ينفتح دون انحياز إلى هذا المزيج من الأفكار والآراء المتناقضة لا حول مصلحة ماليّة وزمنيّة بل على أسئلة تقرّر سعادة الحياة أو تعاستها؟ وإذا ما برزت من وقت إلى آخر حقيقةٌ ما، ظهر الخطأ أيضًا دون عائق. لقد سمّيت، بحقّ، تلك المدينة، بابل، لأنّها كما قلنا تعني «البلبلة»؛ ولا همّ عند ملك تلك المدينة، الذي هو الشيطان، في ما يتخبّط فيه السكّان من أضاليل متضاربة تشكّل صورًا مختلفة ومتنوّعة للشرّ، الذي يجعلهم كلّهم تحت إمرته.

بيد إنّ تلك الأمّة وذلك الشعب وتلك الجمهوريّة وأولئك الإسرائيليّين المؤتمنين على كلمة الله لم يخلطوا، بمثل تلك السهولة، بين الأنبياء الكذبة والأنبياء الحقيقيّين؛ توافق دقيق خالٍ من كلّ منازعة يشير إليهم ويدلّهم على الكتب المقدّسة الصحيحة. أولئك هم فلاسفتهم وحكماؤهم ولاهوتيّوهم وأنبياؤهم ومعلّموهم بالتقوى والفضيلة. وكلّ من عاش بحسب مشوراتهم لم يعش، بحسب الجسد، بل بحسب الله المتكلّم بلسانهم. إن حرّموا الخروج على الشريعة فالله يجرّب؛ وإن قالوا: «أكرم أباك وأمّك» فالله يأمر بذلك؛ وإن أضافوا: «لا تزن ولا تقتل ولا تسرق» فليست تلك الكلمات خارجة من شفاه بشريّة بل تلك هي أقوال الله. إنّ تلك الحقائق القليلة التي تبيّنها بعض الفلاسفة من بين ضلالات متعدّدة وعملوا على إقامتها

بواسطة تحليلات فكريّة مضنية، وهي أنّ الله خالق يدبّر الكون برعايته السامية؛ الجمال في الفضيلة وحبّ الوطن والثقة في الصداقة والأعمال الصالحة وكلّ ما يتعلّق بالأخلاق الحميدة، وإن جهلوا الغاية والواسطة: كلّ تلك الأمور يبشّر بها الشعب في المدينة الإلهيّة، بواسطة كلام الأنبياء، كلمة الله بالذات التي يتلفّظ بها بشر دون أيّ جهد في البرهان عنها بحيث إنّ معرفة تلك الحقائق لا تستوي دون الخوف من احتقار كلمة الله إذا خالفها الإنسان.

٤٢

الأسفار المنقولة إلى اللغة اليونانيّة بعناية إلهيّة لخير الأمم

إنّ أحد ملوك مصر، من ذرّيّة بطليموس، يرغب في التعرّف على الكتب المقدّسة وامتلاكها، لأنّه بعد مملكة الإسكندر المقدونيّ الملقّب بالكبير، ضمّت تلك الأمبراطوريّة، المعجزة في العظمة وعدم الثبات، آسيا بكاملها. ماذا أقول؟ قد يكون الكون بأسره افتُتح إمّا بالقوّة والحرب أو بالرعب الذي خلقه اسمه؛ ومن مناطق الشرق أيضًا احتلّ اليهوديّة وأخضعها. ولمّا مات سقطت تلك الأمبراطوريّة بين معاونيه العسكريّين الذين لم يتقاسموها ليملك كلّ منهم على حصّته بسلام؛ بل مزّقوها، قطعًا قطعًا، ليعيثوا فسادًا في كلّ مكان بالاجتياح والحرب؛ آنذاك أخذت مصر من البطالسة ملوكًا عليها. الأوّل منهم ابن لاغوس أخذ من اليهوديّة عددًا كبيرًا من الأسرى إلى مصر. وبطليموس آخر، خلف له، يدعى فيلادلفوس سمح لهم جميعًا بأن يعودوا

أحرارًا إلى اليهوديّة كما أنّه أرسل إلى هيكل الله هدايا ملوكيّة وطلب من عظيم الكهنة أليعازر الكتب المقدّسة التي اشتهرت بأنّها كتب إلهيّة، فأراد أن يضعها في مكتبته الشهيرة التي حضّرها بنفسه؛ وإذ أعطاه إيّاها عظيم الكهنة مكتوبة بالعبريّة، طلب بطليموس من مفسّرين لكي يشرحوها: اثنين وسبعين رجلًا، ستّة رجال من كلّ سبط من الاثني عشر سبطًا يعرفون اللغتين اليونانيّة والعبريّة؛ وقد جرت العادة بأن تسمى تلك الترجمة «السبعون»؛ ويقال إنّهم نجحوا في اختيار تعابيرهم بحيث كان التوافق بينهم رائعًا وعجيبًا وإلهيًّا حقًّا؛ حتّى إنّ كلًّا منهم، وقد أتمّ على انفراد ذاك العمل، (لأنّ بطليموس الملك أحبَّ أن يختبر على هذا الشكل أمانتهم) لم يقم بينهم أيّ خلاف في المعنى أو في قيمة الكلمات وترتيبها؛ ولكن، وبما أنّ المفسّر ظهر وكأنّه واحد ظهر تفسير الجميع موحّدًا لأنّ الروح القدس في الكلّ روح واحد وكانوا قد نالوا من الله تلك الهبة الرائعة لكي تأخذ سلطة الكتب المقدّسة، لا بصفتها عملًا بشريًّا، بل بصفتها عملًا إلهيًّا، احترامَ الوثنيّين الذين سوف يؤمنون، يومًا ما؛ وهذا ما نراه اليوم، وقد حصل.

٤٣

سلطة «السبعون»

وإن يكن هنالك مفسّرون آخرون قد نقلوا من العبرانيّة إلى اليونانيّة الأقوال المقدّسة أمثال أكيلا Aquila وسيمّاك Symmaque وتيودوسيان Théodotien وصاحب عمل مماثل، لم يُعرف اسمه سمّي عمله الترجمة الخامسة؛ فإنّ الكنيسة قد

تسلّمت ترجمة «السبعون» كما لو أنّها وحيدة؛ ويستعملها اليونان المسيحيّون ويجهلون، في معظمهم، وجود ترجمات أخرى. والنسخة «السبعون» معي؛ ترجمت إلى اللغة اللاتينيّة وتبنّتها الكنائس اللاتينيّة؛ غير أنّ كاهنًا ما التقى، في أيّامنا، العالم إيرونيموس الذي كان يُتقن اللغات الثلاث فترجم الأسفار المقدّسة من العبرانيّة إلى اللاتينيّة ولم يستعن باليونانيّة، إنّه لعمل مُتقن؛ وإن اعتبره اليهود عملًا أمينًا ويزعمون أنّ «السبعون» قد وقعت في خطأ عدّة مرّات، يبقى أنّ كنائس المسيح لم تجد سلطة أفضل من سلطة أولئك الناس الذين اختارهم لمثل هذا العمل العظيم الحبر أليعازار حتّى لو أنّ الروح الواحد والإلهيّ حقًّا لم يظهر فيهم وأنّ أولئك العلماء السبعين وافقوا بالإجماع فهل يفضَّل عليهم مفسّر واحد منفرد؟ ولكنّ الله الذي أظهر تجاههم مساعدته، بوضوح، فمن الآن وصاعدًا كلّ مفسّر للأسفار المقدّسة ملتزم بالتوافق مع «السبعون» أيًّا تكن اللغة التي ينقل إليها؛ وإذا بدا أنّه يبتعد عنهم فحينئذ يجب الاعتقاد بأنّ سرًّا يختبئ تحت الترجمة النبويّة «السبعون» لأنّ الروح القدس في الأنبياء كان يعمل حين كانوا يملون ذلك النصّ المقدّس وهو أيضًا مع مفسّري ترجمة «السبعون». وبكلّ تأكيد فإنّ ذاك الروح بقوّة سلطانه الإلهيّ أعطى جوابًا آخر كما لو أنّ النبيّ ذاته أعطى هذا وذاك؛ لأنّ لكليهما كلام الروح عينه؛ وأيضًا استطاع أن يعبّر عنه بكلام آخر مقدّمًا للعقول المستقيمة بسبب انعدام اللغة عينها، المعنى ذاته. وأخيرًا لقد استطاع أن يحذف ويضيف ليظهر أنّ الإنسان في ذاك العمل لم يكن له أسيرًا، كما هي حال المفسّر أمام الحرف؛ بل بالأحرى سلطة إلهيّة تُلهم وتدبّر عقل المفسّر.

بعضهم فكّر بضرورة إعادة النظر في النصّ العبريّ الأساسيّ مع أنّهم لم يتجرّؤوا على أن يقتطعوا ما زاد في الترجمة السبعينيّة عن النصّ العبريّ؛ بل أضافوا إليها ما كان ينقصها؛ مع الإشارة إلى كلّ آية تضاف بعلامات تسمّى نجمات «Astérisques». أمّا إضافات «السبعون» إلى الأصل العبريّ فيشيرون إليها في أوّل المقاطع بخطوط أفقيّة شبيهة بإشارات المقادير الضئيلة. وفي كلّ مكان نرى نسخًا يونانيّة ولاتينيّة موزّعة. أمّا ما ليس إغفالًا، ولا إضافة، بل تعبير مختلف سواء أحمَلَ معنى مختلفًا أو حمل المعنى ذاته، بشكل مختلف، فيتطلّب التأكّد منه عن طريق المقارنة بين النصّين. وعليه، إن بحثنا كما يجب في الكتب المقدّسة، فقط عمّا طاب لروح القدس أن يقوله بواسطة الناس، وعن كلّ ما جاء في النصّ العبريّ الأصليّ دون أن يكون في «السبعون» فإنّ الروح الإلهيّ أراد أن يقوله بواسطة القدماء ولا على لسان الأنبياء الأخيرين. وقال هذا بواسطة أشعيا وذاك بواسطة إرميا وذلك بواسطة نبيّ آخر أو الشيء ذاته بطريقة مختلفة على لسان هذا النبيّ الآخر على هواه. لكن ما نجده معًا لدى هؤلاء وأولئك فالروح الواحد هو الذي أراد أن يقوله على لسان هؤلاء وأولئك مهيّئًا هؤلاء للتنبّؤ ثمّ أولئك للتفسير نبويًّا؛ وكما أنّ الحقيقة والتطابق لدى هؤلاء في تنبّؤاتهم يكشف فيهم عن حضور روح السلام والوحدة هكذا عندما يعلن أولئك دون الاتّفاق فيما بينهم تفسيرهم الإجماعيّ بصوت واحد للأسفار المقدّسة فروح الوحدة هو الذي يكشف عن ذاته.

٤٤

خراب نينوى: أربعون في النصّ العبريّ وثلاثة أيّام في «السبعون»

ولكن، قيل، كيف أعرف إن كان النبيّ يونان قد قال لسكّان نينوى: «بعد ثلاثة أيّام أو بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى» (يون ٣/ ٤) مَن ذا الذي لا يرى أنّ النبيّ المُرسَل ليلقي الرعب في المدينة، مهدّدًا إيّاها بخراب داهم، لم يستطع أن يقول في الوقت الشيئين معًا؟ إن كانت الكارثة ستحدث في مدى ثلاثة أيّام فهذا لا يعني أربعين يومًا وإن كانت ستحدث في اليوم الأربعين فهذا لن يكون في اليوم الثالث؛ وإذا ما سئلتُ عن قول يونان من الاثنين، أفضّل الدرس العبرانيّ القائل: «بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى».

إنّ «السبعون» التي جاءت بعد زمن طويل استطاعت أن تقول شيئًا مغايرًا يعود إلى الموضوع، وقد ساهم، بشكلٍ آخر، في تكوين معنى واحد ومماثل ودعا القارئ إلى الارتفاع، دون الحطّ من سلطة النصّ العبريّ. «والسبعون»، فوق التاريخ حتّى البحث عن الوقائع التي تكلّم عنها لأنّ تلك الأحداث جرت حقًّا في مدينة نينوى؛ إنّما كانت تمثّل حوادث أخرى خرجت عن إطار تلك المدينة. إنّه لواقع حقيقيّ عاشه النبيّ ثلاثة أيّام في بطن الحوت وبه يرمز النبيّ إلى مَن سوف يمكث، ثلاثة أيّام في الجحيم، وهو سيّد جميع الأنبياء. وعليه إذا كان من المعقول أن نرى في تلك المدينة الصورة النبويّة لكنيسة الشعوب، وقد تحوّلت، رأسًا على عقب، بالتوبة، عمّا كانت عليه، إلى الأفضل؛ وبما أنّ المسيح هو صاحب هذا التغيير في كنيسة الشعوب التي ترمز إليها نينوى فالمسيح هو ذاته

ترمز إليه الأيّام الأربعون أو الأيّام الثلاثة؛ أربعون لأنّ ذاك كان عدد الأيّام التي قضاها بعد قيامته من بين الأموات مع تلاميذه قبل صعوده إلى السماء؛ والثلاثة، لأنّه قام في اليوم الثالث. ومَن لا يقول إنّ «السبعون» - مفسّرين وأنبياء أيضًا - يوقظون القارئ النائم على حرف القصّة التاريخيّة ويحثّونه هكذا على سبر أغوار النبوءة: إبحث في الأربعين يومًا عن ذاك الذي تستطيع أن تجد فيه الأيّام الثلاثة: هناك تجد صعوده وهنا قيامته من بين الأموات. إنّه استطاع، في هذا العدد وفي ذاك، الإشارة التامّة إليه؛ من جهة، بواسطة النبيّ يونان، ومن جهة أخرى، بواسطة نبوءة «السبعون» ولكن، دائمًا وأبدًا، بواسطة الروح الواحد عينه. أوجز القول إذ إنّي أرفض تقديم الأمثلة الكثيرة حيث تبدو «السبعون» بعيدة عن حقيقة النصّ العبريّ، وإن حسن فهمها، تكون على وفاق معها. وكذلك أنا أيضًا، وبينما أسير بحسب ما يسمح لي ضعفي البشريّ، على خطى الرسل الذين يتوسّلون أيضًا العبرانيّ «والسبعون» كشهادة نبويّة، أظنّ أنّه يجب عليّ أن أتّكل على كلتا السلطتين لأنّهما سلطة واحدة وإلهيّة. ولكن فلنكمل هذا العمل، بحسب ما يقدّرنا الله عليه.

٤٥

التوقّف على التنبّؤ ومصائب اليهود بعد ترميم الهيكل ترمز إلى بناء هيكل آخر وعد به الأنبياء

منذ أن بطل أن يكون للشعب اليهوديّ أنبياء، بكلّ تأكيد، أسوأ ممّا كان عليه. وبينما أُعيد بناء الهيكل بعد عودته من أسر

بابل كان الشعب اليهوديّ يرجو التحسُّن؛ لأنّه شعب يعيش، بحسب الجسد، كان يفهم نبوءة حجّاي على هذا النحو: «وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأوّل قال ربّ الجنود». (حج ٢/ ١٠) كلمة تشير إلى العهد الجديد كما سبق وأشار إليها، بوعدٍ له واضح، السيّد المسيح: «وأزلزل جميع الأمم ويأتي متمنًّى جميع الأمم» (حج ٢/٨). إنّ «السبعون» هنا باسم ما لهم من قوّة على التنبّؤ، يقدّمون معنى آخر، أفضل ملاءمةً للجسم منها للرأس أي للكنيسة منها للمسيح: «وسيأتي مختارو السيّد بين جميع الأمم» أي الناس الذين يقول عنهم المسيح في الإنجيل: «المدعوّون كثيرون والمنتخبون قليلون». (متّى ٢٢/ ١٤). وفي الواقع من أولئك المختارين بين الأمم، الحجارة الحيّة، يُبنى بيتُ الله بواسطة العهد الجديد أعظم بكثير ممّا كان عليه ذلك الهيكل الذي بناه الملك سليمان وأُعيد بناؤه بعد الأسر. ولم يعد لذلك الشعب أنبياء بعد ذلك الزمان إنّما كان عليه أن يتألّم كثيرًا من الملوك الغرباء ومن الرومانيّين أنفسهم لئلّا يتصوّر بأنّ نبوءة حجّاي قد تمّت في إعادة بناء الهيكل.

وها هو الإسكندر يفاجئهم ويسيطر عليهم؛ صحيح أنّه لم يغضب عليهم، لأنّهم لم يتجرّؤوا على مقاومته، بل انقادوا إليه بسهولة، فهدأ غضبه. لكنّ عظمة ذلك البيت كانت بعيدة جدًّا عمّا كانت عليه تحت الحكم الحرّ لملوكه، فقدّم الإسكندر ذبائح في هيكل الله ولم يكن ذلك بدافع من التقوى الحقيقيّة، تجاه الله الحقّ، بل ظنّ أنّه يجب عليه أن يكرّمه أيضًا مع الآلهة الكذبة بدافع ضلاله الأثيم. وبعد أن مات الإسكندر اقتاد اليهود إلى مصر بطليموس بن لاغوس الذي سبق الحديث عنه؛ وبطليموس

فيلادلفوس الذي ندين له بترجمة «السبعون» أرجعهم إلى بلادهم مكرّمين، ثم إنّ ضربات الحرب حطّمتهم؛ حروب تكلّمت عنها أسفار المكابيّين. إحتلّ بلادهم ملك الإسكندر بطليموس المدعوّ أبيفانيوس ثمّ أرغمهم، أنطيوخوس ملك سوريا بما أنزل بهم من فظاعات شرسة لا توصف على تقديم الإكرام لأصنامه، وملأ هيكلهم بخرافات الأمم وأدناسهم؛ غير أنّ قائدهم العظيم يهوذا المكابيّ تغلّب على وزراء أنطيوخوس ومندوبيه وطهّر حرم الهيكل المقدّس من أصنامهم.

وبعد زمن قصير جاء شخص يدعى ألسيموس، ادّعى لنفسه، عن طمع، رتبة الحبريّة، وإن كان غريبًا عن الأسرة الكهنوتيّة؛ فارتكب بذلك العمل إثمًا. وبعد خمسين سنة تقريبًا وفي ذاك المجال من الوقت، وبالرغم من أنّ البلاد عرفت نوعًا من الازدهار في عهده، فلم يعرف الشعب السلام. أريستوبول، الأوّل عندهم، أصبح ملكًا عليهم وشغل في الوقت عينه منصب عظيم الأحبار لأنّه، منذ عودتهم من أسر بابل وإعادة بناء الهيكل، أصبح لهم، بدلًا من الملوك، رؤساء أو أمراء، وإن يكن مَن يُدعى ملكًا يستطيع أن يحمل أيضًا اسم أمير مع الأخذ بعين الاعتبار بأولويّة القيادة والرئاسة لكونه رئيسًا للقوّات. ومع ذلك لا يسمّى كل ملك أو أمير ملكًا كما هو أرستوبول. والإسكندر الذي خلفه في الكهنوت والملكيّة أناخ، بقساوةٍ بكلكله على جماعته، وخلفته زوجته ألكسندرا وأصبحت ملكة علىٰ اليهود؛ ومنذ ذلك الحين راحت العداوات تنصبُّ عليهم وترهقهم. ولدا ألكسندرا: أريستوبول وهيركان، اختلفا فيما بينهما على العرش فاستعانا على الإسرائيليّين بالقوّات الرومانيّة

لأنّ هيركان استنجد بهما ضدّ أخيه. آنذاك راحت روما تتحطّم تحت ثقل أمجادها بعد أن سيطرت على أفريقيا واليونان وامتدّ سلطانها بعيدًا على أجزاء أخرى من العالم؛ دون أن تقوى على الاحتفاظ بسيادتها. وقامت في داخلها اختلافات حادّة انتقلت إلى حروب داخليّة أوصلتها إلى نوع من التآكل الداخليّ والإرهاق، الذين دفعا بها إلى خراب الجمهوريّة لتقوم محلّها الملكيّة. وهكذا فإنّ بومبيدس أحد مشاهير رؤساء الشعب الرومانيّ اجتاح اليهوديّة واحتل المدينة وفتح الهيكل، بقوّة النصر، الذي أحرزه، وليس بوداعة مَن يتوسّل، ودخل قدس الأقداس الذي لا يحقّ الدخول إليه إلّا لعظيم الأحبار؛ ولم يدخله، عابدًا، بل مدنّسًا، بعد أن ثبّت حبريّة هيركان وفرض على الأمّة المهزومة أنتيبطرس حاكمًا، واقتاد معه أريستوبول أسيرًا. منذ ذلك الحين أصبح اليهود خاضعين للرومان فراح كاسيوس ينهب الهيكل من جديد ثمّ، بعد زمن قصير، أقيم على اليهود ملك غريب هو هيرودس الذي ولد المسيح في عهده لأنّ الأزمنة التي تكلّم عنها الأنبياء بلسان البطريرك يعقوب قد تمّت: «لا يزول صولجان من يهوذا ومشترع من صلبه حتّى يأتي شيلو وتطيعه الشعوب». (تك ٤٩/ ١٠). لم تخل الذرّيّة اليهوديّة من ملوك عند اليهود حتّى مجيء هيرودس أوّل ملك من ذرّيّة غريبة. ذاك هو الزمن وفيه يجيء الذي يحقّق وعد العهد الجديد، الوعد الذي جعله منتظر الشعوب. وقد يستحيل على الشعوب أن يكونوا في انتظار الحدث العظيم حيث نراهم في حين أنّه سوف يأتي، ليدين، ببهاء قدرته، مَن لم يؤمن بادئ ذي بدء به، جاء ليتقبّل الحكم بصبر وتواضع.

٤٦

ولادة المخلّص وتشتّت اليهود واكتمال النبوءات

كان هيرودس ملكًا على اليهوديّة وكان الدستور لدى الرومان قد تغيّر فصار أغوسطوس قيصر أمبراطورًا ومنح العالم السلام مع ولادة السيّد المسيح بحسب النبوءة السابقة في بيت لحم من سبط يهوذا؛ إنسان منظور، يولد بشريا من عذراء؛ إله خفيّ منبثق من الله الآب. وهكذا قال النبيّ: «ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمّانوئيل أي الله معنا». (أش ٧/ ١٤) ويعلن عن ألوهيّته من خلال العجائب الكثيرة التي ينقلها إلينا الإنجيل ويراها كافية لأن تشهد له. أولى عجائبه هي ولادته والأخيرة هي قيامته بالجسد من بين الأموات وصعوده إلى السماء. إنّ اليهود الذين قتلوه وأبوا أن يؤمنوا به إذ كان من الضروريّ أن يموت ويقوم، قد سيموا، عذابًا وهوانًا، على أيدي الرومان فطردوا من بلادهم حيث كانوا خاضعين للغرباء؛ فقضي عليهم وتشتّتوا في العالم كلّه. إنّ اليهود الذين نجدهم في كلّ مكان شهود لنا من خلال كتبهم، بأنّ النبوءات المختصّة بالمسيح ليست من اختراعنا. وإذ تأمّل الكثيرون منهم بالنبوءات التي تحكي عنه قبل آلامه، ولا سيّما بعد قيامته آمنوا إذ ذاك به وعنهم قال أشعيا: «إن كان شعبك يا إسرائيل كرمل البحر فبقيّة منه ترجع». (أش ١٠/ ٢٢) أمّا الآخرون فقد أُعميَتْ بصائرهم وعنهم قيل أيضًا: «لتكن مائدتهم قدّامهم فخًا وجزاءً وشركًا. لتظلم عيونهم فلا يبصروا واحنِ ظهورهم كلّ حين». (أش ٦٨/ ٢٣) وهكذا فبينما يرفضون الإيمان بكتبنا تتحقّق فيهم كتبهم التي يقرأونها عميانًا؛

إلّا إذا كان أحد يعزو إلى المسيحيّين اختراع تلك النبوءات تحت اسم العرّافة أو سواها إن كانت هناك نبوءات غريبة عن الشعب اليهوديّ. أمّا نحن فحسبنا ما يظهر من كتب أعدائنا التي يقدّمونها إلينا، مرغمين، هم الذين يملكون تلك الكتب وعليها يحرصون وبسبب تلك الشهادة نراهم مشتّتين بين كلّ الشعوب؛ وحيثما ينبسط ملك كنيسة المسيح. وفي المزامير التي يقرأونها نجد نبوءة عن تشتّتهم: «إلهي رحمة لي، يبادر الله إليَّ. ويريني خيبة الذين يرصدونني؛ لا تقتلهم لئلّا ينسى شعبي بل شتّتهم بقدرتك». (مز ٥٨/ ١١) لقد أظهر الله للكنيسة في اليهود، أعدائها، نعمةَ رحمته لأنّ زلّتهم، على حدّ قول الرسول، أمّنت الخلاص للأمم. «ولم يقتلهم» أي لم يُهلك فيهم، وإن انتصر الرومان وقضوا عليهم، صفة العرق اليهوديّ، خوفًا من أن يصبحوا، غير قادرين على أن يشهدوا لنا هنا، متى نسوا الشريعة الإلهيّة. ولا يكفي أيضًا القول: «لا تقتلهم لئلّا ينسى شعبي الشريعة» لو لم يضف: «شتّتهم؛ لأنّهم، لو كانوا مع شهادة الكتب هذه في بلادهم، ولم ينتشروا في كلّ مكان فالكنيسة التي وُجدت في كلّ مكان، هل تستطيع أن تتّخذهم عند كلّ الشعوب، شهودًا للنبوءات التي بشّرت بالمسيح يسوع؟

٤٧

مواطنون، خارج العرق الإسرائيليّ، ينتمون إلى المدينة السماويّة

وهكذا فإنّ كلّ غريب، أي كلّ إنسان، غير متحدّر من إسرائيل، ولا يعترف اليهود بشرعيّته القانونيّة، كلّ غريب يقال

عنه إنّه تنبّأ بشيء ما عن المسيح إن كنّا قد عرفناه أو سوف نعرفه نستطيع أن نذكره علاوة؛ لا، لأنّنا بحاجة إلى شهادته، إن كان ينقصنا، ولكن يمكن للإنسان أن يعتقد، بشيء من الحقّ؛ بأنْ في الأمم الأخرى، رجالًا أوحي إليهم بهذا السرّ وشعروا، باندفاع، للإنباء به، أو شاركوا في النعمة عينها، أو إذا حرموا من تلك الهبة يعلّمهم الملائكة الأشرار أنّنا نعرف أنّهم اعترفوا بالمسيح الحاضر. بينما اليهود لم يعرفوه. ولا أظنّ أنّ اليهود أنفسهم يدّعون أنّ اليهود وحدهم، دون سواهم من بني البشر، يختصّون بالله منذ ما بدأت ذرّيّة إسرائيل تنتشر على وجه الأرض بعد شجب أخيه البكر. صحيح أنّه لم يسمّ أيُّ شعب غير الشعب الإسرائيليّ شعب الله؛ ولكن ظهر لدى سائر شعوب الأرض أناسٌ ارتبطوا ارتباطًا روحيًّا، غير أرضيّ، بالإسرائيليّين الحقيقيّين، مواطني الوطن السماويّ؛ وذاك ما لا يستطيعون إنكاره، وإلّا لكان من الصعب إقناعهم بأيّوب البار الذي لم يكن يهوديًّا ولا مهتديًا أو غريبًا مقبولًا في البيت الإسرائيليّ؛ إنّما كان متحدّرًا من الدوميّين، ولد ومات في تلك المنطقة حيث شهد له الله بما عرف عنه من برّ وتقوى؛ ولم يكن له مثيل في زمانه. أمّا العصر الذي عاش فيه فلا يمكن تحديده تاريخيًّا؛ إنّما من خلال كتابه المتاز الذي أقرّ له اليهود بالشرعيّة، أنّه جاء بعد اليهود بثلاثة أجيال؛ ولا شكّ في أنّ العناية الإلهيّة، بتدبير خاصّ، أرادت أن تعلّمنا أنّه يوجد، لدى الأمم الأخرى، أناس يعيشون برضى الله، وينتمون إلى أورشليم الروحيّة؛ ونؤمن كذلك بأنّ تلك النعمة لم تعطَ لإنسان إلّا على يد الوسيط الوحيد بين الله والناس الذي سوف يأتي، يسوع المسيح، الإنسان؛ وقد أوحي

عن مجيئه المستقبليّ بالجسد إلى أبرار الأزمنة القديمة كما يبيّن لنا في الماضي حتّى يسير إلى الله بواسطته، متحصّنين بإيمانٍ واحد، جميع المختارين، ليكونوا له مدينة وبيتًا وهيكلًا. أمّا سائر النبوءات عن نعمة الله في المسيح يسوع، الموجودة في غير مكان، فيمكن اعتبارها اكتشافات مسيحيّة. ولا شيء أقوى، إقناعًا للرافضين وحملهم على الانضمام إلينا إن كانوا ذوي عقل مستقيم، من أن نعرض عليهم النبوءات الإلهيّة عن المسيح المسجّلة في أسفار اليهود؛ لأنّ اليهود وقد انتزعوا من وطنهم وتشتّتوا في سائر أنحاء الأرض، يؤدّون تلك الشهادة ويساهمون في انتشار الكنيسة في العالم كلّه.

٤٨

نبوءة حجّاي عن مجد الله العتيد تجد تحقيقها في كنيسة المسيح

بيت الله هذا أجمل وأبهى من الأوّل المبنيّ من خشب وحجارة ومعادن ثمينة؛ ولم تتمّ نبوءة حجّاي في إعادة بناء ذلك الهيكل؛ لأنّه منذ أن أعيد بناؤه لم يستعد العظمة التي كان عليها في أيّام سليمان. إنّ الإنسان يرى بالأحرى ذلك المجد منقوصًا بتوقّف النبوءات ثمّ بالكوارث الهائلة التي حلّت بالأمّة وصولًا إلى ما أنزله بها الرومان، بحسب ما جاء في الشهادات السابقة. أمّا هذا البيت الجديد المختصّ بالعهد الجديد فإنّ مجده أعظم بكثير لكونه قائمًا على حجارة حيّة، حجارة مؤمنة ومتجدّدة. ولكنّها تجد رمزًا لها إعادة الهيكل الأوّل لأنّه يعبّر نبويًّا عن العهد الثاني، العهد الجديد. وهكذا فحين يقول الله بلسان النبيّ الذي ذكرناه:

«والآن أعطي السلام لهذا المكان» (حج ٢/ ١٠) يعني بهذا المكان الرمزيّ المكان المرموز إليه. وبما أنّ الكنيسة التي كان على المسيح أن يبنيها يُرمز إليها بذاك المكان فالكلمات: «أعطي السلام لهذا المكان» لا معنى لها سوى التالي: سأعطي السلام في المكان الذي يرمز هذا إليه؛ لأنّ كلّ الرموز تبدو وكأنّها تلعب دور الحقائق المرموز إليها. ألا يقول الرسول: «كان المسيح الحجر» لأنّ الحجر هذا الذي يتكلّم عنه يرمز بكلّ تأكيد إلى المسيح، أنّ مجد بيت العهد الجديد يخفي تاليًا مجد البيت الأوّل، بيت العهد القديم وسوف يسطع أكثر يوم تكريسه لأنه آنذاك يأتي «متمنّى جميع الشعوب» كما جاء في النصّ العبريّ... وفي الواقع لم يكن مجيئه الأوّل متمنّى جميع الشعوب. وعليه فهل يستطيعون أن يعرفوا مَن كانوا يتمنّون مجيئه، طالما لم يكونوا به مؤمنين؟ وإذ ذاك بحسب معنى «السبعون» النبويّ: سيأتي مختارو الربّ من جميع الأمم؛ ولن يأتي حقًّا إلّا المختارون الذين يقول عنهم الرسول ما يلي: «ذلك بأنّه اختارنا قبل إنشاء العالم» (أف ١/ ٤) وفي الواقع أنّ البنّاء نفسه الذي قال: «المدعوّون كثيرون والمختارون قليلون» (متّى ٢٢/ ١٤) لا يبني، على أولئك الذين لم يتجاوبوا مع الدعوة فمنعوا عن المائدة بل على المختارين وحدهم، متانة ذلك البيت الذي لن يخاف أيّ خراب في المستقبل. أمّا اليوم وقد امتلأت الكنيسة ممّن سوف ينقّون على البيدر فعظمة البيت هذا لن تبدو على البهاء الذي يجب أن تكون عليه حين يكون كلّ مرّة واحدةً إلى الأبد.

في الكنيسة مختارون ومنبوذون

وعليه، في هذا الجيل الفاسد وفي هذه الأيّام العاطلة تمرّ الكنيسة في أمور مذلّةٍ وعابرة فتشتري مجدها العتيد بينما يجرّبها مهماز الخوف وضيق الألم وقسوة الأشغال وخطر الامتحانات ولا يُترك لها أن تفرح إلّا بالرجاء حين تشعر بالفرح؛ عدد كبير من المنبوذين في اختلاط بالمختارين وكلّهم على اجتماع، وكأنّهم في سجن من شبكة الإنجيل؛ أنّهم يسبحون معًا بلا نظام (خلط بلط) في وسط بحر العالم وصولًا إلى الشاطئ حيث يفصل بين الأبرار والأشرار فيسكن الله في الصالحين كما لو أنّه في هيكله ليكون كلًّا في الكلّ. ونعرف تاليًا أنّ كلمة المزمور تتمّ اليوم: «فإن أخبرتُ وتحدّثتُ بها فهي أعظم من أن تحصى». (مز ٣٩/ ٦) وهذا ما يحدث اليوم من أن أعلنَ وبشّرَ، أوّلًا بلسان سابقه يوحنّا ثمّ بلسانه الشخصيّ: «توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات». (متّى ٣/ ٢). إختار تلاميذه وسمّاهم رسلًا واختارهم دون النظر إلى أصلهم ومقامهم وعلمهم حتّى يكونوا ويكون كلّ ما يعملونه من عظائم، منه وبه يعملون. بينهم واحد شرّير، استخدمه بالحسنى ليتمّم ما تقرّر لآلامه ويعطي كنيسته مثلًا في تحمّل الأشرار. يزرع، بقدر ما يلزم. بحضوره الجسديّ، الإنجيلَ المقدّس؛ ثمّ يتعذّب ويموت ويقوم من الموت مبيّنًا بآلامه ما يجب علينا أن نتحمّل في سبيل الحقيقة؛ وبالقيامة ما يجب أن نرجوه في الأبديّة دون التحدّث عن سرّ دمه

العميق المسفوك لمغفرة الخطايا. مع تلاميذه يتحدّث على الأرض طوال أربعين يومًا وأمامهم يصعد إلى السماء بعد عشرة أيّام ويرسل إليهم، بحسب وعده روح أبيه القدّوس الذي بمجيئه ظهرت علامة ضروريّة جدًّا وسامية؛ وهي أنّ كلًّا منهم راح يتكلّم بلغات الأمم كلّها رامزًا هكذا إلى وحدة الكنيسة الكاثوليكيّة المستقبليّة المنتشرة لدى كلّ الشعوب تتكلّم كلّ اللغات.

٥٠

بشارة الإنجيل تنتشر خلال عذابات القائمين بها

ومن ثمّ، وتجاوبًا مع هذه النبوءة: «من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الربّ». (مز ٢/٣) وانسجامًا مع كلام السيّد المسيح ذاته عندما فتح أذهان تلاميذه المتعجّبين ليسمعهم ما جاء في الكتب قائلًا: «هكذا كتب وهكذا كان ينبغي للمسيح أن يتألّم وأن يقوم في اليوم الثالث من بين الأموات وأن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا في جميع الأمم ابتداءً من أورشليم». (لو ٢٤/ ٤٥) ثمّ حين يُجيب تلاميذه الذين سألوه عن مجيئه الأخير قال: «ليس لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة التي جعلها الآب في سلطانه. لكنّكم ستنالون قوّة الروح القدس الذي يحلُّ عليكم فتكونون لي شهودًا في أورشليم وجميع اليهوديّة وفي السامرة وإلى أقصى الأرض». (رسل ١/ ٧). من أورشليم بدأت الكنيسة تنتشر وبعد أن اكتسبت إلى الإيمان الكثيرين في اليهوديّة والسامرة انتقلت إلى شعوب أخرى وأعلن الإنجيل بلسان مَن فقّههم المسيح بكلمته وعلى مثال مشاعل أنارها الروح القدس لأنّه قال

لهم: «لا تخافوا ممَّن يقتلون الجسد ولا يستطيعون أن يقتلوا النفس». (متّى ١٠/ ٢٨) في قلوب أولئك الرجال كان يذوب جليد الخوف على حرارة محبّتهم؛ وليسوا وحدهم هم الذين رأوه وسمعوه قبل آلامه وبعد قيامته، ولكن بعد موتهم، جميع الذين خلفوهم راحوا يعلنون الإنجيل متحمّلين أقسى الاضطهادات والعذابات التي لا توصف؛ بدم الشهداء بشّروا به وكان الله يثبّت شهادتهم بالآيات والعجائب مظهرًا قدرتهم الفائقة الوصف بمواهب الروح القدس حتّى إنّ الشعوب التي أتت للإيمان بذاك الذي صلب في سبيل فدائهم، يكرّمون، بمحبّة مسيحيّة، الدم الذي سفكوه، بثورة من الغضب جهنّميّة؛ وأيضًا إنّ الملوك أنفسهم الذين كانت مناشيرهم تعيث فسادًا في الكنيسة يخرُّون طوعًا أمام ذاك الاسم الذي يحاولون بشراسة القضاء عليه؛ وكان يبشّر بالإنجيل للقضاء على الآلهات الكذبة بينما الملوك يعلنون الاضطهاد ضدّ مَن يعبدون الإله الحقيقيّ استرضاءً للآلهة الدجّالين.

٥١

الإيمان الكاثوليكيّ يجد مقاومة لدى الهراطقة

ولكن، إذ رأوا هياكل الأبالسة تُقفر والجنس البشر يُقبل إلى الوسيط الذي جاء ليحرّرنا، راح إبليس يثير الهرطقة ليحاربوا تحت الاسم المسيحيّ العقيدة المسيحيّة كما لو أنّ مدينة الله تستطيع أن تقبلهم فيها مع ذاك التسامح اللامبالي الذي تبديه مدينة البلبلة تجاه الفلاسفة ذوي الآراء المتناقضة. إنّ الذين يبثّون

في قلب كنيسة المسيح بعض التعاليم المريضة والمؤذية ويظهرون تجاه السلطة التي تحاول معالجتهم وتصويبهم مقاومة عنيدة؛ وإذا ثابروا على الدفاع عن تلك التعاليم المميتة والخبيثة واستمرّوا فيها يدخلون في خانة الهراطقة ويخرجون منها؛ إذ ذاك تصنّفهم بين الأعداء الذين يعملون على تجربتها وامتحانها، أنّهم شرّ؛ على أنّهم يخدمون الكاثوليك الأقحاح أعضاء المسيح لأنّ الله يستخدم للخير الأشرار أنفسهم وكلّ ما يساهم في خير مَن يحبّونه. إنّ أعداء الكنيسة بأجمعهم أيًّا يكن عمى الضلال الذي فيه يتيهون أو الفساد الأخلاقيّ والخبث الذي فيه يتخبّطون يمارس عليهم صبره وطول أناته إن سمح لهم بأن يعذّبوه جسديًّا؛ ويعالجهم بحكمته إذا قاوموه بشرّ تعاليمهم ويحوطهم بعطفه وإحسانه حتّى محبّة أعدائه التي تتجسّد، إقناعًا في التعليم، أو رعبًا في التربية؛ كما وأنّ رئيس المدينة الأثيمة، إذ يثير عبيده ضدّ مدينة الله الغريبة في هذا الكون، يبقى في حمى من أذى الشيطان. لا نشكّنّ في ذلك؛ الازدهارُ تعزية ضدّ الإحباط الناتج عن المصيبة، والبليّة تجربة تسمح بها العناية لمقاومة الانحطاط الخلقيّ في الازدهار. وفي هذا المزاج الصحيح يجب البحث عن أصل هذه الكلمة من المزامير: «لمّا تكاثرت الهموم في داخلي سرَّت نفسي تعزياتك». (مز ٩٣/ ١٩) وانطلاقًا من ذلك المجال كلمة الرسول القائلة: «كونوا في الرجاء فرحين وعلى الشدّة صابرين». (روم ١٢/ ١٢).

إنّ معلّم الأمم يقول أيضًا: «كلّ مَن أراد أن يحيا في المسيحيّ حياة التقوى أصابه الاضطهاد» (٢ طيم ٣/ ١٢) ولا نتصوّرن بأنّ هذا ينقص في زمن من الأزمان؛ ومنذ أن تخفّ المشاكل الخارجيّة تاركةً

هدوءًا ظاهريًّا أو حقيقيًّا، حاملةً، لا سيّما إلى الضعفاء، تعزية كبرى يظهر دومًا عدد كبير من الأعداء الداخلين الذين يعذّبون بفسادهم قلب الأبرار، لأنّها تعتبر مناسبة للتجديف على الاسم المسيحيّ والكاثوليكيّ. وبقدر ما يكون ذاك الاسم عزيزًا على مَن يريدون أن يحيوا حياة التقوى في المسيح يتألّمون من أولئك الأشرار الداخليّين الذين لا يسمحون بأن يصل إليه الحبّ الذي ترغب النفوس القدّيسة في ذلك؛ وعندما نفكّر بأنّ للهراطقة الاسم، الأسرار، قانون المسيحيّين وأسفار المسيحيّين فذلك يؤلم كثيرًا النفوس الأمينة لأنّ اختلافات أولئك الناس تبقي الكثيرين متردّدين؛ وهم يريدون أن يعتنقوا الإيمان ويتركوا المجال لكثيرين بأن يجدّفوا على الاسم المسيحيّ الذي يحمله الهراطقة بشكل ناقص. ضياع أولئك الناس وضلالهم يشكّل نوعًا من الاضطهاد الذي يتألّم منه هؤلاء الذين يريدون أن يحيوا بالقداسة في المسيح؛ وهذا الألم ليس عذابًا جسديًّا أو ظلمًا يلحقه بهم الآخرون؛ بل نوعًا من المعاناة الباطنيّة والنفسيّة يعبّر عنها المزمور بقوله: «تكاثرت الهموم في داخلي» لا يقول النبيّ «في جسدي» وكما نعلم أنّ وعود الله ثابتة لا تتغيّر يقول الرسول: «إنّ الربّ يعرف ذويه» (٢ طيم ٢/ ١٩) ومن بين هؤلاء المختارين: «أعدّهم قديمًا لأن يكونوا على مثال صورة ابنه». (روم ٨/ ١٩) ولا أحد يهلك؛ ويضيف صاحب المزامير: «سرَّت نفسي تعزياتك». لأنّ الألم الذي تشعر به قلوب الأبرار بسبب سوء أخلاق المسيحيّين الأشرار والكذبة ينفع الحزانى لأنّ مبعثه المحبّة التي تقلق عليهم وعلى الذين يمنعونهم عن الخلاص. وأخيرًا تعزيات كبرى تنشأ بعودة أولئك الناس وتوبتهم وتخرق

النفوس التقيّة بفرحٍ يضاهي الألم الذي نشأ فيها بسبب هلاكهم.
وعلى هذا النحو، في هذا الدهر، في هذه الأيّام الصعبة، ليس فقط من الوقت الذي ظهر فيه المسيح بالجسد وانطلاقة رسله بل منذ هابيل البارّ الأوّل، ضحيّة أخيه الخاطئ، ومن الآن وحتّى نهاية الأزمنة، فالكنيسة تتابع محبّتها فوق هذه الأرض بين اضطهادات العالم وتعازي الله لها.

٥٢

إضطهادات كثيرة تنتظر الكنيسة قبل مجيء المسيح الدجّال

ولا أظنّ أنّ من الضروريّ القول والاعتقاد، بلا تبصّر، بما يدّعيه أو ادّعاه الكثيرون بأنّ الكنيسة في المستقبل وحتّى مجيء المسيح الدجّال لن تعرف اضطهادًا جديدًا غير الاضطهادات العشرة التي تحمّلتها، ولم يبق لها سوى الاضطهاد الأخير الحادي عشر أي اضطهاد المسيح الدجّال. فالأوّل، بنظرهم، هو اضطهاد نيرون والثاني لدوميسيان والثالث لتراخانوس والرابع لأنطونان والخامس لساويروس والسادس لمكسيمان والسابع لداسيوس والثامن لغاريانوس والتاسع لأورليانوس والعاشر لديو كلسيانوس ومكسيميانوس. ضربات مصر العشر التي سبقت خروج شعب الله قد ترمز إلى تلك الاضطهادات والأخيرة هي ضربة المسيح الدجّال التي قد تشبه الحادية عشرة عندما انشقّ البحر الأحمر أمام شعب الله وأغرق المصريّين الذين كانوا يلاحقونه. غير أنّي لست أرى في تلك الأحداث القديمة صورة نبويّة عن الاضطهادات؛ وإن يكن مؤيّدوها قد رأوا في المقارنة

الدقيقة بين الأحداث أكثر من صلة لبقة أو شبهةً؛ إنّما ليس في الأمر وحي نبويّ بل فرضيّة اخترعها العقل البشريّ الذي يقود تارة إلى الحقيقة وطورًا إلى الضلال.

وأخيرًا، ما قولهم في الاضطهاد الذي رفع المسيح على الصليب؟ وأيّ دور يرسمون له؟ إن استثنوه من حسابهم وإن لم يحسبوا سوى اضطهاد الجسد واستثنوا ما يضرب الرأس ويقطعه فماذا يصنعون بالاضطهاد الذي حلّ بأورشليم بعد صعود المسيح إلى السماء الذي رُجم فيه إسطفانوس البارّ وقطع فيه رأس يعقوب أخي يوحنّا وفيه انتقل بطرس من السجن إلى التعذيب وخلّصه منه ملاك وفيه طرد الإخوة من أورشليم وتشتّتوا وفيه شاول الذي أصبح رسولًا باسم بولس يجتاح الكنيسة أوّلًا ثمّ يعود فيبشّر بالإيمان الذي كان يضطهده ويتحمّل بدوره ما كان يعذّب به في اليهوديّة، لدى الأمم الغريبة وحيثما حملته غيرته للتبشير بالمسيح؟ ولماذا يريدون أن يبدأوا عذابات الكنيسة مع نيرون طالما أنّها وصلت إلى عهده متناميةً خلال تجارب دمويّة رهيبة؟ وإذا اعتبروا فقط الاضطهادات الذي أنزلها الملوك فهل ينسون هيرودس وجنونه بعد صعود الربّ؟ وما قولهم عن جوليانوس الذي لا يضعونه بين المضطهدين العشرة؟ ألم يضطهد الكنيسة عندما حرّم على المسيحيّين أن يدرسوا أو يدرّسوا العلوم الإنسانيّة؟ وفي عهده فالنتينانوس الإمبراطور الثالث المعتبر بمنزلة معترف بالدين المسيحيّ جُرِّد من رتبته العسكريّة. لست أتكلّم عن الاضطهاد الذي باشر به جوليانوس في أنطاكية حين أوقفه إيمان بطوليّ لشابّ سيق إلى العذاب بين كثيرين على مثاله؛ وإذ كان الأوّل بين المعذّبين، طوال يوم بكامله، دون أن يكفّ عن

إنشاد الترانيم الروحيّة، وسط أظافر الحديد ومناصب التعذيب، استرعى انتباه الأمبراطور بعدم اكتراثه لما يُسامُ به من عذاب؛ بل كان فرحًا لا يرهب شيئًا وخاف أن يلقى من سائر المؤمنين مزيدًا من الخجل والعار. وأخيرًا في أيّامنا شقيق فالنتنيانوس فَالَنس الأريوسيّ ألم يمارس على الكنيسة الكاثوليكيّة اضطهادًا رهيبًا؟ وماذا أقول؟ ألأنّ الكنيسة تنمو وتخصب في العالم لم يعد الإنسان يلاحظ ما ينزل بها بعض الملوك من اضطهاد قاس بينما تكون بخير في محلّ آخر؟ ألا يجب أن نحصي بين الاضطهادات، الشراسة الفظيعة التي واجه بها ملك الغوط، الكاثوليك في بلادهم وقد استشهدوا تقريبًا جميعهم كما أخبرنا بذلك كثيرون من إخواننا الذين كانوا شهودًا في طفولتهم على تلك المشاهد البربريّة التي ما زالوا يذكرونها؟ وفي الماضي في بلاد فارس ألم ينشب اضطهاد (قد لا يزال قائمًا حتّى اليوم) عنيف اضطرّ بسببه الكثيرون إلى اللجوء إلى المدن الرومانيّة. كلّما زدت تفكيرًا به بدا لي ممكنًا تحديد عدد الاضطهادات التي عانت منها الكنيسة؛ ومع ذلك فالتأكيد بأنّها سوف تعاني الكثير منها على أيدي الملوك قبل الاضطهاد الأخير الذي لن يطعن بصحّته أحد ولن يكون أقلّ خسارة. إنّنا نترك المسألة متأرجحة بين الشكّ واليقين دون أن نثبت شيئًا أو نعكس شيئًا آخر ولا ننفي سوى الافتراض الجسور الذي يثبت أو ينفي هذا أو ذاك من الرأيين.

٥٣

الاضطهاد الأخير يقضي عليه نهائيًا المسيح

أمّا ذلك الاضطهاد الأخير الآتي من المسيح الدجّال فالمسيح نفسه يخنقه بحضوره فيقول الكتاب: «ذاك الذي يبيده الربّ بنَفَسٍ من فمه ويمحقه بضياء مجده» (٢ تس ٢/٨) متى؟ يتساءل الناس، عادةً، وفي غير وقته. لو كان لنا أن نعرفه فمَن ذا يجيب على ذاك السؤال أفضل من إلهنا ومعلّمنا لتلاميذه الذين يسألونه؟ وبدلًا من أن يلزموا الصمت بالقرب منه طرحوا عليه السؤال وهو حاضر: «يا ربّ إن ظهرت في ذلك يا ربّ فمتى تعيد الملك إلى إسرائيل؟» (رسل ١/٦) لكنّه أجاب: «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي حدّدها الآب بذات سلطانه». (رسل ١/ ٧) ولا يسألون عن الساعة واليوم والسنة ومع ذلك، ذاك هو الجواب الذي أعطي لهم. وعليه، فعبثًا نسعى إلى حساب السنين وتحديدها لنعرفها في الزمن الراهن، حين نتعلّم من فم الحقيقة أنّ ليس لنا أن نعرفها. ومع ذلك يعمل الإنسان، صدفة، حسابات من أربعمئة سنة وخمسمئة وألف سنة من صعود الربّ إلى السماء حتّى مجيئه الأخير. الدلالة على الأسلوب الذي به يسند كلّ واحدٍ رأيه فهذا شيء طويل وغير ضروريّ. كلّها افتراضات بشريّة ليس إلّا؛ ولا تأخذ شيئًا من سلطة الأسفار الشرعيّة. لكنّ الذي قال: «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي حدّدها الآب بذات سلطانه».

ولكن، بما أنّ هذه هي كلمة من الإنجيل، هل يعتبر الأمر

مستغربًا لكونها لم تمنع عبّاد الأصنام من أن ينسبوا إلى الأبالسة، آلهتهم، أجوبةً تحدّد زمن الديانة المسيحيّة. وفي الواقع، أمّا وقد رأوا بأنّ قدرات الديانة المسيحيّة بقيت صامدة بوجه الاضطهادات الدمويّة وأخذت تستمدّ منها نموًّا عجيبًا، راحوا يتخيّلون أبياتًا من الشعر اليونانيّ، وكأنّها جواب إلههم الذي، والحقّ يُقال، يغفر لربّنا ويحلّه من هذا الجرم المزعوم المدنّس للمقدّسات؛ ولكنّه يعزو إلى بطرس استعمال السحر ليفرض على الناس عبادة اسم يسوع على مدى ثلاثمئة وخمس وستّين سنة التي عند نهايتها انطفأت فجأة. يا للأفكار البشريّة السامية! يا للعقول النيّرة والمؤهّلة لأن تعتقد بذلك عن المسيح وترفض الإيمان بالمسيح! ليس هو الذي يعلّم السحر تلميذه بطرس؛ إنّه بريء من تلك الخزعبلات؛ تمجيدًا لمعلّمه، لا لنفسه، يقدّم ذلك التلميذ أفعاله وما يكابد من أخطار وحتّى دمه! إن كان بطرس يقوم بكلّ ذلك لكي يؤمن العالم بالمسيح فماذا فعل المسيح البريء ليحبّه بطرس بهذا المقدار؟ عليهم أن يجاوبوا أنفسهم، وإن أمكن، فليدركوا أنّ تلك النعمة الإلهيّة التي تجعل المسيح محبوبًا لدى بطرس لكي يعطيه الحياة الأبديّة ويتحمّل، حبًّا به، الموت الزمنيّ!! ومن ثمّ، مَن هم أولئك الآلهة الذين يتكلّمون عن الغيب ولا يستطيعون أن يمنعوا؛ ساحر يتغلّب عليهم؛ وتقدمة سحريّة فيها، على حدّ قول الناس، يُذبح طفل ثمّ يقطع ويدفن مشفوعًا بأعمال طقسيّة منكرة تستهويهم! ويدعون على مدى طويل شيعةً مناوئة لهم تنمو وتنتصر، دون مقاومة، ولكن لشدّة ما يعانون من الاضطهادات العنيفة يتركون المجال لذلك النصر فيمتدّ ويهدم تماثيلهم وهياكلهم وعباداتهم ويقضي

على أقوال آلهتهم! مَن هو، أخيرًا، الله إلههم وبالطبع ليس إلهنا، الذي فوجئ بمثل ذاك الإثم الكبير وارتضى به؟ لأنّ تلك الأبيات الشعريّة لا توجّه إلى شيطان بل إلى إله وتتّهم بطرس بإقامة شريعته المنتهكة للقدسيّات على السحر! مبروك عليهم مثل ذلك الإله أولئك الذين يرفضون أن يكون المسيح إلهًا لهم.

٥٤

بطلان الزعم القائل بأنّ الثلاثمئة والخمس والستّين قد بدأت بمجيء المسيح وانتهت منذ سنوات

تلك هي الأسباب، التي أقدّمها ممّا لديّ، وقد انقضت تلك السنة التي وعدتْ بنبوءة كاذبة وصدّقها، بسرعة، السخفاء الذين انتظروها؛ أنّ الثلاثمئة والخمس والستّين سنة التي بدأت مع مجيء اسم المسيح والعبادة التي ظهرت بتجسّده ومواكبة الرسل له قد انتهت منذ سنوات؛ تلك أمور كافية لإظهار بطلان ما يزعمون. إنّ أصل هذا الحدث الهامّ لا يؤرّخ مع ولادة المسيح الذي في طفولته وسنيه الأولى لم يكن له تلاميذ؛ وممّا لا شكّ فيه أنّه قد بدأ يجمع تلاميذ حوله بعد عماده على يد يوحنّا في مياه الأردنّ ومن ثمّ أخذ يعلّم وانطلق الدين المسيحيّ. ذاك، في الواقع، ما تشير إليه النبوءة القائلة: «ويملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض». (مز ٧١/٨) ولكن، بما أنّ الإيمان به لم يكن معلنًا على الجميع قبل آلامه وقيامته من بين الأموات (لأنّ الإيمان به أعلن في القيامة بحسب ما جاء في كلمة بولس إلى أهل أثينا: «... وقد جعل للناس أجمعين

برهانًا على الأمر، إذ أقامه من بين الأموات» (رسل ١٧/ ٣٠)
يفضّل، حسمًا لهذه المسألة، افتتاح الزمن المسيحيّ هنا، ولا
سيّما لأنّ الروح القدس أعطي آنذاك كما يجب أن يكون، بعد
قيامة المسيح في المدينة التي كان عليها أن ترى ولادة الشريعة
الجديدة، العهد الجديد. إستلم موسى الأولى على جبل سينا،
وهو العهد القديم. أمّا الشريعة التي جاء بها المسيح فقد قيل
عنها: «من صهيون تخرج الشريعة وكلمة الربّ من أورشليم».
(أش ٢/ ٣). وهو يقول أيضًا إنّه يجب أن تبشّر جميع الأمم
باسمه للتوبة بدءًا من أورشليم حيث يبدأ الإيمان بذاك الاسم
ويرتفع الإيمان بيسوع المسيح المصلوب والقائم من الموت.
ويشار إلى ذلك الإيمان الذي ابتدأ، بحرارة فائقة الوصف، فراح
عدّة ألوف من المؤمنين بالمسيح، بسرعة مذهلة، يبيعون مقتنياتهم
ويوزّعون أثمانها على الفقراء؛ وانطلاقًا من غيرة مقدّسة ومحبّة
حارّة يلتزمون الفقر الاختياريّ ويستعدّون، بين اليهود المضطربين
العطاش إلى الدماء، للدفاع حتّى الموت بأقوى سلاح وهو
الصبر. إن لم يكن للسحر مكان ها هنا فلِمَ التردّد في الاعتقاد
بأنّ القدرة الإلهيّة تستطيع أن تعمل في العالم كلّه الأعجوبة التي
عملتها في هذا المكان؟ وبالعكس، إذا كان يجب أن نعزو إلى
خزعبلات بطرس هذا الحماس لعبادة اسم المسيح الذي ألهب
فجأة تلك المجموعة من الناس الذين قبضوا على المسيح
وصلبوه وسمّروه على الصليب وأشبعوه إهانات؛ يجب أيضًا أن
نبدأ العدّ من تلك السنة أيضًا لذلك الحدث حين تمّت الثلاثمئة
والخمس والستّون سنة. بيد أنّ المسيح مات في عهد قنصليّة
جامينوس في الثامن من غرّة شهر نيسان وقام في اليوم الثالث

أمام أعين تلاميذه. وبعد أربعين يومًا صعد إلى السماء؛ بعد صعوده
بعشرة أيّام، أي في اليوم الخمسين من بعد قيامته أرسل، روحه
القدّوس (رسل ٣/ ١-٨) آنذاك آمن به ثلاثة آلاف إنسان بناءً على
تبشير رسله. ومنذئذ، بدأ الإيمان باسمه يرتفع بقوّة الروح
القدس، بحسب إيماننا وبحسب الحقيقة؛ بقوّة بطرس حسب ما
جاء في أكاذيب الأئمّة وأضاليلهم. ومن ثمّ، حين تقدّم منه
أعرج منذ ولادته وكان يُحمل دومًا إلى باب الهيكل طلبًا
للصَدَقة، بكلمة من بطرس وباسم المسيح شُفي الأعرج فاعتنق
الإيمان المسيحيّ خمسة آلاف رجل. وعلى هذا النحو راح عدد
المؤمنين يتزايد. من السهل جدًّا تحديد اليوم الذي تبدأ فيه تلك
السنة؛ إنّه اليوم الذي أرسل فيه الروح القدس أي في شهر أيّار.
وإذا ما حسبنا عدد القناصل نجد أنّ الثلاثمئة والخمسة والستّين
سنة قد انتهت في أيّام أيّار في عهد القنصلين هونوريوس
وأوتخيانوس. على أنّه خلال السنة التالية وفي عهد منليوس
تيودورس واستنادًا إلى مقولة الأبالسة أو الناس الكذبة ما كان
ليبقى أيّ أثر للدين المسيحيّ؛ وماذا حصل في سائر أجزاء
الكون؟ لا همّ؛ إنّما الذي نعرفه دائمًا هو أنّه في أشهَر المدن
الأفريقيّة وأولاها، في قرطاجة، في الرابع عشر من نيسان
غودنسيوس وجوقيوس نبيلا الأمبراطور هونوريوس، يهدمان
هياكل الآلهة الكذبة ويحطّمان التماثيل فيها. ومنذئذ، حتّى هذا
النهار، على مدى ثلاثين سنة تقريبًا، مَن ذا الذي لا يرى كم قد
انتشر الإيمان باسم المسيح، وبخاصّة بعد تلك الاهتداءات
العديدة التي تمّت في صفوف أولئك الذين كانوا يصدّقون أمورًا
باطلة تمنعهم من الإيمان فتحرّروا من تلك الأوهام السخيفة بعد

انتهاء السنة المشؤومة؟ بالنسبة إلينا نحن معشر المسيحيّين. الحاملين لهذا الاسم، لسنا نؤمن ببطرس بل بالذي آمن به بطرس. إنّ كلمة بطرس عن المسيح تبني ولا تسحرنا؛ وبطرس ليس شرّيرًا ليخدعنا بل محسن يساعدنا. إنّ المسيح معلّم بطرس في ما يقود إلى الحياة الأبديّة هو أيضًا معلّمنا.

إنّما حان الوقت لكي أختم هذا الكتاب بعد نقاش قمت به حتّى الآن ورسمت بما فيه الكفاية مسيرة المدينتين، مدينة الأرض ومدينة السماء المتداخلتين ها هنا منذ البداية إلى النهاية. إحداهما مدينة الأرض صنعت لنفسها ما شاءت من الآلهة، آلهة كذبة في كلّ مكان حتّى بين البشر، مقدّمة لهم القرابين والإكرام. والأخرى، المدينة السماويّة، المسافرة فوق هذه الأرض لم تصنع لنفسها آلهة؛ لكنّ الله صنعها لتصبح له قربانًا حقيقيًّا؛ وكلتاهما مدعوّة إلى التمتّع بالخيرات واختبار الضيقات الزمنيّة، لكنّهما تختلفان إيمانًا، رجاءً ومحبّة إلى يوم تفصل بينهما الدينونة الأخيرة لتصل كلّ منهما إلى نهايتها التي لا تعرف النهاية التي تنتظر كلًّا منهما والتي يجب علينا أن نناقشها فيما بعد.

الكتاب التاسع عشر

مقدّمة

من أهمّ كتب مدينة الله الكتاب التاسع عشر. فيه يبلغ الكاتب الهدف المنشود وهو الربط بدقّة بين مصير المدينتين الأرضيّة والسماويّة. إنّه يناقش على طريقة الفلاسفة مسألة ما تهدف إليه الحياة البشريّة ونوعيّة السعادة التي لا يمكن أن تحقّق من خلال مفهوم شيشرون للفضائل. ويبدو، في تفسيره للسعادة، ميل إلى طريقة أرسطو لا إلى أفلاطون؛ ويُعلي في درسه من قيمة قدرة الطبيعة وجودتها. الرغبة في السلام أقوى من كلّ شر؛ ويرافق الشرّ باستمرار رغبة في خيرٍ ما. ويتوسّع أوغسطينس في درس خيور هذا العالم، خيور المدينة الأرضيّة التي تخدم مدينة الله.

تلك هي أُسس الوجود السياسيّة؛ وبها يحدّد الشعب والدولة؛ ويبلغ نوعًا من توازن نادر إذ أنّ فكرته الوجوديّة لا تقبل بوجود شعب أو دولة إلّا حيث تجمُّع لكثرةٍ تريد أن تعيش بموجب قانون مرضيّ به، في إطار من المصالح المشتركة؛ وهذا ما يسمح له بأن ينسب إلى الشعب الرومانيّ أو يرفض له، بحسب ظروف وجوده الخاصّة، ما يجعله شعبًا يكوّن دولة. ومن خلال ذلك الموقف المبدئيّ نشأت الأوغسطينيّة السياسيّة التي خلقت

نقاشًا حادًّا وكبيرًا.

مدينة الله هي المدينة التي تقدّم إلى الله الحقّ عبادةً صحيحة. وينهي المؤلّف هذا الكتاب حول هويّة الشعب المختصّ بالله، الذي يعتبر الربّ إلهه ملتزمًا هذا الدعاء اليوميّ «أترك لنا ذنوبنا» رافضًا رأي الأفلاطونيّة الحديثة القائل «بإله اليهود» وليس «بإله المسيحيّين».

١

النقاش الفلسفيّ في الخير الأسمى والشرّ الأعظم

بقي عليّ أن أناقش الهدف الذي تتوق إلى تحقيقه كلّ من هاتين المدينتين الأرضيّة والسماويّة؛ ولهذا سأكتفي بعرض أفكار الناس حول ما يعتبرونه سعادة لهم في حياة الشقاء هذه، لأشير، على نور السلطان الإلهيّ وعلى أنوار العقل التي تسمح لي بها مصلحة غير المؤمنين، إلى الفرق الشاسع بين أوهامهم الباطلة وحقيقة الرجاء الذي ينفحنا الله به وهي حقيقة توازي السعادة المرجوّة من الله؛ لأنّ مشكلة الغاية المنشودة من الخيور والشرور تثير لدى الفلاسفة جدلًا طويلًا؛ وإذ ناقشوها بعمقٍ اهتمّوا في اكتشاف ما يجعل الإنسان سعيدًا. وفي الواقع، إنّ الغاية من خيرنا هو ما يجب أن يسعى إليه الإنسان بكلّيّته وبحدّ ذاته، والغاية من الشرّ ما يجب أن يتجنّبه بكلّيّته وبحدّ ذاته. وعلى هذا النحو أنّنا نعني بالخير، ما يحقّقه؛ ولوصوله إلى كماله لا ما يقضي عليه نهائيًّا. كما أنّ غاية الشرّ لا ما يقضي عليه نهائيًّا بل

ما يوصله، من الأذى، إلى الذروة. هاتان الغايتان هما الخير الأسمى والشرّ الأقصى.

واكتشافهما، أي البلوغ، في هذه الحياة، الخير الأسمى واجتناب الشرّ الأقصى، اللذين استهلكا، في هذا العالم الزائل، دارسي الحكمة الذين لم تسمح لهم، على ما في ضلالهم من تنوّع، غريزتهم الطبيعيّة، بالتخلّي، إلى حدٍّ كبير، عن طريق الحقيقة؛ فوضعوا في النفس غاية الخيور والشرور؛ وأولئك وضعوها في الجسد، والآخرون، في الاثنين معًا. واستنادًا إلى هذا التقسيم الثلاثيّ في الفئات العامّة جاء فرّون ليضع في كتابه «الفلسفة» بدقّة وعمق، هذا العدد الضخم من الآراء العقائديّة فيصل بسهولة إلى مائتين وثمان وثمانين شيعة، إن لم تكن حقيقيّة، فأقلّه، ممكنة، مع القبول ببعض فوارق.

أريد أن أبيّن، بقليلٍ من الكلام، الأسلوب الذي يتّبعه، وبادئ ذي بدءٍ، على مثال ما يعمل في كتابه، أنّ هناك أربعة أشياء يسعى إليها الناس بالفطرة، بمعزل عن أيّ أستاذ أو مندوب أو موجّه أو أسلوب في العيش يتعلّمه ليصبح ملكة فيه؛ وهذه الأشياء الأربعة هي: اللذّة التي تقوم على إثارة الحواسّ حتّى النشوة، والراحة أو الخلوّ التامّ من كلّ ألم جسديّ أو الاثنتان معًا اللتان يجمعهما أبيكور تحت اسم اللذّة؛ أو بشكل عامّ الخيور الأولى للطبيعة التي تتضمّن السابقتين وسواهما أيضًا كالصحة الجسديّة وسلامة الأعضاء؛ وأدبيًّا المواهب العقليّة الموزّعة دون تكافؤ. إنّ تلك الأشياء الأربعة: اللذّة والراحة واللذّة والراحة، الخيور الأولى للطبيعة هي في صميمنا حتّى إنّه يجب علينا، حصولًا عليها، أن نبحث عن الفضيلة، ثمرة التربية النهائيّة؛ أو أن نبحث عنها

وصولًا إلى الفضيلة أو أن نبحث عنها حبًّا بها؛ وهذا التمييز يُنتِجُ اثنتي عشرة شيعة. في الواقع، استنادًا إلى هذه القاعدة يصبح كلٌّ منها ثلاثيًّا؛ والبرهان الذي أنوي تقديمه على هذه، بنوعٍ خاصّ، يمكن أن يُستعمل بسهولة على سائر الأخرى لأنّ اللذّة خاضعة للقوّة أو مفضّلة عليها أو مشاركة لها: ثلاث شيع متباينة. تكون خاضعة لها عندما نعتبرها أداة لها. وعلى هذا النحو من واجب تلك القوّة أن تعيش في سبيل الوطن وتعطيه أولادًا. وإتمام ذاك الواجب المزدوج لا يستغني عن اللذّة الجسديّة لأنّها الشرط الضروريّ للغذاء والشراب اللذين تعتمد عليهما الحياة الرفيقة الدائمة للزواج الذي به تستمرّ الأجيال. ولكن حين يفضّلها المرء على الفضيلة فذلك يعني أنّه يسعى إليها، بحدّ ذاتها، ويصبح من الواجب تسمية الفضيلة أداة للحصول على اللذّة أو الاحتفاظ به. ما أكره الحياة التي تسود اللذّة عليها وتكون الفضيلة أسيرة لها! ولكن، ماذا أقول؟ لا شيء هنا يستحقّ ذاك الاسم؛ لم يعد هناك سوى سفالة ممقوتة تجد بين الفلاسفة محامين لها ومدافعين عنها. وأخيرًا تشارك اللذّة في الفضيلة عندما لا يطلب الإنسان الواحدة في سبيل الأخرى بل حين يطلب الواحدة بحدّ ذاتها ولذّاتها. وبما أنّ شروط اللذّة الخاضعة لسواها مختلفة، سواء أكانت مفضّلة على الفضيلة أو مشتركة معها تكوّن، ثلاث شيع هكذا هي الراحة وهكذا هي اللذّة والراحة وهكذا هي الخيور الأولى الطبيعيّة تكوّن كلّ منها ثلاث شيع أخرى؛ لأنّ تلك الأشياء؛ بحسب تنوّع الآراء البشريّة، تارةً خاضعة لأشياء أخرى وطورًا مفضّلة وأحيانًا مشاركة في الفضيلة لنصل إلى اثنتي عشرة شيعة وهو عدد يضاعف، إن شئنا، فرقًا، شيعة الحياة الاجتماعيّة؛ لأنّ الإنسان إذا تمسّك

بواحدةٍ من تلك الشيع يقترح إمّا مصلحته الخاصّة أو في الوقت عينه مصلحةَ آخرَ يتّحد به ويريد له ما يريد لنفسه. ومن ثمّ نجد اثنتي عشرة شيعة من الفلاسفة؛ يتمسّك كلّ منهم بشيعته حفاظًا على مصلحته الشخصيّة واثنا عشر يدّعون الانتماء إلى هذا النوع أو ذاك من الفلسفة لا، لأجل أنفسهم بل لأجل الآخرين الذين يهمّهم خير الآخرين كخيرهم الشخصيّ؛ على أنّ تلك الشيع الأربع والعشرين تتضاعف عددًا بإضافة الفرق المأخوذ من الأكاديميا الجديدة وترتفع إلى ثمان وأربعين. لأنّ كلًّا من تلك الشيع الأربع والعشرين مؤهّلة لأن تكون كلّ منها محتواةً ومعتبرةً أكيدة؛ وعلى هذا النحو مثلًا يعبّر الرواقيّون، كشيءٍ أكيد، أنّ خير الإنسان الأسمى، يرتكز فقط على فضيلة النفس؛ وقد تعتبر كلًّا منها شيئًا غير أكيد، وعلى هذا النحو فإنّ المجمعيّين لا يعتبرون شيئًا أكيدًا بل فقط مقبولًا. وعليه فها هي أربع وعشرون شيعة تنسب لتعاليمها ضمان الحقيقة وأربع وعشرون أخرى تتبع آراءها مع أنّها غير مؤكّدة وبما أنّ الإنسان يستطيع أن يتبع تلك الشيع الثماني والأربعين بتعلّقه إمّا بأسلوب حياة الفلاسفة الآخرين وإمّا بأسلوب حياة الفلاسفة الكلبيّين يُضاعف هذا الفرقُ عددهم ليصبح ستًّا وتسعين. وأخيرًا كيف يستطيع الإنسان أن يعتنق كلًّا من تلك الشيع دون أن يطلّق مباهج الحياة الخاصّة؟ بعضهم مال إلى الدرس، قصدًا، أو رغمًا عنه؛ وبعضهم الآخر بقي مهتمًّا بالأشغال، وكثيرون، سواهم، لم يمنعهم التعاطي في الأمور الرسميّة وإدارة الشؤون الإنسانيّة، من الاهتمام الجدّيّ بالفلسفة. أو بالأحرى، مع الحفاظ على مزاجٍ يجمع بين النشاط والراحة، كثيرون وزّعوا أوقاتهم بين العمل المجدي والدرس الحرّ فنتج عن

ذاك التباين في النشاطات المتعدّدة أن زاد عدد الشيع ثلاثة أضعاف حتّى أصبح مائتين وثمانٍ وثمانين.

ذاك ما أخذته عن كتاب فرّون بإيجاز ووضوح، وفق ما سمحت لي الظروف، واضعًا كلامي تحت تصرّف أفكاره. ولكن، كيف يختار شيعة دون سواها فيدحضها؟ وهل يختار شيعة أخرى يدّعي أنّها شيعة المجمعيّين القدماء ومن أفلاطون مؤسّسها حتّى Polémon بوليمونيوس الخلف الرابع لأفلاطون، فيقول عنه إنّه علّم تعاليم أكيدة بخلاف المجمعيّين المحدَثين الذين يقولون إنْ لا شيء أكيد؛ وهم يكوّنون مدرسة جديدة بدأت مع أرخزيلاس Archésilas الذي خلف بولميونوس. وكيف يقول عن تلك الشيعة، شيعة المجمعيّين القدماء أنّها هي أيضًا معصومة عن الخطأ والشكّ؛ ذاك ما يطول بنا الكلام التفصيليّ عنه؛ ولا نستطيع أن نلتزم الصمت تجاهه. في البدء يضع جانبًا كلّ تلك الفوارق التي زادت كثيرًا عدد الشيع ويظنّ أنّ من واجبه أن يضعها جانبًا لأنّها تخلو من غاية الخير ولا يسمّي شيعة إلّا التي تجاري الشيع الأخرى في ما يتعلّق بمسألة غاية الخيور والشرور. وما من سبب يحمل الإنسان على درس الفلسفة سوى ما يشعر به من رغبة في السعادة؛ أمّا ما يجعل الإنسان سعيدًا فهي تلك الغاية من الخير. وعليه فما من داعٍ إلى الفلسفة سوى الخير. وتاليًا كلّ شيعة لا تبغي الخير لا يمكن أن تسمّى شيعة فلسفيّة. وعلى هذا النحو، حين يسأل إنسانٌ هل يجب على الحكيم أن يتعلّق بالحياة الاجتماعيّة لكي يريد الخير لصديقه فيوفّره له كي يؤمّنه لنفسه، ذاك الخير الأسمى الذي يجعل الإنسان سعيدًا أم إذا وجب عليه أن يوجّه نشاطه كلّه لنفسه دون سواه؟ إذ ذاك لن يعود الخير خيرًا أسمى بل خيرًا يشاركه فيه آخر؛ وهي

مشاركة في تقاسم الخير والفرح. ومن ثمّ، أمّا بشأن المجمعيّين المحدَثين الذين لا يعتبرون شيئًا مؤكّدًا لديهم فيتساءل الإنسان هل يجب أن يدخل الشكّ أيضًا في موضوع الفلسفة أو القبول به كشيء مؤكّد مع سائر الفلاسفة الآخرين إذ ذاك لن يكون الأمر متعلّقًا بتحديد الغاية المنشودة بل إن وجب الشكّ أم لا بحقيقة الخير الذي نظنّ أنّ من الواجب أن ننشده؛ وبتعبير آخر إن طالب به أحدهم، بصفته خيرًا حقيقيًّا، وطالب به آخر بصفته خيرًا مقبولًا، هذا إذا لم يكونا على خطأ، فكلاهما متّفق على نشدان الخير الوحيد ذاته. وهكذا فإنّ الفرق بين العادة وطريقة عيش الفلاسفة الكلبيّين لا يلامس مسألة الخير الأسمى إنّما يوحي بما يلي: هل يجب على الإنسان أن يسلك مسلك الكلبيّين حصولًا على الخير الحقيقيّ أيًّا يكن ذاك الخير الذي يبدو حقيقيًّا وجديرًا بأن يسعى الناس إليه؟ وفي النهاية، هناك أناس وضعوا الخير في غايات متباينة. منهم مَن وضعه في الفضيلة ومنهم مَن وضعه في اللذّة وجميعهم يسلكون مسلك الكلبيّين في الحياة؛ وعلى هذا النحو، أنّ ما يميّز بين الكلبيّين وسائر الفلاسفة يبقى غريبًا عن اختيار الخير الذي يؤمّن السعادة وبعيدًا عن الأسلوب الذي يوصل إليه. وأيًّا يكن التباين فإنّ التشابه في العادات يفرض العمل في اتّجاه الغاية عينها؛ في حين أنّ الاختلاف بينها لا يسمح بالعمل لتحقيقها.

٢

إنّ هذا الإقصاء يدفع فرّون إلى تحديد أنواع الخير الأسمى

أمّا الأساليب الحياتيّة الثلاثة، فأحدها للراحة لا للخمول؛

وللتأمّل والبحث عن الحقيقة؛ وثانيها مهتمّ بتدبير الأمور البشريّة وثالثها جامع بين النشاط والراحة حتّى إذا تساءلنا عن أيٍّ من الثلاثة يقع اختيارنا فلسنا نناقش موضوع الخير الأسمى بل، أسلوب الحياة الأفضل، حصولًا عليه واحتفاظًا به؛ ومنذ أن يبلغ الإنسان ذلك الخير السامي، يصبح سعيدًا، في حين أنّ الفراغ من الدرس أو الانشغال بالأمور اليوميّة أو التأرجح بين الراحة والعمل لا يملّك الإنسان، للحال، السعادة المنشودة. وفي الواقع، كثيرون يستطيعون سلوك نوعٍ من تلك الأنواع الثلاثة والانخداع في سعيهم إلى الخير الأسمى الذي فيه سعادة الإنسان السميا. وعلى هذا النحو فإنّ مسألة غايات الخيور والشرور التي تكوّن كلّ شيعة من شيع الفلاسفة هي مسألة مختلفة عن تلك التي تعود إلى الحياة المدنيّة، إلى شكّ المجمعيّين وإلى ثوب الفلاسفة الكلبيّين وعادتهم وإلى أنواع الحياة الثلاثة، حياة الراحة، حياة العمل وحياة الاثنين معًا وهي مسائل تُهمل فيها الغايات المنشودة من الخيور والشرور؛ على أنّنا إذا قبلنا بتلك التباينات الأربعة (منها الناتج عن الحياة المدنيّة وعن المجتمع الجديد وعن الفلاسفة الكلبيّين وأساليب الحياة الثلاثة) فإنّ فرّون الذي كان قد وصل إلى مائتين وثمان وثمانين شيعة يضعها كلّها الآن جانبًا، لكونها غير مؤهّلة للسعي إلى الخير الأسمى أي لكونها ليست شيعًا ولا تستحقّ أن تحمل ذاك الاسم. وضعها جانبًا وأرجعها إلى تلك الاثنتي عشرة حيث هو الخير الأسمى للإنسان، وهو خير أن امتلكه الإنسان أصبح سعيدًا لكي يبرهن عن أنّ فيها كلّها، واحدةً فقط في الحقيقة، والأخرى بأجمعها، في الضلال. وفي الواقع، ضعوا جانبًا أسلوب الحياة، هذا الثلاثيّ، واحذفوا

ثلثي العدد الكامل يبقى ستّ وتسعون شيعة. ضعوا جانبًا الفرق المسحوب من الكلبيّين تنقص الشيع حتّى الضعف، حتّى ثمانٍ وأربعين. واطرحوا الفرق الخاصّ بالمجتمع الجديد ينقص كذلك النصف وتصل إلى أربعٍ وعشرين. وأخيرًا اطرحوا الفرق الخاصّ بالحياة المدنيّة فلن يبقى سوى اثنتي عشرة شيعة وهو الرقم الذي كان الفرق يضاعفه ويوصله إلى أربع وعشرين. أمّا تلك الشيع الاثنتا عشرة فلا اعتراض عليها لكونها تلاحق غايات الخيور والشرور. وبما أنّ غايات الخيور محدّدة فإنّها تعطي حتمًا الغايات المضادّة، غايات الشرور. ولكي تتكوّن تلك الشيع الاثنتا عشرة أربعة تضرب بثلاثة: اللذّة والراحة وخيور الطبيعة الأوّليّة أو الأولى بحسب تعبير فرّون. وفي الواقع أنّ هذه الأشياء الأربعة إذا اتّخذت كلّ واحدة منها، على حدة، تارة خاضعة للفضيلة، إذ ذاك لا تبدو أهلًا للقبول إلّا بمثابة أدوات للفضيلة وليس من أجل ذاتها؛ وطورًا مفضّلة على الفضيلة إذا ذاك لا تكون الفضيلة إلّا بمثابة وسيلة للحصول على تلك الخيور أو على الاحتفاظ بها؛ وطورًا مقرونة بالفضيلة إذ ذاك فإنّ الفضيلة وتلك الخيور تبدو أهلًا للقبول بحدّ ذاتها؛ أنّ تلك الأشياء الأربعة، أقول، مضروبة بثلاثة على ذلك النحو تؤلّف اثنتي عشرة شيعة. بيد أنّ فرّون يحسم من هذه الأشياء الأربعة ثلاثة وهي اللذّة والراحة، لا لعدم البرهان عنها بل لأنّ الخيور الأولى للطبيعة تتضمّن في ذاتها اللذّة والراحة. وهل من حاجة لأن يعمل من الاثنين ثلاثة؟ أي إنّه يبحث إفراديًّا عن اللذّة والراحة أو عن هذه وتلك معًا طالما أنّ كلتيهما وكثيرات سواهما موجودة في الخيور الأولى للطبيعة؟ وعليه، وبحسب فرّون، من

بين تلك الشيع الثلاث، يجب الاختيار سواء أكان ذلك بين ثلاثة أم بين كثرة هنا أو في كلّ مكان آخر وجدت أكثر من واحدة حقيقيّة فذاك ما لا يقبل به العقل السليم. ماذا يختار فرّون من هؤلاء الثلاثة؟ ها إنّي أشير إليه بألفاظ سريعة وواضحة على قدر الإمكان؛ هكذا تتكوّن الشيع الثلاث أي بالسعي إلى الخيور الطبيعيّة الأولى في سبيل الفضيلة أو بالسعي إلى الطبيعة في سبيل الخيور الطبيعيّة الأولى أو بالسعي معًا إلى الفضيلة والخيور الأولى للطبيعة.

٣

تفضيل فرّون للشيع الفلسفيّة قائم على تعليم الأكاديميّة القديمة

هذا هو الأسلوب الذي يتّخذه لتحديد الصحيح بين الأساليب الثلاثة، الأسلوب الذي يجب أن يتبنّاه. وبادئ ذي بدء، بما أنّ الخير الأسمى الذي تقترحه الفلسفة وتتبنّاه ليس خير الشجرة ولا الحيوان ولا الله بل خير الإنسان؛ على فرّون أن يثير المسألة التالية: ما هو الإنسان؟ إنّه يرى في الإنسان جوهرين: الجسد والنفس؛ والنفس هي الجوهر الأفضل والأسمى؛ ولا يشكّ في ذلك؛ إنّما يسأل إن كانت النفس وحدها هي الإنسان بحيث يكون الجسد بالنسبة إليها كالحصان إلى الفارس؛ لأنّ الفارس ليس الإنسان والحصان؛ ولكنّ الإنسان يسمّى فارسًا بسبب علاقته بالحصان. أو بالأحرى إذا كان الجسد وحده هو الإنسان مع علاقة معيّنة بالنفس على مثال الكاس بالشراب الذي فيه؛ لأنّ ليس الإناء وما فيه من شراب يدعى كأسًا بل الإناء وحده يدعى كأسًا شرط أن يكون موافقًا للشرب الذي يحتويه. وكذلك فالإنسان ليس النفس وحدها ولا الجسد وحده بل كلاهما معًا بحيث إنّ النفس والجسد، إذا اتّخذا منفردين، ليسا سوى جزء واحد، وباتّحادهما يكوّنان الإنسان: وعلى هذا النحو حين نسمّي حصانَيْن مكدونين معًا فدّانًا واحدًا، فهذا لا يعني لا حصان اليمين ولا حصان اليسار أيًّا تكن علاقة الواحد بالآخر بل كلاهما معًا. فرّون يتبنّى الثالث، من بين الافتراضات كلّها. ويقول إنّ الإنسان ليس النفس وحدها ولا الجسد وحده بل النفس والجسد ويستنتج ما يلي: إنّ خير الإنسان الأسمى وسعادته يتكوّنان من خير ذينك الجوهرين: النفس والجسد؛ كما يعتقد بأنّ خيور الطبيعة الأولى مطلوبة بحدّ ذاتها على مثال الفضيلة، هذا الفنّ الممتاز، فنّ العيش، من جميع خيور النفس والتي تطعمها التربية على الطبيعة وأيضًا حين تكون الفضيلة أو فنّ العيش قد حصلا على تلك الخيور الأولى للطبيعة التي كانت قبل التربية والتي تسعى إليها في سبيل مصلحتها وفي الوقت عينه نراها هي أيضًا مطلوبة بحدّ ذاتها لكي تجد فيها كلّ لذّاتها وغبطتها بينَ بينَ بحسب ما تكون تلك الخيور كبيرة أو قليلة؛ أنّها تسعد بالكلّ؛ وعند الحاجة تهمل الأقلّ قيمة، لتصل إلى الأغلى وتحتفظ به. بيد أنّ الفضيلة لا تؤثر من بين خيور النفس أو الجسد أيّ خير على ذاتها؛ لكونها تعرف أن تفيد من ذاتها ومن سائر الخيور التي تجعل الإنسان سعيدًا. ولكن، حيث لا وجود لها فسائر الخيور، وإن كثيرة، ليست لمصلحة مَن يمتلكها؛ ومن ثمّ فليست خيورًا لمالكها أو أنّ استعماله السيّئ لها يقضي على الإفادة منها؛ وعليه، تكون حياة الإنسان سعيدة

حين يتمتّع بالفضيلة كما يتمتّع بسائر خيور النفس والجسد التي لا قيام للفضيلة بدونها؟ وستزداد سعادةً بقدر ما يفيد من سائر الخيور الكثيرة أو القليلة العدد التي تستطيع الفضيلة أن تستغني عنها. ستكون أكثر سعادة إن تمتّع بجميع الخيور وما نقصه أيّ خير لا للنفس ولا للجسد. وفي الواقع فإنّ الحياة، كلّ حياة، ليست الفضيلة إنّما الحياة الحكيمة؛ إنّ حياة عاديّة قد تكون بلا فضيلة في حين أنّه لا يمكن أن تكون فضيلة بلا حياة؛ وسأقول أيضًا الشيء ذاته عن الذاكرة والعقل وسائر القوى المماثلة في الإنسان لأنّها سابقة للتربية التي لا يمكن لها أن تكون بدونها كما هي حال الفضيلة ثمرة التربية الواضحة. أمّا الفوائد الجسديّة كالجمال والقوّة والرشاقة وإن استغنت الفضيلة عنها كما هي تستغني عن الفضيلة فتبقى خيورًا تحبّها الفضيلة، بحدّ ذاتها، بحسب رأي الفلاسفة، فتستعملها وتتمتّع بها كما يليق بالفضيلة.

ويجدون أيضًا السعادة، في هذه الحياة المدنيّة، حيث يحبّ الإنسان الخير لأصدقائه، الخير بذاته، كخيره الشخصيّ، ويريد لهم ما يريد لنفسه؛ سواء أكان الموضوع متعلّقًا بأصدقاء داخليّين كزوجة وأولاد أم امتدّت العاطفة من البيت المنزليّ إلى المدينة والمواطنين؛ أو تجاوزت ذلك الإطار لتعانق الكون والشعوب الذين تتّحد بهم برباط المجتمع البشريّ؛ أو في الكون الذي يتضمّن السماء والأرض؛ وترتفع حتّى الآلهة الذين يقدّمهم الفلاسفة إلى الحكيم بمثابة أصدقاء ونعرفهم باسم الملائكة. أمّا غايات الخيور والشرور فإنّها تنفي الشكّ وتعلن بأنّها تختلف، ها هنا، مع المجمع الجديد؛ على أنّ لا همَّ لهم في ما يتبنّاه الفلاسفة من أساليب الحياة، الكلبيّة أو سواها، وقد وقفوا

ذواتهم على دراسة تلك المسألة الهامّة. أمّا أنواع الحياة الثلاثة، نوع الراحة ونوع العمل ونوع الحياة الملطّفة بالعمل والراحة فهو هذا النوع المفضّل لديهم. ذاك ما علّمه المجمع القديم كما يؤكّده فرّون استنادًا إلى شهادة أنطيوخوس، معلّم شيشرون وأستاذه وإن كان ينتمي بحسب شيشرون إلى شيعة الرواقيّين لا إلى المجمع القديم؛ ولكن ما همّنا نحن الذين ندرس الأمور في العمق دون أن نعلّق كبير أهمّيّة على آراء الناس؟

٤

نظرة المسيحيّة إلى الخير الأسمى والشرّ الأعظم تتناقض مع رأي الفلاسفة الذين يضعون الخير الأسمى في ذواتهم

وإذا سئلنا عن جواب كنيسة الله على كلّ سؤال من تلك الأسئلة وعن رأيها في غايات الخيور والشرور لأجابت أنّ الحياة الأبديّة هي الخير الأسمى والموت الأبديّ هو الشرّ الأقصى؛ وعلى هذا النحو فكلّ مَن أراد اجتناب هذا والحصول على الآخر وجب عليه أن يحيا حياة صالحة. ولهذا فقد كتب: «البارّ يحيا بالإيمان» (روم ١/ ١٧)؛ إنّنا لا نرى حتّى الآن ما هو خير لنا؛ ويجب علينا أن نسعى إليه بالإيمان؛ وليست لدينا القدرة الذاتيّة على أن نحيا حياة صالحة إن لم يساعدنا على أن نؤمن ونصلّي ذاك الذي أعطانا أن نؤمن بمساعدته. أمّا الذين يظنّون أنّهم يجدون في هذه الحياة غايات الخيور والشرور، واضعين خيرهم الأسمى، في الجسد أو في الروح، أو في الروح والجسد معًا، وبتعبير آخر في اللذّة، أو في الفضيلة، أو في كلتيهما، في اللذّة

والراحة أو في الفضيلة؛ أو يضعونه في اللذّة، في الراحة والفضيلة، في الخيور الأولى للطبيعة أو في الفضيلة أو في تلك الخيور والفضيلة، فإنّهم باطلًا يسعون إلى السعادة ها هنا وبخاصّة إذْ يجعلون أنفسهم مبدأ سعادتهم. الحقيقة تهزأ من الكبرياء، قائلة بلسان النبيّ: «إنّ الربّ يعلَمُ أفكار البشر». (مز ٩٣/١١) أو بحسب ما جاء على لسان الرسول بولس: «إنّ الربّ يعلم أفكار الحكماء أنّها باطلة». (١ قور ٣/ ٢٠).

وأيّ نهر من الفصاحة يقوى على أن يحمل في مجراه جميع ما في هذه الحياة من بؤس وشقاء؟ لقد رثى لها شيشرون، قدر ما استطاع، في كتاب **التعزية** حول موت ابنته؛ ولكن، هل يقوى على شيء؟ *(Consolation, 6)* وفي الواقع، إنّ تلك الخيور الأولى للطبيعة، أين ومتى وكيف تستطيع أن تتّخذها، ها هنا، موقفًا ثابتًا تتحدّى فيه طغيان المصائب؟ وهل هناك من ألم مناهض للذّة؟ ومن قلق مناهض للراحة لا يطاول الحكيم بجسده؟ إقتطاع الأعضاء أو ضعفها يُفقد الإنسان كماله؛ البشاعة تقضي على الجمال، والمرض على الصحّة؛ القوى تنهار أمام التعب، والمرض أو الانحطاط الجسميّ يقضي على الرشاقة. وهل يسلم جسم العاقل من أحد الأعراض المذكورة؟ العادة في الجسم مع حركاته إذا تناغمت وتعادلت ألا تعدُّ من أولى الخيور في الطبيعة؟ ولكن ماذا يحدث إن ضَرَبَ انحراف صحّيّ جسم الإنسان، في أعضائه، بارتجاج معيّن؟ وماذا يحدث لو أُصيب العمود الفقريّ بالتواء، اضطرّت بسببه اليدان إلى اللصوق بالأرض وتحوّل الإنسان، نوعًا ما، إلى كائن من ذوات الأربع؟ وكيف تكون حال القامة وجمال الحركات؟ وماذا أقول في خيور

الطبيعة الأولى للنفس، وبادئ ذي بدء، في أشرف ما في الإنسان، أي الفهم واكتناه الحقيقة والحسّ والذكاء؟ أيّ حسٍّ يبقى للإنسان لو أصبح، مثلًا، أصمّ وأعمى؟ كيف يروح العقل وينطفئ الذكاء لو أصابه مرض الجنون؟ وحين يستسلم المجانين إلى التلفّظ بأقوال أو يقومون بأعمال غير طبيعيّة، بعيدة جدًّا عن أخلاقهم وإرادتهم، أو مناهضة لأخلاقهم ونيّاتهم، فيتأثّر بها عقلنا ونظرنا حتّى إذا تأمّلنا فيها بجدّيّة ذرفنا الدموع عليهم؟ وهل أتحدّث عن أولئك الذين يسيطر عليهم الشياطين؟ أين يختفي ذكاؤهم ويُدفن؟ حين يسيطر إبليس عليهم بجسدهم وروحهم؟ ومَن ذا الذي يضمن للحكيم النجاة من مثل تلك المصيبة في هذه الحياة؟ ثمّ كيف تُفهم الحقيقة تحت هذا اللباس الجسديّ حين يقول كتاب الحكمة: «هذا الجسد الفاسد يثقّل النفس والمسكن الأرضيّ يخفض العقل الكثير الهموم». (حك ٩/ ١٥)؛ وهذا الاندفاع الغريزيّ وهذه الحاجة إلى العمل، هذه الحاجة، هذا الاندفاع الذي يمكننا أن نضعه في مصاف خيور الطبيعة الأولى، أليس هو أصل تلك الحركات المؤسفة التي تطيح بفاقدي الإحساس وتلك الأعمال التي نخجل منها في أخلاقهم الفاسدة وخمول عقولهم؟

الفضيلة ذاتها التي لا تعدّ بين خيور الطبيعة الأولى، لأنّ التربية تدخلها لاحقًا بعدها؛ على أنّ الفضيلة التي تطالب بالمركز الأوّل بين خيور الإنسان، ما هو عملها ها هنا؟ وإلّا كانت حربًا على الرذائل، لا على الرذائل الخارجيّة بل الداخليّة؛ ليست حربًا على الرذائل الغريبة بل على رذائلنا الخاصّة والشخصيّة: الفضيلة التي يسمّيها اللاتين اعتدالًا تكبح جماح الرغبات الجسديّة، خوفًا من أن تنتزع، من العقل الضعيف، تنازلات مؤسفة؟ ولا

يجوز الاعتقاد بأنّ لا عيب فينا حين يقول الرسول: «الجسد يشتهي ما هو ضدّ الروح» (غل ٥/١٧) طالما أنّ الرسول نفسه يكشف لنا عن مقاومة تقوم بها فضيلة مضادّة فيقول: «الروح يشتهي ما هو ضدّ الجسد» مضيفًا «كلاهما في حرب، ولستم تعلمون ما تريدون». ولكن، ماذا نريد أن نعمل حين نرغب في أن تتحقّق غاية الخير الأسمى فينا وأن يتوقّف هذا الطلاق بين ما يشتهيه الروح وما يشتهيه الجسد؟ ولكن، بما أنّ القدرة في هذه الحياة تخون إرادتنا، فلنعمل، على الأقلّ، بمساعدة الله، على ألّا ندع الروح فينا يستسلم لهجمات الجسد حتّى إذا انهزم انقاد إلى القبول بالخطيئة. آه! لا نظنّنّ، أنّ هذه الحرب الداخليّة التي نخوضها، وطالما لا نزال فيها، ستكون السعادة ثمرةً لنا نمتلكها بإرادتنا المنتصرة. وأيّ إنسانٍ وصل إلى درجةٍ عالية من الحكمة يدّعي أنّه قد تخلّص من شهواته؟

وتلك الفضيلة المسمّاة فطنة ألا تَستعمل وعيها لتميّز الخير من الشرّ، كيلا تقع، في ضلال، في سعيها إلى الخير وهروبها من الشرّ؟ ومع ذلك فإنّها تشهد بأنّ الشرّ فينا؛ أو بأنّنا في الشرّ وهي نفسها تعلّمنا بأنّ القبول بالخطيئة شرّ، وأنّ مقاومة الميل إلى الخطيئة خير. مع أنّ هذا الشرّ الذي تبعدنا عنه الفطنة والذي يقاومه الاعتدال فلا الفطنة ترفعه عن حياتنا ولا الاعتدال. والعدالة، التي إذا مارسناها، تعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه (في كلّ إنسان يقوم نظام عادل وطبيعيّ به تخضع النفس لله والجسد للنفس؛ وانطلاقًا منه تخضع النفس والجسد لله)؛ أليست العدالة قائمة بوضوحٍ في ضيق العمل أكثر ممّا هي، آخر النهار، حين تبدأ الراحة؟ وفي الواقع، كلّما كانت النفس متخلّيةً عن الله في

تفكيرها، ابتعدت عنه، والجسد يبتعد عن إرادة النفس كلّما غذّى فيه شهوات مضادّة للروح. وطالما نحمل في أجسادنا ذاك المرض، وتلك القروح والأوهان فلسنا نجرؤ على المجاهرة بخلاصنا؛ وإن كان خلاصنا غير مضمون فهل نقول بجرأةٍ أنّ سعادتنا النهائيّة مضمونة؟ والفضيلة تلك التي تسمّى بالقوّة، وإن واكبتها الحكمة أليست شاهدًا على شرور الإنسان، وتضطرّ إلى قبولها بالصبر على أنّ شهادتها نافذة ولا مردَّ لها؟ وأعجب من الفلاسفة الرواقيّين الذين لا يقبلون بأن تسمّى شرورًا هذه هي باعترافٍ منهم، لا يعود الحكيم قادرًا على احتمالها؛ فتضطرّه إلى الانتحار والخروج من الحياة، كبرياء وحماقة لدى مَن يدّعون بأنّهم وجدوا الخير الأسمى ها هنا وينبوع سعادتهم في ذواتهم بحيث إنّ حكيمهم الذي يعطونه مثالًا يحتذى وقد أصبح أعمى، أصمّ وأطرش ومشلولًا، يعاني آلامًا لا تخطر على بال، فيضطرّ إلى الانتحار؛ ومع ذلك لا يخجلون من أن يعتبروا حياة ذلك الحكيم العاقل التي نهكتها الآلام المبرحة حياة سعيدة! يا لها من حياة سعيدة يستغيث صاحبها بالموت تخلّصًا منها! إن كانت سعيدة، فلم لا يحافظ عليها؟ وإن كان يتهرّب منها لما فيها من آلام فهل تكون سعيدة؟ أوليست شرورًا تلك الحوادث التي لا تقضي على القوّة وتضطرّها إلى الاستسلام وحسب، بل تدفعها أيضًا إلى نشوة إعلانها سعيدة بينما نراهم يقنعوننا بالهروب منها؟ ومَن ذا الذي يبلغ به العمى حدًّا لا يعود يرى أنّها إن كانت سعيدة فالهروب منها مرفوض؟ أمّا إن كان ثقل البؤس يرهقها فيجعلهم يقرّون بضرورة التهرّب منها فكيف لكبريائهم أن تتصلّب ضدّ الإقرار بضرورة الهروب منها؟ أسأل: هل كاتون انتحر،

صابرًا، أم عاجزًا عن تحمّل ألم الهزيمة، يوم لم يستطع أن يخضع لقيصر المنتصر؟ أين هي قوّة ذاك البطل؟ إنّها قوّة تستسلم، تسقط وتنهزم فيتخلّى عن الحياة، الحياة السعيدة، فيهجرها ويهرب عنها! أو لم تكن سعيدة تلك الحياة؟ أجل، لقد كانت شقيّة! وليست الآلام هي التي تجعل الحياة شقيّة يجب الهروب منها!!

والفلاسفة أيضًا كالمشّائين وذوي المجمع القديم الذين يدافع فرّون عن شيعتهم، حين يعترفون بالشرّ يستعملون كلامًا مقبولًا أكثر من كلام الرواقيين، بيد أنّ ضلالهم غريب، حين يزعمون أنّ الحياة سعيدة، على ما فيها من آلام يصعب تحمّلها، ولذا يجب التخلّص منها بالموت. يقول فرّون: «إنّ آلام الجسد وعذاباته شرور تتفاقم كلّما ازدادت؛ والخروج من الحياة سبيل للتخلّص منها». أرجوك، قل لي، من أيّة حياة؟ يقول: من تلك التي تئنُّ تحت ثقل تلك الآلام الكثيرة! ماذا؟ من تلك التي، على حدّ قولك، تراها سعيدة إنّما يجب التخلّص منها لكثرة ما تحمل من آلام؟ أو لأنّك تدعوها سعيدة وقد سُمِحَ لك بأن تتخلّص من شرورها بالموت؟ وماذا يحدث لو انّ الله استبقاك حيًّا، بحكم منه، في الحياة، تتعذّب ولم يسمح لك بأن تموت؟ إذ ذاك تسمّي تلك الحياة، حياةً شقيّة وليس لأنّك تغادرها بسرعة لم تعد شقيّة؛ حتّى ولو كانت أبديّة فهي شقيّة ولا يزيل قِصَرُها شقاءَها إلّا إذا كان الشقاء القصير يحمل اسم السعادة! يجب أن تكون الآلام عنيفة جدًّا لتُرغم إنسانًا، حكيمًا حسب رأيهم، على أن ينزع عن نفسه ما يجعله إنسانًا حين يعترف الجميع، بحقٍّ، وهو نوعًا ما، صوت الطبيعة الأوّل والأقوى أن ينحاز الإنسان إلى جانب مصالحه الخاصّة وأن يحتفظ بعداء طبيعيّ تجاه الموت؛ وأنّ هذه العاطفة

الشخصيّة تحمله إلى أن يبقى كائنًا حيًّا، متمسّكًا بكلّ قواه بالحياة الناتجة عن اتّحاد النفس بالجسد. إذ ذاك وجب أن تكون تلك الشرور بالغة العنف لتتغلّب على الغريزة الطبيعيّة التي تتحدّى، بكلّ قواها ونشاطها، الموت، فتنقاد لها بحيث يصبح الموت المرهوب رغبةً وحاجةً حتّى إذا لم يجد يدًا غريبة استعمل يديه للقضاء بهما على ذاته؛ ولكي تستطيع تلك الشرور أن تجعل القوّة قاتلة يجب أن تكون عنيفة جدًّا؛ أمّا إن كانت القوّة تستحقّ هذا الاسم الذي يتخاذل أمام تلك الشرور، بحيث إنّ الإنسان الذي قبلت تدبيره والدفاع عنه، على مثال الفضيلة، لن يعود في حماها، صابرًا، بل تجد ذاتها مضطرّة إلى القضاء عليه! صحيح أنّ الحكيم يتحمّل الموت صابرًا ولكن، الموت الذي يأتيه عن يد إنسانٍ آخر. وتاليًا، إن اضطرّ إلى فرضه على نفسه، وفق ما يقول الفلاسفة، فعليهم أن يعترفوا أنّ تلك الحوادث هي شرور؛ وشرور لا تحتمل؛ توصله إلى مثل ذلك الاعتداء بالقتل. إنّ حياة رازحةً تحت نير وتهديد شرور كثيرة، ثقيلة ومرهقة، لا يمكنها أن تكون سعيدة؛ ومهما انحنى أصحابها، مغلوبين على أمرهم، تحت وطأة العذابات؛ وإذ ينتحرون يستسلمون إلى الضيق والبليّة يعرفون كيف يستسلمون؛ وفي سعيهم إلى الحياة السعيدة يقبلون بالحقيقة؛ وبدلًا من أن يدّعوا الحصول النهائيّ على الخير الأسمى في تلك الميتة حيث الفضائل هي أثمن ما في الإنسان وأنفع ما فيه، وحيث هي، كما أقول، تسلحّنا بالمتاعب والآلام ضدّ عنف الأخطار وهي المساعدة الأقوى؛ أجل كلّ ذلك يشهد بأمانة كلّيّة على شقاواتنا! وفي الحقيقة، إن كانت فضائل حقيقيّة لا يمكنها أن تكون إلّا في الناس المعروفين بتقوى

حقيقيّة؟ ولا تعِدُ أيّ إنسانٍ بالعصمة من كلّ ألم، وسط كلّ عذاب، في خضمّ شقاواتنا. فالفضائل الحقيقيّة لا تعرف الكذب بل إنّها تعِدُ هذه الحياة، المحتّم عليها أن تشقى، بسبب التجارب العديدة والقاسية في هذا العالم، بالسعادة والخلاص بالرجاء في العالم الآتي. آه! وكيف لها أن تسعد طالما أنّها لم تنعم بالخلاص؟ ويقول القدّيس بولس الرسول عن هؤلاء الذين يحيون حياة التقوى الصحيحة ويملكون حقًّا فضائلهم لا عن أولئك الذين تنقصهم الحكمة والصبر والاعتدال والعدالة: «لأنّنا نلنا الخلاص، ولكن في الرجاء، فإذا شوهد ما يُرجى بطل الرجاء، وكيف يرجو المرء ما يشاهده؟ ولكن إذا كنّا نرجو ما لا نشاهده فبالصبر ننتظره» (روم ٨/ ٢٤) وكما أنّ خلاصنا هو بالرجاء، فسعادتنا أيضًا بالرجاء، وسعادتنا كما هو خلاصنا ليس في حوزتنا الآن بل يدلّنا عليه، مستقبلًا، رجاؤنا؛ وأنّنا ننتظره وننتظره بالصبر؛ لأنّنا نعيش في خضمّ الشرور التي يجب علينا أن نقبلها حتّى اليوم الذي لن يكون فيه سوى خيور ومسرّات لا توصف، ولا ألم ولا عذاب نقاسيه. الخلاص في العالم الآتي سيكون أيضًا السعادة الأخيرة: سعادة يرفض الفلاسفة تصديقها لأنّها لا تقع تحت لحاظهم ويخلقون لأنفسهم، بدلًا منها، شبحًا خياليًّا استنبطته فضيلتهم المتعجرفة والكاذبة.

٥

الحياة الاجتماعيّة: قيمتها ومخاطرها

وعندما يريدون أن تكون حياة الحكيم حياة اجتماعيّة فنحن

موافقون كلّيًّا على ذلك. كيف ظهرت مدينة الله إلى الوجود وكيف تتقدّم وتنمو في مسيرتها لتصل إلى غايتها الخاصّة إن لم تكن حياة القدّيسين فيها حياة اجتماعيّة؟ وأيّة عواصف من الشرور، مجتمعة، خلال عذابنا، نحن معشر الصائرين إلى الموت، تتساقط على مجتمعنا البشريّ؟ ومَن ذا يعبّر عنها؟ مَن ذا يفهم ذلك؟ أصغوا؛ رجل ما يهتف بين شعرائهم الهزليّين: «تزوّجت امرأة؛ يا لشقائي! رزقت أولادًا؛ فزادت همومي» (Térence, *Adelphoe* 867) كلمات لقيت تجاوبًا وقبولًا لدى السامعين. هل أحكي عن مشاكل الحبّ، يصفها تارنس Térence ذاته بما يلي: «الإهانات والهواجس والعداوات، الحرب ثمّ السلام». (Térence *Eunuchus 59-617*) أليست كلّ الأمور البشريّة ضحيّة هذه الفوضى؟ أولا يذهب حتّى الدخول عنوة إلى الصداقات الشريفة؟ ايّ مكان لا تصله الإهانات والهواجس والحرب؟ شرور أكيدة وحسّاسة. السلام، هو بخلاف ذلك، خير غير أكيد، لأنّ قلوب مَن نريد أن ننمّيه فيها لا تزال مجهولة بالنسبة إلينا؛ وإذا ما تمكّنّا من معرفتها اليوم، فمَن ذا ينبئنا حقًّا، عمّا ستكون عليه في الغد؟

وفي الواقع، مَن هم عادةً أصدقاء لنا وأكثر؟ إن لم يكن الذين يعيشون معنا تحت سقف واحد؟ ومع ذلك فهل من طمأنينة حينما نرى خيانات سرّيّة تنشأ في تلك الحياة الحميمة مع الأقربين وتكون مريرة بقدر ما كان السلام عذبًا؟ وهو سلام ظُنَّ أنّه صادق لكنّه مبطّن بالخبث والرياء! وكلمة شيشرون تنفذ إلى الأعماق وتثير فيها أنينًا: «ما من خيانة أشدّ إيلامًا على الإنسان من تلك التي تُغلّف بالمحبّة أو بالقرابة؛ يمكن للفطنة أن تحذّر عددًا معروفًا لكنّ خدعة مخفيّة داخليّة وعائليّة ليست فقط على مقربة

منّا بل إنّها تلفُنا قبل أن نتمكّن من أن ننظر ونعرف». (شيشرون، *Verrines II, 1*) وهذه العبارة الإلهيّة: «أعداء الإنسان أهل بيته». (متّى ١٠/٣٦) لا يمكن أن تُفهم دون أن تحدث انقباضًا في القلب إذ مَن يقوى أن يتحمّل الألم باستمرار أو مَن ذا يعي دومًا ألاعيب الصداقة المبطّنة بعين ساهرة؟ ومن المستحيل ألّا يكون بالنسبة إلى الإنسان الطيّب امتحان بذاك القدر من الخبث سببًا لعذاب قاسٍ إمّا لأنّ أعداءه كانوا دومًا أشرارًا تحت ستار من اللطف وإمّا لأنّ طيبتهم تطوّرت إلى خبثٍ أصيل. وعليه فإن كان ذاك الملجأ المشترك للجنس البشريّ في خضمّ تلك الشرور الكثيرة فالمنزل العائليّ ذاته ليس مضمونًا فكم بالحريّ المدينة؟ وكلّما اتّسعت المدينة تجاوبت في رحابها دعاوى مدنيّة وإجراميّة في صمت الاضطرابات. ماذا أقول؟ إضطرابات دمويّة وحروب داخليّة تجري وتجتاح وتتآمر وتهدّد باستمرار.

٦

أخطاء الأحكام البشريّة عندما تكون الحقيقة مخفيّة

وتلك الأحكام التي يصدرها بشر ضدّ بشر؛ أنّها لأحكام تبقى ضروريّة على مستوى المدن أيًّا يكن السلام الذي به يتمتّعون. وما رأينا فيها؟ يا لها من أحكام يؤسف لها! وهل من عجب؟ أناس يحكمون دون أن يستطيعوا رؤية ضمير مَن يحاكمونهم. والتعذيب أيضًا يسأل أحيانًا شهودًا أبرياء عن الحقيقة الخاصّة بدعوى لا عِلمَ لهم بها. وماذا أقول في هذا التعذيب الذي يُسامُه الإنسان من أجل قضيّته الشخصيّة؟ يسألون إنسانًا هل هو مجرم؟ ثمّ يساق

إلى العذاب؟ والبريء يعاني من عذاب أكيد بسبب جرم غير مؤكّد: لا لكونهم اكتشفوا أنّه صنع الجرم بل لأنّهم يجهلون الفاعل! ومع ذلك فجهل القاضي هو عادةً ما ينزل بالبريء المصيبة. وكذلك فإنّ الأسوأ من كلّ ذلك. وما يؤسف له كثيرًا، إن أمكن، هو الخطأ الواجب تغطيسه في بحر من الدموع حين يعذّب قاضٍ متّهمًا مخافة أن يقضي على بريء بالموت جهلًا؛ وبسبب جهله الذي يؤسف له نراه يعذّب ويحكم بالموت على البريء الذي سيم عذابًا كيلا يميتوه بريئًا. وفي الواقع، إذا فضّل، بحسب الحكمة أولئك الفلاسفة، الموت على أن يتحمّل طويلًا تلك العذابات، يصرّح بأنّه ارتكب الجرم وهو لم يقترفه. يصدر الحكم بحقّه ويُقتل؛ بينما القاضي لا يدري إن كان قد قتل مجرمًا أو بريئًا؛ ومع ذلك، مخافة أن يضربه بريئًا أرسله إلى التعذيب؛ وها هوذا بريء يجهل ما يعمل في خضمّ هذه الظلمات القائمة في الحياة الاجتماعيّة هل نجد قاضيًا عاقلًا يصعد على منصّة الحكم أم لا؟ لا شكّ في أنّه يعتليها، تلبية لواجبٍ يفرضه عليه المجتمع البشريّ، أو يسوقه إليه؛ وهو يظنّ أنّه لا يستطيع التخلّي عنه دون أن يذنب؛ أنّه يعتقد بأنّ تسليم شهودٍ أبرياء إلى التعذيب بسبب آخرين، ليس، بنظره، جرمًا وأنّ متّهمين وقعوا تحت عنف الألم قد عوقبوا أبرياء، بعد أن عذّبوا أبرياء حتّى إذا نجوا من الحكم يموتون بسبب ما لقوا من عذابات، آجلًا أم عاجلًا؛ كما وأنّهم لا يعتبرون جرمًا أن يقف المتّهم (المشتكي) الذي قد يتّخذ هذا الوقت، خدمة للمجتمع البشريّ، لئلّا تبقى الجرائم بلا عقاب، فيقع غالبًا في فخّ خداع الشهود والمقاومة الوحشيّة التي يبديها المجرم تجاه جلّاديه الذين لا يقوون على انتزاع أيّ اعتراف منه

فيحكم عليه، عن جهل، لكونه لم يستطع أن يبرهن عمّا يقول وإن لم يقل سوى الحقيقة؟ إنّ تلك الشرور التي لا تعدُّ ولا تحصى والتي لا يُسمع بمثلها، لا يعتبرها القاضي خطايا، هو الذي يحكم بها، إذ لا يمكن لإنسان أن يعزوها إلى إرادة له شرّيرة بل إلى جهل فيه مُطبِق ثمّ إلى الضرورة الآمرة في المجتمع البشريّ الذي رفعه إلى قوس المحكمة؛ حتّى إذا كانت الضرورة التي تضطرّه إلى الجهل والحكم تعفيه من جرم تعذيب الأبرياء ومعاقبتهم ألا يكفيه ألّا يُحسب مجرمًا فيطالب بأن يكون سعيدًا؟ كم يكون الإنسان أعقل، وأجدر به أن يعترف بالشقاء البشريّ في تلك الضرورة فيكرهها بحدّ ذاتها وإذا كان لا يزال على شيء من التقوى يصرخ إلى الله قائلًا: «أخرجني يا ربّ من شدائدي». (مز ١٧/٢٤)

٧

إختلاف اللغة يقسم المجتمع البشريّ.
إن كانت الحرب عادلة تبقى بؤسًا وشقاءً

بعد المدينة، الكون، هو الدرجة الثالثة للمجتمع البشريّ؛ البيت أوّلًا، ثمّ المدينة، فالكون الشبيه بقعر المياه؛ فيه تكثر المخاطر بسبب اتّساعه. ومن ثمّ فاختلاف الألسنة يجعل الإنسان فيه غريبًا عن الإنسان. وفي الواقع، أن يجتمع اثنان، يجهل أحدهما لغة الآخر؛ وبدلًا من أن تفصل بينهما ضرورة نراها تجمع بينهما فينتج مجتمع من حيوانات خرساء ومن أجناس مختلفة؛ دون أن ينتج مجتمع بين ذينك المسافرين وكلاهما بشر؛ لأنّ ذلك الحاجز بسبب تباين اللغات يجعل تبادل الأفكار فيما

بينهما مستحيلًا فيبقى التجانس في الطبيعة عاجزًا عن الربط فيما بينهما كبشر. ويبدو أنّ الإنسان هو أكثر انسجامًا مع كلبه منه مع الإنسان الغريب. غير أنّهم يقولون إنّ مدينة أنشئت للأمبراطوريّة لم تفرض سيطرتها وحسب بل أيضًا سيطرت لغتها رسميًّا واجتماعيًّا على الشعوب المغلوبة؛ وافتتاحها استدرك مجاعة المفسّرين. ذلك صحيح؛ ولكن كم من حروب وحروب رهيبة، أيّة مذبحة؛ كم من دم بشريّ سفك في سبيل تلك المنافع؟ ضربات انتهت؛ ولكنّ شقاواتنا لم تنته معها؛ لأنّ أولئك الأعداء الذين كانوا لا يزالون اليوم أيضًا؛ شعوب غريبة وجبت محاربتهم في الماضي وفي الحاضر أيضًا؛ ورحابة المملكة أوجدت حروبًا من نوع آخر وأشدَّ فتكًا كالحروب الاجتماعيّة والمدنيّة، وهي تضرب المجتمع البشريّ ويا للأسف؛ وقد لا تهدأ إلّا إذا تفاقمت وطفح بها الكيل ثمّ يعود الإنسان يتخوّف من انطلاقتها من جديد. شرور لا تحصى؛ شرور لا نهاية لها؛ ضرورات صعبة وقاسية جدًّا. إذا حاولتُ، على ما أنا عليه، من العجز أن أرسمها بالألوان فلست أجد حدودًا لهذا الدرس الطويل. ولكنّ الحكيم يستلُّ سيفه، كما قيل، في سبيل العدل. إن تذكّر أنّه إنسان ألا يجب عليه أن يأسف كثيرًا لهذه الضرورة التي تضع السلاح بين يديه؟ لأنّه لو لم يكن أمام حرب عادلة لما قام بها الحكيم؛ ولما كان عليه أن يقاتل. ظلم العدوّ يفرض على الحكيم أن يتسلّح دفاعًا عن العدالة؛ وظلم الإنسان هو الذي يأسف له الإنسان؛ ومن ثمّ ألا ينتج عن ذلك الظلم حاجةٌ ماسّة إلى القتال؟ شرور قاسية؛ شرور رهيبة؛ شرور لا مثيل لها!! ومَن ذا الذي يتأمّلها ولا يقرُّ بما تحمل من بؤس وشقاء؟ أمّا

الإنسان، إن تحمّلها أو واجهها بدون ضيق في صدره، فيشتدّ ضيقه إن اعتبر نفسه سعيدًا؛ ولا يصل إلى تلك الحال إلّا لأنّه يفقد كلّ إحساس بشريّ.

٨

صداقة الرجال الطيّبة حملٌ ثقيل لما تجرُّ معها من هموم تتسبّب بها مخاطر الحياة

إن كان جهلٌ ما شبيهًا بالهذيان في طبيعتنا المسكينة، لا يعمينا إلى درجة الخلط بين العدوّ والصديق، والصديق والعدوّ، فأيّ تعزية لنا في ذلك المجتمع البشريّ المليء بالمرارات والضلال سوى الإيمان الصادق والمحبّة المتبادلة بين أصدقاء طيّبين وحقيقيّين؟ وتلك الصداقات كلّما تكاثرت وانتشرت إلى البعيد تتكاثر مخاوفنا وتتّسع: نخشى أن ينصبَّ على رؤوس أصدقائنا بعض تلك الشرور المتراكمة في هذه الحياة. لأنّ اهتمامنا لا يخشى عليهم من آلام الجوع والمرض والحرب والأسر مع ما تحمل معها من شرور لا يمكننا أن ندركها؛ إنّما أقسى ما نخشاه عليهم هو ذاك التغيير الذي يسلّم قلوبهم إلى الشرّ والخبث وفساد الأخلاق؛ حتّى إذا ما حلّت خيبات الأمل المذكورة (وهي تكثر كلّما ازدادت صداقاتنا)؛ حين نعرف بها؛ مَن ذا يدرك الضربات التي تحلُّ بنا؟ إنّنا نفضّل الموت آنذاك لأصدقائنا وإن كنّا لا نستطيع أن نقبل به بدون ألم. وفي الواقع إنّ مَن كنّا نفرح بصداقاتهم، يترك موتهم في نفوسنا حزنًا عميقًا. وأمّا الذي يرفض ذاك الألم فليرفض إن استطاع علاقات الصداقة والصداقة

نفسها، وليحطّم بتفاهة ووحشيّة ربط العلاقات البشريّة أو فليدعُ إلى ممارستها دون أن تلقى فيها النفس أيّة عذوبة. وإن لم يكن الأمر هكذا فكيف لا نذوق مرارة الموت الذي يحلّ بصديق عزيز علينا؟ عنه ينتج ذلك الحزن الداخليّ، جرح النفس المُحِبّة الذي لا تشفيه سوى التعازي الودّيّة. ولا يقال أن لا شيء في النفس يدعو إلى الشفاء بحجّة أنّها قويّة؛ وقوّتها تلك تجعل شفاءها سهلًا وسريعًا. وعلى هذا النحو، وإن يكن موت أعزّ الناس، وبخاصّة الذين يعتبر ارتباطهم بالمجتمع البشريّ ضروريًّا، امتحانًا في هذه الحياة قاسيًا، إلى حدٍّ ما، فمع ذلك نفضّل أن نراهم أو أن نعرف أنّهم ماتوا على أن نعرف أنّهم فقدوا إيمانهم أو أخلاقهم، أي إنّهم ماتوا في أنفسهم وهو نوع من الينبوع الذي لا ينضب من الشرور التي تملأ الأرض؛ ولهذا قد كتب: «إنّ حياة الإنسان على الأرض تجنُّد وكأيّام أجيرٍ أيّامه». (أي ٧/١) ويقول الربّ: «الويل للإنسان الذي تقع الشكوك على يده» (متّى ١٨/٧) ويقول أيضًا: «ولكثرة الإثم تبرد محبّة الكثيرين». (متّى ٢٤/١٢). وعلى هذا النحو، فإنّنا نفرح لموت الصدّيقين أصدقائنا لأنّه ينجّيهم من تلك الشرور التي تحطّم ها هنا الأبرار، أو تفسدهم، أو، على الأقلّ، تجعلهم عرضة لهذا الخطر المزدوج.

٩

صداقة الملائكة الأبرار مموّهة بخبث الشياطين

أمّا مجتمع الملائكة القدّيسين، المجتمع الرابع، الذي يقيمه

أولئك الفلاسفة، إذ يقدّمون الآلهة بمثابة أصدقاء، في التحديد الذي يعطونه كامتداد من الأرض إلى الكون حتّى السماء، فإنّنا لا نخشى من أولئك الأصدقاء أمثالهم، أيّ اكتئاب يتسبّب لنا به موتهم أو فساد أخلاقهم. ولكن بما أنّهم لا يختلطون كما يختلط بنا البشر الذين يتآلفون معنا (وتلك هي واحدة من مشاكل هذه الحياة) يتحوّل الشيطان أيضًا على حدّ قول الكتاب المقدّس إلى هيئة ملاك من نور (٢ قور ١١/ ١٤) لكي يجرّب مَن هم بحاجة إلى ذلك الامتحان أو يستحقّون ذلك الفشل؛ رحمة الله ضروريّة لنا جدًّا لتجاوز تلك المحنة، ظنًّا منّا بأنّنا حصلنا على صداقة الملائكة القدّيسين تحت ستار صداقة الأبالسة المموّهة؛ وهو خطأ يجعلنا نجد فيهم أعداء يتفنّنون في الأذية بقدر ما هم عليه من الدهاء والشرّ. ومَن هو بحاجة ماسّة إلى تلك الرحمة التي لا حدَّ لها سوى ذلك الإنسان الغارق في بحر الشقاء الذي أعماه فجعله ألعوبة الأكاذيب الدنيئة! وفي قلب تلك المدينة الأثيمة وقع الفلاسفة الذين يتباهَون بصداقة الآلهة؛ أجل لقد وقعوا في أحبولة الأرواح الخبيثة، أسياد تلك المدينة، التي تشاطرهم عذابهم. وإنّ ما يُقام فيها من مؤسّسات مقدّسة أو بالأحرى شيطانيّة، وتلك الألعاب القذرة المعدّة للاحتفاء بجرائمهم وتسكين غضبهم، قذارات مكروهة، يقدّمونها على المسرح، ألا تدلّ كلّها على سفاهة الآلهة؟؟

١٠

جزاء الانتصار على التجربة

لكنّ القدّيسين وعباد الإله الحقّ الأوحد ليسوا في مأمن من تلك المظاهر والتجارب التي تتّخذ ألف شكل وشكل. في تلك المنطقة من الضعف وفي تلك الأيّام الرديئة، القلق على المصير ضروريّ؛ وهو بمثابة مهماز يدفع على متابعة حثيثة لتلك الطمأنينة التي تهب السلام التامّ والأكيد. في ذلك الحمى الأكيد نجد كلّ عطايا الطبيعة، العطايا التي أفاضها خالق كلّ الطبائع على طبيعتنا. ولن تكون كاملة وحسب، بل وأبديّة؛ عطايا تفيد منها النفس التي أبرأتها الحكمة، هبات للجسد الذي تجدّد في القيامة. هنالك تبطل حرب الفضائل ضدّ الرذيلة والشرّ لأنّها تتمتّع بجائزة النصر الأبديّ الذي لا يعكّر صفوه عدوّ. تلك هي، حقًّا السعادة النهائيّة، نهاية الكمال الذي لا تعقبه نهاية. ها هنا يسمّى الإنسان سعيدًا عندما يجوز السعادة مهما كانت بسيطة، تؤمّنها لنا حياة صالحة؛ وهي سعادة إذا قورنت بالسعادة النهائيّة تظلّ في مستوى الشقاء. ولكنّ ذلك السلام يمكن أن يكون فوق هذه الأرض، مكافأةً على حياة صالحة، فهل نجده، أيّها الناس، في الأمور الزائلة؟ الفضيلة تستعمل خيور ذلك السلام استعمالاً حسنًا. ولكن هل نحن بحاجة إليه؟ الفضيلة لا تزال تحسن استخدام تلك الشرور التي يعاني منها الإنسان؛ ولكنّها لن تكون حقيقيّة إلّا بقدر ما تردّ تلك الخيور التي تحسن استعمالها وتوجّه أعمالها كلّها إلى حسن الإفادة من الخيور والشرور، فتتوجّه هي كذلك إلى الغاية والنهاية التي تؤمّن لنا التمتُّع بسلامٍ لا يفوقه سلام.

١١

سعادة السلام الأبديّ، بها يكتمل القدّيسون

ويمكننا أيضًا أن نقول عن السلام كما قلنا عن الحياة الأبديّة لا، الغاية من خيورنا، بحسب ما يقول القدّيس النبيّ عن مدينة الله، موضوع هذا العمل المضني: «إمدحي يا أورشليم الربّ؛ سبّحي إلهك يا صهيون؛ فإنّه مكّن مغاليق أبوابك وبارك بنيكِ في داخلك. يجعل تخومك سلامًا». (مز ١٤٦/ ١٢-١٤) وفي الواقع حين تمكّن مغاليق الأبواب لا أحد يخرج ولا آخر يخرج».

وعلى هذا النحو، نفهم بذلك التخم، السلام الذي نريد أن نبرهن عنه بالسلام النهائيّ لأنّ اسم المدينة المقدّسة أورشليم هو اسم «سرّيّ» يعني «رؤية السلام». ولكن بما أنّ تعبير السلام هذا واردٌ استعماله بكثرة في تلك العلاقات الآئلة إلى الهلاك؛ وحيث لا يعني الموضوع الحياة الأبديّة، فقد فضّلنا استعمال اسم الحياة الأبديّة على اسم السلام لنشير إلى الغاية، سعادة هذه المدينة الأبديّة؛ وهي الغاية التي يريدها الرسول بقوله: «وأمّا الآن وقد اعتقتم من الخطيئة واستُعبدتم لله فإنّ لكم ثمركم للقداسة والعاقبة هي الحياة الأبديّة». (روم ٦/ ٢٢). ومن ناحية أخرى فالذين لم يعرفوا الكتب المقدّسة معرفة صحيحة قد يعنون بالحياة الأبديّة، حياة الأشرار، سواء أكان ذلك بسبب خلود النفس الذي يعلّمه بعض الفلاسفة أم بسبب العذابات المستمرّة التي يَعِدُ بها إيماننا الأشرار الذين لا يستطيعون أن يتعذّبوا إلى الأبد إن لم تكن حياتهم إلى الأبد. ولكي نجعل غاية هذه المدينة أكثر قبولًا

لعقول الجميع، وهي الغاية التي تجد فيها خيرها الأسمى؟ فمن الأفضل أن نسمّيها أمّا السلام في الحياة الأبديّة أو الحياة الأبديّة في السلام؛ لأنّها خير عظيم لا مثيل له في الأمور الأرضيّة والزمنيّة؛ ولا أعذب منه على الحفظ ولا أشهى على القبول ولا أفضل من وجوده. وإذا توقّفتُ بضع هنيهات على هذا الموضوع أرجو ألّا أثقّل على القرّاء. السلام مهمٌّ جدًّا بالنسبة إلى خواتم المدينة التي أتكلّم عنها؛ وعذوبته تجعله أحبَّ إلى الجميع.

١٢

السلام هو ما يتوق إليه كلّ مخلوق بالفطرة؛ وهو الهدف الأخير من كلّ حرب

وفي الواقع ادعو إلى التأمّل معي في الأمور البشريّة وفي طبيعة الإنسان، أيًّا تكن النقطة التي منها ننطلق؛ إذ ذاك نعترف بأنّه ما من إنسانٍ إلّا ويريد أن يشعر بالفرح؛ وما من إنسان إلّا ويريد السلام. وأولئك الذين يريدون الحرب لا يبغون شيئًا سوى النصر؛ ورغبتهم الوحيدة هي في الوصول عن طريق الحرب إلى السلام المجيد. وماذا يعني النصر سوى الخضوع بدون مقاومة تؤدّي حتمًا إلى السلام؟ ولهذا فإنّ الحرب تُعلن في سبيل السلام؛ والسلام هو هدف الذين يسعون إليه من خلال القيادة والمعارك الحربيّة إلى ممارسة قدرتهم العسكريّة. وعليه فالسلام هو ما يشتهيه الإنسان من خلال الحرب لأنّ كلّ إنسان، في حربٍ يشنّها، يسعى إلى السلام؛ وما من أحدٍ يطلب السلام لا يسعى إلى الحرب؛ والذين يرغبون في تعكير السلام الذي به يتمتّعون لا يكرهون

السلام بل يريدونه على هواهم. ولا يرفضون السلام؛ بل أن يكون بحسب ما يريدون. وأخيرًا حين ينفصلون عن سواهم بالثورة وإذا لم يحافظوا مع زملائهم على سلام معيّن، فلا يبلغون هدفهم المنشود. واللصوص أيضًا يريدون الاحتفاظ بسلامٍ مع زملاء لهم خلال شنّهم حربًا وهجوماتٍ رهيبة على سلام المجتمع. وإذا وجدنا أحدهم يقوم، غريبًا بقوّته، متحدّيًا كلّ متواطئٍ معه، ينصُب وحده فخاخًا ليحرز النصر وحيدًا، ويطارد فريسته، ملطّخًا بدمٍ، سفكه بشراسة؛ أنّ ذلك الإنسان الذي لم يستطع القضاء على جميع مَن يلاحقهم يختبئ وراء وَهْم من السلام، أقلّه، تجاه مَن لم يستطع الانتصار عليهم فيحاول إخفاء أفعاله عنهم. في بيته، مع زوجته وأولاده، ولربّما مع سواهم، ومع من يشاركونه السكنى تحت سقف واحد يسعى إلى التعاطي بسلام؛ لأنّه يفرح بطاعتهم له دون تلكّؤ؛ وإلّا نراه يثور ويؤنّب ويعاقب ويستعمل القسوة عند الحاجة لكي يضبط السلام في بيته؛ ويشعر أنّ ذاك السلام لا يوطَّد إلّا إذا كانت وراءه سلطة يمثّلها في البيت؛ وإليها يجب أن ينقاد كلّ مَن يعايشه؛ وإن سلّموه أن يستبدّ بكثيرين، بشعب ومدينة، فأدّى له جميعهم طاعة العبيد التي يفرضها على عائلته فلن يأوي، كلصٍّ، غير معروف، إلى مغارةٍ مظلمة، ولا يكفر بواحدة من غرائزه الفاسدة والجشعة بل يقف، متظاهرًا على عرشٍ أشبه بملك متغطرس. كلّ إنسان يريد السلام مع أهل بيته ويريد منهم أن يعيشوا بحسب إرادته. أمّا الذين يحاربهم، فلكي يخضعهم له، إن أمكن، حتّى إذا تغلّب عليهم جعلهم تحت قانون سلامه الخاصّ.

ولكن، فلنتصوّر إنسانًا شبيهًا بذاك الذي رسمته لنا الأسطورة

والشعر الذي صُنِّف بين أنصاف الرجال وليس بين الرجال بسبب شراسته؛ ومع أنّ مملكته انحصرت في مغارة موحشة ومقفرة، ومع أنّ شرّه رافقه منذ البداية كما يدلّ عليه اسمه Cacus, κακός شرّير، لا زوجة له يتبادل وإيّاها حلو الكلام، ولا أولاد يداعبهم صغارًا، ويؤدّون له الطاعة كبارًا، يجهل طيب الكلام مع صديق حتّى مع فولكانين، والده، ولكنّه فاقه سعادةً (لأنّ سعادته ليست ببسيطة) لكونه لم يُنجِبْ قزمًا على مثاله؛ لا يعطي أحدًا شيئًا وينتزع ممَّن قدر عليه كلَّ ما أراد؛ وحين يستطيع، كلّ ما يريد؛ ومع ذلك في تلك المغارة الموحشة حيث يصوّروننا «تحتفظ الأرض دومًا برطوبة مذبحةٍ حديثة العهد» (Virgile, *Eneide VIII*. *195*)؛ وهل يريد شيئًا غير السلام راحةً، بعيدًا عن كلّ إزعاج وعنف وإرهاب؟ وأخيرًا يتوق إلى أن يؤمّن الراحة لجسده؛ ولا خير إلّا في الإبقاء عليه، فيأمر أعضاءه؛ وأعضاؤه تطيعه؛ ولكي يهدّئ طبيعته بقدر ما يتمكّن، وبالسرعة التي تتوفّر له، وقد أثارتها الفاقة، واستبدّ بها الجوع فرحًا يصرخ عاليًا مخافة أن يموت، يروح ينهب ويقتل ويلتهم بشراسة ووحشيّة بغية الوصول إلى السلامة والحفاظ على الحياة؛ أمّا هذا السلام الذي يريده في عرينه، وفي ذاته، ومع الآخرين، فلا يسمح لهم بأن يسمّوه شرّيرًا أو قزمًا أو نصف إنسان. إن كان منظره البشع والنيران السوداء التي يتقيّأها من فمه تبعد عنه كلّ مجتمع بشريّ فقد تفسّر شراسته بحاجة حتميّة إلى الحياة، لا عن ميل إلى الأذية. بيد أنّ هذا الإنسان، لم يكن كما صوّره الشعراء ولا يحمل شرَّ كلّ تلك المخازي إلّا إعلاءً لمجد هركول. كلّا، ثمّ كلّا، ما وُجد قطّ على وجه الأرض نصف إنسانٍ كهذا الذي استنبطته أريحيّة

الشعراء ولهذا فإنّنا نصنّفه بين أكاذيب الشعراء لأنّ الحيوانات الأكثر وحشيّة وشراسة التي نعتوها بها (ألم يسمّوه نصف وحش؟) تحافظ على فصيلتها بموجب سلام معيّن عندما تتزاوج وتتوالد وتبيض وتغذّي ثمارها مع أنّها في معظمها تعيش على انفراد خارجًا عن القطعان؛ لا شكّ في أنّ كلامي هذا لا يتناول النعاج والغزلان والحمام والزرازير والنحل بل الأسود والثعالب والنسور والبوم. ما هو النمر الذي لا يحوّل زئيره إلى صوت خفيف ناعم وشراسته إلى مرعبات في سبيل جرائه وجماعته؟ ما الحدأة، عشيق الوحدة، الحوّام، الساعي إلى ما يختطفه، الباحث عن رفيق له، الباني عشًّا له، الرابض على البيض، المغذّي لصغاره الذي لا يريد السلام بدفء مع أمّ صغاره؟ وكم بالحريّ هو الإنسان الذي تدفعه شرائعه الطبيعيّة إلى إقامة عهد وسلام بقدر ما استطاع مع الآخرين من الناس طالما أنّ الشرّير ذاته يحارب من أجل سلام جماعته لكي تكون الطاعة لواحد؛ أمّا كيف تتمّ الطاعة؟ تتمّ إمّا عن خوف وإمّا عن محبّة. وعلى هذا النحو فإنّ الكبرياء الشرّيرة تقلّد الله. وبما أنّه لا يقبل أن يتساوى مع رفاقٍ له يتوق إلى أن يفرض سيطرته عليهم ويحلّ محلّ الله. وعلى هذا الأساس مَن يكره سلام الله ويحبّ سلامه الخاصّ، السلام غير العادل. لأنّه يحبّ أيّ سلام وأيًّا يكن وفي الواقع، ما من رذيلة تناقض الطبيعة إلّا ويستأصلها من جذور الطبيعة.

وعلى هذا النحو فسلام رجال الإثم بالمقارنة مع سلام الأبرار لا يسمّى سلامًا؛ وذاك شيء واضح لكلّ مَن يعرف أن يفضّل الاستقامة على البُطْل والنظام على الفوضى؛ وكلّ ما كان مخالفًا للنظام يتوق إلى سلام حتمًا في جزءٍ ما منه، وإلّا لما كان شيئًا؛

مثلًا، إذا علّق إنسان برجليه وتدلّى من فوق إلى تحت، فوضْعُ جسمه ونظامُ أعضائه معكوسان لأنّ ما تريده الطبيعة فوق هو تحت وما تريده تحت هو فوق؛ وهذه الفوضى تعكّر تاليًا سلام الجسم ولهذا فهي مضنية؛ غير أنّ النفس في سلام مع جسمها وتهتمّ بخلاصه؛ ولهذا فالعذاب قائم. إذا توصّلت العذابات وضيقاتها إلى أن تفصل النفس وتطردها خارجًا عن الجسم طالما أنّ وحدة الأعضاء قائمة فما هو مستمرّ لا يستغني عن بعض سلامٍ بين أعضائه؛ ولهذا فهناك أيضًا ما هو معلّق. أمّا الجسم الأرضيّ الذي يتوق نحو الأرض ويعمل ضدّ الرباط الذي يعلّقه فإنّه يتوق إلى سلامه الشخصيّ ويطالب، نوعًا ما، بصوت وزنه، بمكانٍ يرتاح فيه؛ ومع أنّه محروم من نفسه وإحساسه فلا يبتعد عن راحته الطبيعيّة سواء أحصل عليها أم كان إليها يتوق. وإن كان استعمال بعض الموادّ في عمليّة معيّنة لا يدع شكل الجثّة ينحلّ ويزول فهناك نوع من السلام الجامع بين الأجزاء الذي يربط الكلّ إلى وسط ملائم ومستكين. أمّا إذا لم يتّخذ تحنيطه مجالًا معيّنًا وترك الأمر إلى الطبيعة لتجري مجراها تقوم معركة بين روائح متناقضة تجرح شعورنا إلى أن تعود تلك الحكومة بحجمها للتجانس مع عناصر الكون فتدخل جزئيًّا وبطريقة لا شعوريّة في سلامها. على أنّه لا شيء ها هنا يخرج عن قوانين الخالق والمنظّم الذي يدبّر سلام الكون؛ وإن كانت حشرات صغيرة تولد من جثّة حيوان أكبر، فبقوّة شريعة الخالق ذاتها تعمل تلك الأجسام اللامنظورة على الإبقاء لكلّ منها على السلام الذي يحفظ له وجوده اللامنظور. وحينما تفترس حيوانات تلك الأجسام أو تتشتّت تلقائيًّا فأيًّا يكن الامتصاص أو التحوّل أو

الامتزاج الذي تتعرّض له الأجسام تلقي في كلّ مكان تنتشر فيه القوانين ذاتها التي تؤلّف بين الموادّ السمبتاويّة حفاظًا على الأجناس الحيّة.

١٣

سلام الكون تضبطه سنّة طبيعيّة في خضمّ القلاقل؛ وسلام الفرد مرهون بما رسمه الله وصولًا إلى الحالة التي يختارها

ويعني سلام الجسم انتظامًا بين أعضائه؛ وسلام النفس غير العاقلة راحة منتظمة بين شهواتها؛ وسلام النفس العاقلة توافق بين المعرفة والعمل؛ وسلام النفس والجسد يقوم على تنظيم الصحّة والحياة في الكائن الحيّ تنظيمًا حسنًا. ويعني سلام الإنسان مع الله طاعته في الإيمان تحت رعاية الشريعة الأبديّة. والسلام بين الناس يقوم على توافق منظّم والسلام البيتيّ يقوم ما بين أهل البيت على نوع من التعاقد وتنظيم الإدارة والطاعة؛ والسلام في المجتمع يتحقّق بواسطة التعاون والخضوع لسلطة منظّمة؛ وسلام المدينة السماويّة هو نظام وتوافق في جماعة الله وتبادل فرح مشترك بالله. والسلام في كلّ شيء هو نظام هادئ؛ والنظام هو قبول الكلّ بما يضع كلّ إنسان في محلّه وإن تباينت الأمور أو توافقت. والتعساء لكونهم تعساء لا يمكنهم أن يكونوا بسلام لأنّ النظام الهادئ لا يعرف القلق وهم بحاجة إليه؛ ولكونهم يستحقّون ما هم عليه من شقاء لا يستطيعون أن يكونوا خارج النظام؛ وصحيح أنّهم ما انضمّوا إلى جماعة الطوباويّين لكنّ شريعة النظام تفصلهم عنهم ويبقيهم وضعهم الخالي من كلّ

قلق واضطراب على شيء من التوافق مع محيطهم. وينعمون بشيء من الهدوء في نظامهم، ولهم، تاليًا، ظلّ من السلام؛ لكنّهم تعساء، وإن كانوا لا يتألّمون من التردّد؛ وليسوا في مكانٍ آمنٍ لا عذاب فيه؛ وقد يزدادون ألمًا لولا السلام الذي تؤمّنه لهم الشريعة التي ترعى النظام الطبيعيّ. ولكن بما أنّهم يتألّمون فحيثما يتألّمون، لا صفاء في السلام؛ وحيث لا ألم خارق ولا مجال لأن تنحلّ طبيعتهم فسلامهم باقٍ لهم. ومن ثمّ، بما أنّه لا حياة بلا ألم، ولا ألم بلا حياة، هكذا يمكن أن يكون سلام بلا حرب دون أن تكون حرب بلا نوعٍ من السلام، لا لأنّ الحرب هي حرب، بل لأنّ لها مَن يصنعها على مسرح؛ أناس وطبائع لا تكون، أو لا يسعها أن تكون وتستمرّ، بنوعٍ معيّن من السلام.

هناك طبيعة لا شرَّ فيها؛ وقد لا يمكن للشرّ أن يعرف إليها طريقًا؛ ولكن، أن تكون طبيعة بلا خير البتّة، فهذا أمر مستحيل. وإنّ طبيعة الشيطان نفسه، لكونها طبيعة، ليست شرًّا؛ بل الفساد يجعلها شرّيرة. ولهذا فإنّه لم يبقَ في الحقيقة ولا استطاع أن يهرب من قضاء الحقيقة؛ لم يثبت في هدوء النظام، لكنّه لم يستطع أن يهرب من حكم الحقيقة؛ لم يثبت في النظام لكنّه لم يستطع الهروب من قدرة المنظّم الأسمى. إنّ الله خيرٌ بطبيعته؛ ولا يخفيه عن عدل الله الذي يأمر به في العقاب؛ ولا يطالب الله بالخير، بحدّ ذاته، لأنّه خالق هذا الخير؛ إنّما يلاحق الشرّ الذي يعمله الشيطان لأنّه لا ينزع منه ما جمّل به طبيعته بل ينزع منه شيئًا ويترك له شيئًا آخر لكي يبقى ويتألّم بسبب ما انتزع منه، وهذا الألم يشهد للخير الذي فقده وللخير الذي بقي له؛ إذا لم يبقَ له خيرٌ ما، فهل يتألّم لخيرٍ فقده؟ إنّ الخاطئ يزداد سوءًا إن

فرح بخسارة العدالة؛ والمحكوم إن لم يربح شيئًا من عذاباته، يتألّم، على الأقلّ، من فقدان خلاصه. وبما أنّ العدالة والخلاص هما كلاهما خير؛ وأنّ خسارة الخير هي بالأخصّ موضوع ألم وليست موضوع فرح (هذا إن لم يكن تعويض في الأفضل وعدالة النفس أفضل من صحّة الجسد)؛ بكلّ تأكيد، إنّ حزن الأثيم في عذاباته أفضل من فرحه في الخطيئة. وعليه، كما أنّ فرح التخلّي عن الخير يؤكّد شرّ الإرادة في الخطيئة هكذا فإنّ الألم من الخير المفقود في العذاب يشهد لصلاح الطبيعة؛ لأنّ الذي يرثي لسلام طبيعته الضائعة لا يرثي لخسارتها من خلال بعض بقايا السلام الذي يعيد إليه طبيعته الصديقة؛ على أنّه، بحقّ، ينوح الظالمون والأثمّة في العذاب الأخير، وفي قلب العذابات يبكون على خسارة الخيرات الطبيعيّة: يشعرون باستقامة العدالة التي تنزعها منهم بعد أن احتقروا الصلاح غير المحدود الذي أعطاهم إيّاها الله الخالق الكلّيّ الحكمة والمدبّر الكلّيّ العدالة للطبائع كلّها، الذي أقام الجنس البشريّ فوق الأرض ليكون أجمل ما فيها؛ وَهَبَ الناس خيورًا ملائمة للحياة الحاضرة؛ وهبَهم السلام الزمنيّ، أي الذي تقدر أن تحقّقه طبيعتنا الصائرة إلى الموت، السلامَ في الحفاظ على الجنس كاملًا وموحّدًا. كلّ ما هو ضروريّ للبقاء ولاستعادة هذا السلام؛ فالعناصر مثلًا التي تلائم وتناسب حواسّنا كالنور المرئيّ والهواء الصالح للتنفّس والمياه الصالحة للشرب وما يُستخدم للغذاء والكساء. ولراحة الجسد وزينته؛ تحت هذا الشرط العادل الذي يعمل به كلّ إنسان ويستعمل تلك الخيور استعمالًا حسنًا ينال ما هو أعظم منها وأفضل، مثلًا، السلام الأبديّ والمجد أو

الكرامة تجاوبًا مع السلام في الحياة الأبديّة حيث يفرح الإنسان بالله وبالقريب في الله، في حين أنّ مَن يسيء استعمال تلك الخيور يخسرها ولا ينال الخيور الأخرى.

١٤

النظام والقانون الأرضيّ أو السماويّ به تحافظ الحكومة على مصالح المجتمع البشريّ

على هذا النحو فإنّ استعمال ما في الأرض يرتبط بمصلحة السلام الأرضيّ في مدينة الأرض وفي المدينة السماويّة لمصلحة السلام الأبديّ. ولهذا لو كنّا حيوانات عجماء لكنّا نتوق فقط إلى ما يتجاوب مع الأعضاء في الجسد ومع راحة شهواتنا ونكتفي بما يرضي الجسد ويرفّه اللذّة بحيث يكون سلام الجسد في خدمة سلام النفس. وفي الواقع، إن لم يكن الجسد في سلام اضطرب سلام النفس غير العاقلة لعدم تأمين الراحة لما يشتهيه الجسد؛ بين أنّ سلام الاثنين معًا ينفع السلام المشترك بين النفس والجسد الذي يؤلّف نوعًا من التجانس بين الحياة والصحّة. وكما أنّ الحيوانات تهرب من الألم لتُظهر محبّتها لسلام الجسد، وتسعى إلى اللذّة إشباعًا لشهواتها فتظهر محبّتها لسلام النفس وهكذا فحين تهرب من الموت تشهد حقًّا لمحبّتها للسلام الذي يوحّد بين النفس والجسد. ولكن بما أنّ الإنسان نفسٌ عاقلة فالذي يشترك فيه مع الحيوان يُخضعه لسلام النفس العاقلة لينتقل من التأمّل الباطنيّ إلى العمل الذي تحدّده النفس فيقيم إذ ذاك في نفسه اتّفاقًا متجانسًا بين المعرفة والعمل، يؤمّن

للنفس العاقلة سلامها؛ وصولًا إلى ذلك السلام، وحصولًا على علمٍ ما مفيد، وتوصّلًا إلى تنظيم حياته وأخلاقه استنادًا إلى ذلك العلم، عليه ألّا يستسلم إلى الألم المرهق والرغبة المزعجة وينحلّ بالموت؛ وخوفًا من ضعف العقل البشريّ ومن أن توقعه شهوة المعرفة في ضلال هدّام يحتاج إلى تعليم إلهيّ يثبّته في الحقيقة وإلى معونة إلهيّة لكي يطيع بحرّيّة. وبما أنّه في هذا الجسد الصائر إلى الموت، وطالما لا يزال مقيمًا فيه، يسافر، متغرّبًا عن الربّ، بالإيمان، لا بالعيان. وانطلاقًا من تلك الحالة، فكلّ سلام للجسد أم للروح أم لكليهما معًا يتعلّق بسلام الإنسان الصائر إلى الموت مع الله الأزليّ ليجعل طاعته على مستوى الإيمان تحت الشريعة الأبديّة. وبقدر ما نتعلّم من الله هاتين الوصيّتين الأساسيّتين: محبّة الله ومحبّة القريب حيث نجد ثلاثة تنصبّ عليهم محبّتنا: الله وذاتنا والقريب بحيث إنّه في محبّته لله لا يغلط في محبّة ذاته فينتج عن ذلك وعن مصلحة أخويّة أنّ عليه أن يحمل ذلك الأخ الذي يجب عليه أن يحبّه كنفسه إلى أن يحبّ الله. وواجب المحبّة هذا يقوم به أيضًا تجاه امرأته وأولاده وذوي قرباه وعلى قدر المستطاع تجاه كلّ الناس كما ينتظر من قريبه أيضًا أن يقوم به تجاهه؛ إذ ذاك يكون حقًّا على سلام مع كلّ إنسان؛ السلام البشريّ هو الاتّفاق في النظام الذي لا يسمح لأحد بأن يؤذي الآخر؛ وتاليًا بأن يكون نافعًا لمَن استطاع إليه سبيلًا. واجب الإنسان الأوّل هو أن يعمل لخير ذويه لأنّ نظام الطبيعة والمجتمع يسهّل له الدخول إلى ذويه للسهر على تلك المصلحة. وعليه يقول الرسول: «إن كان أحد لا يعتني بذويه ولا سيّما بأهل بيته فقد أنكر الإيمان وهو شرّ من كافر». (١ طيم ٥/

٨) فينتج عن ذلك السلام المنزليّ أي التوافق المنتظم بين السلطة والخضوع على مستوى أهل البيت. السلطة هي لمَن يقوم بخدمة الآخرين: إنّها للزوج على زوجته وللوالدين على الأولاد وللأرباب على الخدم. الطاعة واجب على مَن يجب السهر عليهم: الزوجة تطيع زوجها والأولاد يطيعون والديهم والخدّام معلّميهم. أمّا في البيت البارّ الذي يحيا بالإيمان ولا يزال يعيش بعيدًا عن المدينة السماويّة فهؤلاء أنفسهم الذين يأمرون هم الخدّام لمأموريهم. لأنّهم لا يأمرون بشهوة التسلّط بل بحكم التضحية، لا بكبر مَن يريد أن يكون سيّدًا بل بواجب الرعاية.

١٥

حرّيّة الإنسان الطبيعيّة والعبوديّة التي تتسبّب له بها الخطيئة

ذاك ما سنّه النظام الطبيعيّ؛ وبأيّ شرط خلق الله الإنسان فيقول: «لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلّط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكلّ الدبّابات الدابّة على الأرض». (تك ١/٢٦) ولا يريد من الكائن العاقل المخلوق على صورته أن يسيطر إلّا على الكائنات غير العاقلة؛ ولا يريد من الإنسان أن يسيطر على الإنسان بل الإنسان يسيطر على الحيوان. والأبرار الأوّلون أُقيموا رعاة على القطعان ولم يكونوا ملوكًا على بشر؛ أراد الله بذلك أن يعلّمنا منطوق نظام الخليقة وما تفرضه العدالة المرعيّة على الخطيئة. إنّنا ندرك أنّ العبوديّة فُرضت على الخاطئ بعدل ولا نجد في الكتاب المقدّس لفظة عبوديّة قبل أن يَصِمَ نوح البارّ بهذه الوصمة جريمة ابنه.

ذاك الاسم وحده أصابته الوصمة دون الطبيعة. واستنادًا إلى الأصل الذي تعزوه اللغة اللاتينيّة إلى لفظة عبد فإنّ مَن كانت الحرب تعدُّهم للموت كان المنتصرون يحتفظون بهم ليصبحوا عبيدًا لديهم؛ وهذا أيضًا نوع من العدالة الناتجة عن الخطيئة لأنّ مَن يحارب في سبيل الحقّ يلقى مَن يحارب من الجهة الثانية في سبيل الظلم؛ وكلّ نصرٍ يُعطاه الأشرار، هو حكم إلهيّ يذلُّ المغلوبين، إمّا للتكفير وإمّا للعقاب. ويشهد على ذلك رجل الله دانيال الذي يُنفى في الأسر فيعترف لله بخطاياه وخطايا الشعب، مؤكّدًا، بما يحسُّ به من ألم بنويٍّ، أنّ العبوديّة نتيجة طبيعيّة لذلك. السبب الأوّل للعبوديّة هي الخطيئة التي تقيّد الإنسان؛ وكلّ مصيره بحكم من الله دون سواه الذي لا يظلم أحدًا والذي يعرف أن يقيس العقاب بحسب ما يستحقّ الإنسان. ولكن، وبحسب كلمة المعلّم الإلهيّ «كلّ مَن يخطئ يكون عبدًا للخطيئة» (يو ٨/ ١٤) ومن ثمّ فإنّ عددًا كبيرًا من المؤمنين هم عبيد لأسيادٍ ظالمين غير أحرار: «وفي الواقع أنّ الإنسان مستعبدٌ لمَن غلبه». (٢ بط ٢/ ١٩) والإنسان المستعبد لإنسان آخر أقلّ شقاءً ممَّن هو عبد للشهوة؛ لأنّ شهوة التسلّط هي أشرس ما في الشهوات التي تتلفُ قلوب الناس؛ إنّ نظام السلام هذا الذي يجعل الإنسان خاضعًا لآخر يُذلّ العبد ويكون شؤمًا على السيّد. إنّ النظام الذي وضع الله الإنسان فيه عندما خلقه ما جعله عبدًا لإنسان آخر أو للخطيئة؛ لكنّ عقاب العبوديّة وضعته الشريعة التي ترعى النظام الطبيعيّ وتحرّم مخالفته؛ ولولا مخالفة الشريعة لما كان من قمعٍ عن طريق العبوديّة. ولهذا فإنّ الرسول يدعو العبيد إلى الخضوع والخدمة بنيةٍ صالحة (أف ٦/ ٧) حتّى إذا لم يحرّرهم أسيادهم يحرّرون أنفسهم، نوعًا ما،

ويشهدون من خلال عبوديّتهم على أمانة المحبّة، لا على الخبث والخوف، إلى أن يزول الشرّ وينتهي كلّ تسلّط بشريّ فيكون الله كلًّا في الكلّ.

١٦

المساواة في العلاقة بين العبد ومعلّمه

ومع أنّ لبطاركتنا، البررة، عبيدًا في تدبير السلام المنزليّ فما كانوا يميّزون بين عبيدهم وأولادهم إلّا في الخيور الزمنيّة؛ فيما يختصّ بشؤون العبادة الدينيّة التي منها ترجى الخيور الأبديّة كانوا يهتمّون بمحبّة متساوية في تأمين المصلحة لجميع أعضاء البيت؛ وهذا صحيح؛ وقد أمر به النظام الطبيعيّ الذي أعطى اسم أب العائلة الذي انتشر لدى الجميع حتّى الأرباب الظالمين الذين كانوا يحبّون أن يدعوهم الناس بذاك الاسم. أمّا آباء العيال الحقيقيّون الذين أخذوا على عاتقهم مسؤوليّة الجميع كما يهتمّون بأبنائهم يسهرون على إحياء العبادة لله وتكريمه في عيالهم، طالبين، بفارغ الصبر، الوصول إلى ذلك البيت السماويّ حيث تبطل وظيفة السلطة على البشر مع واجب السهر على حاجاتهم؛ وقد تحرّروا من ذلك كلّه بسعادة الخلود، إنّما حتّى ذلك الحين، على المعلّم أن يخضع للسلطة، كما هو العبد لمَن يتسلّط عليه. على أنّ مَن يعصى الأمر ويُعلن عن نفسه أنّه عدوّ السلام البيتيّ يؤنَّب ويُعاقب جسديًّا ويستعمل بحقّه كلّ عقاب عادل وشرعيّ، بحسب الحقّ الذي يوليه إيّاه المجتمع البشريّ لمصلحته الخاصّة وإعادته إلى السلام الذي قاطعه؛ وفي الواقع كما أنّ مساعدة

إنسان على خسارة خير أكبر ليست عمل خير فليس من المحبّة البريئة أن تبعده عنه لتلقيه في شرّ أكبر. الواجب المفروض على البراءة، يكون لا بالترفّع عن إيقاع الأذى بأحد، بل أيضًا بالتنبّه إلى الذنب ومعاقبته لكي يُصلَح المذنب بالامتحان، أو أقلّه، بالتهويل على الآخرين عن طريق المثل. ومن ثمّ كما أنّ العائلة هي أصل المدينة وجزء منها، وكما أنّ كلّ أهلٍ يرتبط بغاية من المستوى عينه وكلّ جزء يرتبط بالكلّ الذي به يتعلّق؛ من الواضح أنّ سلام العائلة يوجّه إلى سلام المدينة أي إلى اتّفاق السلطة والطاعة بين سكّان المنزل الواحد كما يعود إلى اتّفاق السلطة والطاعة بين سكّان المدينة. فينتج عن ذلك أنّه يُطلب من ربّ العائلة أن يضبط نظام بيته بحسب شريعة المدينة لتتلاءم مع سلام المدينة. بيد أنّ عائلة البشر الذين لا يحيون بالإيمان تتبع سلامًا أرضيًّا صرفًا تجاه خيور الحياة الزمنيّة ومنافعها. أمّا العائلة البشريّة التي تحيى بالإيمان فتنتظر، بخلاف الأولى، الخيرات العتيدة التي تعِدُها بها الأبديّة وتستعمل، كغريبة، خيور الأرض الزمنيّة، لا، لتؤخذ في شركها وتتحوّل عن الهدف الذي إليه تتوق، أي الله، بل لتجد فيه سندًا؛ وبدلًا من أن تثقل على الجسد الصائر إلى الموت وترهقه، تخفّف عنه. ونرى أنّ استعمال الأشياء الضروريّة في الحياة الصائرة إلى الموت مشترك بين المؤمنين وغير المؤمنين، تشارك فيها هذه العائلة وتلك؛ إنّما لكلّ منهما هدف؛ وعلى هذا النحو فمدينة الأرض التي لا تعيش بالإيمان تطمح إلى السلام الأرضيّ وذاك هو الهدف الذي ترسمه للتوحيد بين السلطة والطاعة لدى المواطنين ليتحقّق التلاقي بين الإرادات البشريّة فيما يختصّ بمصالح هذه الحياة البشريّة. لكنّ المدينة

السماويّة أو بالأحرى هذا الجزء منها الذي يسير على هذه الأرض ويحيا بالإيمان لا يستعمل السلام إلّا عند الضرورة. وطالما أنّها تطيل، في مدينة السماء، حياة الأسر في مسيرتها الأرضيّة وحيث نالت الوعد بالفداء والهبة الروحيّة عربونًا لذلك، وبما أنّها تخضع للقوانين الأرضيّة التي تهتمّ بالمصالح الزمنيّة فإنّها تطيع دون تردّد؛ وبما أنّهما تشتركان في المصير عينه الذي يقود إلى الموت ترغبان في فهم صحيح لهذا المصير الذي تنتظرانه؛ وأمّا مدينة الأرض التي نعِمَت ببعض حكماء وقد شجبتهم الكلمة الإلهيّة لكونهم اعتقدوا بضرورة تأمين رعاية عدد كبير من الآلهة للبشريّة استنادًا إلى تقديراتهم أو إلى خزعبلات الشياطين؛ وللآلهة المذكورين عدّة وظائف: منهم مَن يهتمّ بالجسد وآخرون بالنفس؛ واحد على الرأس في الجسد وآخر على العنق وإلى ما هنالك؛ وفي النفس واحد يهتمّ بالعقل والآخر بالعلم؛ هذا بالغضب وذلك بالحبّ؛ أمّا فيما يختصّ بحاجات الحياة فهذا يرعى القطعان وذاك يهتمّ بالحنطة، هذا بالكرمة وذلك بالزيتونة؛ هذا بالأحراج وذاك بالثروات؛ هذا بالسباحة وذاك بالحرب والنصر؛ هذا بالزواج وذلك بالولادة والإخصاب إلخ... في حين أنّ المدينة السماويّة التي لا تعترف إلّا بإله واحد تحتفظ، بكلّ تقوى، بالإكرام والعبادة لذاك الإله. وهذه العبادة تسمّى باليونانيّة Latrie لأنّها به وحده تليق؛ ولقد حدث أنّها لم تستطع أن تدخل مع مدينة الأرض بشراكة في الشريعة الدينيّة ونشأت بينهما خلافات ومخاصمات في هذا المجال، فضلًا عن الكراهية التي أعلنها ضدّ المدينة السماويّة أولئك الذين يعلنون آراءً مضادّةً لها؛ وثبتت المدينة السماويّة ضدّ هجمات المضطهدين التي لم

تتوقّف بمساعدة الرهبة التي تشيعها مجموعة المؤمنين، فضلًا عن النعمة الإلهيّة التي تعضدها وتصدّ عنف الأعداء عنها. وهكذا، طوال مسيرتها على هذه الأرض فإنّ المدينة السماويّة تجنّد مواطنين من كلّ الشعوب وتجمع بالرغم من تنوّع اللغات مجتمعًا على سفَرٍ مثلها، ولا همّ عندها، مهما تباينت الأخلاق والقوانين والمؤسّسات وكلّ ما يساعد على الحصول على السلام الأرضيّ والاحتفاظ به؛ لا تحذف منه شيئًا ولا تهدم شيئًا. ماذا أقول؟ إنّها تحتفظ بكلّ شيء وتتبعه؛ بالرغم من التناقضات التي فيه، وبحسب تنوّع الشعوب، يتوق إلى غاية واحدة، السلام، على هذه الأرض، إذا ترك للديانة، الحرّيّة في تعليم عبادة الإله الواحد الحقّ. ومن ثمّ، فإنّ مدينة السماء تستخدم، في مسيرتها على الأرض، سلام الأرض؛ وفيما يختصّ بمصالح الطبيعة الصائرة إلى الموت وطالما أنّ التقوى سليمة والدين يسمح فإنّها تحمي وتشجّع الاتّحاد بين الإرادات البشريّة موجّهةً سلامَ الأرض إلى السلام السماويّ، السلام الحقيقيّ، الوحيد الذي تستطيع أن تفيد منه، الوحيد الذي يمكن للخليقة العاقلة أن تسمّيه سلامًا: وهو نظام وتوافق تامّ في التمتّع بالله، أي تمتّع الكلّ المتبادل بالله. هنالك، لا مجال، للحياة الصائرة إلى الموت؛ بل حيويّة كاملة وثابتة؛ ولن يعود مجال لجسد حيوانيّ يرهق النفس بثقله الآئل إلى الفساد؛ بل جسد روحانيّ لا ينقصه شيء، خاضع في كلّ أجزائه للإرادة. وإذ تسير بالإيمان، تملك، ها هنا، هذا السلام وتحيا بالإيمان مع البرارة عندما توجّه إلى ذلك السلام كلّ عمل خير تقوم به، تجاه الله والقريب، لأنّ حياة المدينة حياة اجتماعيّة.

١٧

أصل السلام بين المدينة السماويّة والمدينة الأرضيّة والاختلاف بينهما

أمّا الفرق، الذي يستخلصه فرّون من المجمع الجديد، ويُبعد كلّ يقين، فمدينة الله تكرهه وتشجب مثل ذاك الشكّ؛ كأنّه عمل جنونيّ؛ لأنّ معرفته بالأشياء التي يدركها فكريًّا وروحيًّا، وإن تكن قليلة، بسبب ذلك الجسد الآئل إلى الفساد الذي يرهق النفس («أنّنا نعلم علمًا ناقصًا»، يقول الرسول ١ قور ١٣/٩) لا تدعو إلى الشكّ. وفي إطار الحقائق الواضحة فإنّها تؤمن بشهادة الحواسّ التي يضعها الجسد في خدمة النفس؛ أنّها لتؤمن بها لأنّ مَن يفكّر بأنّه لا يجوز تصديقها يخطأ خطأً فادحًا؛ وتؤمن أيضًا بالكتب المقدّسة القديمة والجديدة التي نسمّيها قانونيّة، والتي إليها يستند الإيمان الذي به يحيا البارّ؛ وبه نسير مطمئنّين طوال غربتنا عن الله. إنّه الإيمان السليم والأكيد؛ هناك أشياء لا ندركها، لا بالحواسّ، ولا بالعقل، حيث تنقصنا أنوار الكتاب وتأكيد الشهود الذين يجعلون الشكّ سخافة؛ هنا لا يستوجب الشكّ أيَّ ملامة.

١٨

موقف الشعب المسيحيّ وسلوكه

لا يهمّ المدينة السماويّة التي تلتزم عاداتٍ وأسلوبَ حياة لا

يتنافى والشرائع الإلهيّة؛ كلٌّ فيها يمارس الإيمان الذي يقود إلى الله؛ وكذلك حين يصبح الفلاسفة أنفسهم مسيحيّين، فالمدينة لا تفرض عليهم تغيير طريقة معيشتهم؛ بل تريد منهم أن يتخلّوا عن معتقداتهم الخاطئة. والفرق الذي يستنتجه فرّون من الفلاسفة الكلبيّين لا أهمّيّة له بالنسبة إليه إلّا ما كان ضدّ الاعتدال والكرامة. أمّا أنواع الحياة الثلاثة، حياة الراحة، وحياة العمل، وحياة العمل والراحة المعتدلة، فإن يكن لكلٍّ منها القدرة على الاختيار وعلى بلوغ المكافآت الأبديّة، دون أن يضرّ بالإيمان، يبقى علينا أن نتأمّل في ما يعطينا حبّ الحقيقة، وفي ما يطلب منّا واجب المحبّة. لا يجوز لأيّ إنسان أن يستسلم إلى الراحة ولا يعود يفكّر بمنفعة القريب، ولا إلى العمل حتّى لا يعود يطلب مشاهدة الله. في الراحة، لا يجوز أن نسعى إلى راحة بطّالة، فنرضى بها، بل السعي إلى الحقيقة واكتشافها؛ وهو ما يجب أن يسعى، من خلاله، الإنسان إلى التقدّم الروحيّ، راضيًا عمّا يكتشف دون أن يحسد الآخرين على نصيبهم من الاكتشاف. في العمل، لا يجوز للإنسان أن يحبّ الكرامة الزمنيّة، ولا السلطة لأنّ كلّ شيء تحت الشمس باطل، بل العمل الذي يعتبر الكرامة والسلطة أدوات له؛ العمل ذاته إن اختار العدل والمنفعة، أي خلاص المحكومين الذي يقرّه النظام الإلهيّ. يقول الرسول: «مَن اشتهى الأسقفيّة اشتهى أمرًا حسنًا». (١ تيم ٣/١) إنّه يريد أن يفهم القارئ ما هي الأسقفيّة؛ تعبير يعني واجبًا ولا يعني كرامة. الكلمة اليونانيّة هذه تفرض المراقبة التي يجب أن يحوط بها الحاكم مصالح محكوميه (σκοπός انتباه) وينتج عن هذا التعبير أنّ مَن يندفع إلى إعطاء الأوامر لا إلى

التضحية بذاته لا يظنّنّ نفسه أسقفًا. إنّ البحث الجدّيّ عن الحقيقة ليس محرّمًا على أحد؛ إنّها كرامة الراحة. أمّا الوظائف العليا الضروريّة لتدبير شؤون الشعب والانسجام اللازم لتلك الوظائف والقيام بها فلا يجوز لأحد أن يطمح إليها بشكل غير مقبول. وعلى هذا النحو فإنّ حبّ الحقيقة يقدّس الراحة التي يبحث عنها؛ المحبّة تضحّي في سبيل أعمال البرّ التي تقبل بها. إن لم يُفرضْ علينا الحملُ فرضًا فلنكرّس راحتنا للتأمّل بالحقيقة؛ وإذا فرض علينا فلنقبله بمحبّة؛ إنّما حذارِ أن ننقطع كلّيًّا عن هذه المشاهدة، مخافة أن يفوتنا ذاك السند الناعم، ويثقل علينا الواجب.

١٩

إنّ مواطني القدّيسين في هذه الحياة يصبحون سعداء بالرجاء

إنّ خير مدينة الله الأسمى، لكونه سلامًا أبديًّا وكاملًا، لا ذلك السلام الذي يعرفه الناس في مرورهم من الولادة إلى الموت؛ إنّما سلام به يكونون خالدين وفي منأى عن كلّ ضيق؛ مَن ذا الذي ينكر أنّ الحياة العتيدة، سعيدة وأبديّة وأنّ الحياة الحاضرة المفعمة بجميع الخيرات الخارجيّة، وكلّ المنافع الممكنة، الخاصّة بالنفس والجسد، هي، بالمقارنة، بؤس شقاء؟ غير أنّ الذي يعيش هذه الحياة في سبيل الأخرى التي يحبّها حبًّا حارًّا ويرجوها بإيمان وثقة، قد يكون، حقًّا، سعيدًا، منذ الحياة الحاضرة، منتظرًا تحقيق ما يرجوه، دون الحصول حاليًّا على السعادة. إنّ الحقيقة، بمعزل عن الرجاء، سعادةٌ كاذبة وشقاءٌ

كبير، ولا تمتلك خيور النفس الصحيحة. الحكمة لا تعتبر حقيقة، سواء أميّزت بفطنة، أم عملت بثبات، أم أنَبَتْ باعتدال، ووزّعت بعدل، لا تفكّر بالغاية القصوى المنشودة، حيث الله هو الكلّ، في الكلّ، في أبديّة أكيدة وسلام تامّ.

٢٠

شيبيون يحدّد الدولة. وهل كانت تلك هي حقيقة روما؟

هوذا الآن المكان الذي أنفّذ فيه، بما أمكن من الإيجاز والوضوح، الوعد القديم الذي قطعته على نفسي، مبيّنًا أنّ التعابير التي يستعملها شيبيون في كتابه «جمهوريّة شيشرون» لا تقول بوجود جمهوريّة رومانيّة، بل يحدّد الجمهوريّة بكلمة واحدة: الدولة أو الشؤون العامّة (شيشرون، *De Republic 25-29*). إن كان هذا التحديد صحيحًا فهذا يعني أنّه لا وجود لجمهوريّة رومانيّة؛ لأنّ نظام روما السياسيّ ما كان الشأن السياسيّ بل هو تحديد للجمهوريّة صحيح، بحسب شيبيون، لأنّه حدّد الشعب جماعة عديدة تستند على حقّ معترف به وعلى مصالح مشتركة. أمّا ما يعنيه، بحقّ معترف به، فهذا ما يشرحه عندما يبيّن أنّ الدولة لا يمكن أن تساس بلا عدالة؛ ومن ثمّ، حيث لا عدالة صحيحة فلا يمكن للحقّ أن يكون؛ لأنّ ما يُعمل بحقّ، يُعمل بعدل؛ وما يُعمل بلا عدالة لا يُعمل بحقّ. ولا يجوز أن نسمّي حقوقًا أو أن نعتبر المؤسّسات البشريّة الظالمة حقوقًا. ألا يقولون هم أنفسهم إنّ الحقّ ينبع من العدالة؟ أولا يرفضون الرأي الضالّ الذي يضع الحقّ في مصلحة الأقوى؟

وعليه، حيث لا عدالة حقيقيّة، لا مشاركة بين الناس في حقّ معترف به؛ وانطلاقًا من ذلك، لا شعب، استنادًا إلى تحديد شيبيون، أو شيشرون؛ وإن لم يكن هناك شعب فلا شيء يسمّى دولة بل ما هو جماعة عاديّة لا تستحقّ اسم شعب. ومن ثمّ إن كانت الجمهوريّة شيءَ الشعب، فلا شعبَ يقوم إذا لم تكن مشاركة تحت حقّ معترف له (على أنّه لا حقّ حيث لا عدالة) ينتج عن ذلك حتمًا أنّه حيث لا عدالة، لا جمهوريّة. العدالة هي هذه الفضيلة التي تعطي كلّ واحد حقّه. فما هي إذن تلك العدالة في الإنسان الذي تسرقه من يد الله لتجعله عبدًا للأرواح الشرّيرة؟ هل هذا يعني إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه. الإنسان الذي يسرق شيئًا من شخص آخر قد اشتراه ليعطيه لمَن لا حقّ له به هو ظالم. والإنسان الذي يخرج عن سلطان الله خالقه، ليجعل ذاته عبدًا للأرواح الشرّيرة، يكون على حقّ؟

على أنّ كتب الجمهوريّة نفسها تتضمّن نقاشًا حادًّا وقويًّا، دفاعًا عن العدالة، وضدّ الظلم؛ وبما أنّ الإنسان أخذ سابقًا جانب الظلم ضدّ العدالة، زاعمًا أنّه لا يمكن لدولة أن تستمرّ وتمتدّ إلّا بالظلم، كانوا يقدّمون بمثابة حجّة قويّة، على ما يقولون، هذا المبدأ: الظلم استعبادُ إنسانٍ لإنسان آخر؛ وهو ظلم تقوم به مدينة مستبدّة، واسعة النطاق، إن أرادت السيطرة على مقاطعاتها. ويكون الجواب باسم العدالة أنّ ذاك حقّ؛ لأنّ الاستعباد مفيد للناس المستعبدين ونافع حينما يُبعِدُ الحقُّ سوء الاستعمال، أي منع الشرّير، من الأذية، وبقدر ما يكون هذا الارتباط نافعًا للخلاص يكون الاستقلال وبالًا عليهم. دعمًا لهذا البرهان، يُعطى مثلٌ جميل، مأخوذ عن الطبيعة يقول: «لِمَ يأمر الله الإنسان والنفس

الجسد والعقل الشهوة وسائر أجزاء النفس الشرّيرة؟» وهو مثل يبيّن لنا بوضوح أنّ العبوديّة تنفع بعض الناس، لكنّ عبادة الله تنفع الجميع. إنّ للنفس الخاضعة لله الحقَّ بأن تأمر الجسد؛ وفي النفس يحقّ للعقل الخاضع لله أن يأمر الشهوة وسائر عيوب النفس. وحين يرفض الإنسان أن يخدم الله فأيّ عدالةٍ فيه؟ طالما أنّه ليس خاضعًا لله، فالنفس لا تستطيع أن تمارس سلطةً على الجسد، ولا العقل البشريّ على الرذائل. وإن لم يكن في الإنسان الفرد عدالة ما، فأيَّ عدالةٍ يمكن أن تكون في مجموعة من الأفراد، أمثاله؟ وتاليًا، إذ ذاك لا حقَّ معروف، يجعل من جماعة بشريّة شعبًا ومنهم دولة. وماذا أقول في تلك المصلحة المشتركة التي يُستند إليها لتأسيس جماعة من الناس؟ وما هي المصلحة الحقيقيّة لأناس يعيشون في الإثم كما يعيش كلّ مَن يتخلّى عن عبادة الله في سبيل خدمة الشياطين، أقزام أثمّة، كفّار يزدادون شرًّا كما أرادوا، كأرواح شرّيرة، أن تقدَّم لهم الذبائح، كما لله؟ على أنّ ما قلته عن الحقّ المشترك المعترف به كافٍ لكي يبيّن، استنادًا إلى لفظة «التحديد» أنّه حيث، لا عدالة، لا شعوب، ولا دولة. فهل يتمسّكون بالقول إنّ الرومان في دولتهم ما كرّموا أرواحًا شرّيرة قذرة بل آلهة صالحين وقدّيسين؟ إذ ذاك يجب أن يُكرَّر ما قد قلته سابقًا وتوسّعت فيه كثيرًا. ولكن أيُّ قارئ جاء إلينا، من خلال الكتب السابقة لهذا المؤلَّف، لا يزال يشكّ بفساد الشياطين وشرّهم الذين عبدتهم رومة، إلّا وكان سخيفًا حتّى الغرابة، ومدّعيًا حتّى الوقاحة؟ على أنّي لا أقول مجدّدًا مَن هم أولئك الآلهة الذين نالوا الإكرام بواسطة الذبائح وأكتفي بأن أذكّر بالكلمة التي جاءت في شريعة الإله الحقّ: «مَن ذبح لآلهة إلّا للربّ وحده فليُبسل». (خر

٢٢/ ٢٠) إنّه يحرّم كلّ ذبيحة للآلهة، صالحين كانوا أم أشرارًا، ذاك الذي يعلن هذه الوصيّة، مهدّدًا ومتوعّدًا.

٢٢

الإله الحقّ والذبيحة الواجبة له وحده

ولكن هل يستطيع الإنسان أن يجيب، مَن هو هذا الإله، وما هو البرهان الذي به يحقّ له وحده، ما عدا سائر الآلهة كلّهم، ذبائح الرومان وتقادمهم؟ العمى الذي لا يزال يبحث عن هويّة الله أساسيّ. إنّه الإله ذاته الذي تكلّم عنه الأنبياء هو مَن نراه؛ هو الإله الذي قال لإبراهيم: «بك تتبارك جميع الشعوب»؛ وهذا ما تحقّق في المسيح المتحدّر من إبراهيم، بحسب الجسد؛ وهذا ما يعترف به الأعداء لاسم يسوع، طوعًا أم قسرًا؛ أنّه الإله الذي تكلّم عنه الروح القدس بلسان مَن سبق؛ وذكرت نبوءاتهم التي تمّت في الكنيسة المنتشرة في العالم. إنّه الإله الذي ظنّ فرّون، أشهر علماء الرومان، أنّه جوبيتر، وإن كان لا يدري ما يقول؛ على أنّي أنقل رأيه لأنّه يستحيل على إنسان، عالم بهذا المقدار، أن يفكّر بأنّ الله غير موجود أو غير أهل للاحترام؛ ولقد خلط بينه وبين الذي اعتبره سيّد الآلهة. وأخيرًا إنّه الإله الذي يعترف بورفيروس بأنّه إله عظيم، وهو أشهر الفلاسفة، وألدّ أعداء المسيحيّين وذلك استنادًا إلى أقوال أولئك الفلاسفة.

٢٣

كلام بورفيروس في المسيح منقول عن الآلهة

في كتابه «فلسفة كلام الآلهة» يقول بورفيروس: «وأنا أستعمل تعابيره الخاصّة كما نقلت من اليونانيّة إلى اللاتينيّة في مجموعة الأجوبة الإلهيّة» على أسئلة منوطة بالفلسفة: «سأل أحدهم عن الإله الذي يجب اللجوء إليه لينتزع زوجته من الدين المسيحيّ فأجابه أبولونيوس بهذه الأبيات الشعريّة التي تقول: قد يسهل عليك أن ترسم خطوطًا على الماء أو أن تفتح جناحيك الخفيفين على نسمات الهواء العليل وتطير كالعصفور في الجوّ على أنّك لن تستطيع أن تشفي عقل زوجتك المستسلمة إلى الكفر. دَعْها في عنادها إذن واستسلامها إلى الضلالات العبثيّة التي تحتفل في طقوسٍ باطلة ومنكرة بجنازة الإله الميّت، بعد أن حكم عليه قضاة عادلون، علنًا، وسلّموه ليلقى أشنع العذابات وأمرَّها». (برفيروس، فلسفة الآلهة عدد ٣) بعد تلك الأبيات من نظم أبوللونيوس المنقولة بتصرُّف إلى النثر اللاتينيّ يضيف برفيروس قائلًا: «إنّ ذاك الكلام الإلهيّ يكشف عن خطأ حكم لهم مسبق لا شفاء له ويقول: «إنّ اليهود أفضل منه يعرفون أن يكرّموا الله». وبذلك نراهم يجدّفون على المسيح ويفضّلون اليهود على المسيحيّين؛ إذ يقول إنّ اليهود يعرفون كيف يكرّمون الله. على هذا النحو يشرح الكلام الإلهيّ حين يصرّح بأنّ المسيح حكم عليه بالموت من قبل قضاة عادلين أي إنّ العدالة قضت بعقاب عادل! أترك الألفاظ الكريهة عن المسيح إلى جواب أبولّينوس الكاذب؛ لهذا السفسطائيّ أن يؤمن بتلك الأقوال أو بأن يفترض

صحّتها افتراضًا؛ ولكن كيف يتوافق مع ذاته أو كيف يوفّق بين الأجوبة ذاتها؟ هذا ما سوف نراه لاحقًا. يزعم أنّ اليهود، بصفتهم عبادًا حقيقيّين لله لفظوا حكمًا عادلًا على المسيح، قاضيًا بإنزال أقسى ميتة عليه؛ ولكنّ إله اليهود ذاك الذي يشهد له لماذا لا يستمع إليه حين يقول: «مَن ذبح لآلهة إلّا للربّ وحده فليبسل؟». لننتقل إلى اعترافات أخرى أكثر وضوحًا؛ فلنستمع إليه يُعلن عن عظمة إله اليهود فيقول: «وإذ سئل أبوللونيوس عن الأفضل بين الكلمة، أي العقل، والشريعة أجاب بأبيات شعريّة اختار منها: «هو الله المبدع والمالك قبل كلّ شيء. الله الذي ترتعد أمامه السماء والأرض والبحر وأعماق الجحيم السرّيّة؛ أمامه ترتجف الآلهة خوفًا. إنّه الآب السامي الذي يكرّمه كإله، العبرانيّون القدّيسون؛ وهو لهم الشريعة؛ وعلى هذا النحو، واستنادًا إلى جواب أبوللونيوس، إله، يعترف برفيروس أنّ إله العبرانيّين، هو من العظمة، بحيث يخيف الآلهة أنفسهم. على أنّ ذاك الإله يقول: «مَن ذبح لآلهة إلّا للربّ فليُبسل»! وأعجب كيف أنّ برفيروس لم يرتعد خوفًا أمام ذلك التهديد وقد ذبح لآلهة دون أن يخاف من أن يسل؟

ويقول أيضًا ذلك الفيلسوف قولًا جيّدًا في المسيح، متناسيًا ولا شكّ الكلمات المهينة التي ذكرناها وكأنّ أولئك الآلهة في نومهم، حقّروا المسيح؛ وفي يقظتهم اعترفوا بفضله، وكالوا له المدائح والثناء العادل. وكأنّه يستعدّ لإعلان شيءٍ مدهش غير قابل للتصديق يضيف: «إنّ ما سأقوله يبدو للكثيرين، بخلاف ما ينتظرون، لأنّ الآلهة قالوا إنّ المسيح إنسان تقيّ جدًّا وأنّه أصبح غير مائت واحتفظوا عنه بأجمل الذكريات. ويتابع قائلًا أمّا كلام

الآلهة عن المسيحيّين فيتّهمهم بالدناءة والبذاءة والوقوع في شباك الضلال». وهنا يضيف تحقيرات أخرى ينسبها إلى الآلهة ويقول: «أمّا المسيح وقد سئل عمّا إذا كان هو الله، فيجيب هيكاتوس Hécate: «أين تذهب النفس الخالدة بعد خروجها من الجسد؟ أنت تعرف - هل توقّفت علاقتها بالحكمة؟ إنّها لا تزال في ضياع. النفس التي تحدّثني عنها هي نفس أتقى الناس؛ أمّا الذين يكرّمونها فقد تخلّوا عن الحقيقة». ثمّ ينسب إلى جواب الآلهة أفكاره الشخصيّة ويقول: «إنّ الآلهة، على حدّ قول برفيروس يعلنون أنّ أكثر الناس تديّنًا وأنّ نفسه بعد الموت دخلت في الخلود كسائر نفوس الأبرار إنّما يضلّ المسيحيّون الذين يعبدونه - ولماذا حكم عليه؟ وتجيب الآلهة لا يزال الجسد عرضة لتجارب التعذيب ونفس الأبرار تقيم بسلام في المساكن السماويّة. لكنّ النفوس التي لم تسمح لها الأقدار بالحصول على رضى الآلهة ولا على معرفة جوبيتر الخالد فنفس هذا الإنسان كانت أشبه بضحيّة الضلال؛ لقد كرهها الآلهة وأبغضوها لأنّ القدر قد حرمها من رضاهم ومن معرفة جوبيتر الخالد، فمارس عليها الإنسان السلطة الحتميّة. أمّا هو فبارّ مقبول في السماء بين الأبرار. حذارِ أن تجدّف عليه؛ أشفق على الناس المعتوهين لأنّ الخطر الذي يقدّمه إليهم يسهّل عليهم الانزلاق فيه بسرعة.

مَن هو الإنسان الذي تبلغ به الحماقة حدًّا لا يعود يرى أنّ تلك الأجوبة اختراع لعدوّ المسيحيّين الشرّير والألدّ، وأنّها أعطيت من قبل الأبالسة الأشرار للغايات نفسها لكي تسمح من خلال المديح الذي تكيله للمسيح أن تصبّ اللوم على المسيحيّين، مغلقةً، بهذا الشكل، باب الخلاص الأبديّ، الذي لا يمكن الدخول فيه إلّا

بالمسيحيّة؟ إنّهم يتقنون فنّ الأذيّة الذي يتّخذ ألف شكل وشكل فنراهم لا يخجلون، مثلًا، من جهة أن يصدّق الناس المديح الذي يقدّمونه إلى المسيح، ومن جهة أخرى، يقبلون باللوم الذي يلاحقون به المسيحيّين؛ يقبلون، استنادًا إلى كلامهم، الثناء على المسيح شرط ألّا يحملهم ذلك الثناء على اعتناق المسيحيّة؛ ويثنون على المسيح شرط ألّا يكون خلاصُ الإنسان منوطًا بالمسيح. ومن ثمّ، فكلّ مَن يؤمن بالمسيح، تأثّرًا بمديحهم، للسيّد المسيح، وشهادتهم له، لن يكون مسيحيًّا حقيقيًّا بل واحدًا من جماعة فوتينوس (أسقف إزمير الذي ينكر أنّ المسيح إله) الذي يعترف بالمسيح أنّه إنسان وينكر عليه ألوهيّته؛ وهكذا يظلّ غريبًا عن نعمة الفداء وعاجزًا عن تحطيم شراك الأرواح الكذبة أو الهروب منها. أمّا فيما يختصّ بنا، فإنّنا نصمُّ آذاننا عن سماع لوم أبولّينوس ومدائح هيكات (آلهة إغريقيّة ورومانيّة مثلّثة الرؤوس بَحْريّة وقمريّة). أحدهم يبغي تشويه برّ المسيح، معلنًا حكمة القضاة الذين يحكمون عليه، والآخر يعترف ببرّه، إنّما لا يشير إلّا إلى الإنسان فيه وكلاهما يهدف إلى شيءٍ واحد؛ ألا وهو إبعاد الناس عن المسيحيّة التي تستطيع وحدها أن تنتزعهم من سلطان الظلمات. على هذا الفيلسوف أو بالأحرى على أولئك الذين يؤمنون بما يقوله الآلهة ضدّ المسيحيّين أن يوفّقوا معًا، إن استطاعوا، في ما بين أبولّينوس وهيكات؛ فليمدحوا معًا المسيح أو فليحكموا عليه معًا حتّى إذا كان ذاك الاتّفاق، يجنّبنا، ما استطعنا، أولئك الشياطين الخبثاء سواء أكانوا يتّهمون المسيح أو يثنون عليه. ولكن حين يتناقض ذاك الإله وتلك الإلاهة في موقفهما من المسيح، هذا يمدح وذاك يهجو فهل

يستطيع مَن كان على شيء من الإحساس أن يصدّق ما ينشرون من اتّهامات ضدّ المسيحيّين؟

إنّ برفيروس (أو هيكات) في ثنائه على المسيح يزعم أنّه، بالنسبة إلى المسيحيّين، ضلال حتميّ يتبسّط في درس أسبابه على هواه. ولكن قبل أن أعدّها، استنادًا إلى كلماته الخاصّة، أسأل بادئ ذي بدء: «إذا كان المسيح بالنسبة إلى المسيحيّين ضلالًا حتميًّا فهل هو ذلك بإرادته أم لا؟ إن أراد ذلك فكيف يكون بارًّا؟ وإن لم يرد فكيف هو سعيد؟ ولكن فلنصغ إلى كلام برفيروس: «في مكان ما من العالم، أرواح أرضيّة خفيّة تحكمها قرائن شرّيرة كان العبرانيّون العقلاء ويسوع نفسه، بحسب ما جاء في الأقوال التي تسبق ذكرها عن أبوللونيوس، يُبعدون عنها الأبرار ويرذلون كلّ معاطاة معها، داعين الناس إلى تكريم آلهة السماء، ولا سيّما الله الآب. تلك هي، على حدّ قوله، وصيّة الآلهة أنفسهم؛ ولقد برهنّا عن الأسلوب الذي علّموه، لندفع بفكرنا إلى الله؛ وكيف يأمروننا بأن نعبدها في كلّ مكان وزمان. لكنّ الجهال والطبائع الشرّيرة المنبوذة، بحكم القدر، المحرومة من رضى الله ومعرفة جوبيتر الخالد طردوا جميع الآلهة، ورفضوا الاستماع إليهم وإلى البشر الإلهيّين؛ وبدلًا من أن يبغضوا الشياطين يقدّمون إليهم احترامًا محرّمًا؛ يتظاهرون بعبادة الله ولا يقومون بما، وحده، يُعتبر عبادة. أب كلّ خير؛ وهل يحتاج الله في الواقع إلى شيءٍ ما؟ ولكنّه خير لنا أن نعبده بالبرّ والطهارة وسائر الفضائل الأخرى وأن نجعل من حياتنا صلاةً مستمرّةً في الاقتداء بكمالاته؛ والسعي إلى حقيقته ينقّي؛ والاقتداء به يؤلّهنا ويرتفع بمحبّتنا إليه». أوافق على ما يُرفع إلى الله الآب من عبادة

صحيحة وإلى تلك الأخلاق البارّة من تكريم حقيقيّ. مليئة هي كتب الأنبياء العبرانيّين بتلك الوصايا سواء أكانت توجّه اللوم أو المديح إلى حياة القدّيسين. وفيما يختصّ بالمسيحيّين فإنّه ينخدع، أو ينمّ، بحسب ما يشاء، بأولئك الشياطين الذين يعتبرهم آلهة كما لو أنّه يصعب على كلّ منهم أن يتذكّر الفظائع والأعمال المشينة التي تعرض على المسارح وفي المعابد تكريمًا لأولئك الآلهة أو أن يتأمّل في ما يُقرأ ويُسمع في الكنائس؛ وأيّة ذبيحة تقدّم إلى الإله الحقّ لكي يعرف من خلال ذلك كيف، وأين تبنى الأخلاق أو تُهدم. وهل من روح، غير روح الشرّ، يقول لذلك الإنسان أو يوحي إليه بتلك الكذبة البالغة السخافة والوضوح، القائلة إنّ الشياطين الذين يدافع العبرانيّون عن أداء العبادة لهم يكرّمهم المسيحيّون ولا يبغضونهم؟ لكنّ هذا الإله الذي عبده العبرانيّون العقلاء يحرّم تقديم الذبائح إلى ملائكة السماء القدّيسين وإلى قوى الله سكّان المدينة السماويّة السعداء الذي نقدّم لهم من منفانا وفي سفرنا كلّ احترام ومحبّة؛ لأنّ التهديد التالي جاء في وصيّة الله إلى الشعب المختار ويدوّي كالصاعقة قائلًا: «فليُبسَل كلّ مَن يقدّم ذبيحة لغير الله». ومخافة أن يظنّ البعض أنّ تحريم الذبائح فقط قائم بالنسبة إلى القرائن البشريّة والأرواح الأرضيّة والسافلة، وهي مدعوّة في الكتب المقدّسة آلهة، نتّخذ شاهدًا على كلامنا آيةً من المزمور الوارد في الطبعة السبعينيّة: «جميع آلهة الشعوب أصنام». (مز ٩٥/٥) خوفًا من أن يقود تحريم الذبائح إلى الشياطين وإلى منعها عن الأرواح السماويّة أو عن بعضهم نرى الكتاب المقدّس يضيف: «والربّ هو صنع السماوات، احملوا تقدمة وتعالوا إلى دياره» أمّا الخطأ الذي قد

يدفع إليه التعبير اللاتينيّ فالعودة إلى النصّ اليونانيّ تنفي كلّ شبهة عن أن تكون الشمس هي الربّ. وعلى هذا النحو فإنّ ذاك الإله الذي يؤدّي له فيلسوف عظيم شهادة عظيمة، إله العبرانيّين أعطى الشعب العبرانيّ، شعبه، شريعة مكتوبة باللغة العبريّة، شريعة واضحة ومعروفة ومنتشرة لدى جميع الشعوب، حاملة إلى البعيد البعيد هذه العبارة: «مَن ذبح لآلهةٍ إلّا للربّ فليُبسل». فهل نحن بحاجة إلى البحث في تلك الشريعة أو في كتب الأنبياء عن مقاطع أخرى بهذا المعنى؟ ولكن، ماذا أقول؟ أبحث؟ إنّها لنصوص واضحة وكثيرة، واضحة ومتعدّدة؛ ويجب جمعها وإدخالها في هذا النقاش لكي يظهر البرهان، أوضح من النهار، وأنّ الله الكلّيّ السموّ يحرّم تقديم الذبائح لسواه. إنّه لجواب وجيه، يفرض ذاته، رهيبٌ وحقيقيّ. إنّ جواب الله بالذات الذي يمدحه عاليًا أشهر عقلاء الوثنيّة؛ يبقى على الجميع أن يفهموا تلك اللفظة المهدّدة وأن يعملوا بها ويخشوها ويتمّموها إذا لم يشاؤوا أن يتلوَ الإبسالُ العصيانَ «مَن ذبح للآلهة إلّا للربّ فليُبسل». وهذا لا يعني أنّه بحاجة إلى خير فينا بل خير لنا أن نكون له.

وأيضًا، إنّنا لنكرّر القول مع كتب العبرانيّين المقدّسة: «قلتُ للربّ أنت سيّدي وما عداك لا خير لي» (مز ١٥/ ٢) على أنّ أعظم وأقدس ذبيحة نقدّمها إليه هي ذاتنا؛ نحن، مدينته التي نحتفل بسرّها، في تقادمنا التي يعرفها المؤمنون، كما سبق وقلنا في الكتب؛ يجب أن تبطل الضحايا التي يذبحها اليهود بمثابة صورة للمستقبل لأنّه من المشرق إلى المغرب ذبيحة واحدة تقدّم لدى جميع الشعوب ونحن شهود بذلك؛ وذلك هو الوعد الذي تكرّر

الكلام عنه على ألسنة الأنبياء العبرانيّين. لقد جمعنا بعض الشهادات بقياس مقبول، لنوزّعها في هذا الكتاب؛ وعلى هذا النحو حيث لا عدالة تمارس بحسب نعمته، فالله يمارس على المدينة، التي تطيع، سلطة وحيدة وسامية، آخذًا وحده كلّ تكريم بالذبيحة؛ ومن ثمّ، في كلّ الناس المنتسبين إلى المدينة ذاتها والخاضعين لله، النفس تأمر الجسد والعقل يأمر العيوب بموجب الإيمان والنظام الطبيعيّ؛ بحيث إنّه أشبه ببارّ واحد جماعة وشعب من الأبرار يحيا بالإيمان، الفاعل بالمحبّة، التي بها يحبّ الإنسان الله كما يجب أن يكون محبوبًا وأن يحبّ القريب كذاته؛ وحيث لا عدالة كتلك العدالة فلا وجود لجماعة بشريّة ضمن نظام معترف به وشراكة في المصالح حقيقيّة، ومن ثمّ فلا شعب، تجاوبًا مع التحديد، واستنتاجًا، لا مجال لدولة لأنّ الدولة غير موجودة حيث لا وجود للشعب.

٢٤

تحديد الشعب وتحديد الدولة

وإن اختير تحديد آخر، مثلًا التحديد التالي: الدولة هي مجموعة عاقلة تتوحّد حول تملّك مشترك وهادئ لما تحبّ، وأراد إنسان أن يعرف شعبًا ما، عليه، بكلّ تأكيد، أن يتأمّل في ما يحبّ؛ ولكن، أيًّا يكن موضوع حبّه واجتمعت مخلوقات عاقلة دون حيوانات وارتبطت فيما بينها في تملّك مشترك وهادئ لما تحبّ، حُقّ لها شرعًا اسم دولة؛ وتكون دولة ممتازة إذا كانت المصلحة التي تجمع بين أفرادها شريفة؛ والعكس صحيح

أيضًا. واستنادًا إلى هذا التحديد الذي اتّخذناه نجد أنّ الشعب الرومانيّ يؤلّف دولة. ولكن، بدءًا من الأزمنة الأولى وما تلاها من العصور، ماذا كان يشتهي ذلك الشعب؟ أيّ فسادٍ داخليّ لم يجعله فريسة الخلافات الداخليّة الدمويّة التي أوصلته إلى الحروب الاجتماعيّة والمدنيّة، محطّمةً نير الوفاق الذي يعتبر، نوعًا ما، خلاص الشعب؟ التاريخ يؤكّد ذلك ولقد توسّعنا في هذا الموضوع في الكتب السابقة. وهل أرفض، يا ترى، إعطاء هذا الشعب اسم الشعب، ولحكومته اسم الدولة، طالما تقوم وحدة بين أفراد عقلاء يجمع فيما بينهم تملّك مشترك وسليم لما يحبّون؟ على أنّ ما أقوله عن هذا الشعب وهذه الدولة أقوله أيضًا وأعني به الأثينيّين وكلّ اليونانيّين ومصر وبابل القديمة وكلّ مملكة أخرى في مختلف تقلّبات حكمهم؛ لأنّ مدينة الكفرة لا تعرف العدالة الحقيقيّة؛ وبنوع عامّ، فإنّها ترفض الطاعة لله الذي يوصي بأن تقدّم الذبائح له وحده وترفض كذلك الطاعة، التي تحافظ بحسب الإيمان المستقيم، على سلطة النفس على الجسد والعقل على العيوب.

٢٥

الديانة الصحيحة أساس لكلّ فضيلة

وفي الواقع، أيًّا تكن السيطرة المشكورة التي تمارسها النفس على الجسد والعقل على العيوب، على ما يبدو، وإن لم تؤدِّ النفس والعقل لله واجبَ العبادة التي يطلبها فإنّ تلك السيطرة على الجسد والعيوب لا تكون مستقيمة. وأيّ كابحٍ تستطيع النفس الجاهلة للإله

الحقّ أن تمارسه تجاه جسدها وعيوبها وهي تتهرّب عن سيطرته، للإرتماء في أحضان الشياطين ومعانقتهم؟ وما تدّعيه من فضائل، تلك الربط التي تحكم بها على جسدها وغرائزها سواء أكان في سبيل الوصول أم في سبيل ضبط تلك القوى إن لم تردّها إلى الله فهي عيوب وليست فضائل؟ لأنّها وإن تكن تبدو، بنظر الكثيرين، شرعيّة، وهي لا تبحث إلّا عن ذاتها؛ ولا تعود إلّا لذاتها؛ مع أنّها ليست سوى ورم وكبرياء؛ وليست فضائل بل عيوب لأنّ هذا المبدأ ليس من الجسد بل ممّا هو أعلى منه، ممّا يجعل الجسد حيًّا؛ وهكذا فالمبدأ ليس من الإنسان بل فوق الإنسان، ممَّن يحيا الإنسان في السعادة، وليس الإنسان وحده، بل كلّ سلطان وكلّ فضيلة سماويّة

٢٦

سلام زمنيّ مشترك بين الصالحين والأشرار في مسيرتهم على هذه الأرض

النفس حياة الجسد والله حياة النفس السعيدة؛ يقول الكتاب: «طوبى للشعب الذي الربّ إلهه». (مز ١٤٣/ ١٥) والويلُ للشعب الذي يبتعد عن الله! ومع ذلك يحبّ سلامًا لا يجوز له أن يرفضه؛ سلام له؛ سلام لن يجده في الآخرة لأنّه لم يفد منه قبل الآخرة؛ أمّا أن يفيد منه في الحياة الحاضرة فهذا هو شأننا الخاصّ؛ طالما أنّ المدينتين متداخلتان فإنّنا نفيد أيضًا من سلام بابل، بابل التي تحرَّر نهائيًّا منها شعب الله، بالإيمان، ويمرّ فيها مسافرًا وحسب. ولهذا فإنّ الرسول ينبّه الكنيسة إلى ضرورة

الصلاة لأجل الملوك والعظماء قائلًا: «لنقضي حياة مطمئنّة ذات دعةٍ في كلّ تقوى وعفاف». (١ تيم ٢/٢) وحين تحدّث إرميا النبيّ إلى الشعب الإسرائيليّ القديم عن أسره العتيد طلب منه باسم الله أن يذهب بلا تذمّر إلى بابل ويقدّم إلى إلهه هذا الإكرام بصبر ويحضّه على الصلاة لأجل بابل قائلًا: «صلّوا من أجلها إلى الربّ فإنّه بسلامها يكون لكم سلامًا». (إر ٢٩/٧) وهو السلام الزمنيّ المشترك بين الصالحين والأشرار.

٢٧

سلام خدّام الله طمأنينة تامّة، لا يحصلون عليها في هذه الحياة

على أنّ السلام الخاصّ بنا فهو لنا مع الله، ها هنا بالإيمان، وفي الأبد معه وجهًا لوجه. أمّا هنا فسلامنا أو سلام الكلّ فهو عزاء في الشقاء وليس فرحًا بالسعادة. برُّنا نفسه، ومع أنّه حقيقيّ لكونه يرتبط بغاية الخير الحقيقيّة لا يمتدّ بعيدًا في هذه الحياة بحيث يقوم أوّلًا على مغفرة الخطايا قبل اكتمال الفضائل وتشهد بذلك صلاة مدينة الله بأسرها في محبّتها فوق هذه الأرض إذ تقول: «واغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمَن أساء إلينا». (متّى ٦/ ١٢) إنّها بصلوات عقيمة يقيمها ذوو الإيمان الميّت؛ لأنّه إيمان بلا أعمال؛ إنّما قويّة لدى مَن يعمل فيهم الإيمان بالمحبّة. وفي الواقع، ومع أنّ العقل يخضع لله في وصفه البشريّ حيث ترزح النفس تحت ثقل الجسد الصائر إلى الفساد فإنّه لا يسيطر على عيوب الإنسان سيطرة مطلقة وتبقى تلك الصلاة حاجة ضروريّة لدى الأبرار؛ صحيح أنّها قادرة على أن تأمر العيوب إنّما بحربٍ

مستمرّة. ومن ثمّ، ألا يدخل إلى القلب الأقوى في الإنسان الذي يتغلّب على أعدائه الباطنيّين غريزةٌ في زاويةٍ منه مريضة أو خفيفة تحمله على أن يخطأ إن لم يكن بالفعل الذي يصعب تحديده فبكلمة تنساب كما الماء أو بفكرة تطير وكأنّ لها جناحين؟؟ وطالما يملك الإنسان، على ما فيه من عيوب، فلن يعرف السلام التامّ لأنّ ما به من عيوب يقاومه ولا يستطيع أن يتغلّب عليها إلّا بواسطة معارك خطرة؛ حتّى إنّ التي انتصر عليها لا تترك له طمأنينة النصر وتفرض عليه، لكي تنضبط تامًّا، نوعًا من اليقظة القلق. في تلك التجارب التي يقول عنها الكتاب المقدّس، حياة الإنسان على الأرض تجنّد». (أي ٧/ ١) مَن ذا الذي يدّعي الاتّكال على النفس بحيث لا يشعر بحاجة لأن يقول لله: «واترك لنا ذنوبنا»؟ مَن هو؟ إن لم يكن ذلك الإنسان المتعالي وهو ليس كبيرًا حقًّا؛ بل ريح وورم؛ وبحقٍّ يخذله الله ويسكب نعمته على المتواضعين ويقول الكتاب: «إنّ الله يقاوم المتكبّرين ويعطي النعمة للمتواضعين». (يع ٤/ ٦). وهنا فالبرّ في كلّ واحد يعني أنّ الله يسيطر على الإنسان المطيع، والنفس على الجسد؛ والعقل على العيوب الثائرة سواء بإخضاعها أم بمقاومتها. وهو أنّ الإنسان يسأل الله نعمة الأعمال الصالحة ومغفرة الخطايا ويعترف له بالجميل لقاء ما يفيض عليه من خيرات. لكنّ الطبيعة التي برئت من غرائزها الفاسدة بواسطة الخلود وغير قابليّتها للفساد في ذاك السلام النهائيّ الذي هو موضوع برّنا على هذه الأرض وغايتنا المنشودة لا تقيم فينا أو ضدّنا أيَّ مقاومة؛ ولا الآخرون يقاوموننا؛ كما أنّ العقل لا يعود يمارس أيّ سلطة على العيوب التي لن يعود لها مكان. غير أنّ الله يأمر الإنسان والنفس

تأمر الجسد؛ وفي الطاعة قدر من النكهة والسعادة كالذي في الحياة والمجد. وللكلّ كما لكلّ واحد تكون الأبديّة، وأبديّة أكيدة؛ وسلام السعادة أو سعادة السلام هي الخير الأسمى.

٢٨

آخرة الشرّير

وبخلاف ذلك، فالذين لا ينتمون إلى مدينة الله، سيكون لهم الشقاء الأبديّ أو كما يقول الكتاب المقدّس الموت الثاني (رؤ ٢/ ١١؛ ٢٠/٦) إذ إنّه لن يكون هنالك حياة للنفس التي تصبح غريبة عن حياة الله ولا حياة للجسد الذي يسلّم إلى العذابات الأبديّة. وتزداد قساوة هذا الموت الثاني لكونه لا ينتهي بالموت. وكما أنّ البؤس مناهض للسعادة والموت منافٍ للحياة. والحرب منافية للسلام أليس مفيدًا أن نضع مقابل الخير الأسمى للسلام النهائيّ الشرّ الأكبر للحرب النهائيّة؟ وبادئ ذي بدءٍ فلنتأمّل في شرّ الحرب وما تجرُّ من كوارث؛ الكلّ فيها قائم على التناقض وعلى التناحر. وهل من حربٍ أكثر شراسة وعنفًا من حرب الإرادة والشهوة التي لا تعرف النهاية ولا تنتصر واحدة منها على الأخرى؛ الألم لا يكلّ عن هجماته الفتّاكة ضدّ الطبيعة التي لا تتوقّف عن مقاومته حين تنشب المعركة في هذه الحياة؛ أمّا أن ينتصر الألم وينتهي كلّ إحساس بالموت أو أن تتمّ الغلبة للطبيعة وتطرد العافيةُ الألم. في النظام العتيد يختلف الأمر؛ يستمرّ الألم للتعذيب؛ ولا تقبل الطبيعة القهر؛ ولا واحد منهما يعرف النهاية كيلا يعرف الألم نهاية. لهذا الخير السامي ولهذا الشرّ الفادح،

هذا يُهرب منه وذاك يُبحث عنه؛ وهكذا فالأشرار من جهة والصالحون من جهة أخرى يقفون للدينونة الأخيرة. وهذا الحكم هو ما أنوي التحدّث عنه بعون الله في الكتاب التالي.

المقدّمة

الدينونة الأخيرة

يقف أوغسطينس متأمّلًا في الأزمنة والدينونة الأخير
أنّ الناس منذ بداية الخلق لم يهربوا من أحكام الله؛ وي
أقوال الكتب المقدّسة حول الدينونة الأخيرة بدءًا بما
الأناجيل ورؤيا يوحنّا وسائر الكتب الرسوليّة؛ ثمّ ينتقل
العهد القديم لمقارنتها مع ما جاء حول الموضوع ف
الجديد. نصوص العهد القديم تتحدّث عن «يوم الربّ»
إنّ الدينونة ستصير بالمسيح إنّما نجد تلميحات إلى دور
في الدينونة مثلًا لدى ملاخي وزكريّا.

عقول الناس كانت مضطربة في أيّام أوغسطينس م
الذي يعطى لمُلك «الألف سنة». يوحنّا يميّز بين القيامة
وقيامة الموتى في نهاية الأزمنة. ويخطأ مَن يفسّر القيا
التي يحكي عنها الفصل العشرون من الرؤيا كأنّها قيامة
الزمن الممتدّ بين القيامتين هو زمن عراك وقلق تعيشه
وفيه يحاول الشيطان أن يغري الشعوب ويدخل في الكني

المقدّمة

الدينونة الأخيرة

يقف أوغسطينس متأمّلًا في الأزمنة والدينونة الأخير
أنّ الناس منذ بداية الخلق لم يهربوا من أحكام الله؛ وي
أقوال الكتب المقدّسة حول الدينونة الأخيرة بدءًا بما
الأناجيل ورؤيا يوحنّا وسائر الكتب الرسوليّة؛ ثمّ ينتقل
العهد القديم لمقارنتها مع ما جاء حول الموضوع ف
الجديد. نصوص العهد القديم تتحدّث عن «يوم الربّ»
إنّ الدينونة ستصير بالمسيح إنّما نجد تلميحات إلى دور
في الدينونة مثلًا لدى ملاخي وزكريّا.

عقول الناس كانت مضطربة في أيّام أوغسطينس م
الذي يعطى لمُلك «الألف سنة». يوحنّا يميّز بين القيامة
وقيامة الموتى في نهاية الأزمنة. ويخطأ مَن يفسّر القيا
التي يحكي عنها الفصل العشرون من الرؤيا كأنّها قيامة
الزمن الممتدّ بين القيامتين هو زمن عراك وقلق تعيشه
وفيه يحاول الشيطان أن يغري الشعوب ويدخل في الكني

إنّ قارئ هذا الكتاب يُدرك، للوهلة الأولى، الأهمّيّة التي يعطيها الكاتب لانتظار الدينونة وأورشليم السماويّة كما أنّ أوغسطينس يبدي جهدًا كبيرًا للربط بين فكرة الدينونة والمعارك التي تخوضها الكنيسة فوق هذه الأرض؛ ويكوّن عن الخلاص رؤية اجتماعيّة ومشتركة بحيث يشترك القدّيسون في الدينونة وفي ملك المسيح ويقول عنهم: «إنّهم كهنة الله ويسوع المسيح ومعه يملكون ألف سنة».

١

يدين الله في كلّ وقت؛ موضوع هذا الكتاب الدينونة الأخيرة

سأتكلّم الآن، بعون الله، عن يوم الدينونة الأخيرة؛ ولكي أركّزه ضدّ مقولات الأئمّة غير المؤمنين، سأعمل، بادئ ذي بدء، على أن أضع الحجر الأساس للشهادات الإلهيّة؛ والذين لا يريدون الإيمان بها يواجهونها بآراء بشريّة بائسة، خاطئة وخدّاعة، ويرفضون المعنى المعترف به للشهادات المأخوذة عن الكتب المقدّسة؛ أو لا يعترفون لها بأيّة سلطة إلهيّة. ولا أحد يأخذ تلك الأسفار، في معناها الحقيقيّ، ويقتنع بأنّ النفوس القدّيسة التي تصدر عنها تعبّر عن الله، إله الحقيقة إلّا ويقبل أخيرًا بها؛ فإمّا أن يعترف بها، علنًا، عن خجل، أو خوفًا، تحت تأثير بعض العيوب؛ وإمّا أن يندفع، بعناءٍ جنونيّ إلى الدفاع عمّا يعرفه ويؤمن بأنّه خطأ ضدّ ما يعرفه ويؤمن بأنّه صواب.

وعليه فإنّ مجيء المسيح، النازل من السماء، ليدين الأحياء

والأموات. وهو المجيء الذي تعترف به؛ وبه تؤمن كنيسة الله الحقّ بأسرها؛ ذاك ما نسمّيه اليومَ الأخير للدينونة الإلهيّة، عنيتُ به آخر الأزمنة. وكم يوم تدوم تلك الدينونة؟ ذاك ما لا نعرفه؛ لكنّ الكتاب المقدّس يستعمل، في لغته المعهودة، لفظة «يوم» بدلًا من «زمن» وهو تعبير لا تسمح مطالعة بسيطة وسطحيّة للكتاب المقدّس، لأيّ قارئ، بأن يجهله. على أنّنا، إذ نتكلّم عن يوم دينونة الله، نضيف «الأخيرة» أو «اليوم الأخير» لأنّه في هذا اليوم بالذات الذي نحن فيه يدين؛ أو دان كذلك، منذ بداية الجنس البشريّ، حين طرد من الفردوس وأبعد عن شجرة الحياة أبوينا الأوّلين اللَذين خطئا خطيئة كبيرة. ماذا أقول؟ ألم يدِنِ الله حين حكم على الملائكة الأشرار الذين أغوى رئيسهم الإنسان، حسدًا؟ أوليست حياة الشياطين والناس، الشقيّة، المليئة بالضيق والأخطاء، في مناطق الهواء، أو على الأرض، خارجةً عن قضاءٍ من الله أصيل وعادل؟ ولو لم يرتكب أحد من المخلوقات العاقلة خطأً أما كان يعدُّ اتّحادها بالله برُبُطٍ من السعادة الأبديّة ظالمًا بدون قضاء سليم وعادل؟ إنّ الله لا يكتفي بإصدار حكم عامّ على الشياطين والناس يقضي عليهم بالشقاء بسبب خطيئة الملاك الأوّل والإنسان الأوّل، بل يقاضي كلّ واحد على أعماله الشخصيّة لأنّ الشياطين يرجونها ألّا تعذّبهم؛ وبعدلٍ، يرفع عنهم العذاب؛ أو، بمقدار ما هم عليه من الشرّ، يعذّبهم؛ والناس يقاسون عذابًا متناسبًا مع جرائمهم، عادة يكون عقابهم علنيًّا وأحيانًا كثيرة يظلّ مكتومًا؛ وهو، بمثابة عقاب إلهيّ، يصير في هذه الحياة الدنيا، أو بعد الموت، مع أنّ الإنسان لا يأتي خيرًا ما لم يكن الله بعونه؛ وما من شيطان أو إنسان يعمل الشرّ، إذا

لم يسمح له الله بذلك، تجاوبًا مع عدالةٍ منه لا تُدرك. يقول الرسول: «ليس عند الله ظلم» وفي مكان آخر «ما أبعد أحكامه عن الإدراك وطرقه عن الاستقصاء» (روم ٩/ ١٤؛ ١١/ ٣٣) لست هنا، بصدد مناقشة أحكام الله، في بدء الأزمنة، وأواسطها؛ بل فقط إنّي أناقش الدينونة الأخيرة، بنعمة الله؛ حين يأتي يسوع المسيح من السماء ليدين الأحياء والأموات، وهو اليوم الحقيقيّ للدينونة؛ آنذاك لن يكون مجال لتشكي الأعمى من ازدهار الشرّير وبؤس البارّ؛ آنذاك، وبوضوح كلّيّ، ينال الصالحون السعادة التامّة والحقيقيّة وينال الأشرار، وحدهم، الشقاء اللامحدود الذي يستحقّونه.

٢

حظوظ الناس في الحياة الدنيا متنوّعة وأحكام الله حاضرة إنّما لا تدرك

الآن نتعلّم أن نتحمَّل بصبرٍ، الآلام التي لا يخلو منها الصالحون، وألّا نهتمّ، كثيرًا، بالخيرات التي لا يُحرم منها الأشرار. وهكذا فإنّ الله يُخفي تعليمًا خلاصيًّا في أسرار عدالته. وفي الواقع، لسنا ندري كيف أنّ الله، بحكم منه، يجعل هذا البارّ فقيرًا، وذاك الشرّير غنيًّا؛ هذا يعيش، بفرح، بينما هو، بنظرنا، يستحقّ التكفير، بواسطة عذابات آلامٍ قاسية، عن فساد أخلاقه؛ والآخر في الحزن يعيش، بينما كان يستحقّ في حياةٍ له مثاليّة أن يكافأ بالسعادة. ولماذا تصدر المحاكم البشريّة حكمًا ضدّ بريء، وتأبى أن تعطيه القرار الذي يستحقّه؟ وعلى هذا

النحو، تسقط البراءة تحت ظلم القاضي أو تحت ثقل شهادات كاذبة؛ وبالعكس يخرج المجرم، عدوُّه، دون عقاب؛ وماذا أقول؟ يخرج ظافرًا ومجدِّفًا؛ الأثيم يتمتّع بالصحّة؛ والبارّ يهلك بالمرض؛ كم من أناس في عزّ شبابهم يعيشون بالخطف والاغتصاب؛ وآخرون لا يتلفّظون بكلمة مؤذية، يقاسون مرَّ العذاب من آلام متنوّعة؛ كم من أطفال يرجى لهم السعادة اختطفتهم المنية، في سنّ مبكّرة، وأناسٍ آخرين ما كنّا ننتظر أن يروا النور، يعيشون، ويعيشون طويلًا جدًّا؛ أن يصل السافل المجلبب بالجرائم إلى أعلى القمم في مراتب الكرامة، ويبقى الإنسان الذي، لا غبار على سلوكه، دفين الظلام. أجل، ولماذا؟ تناقضات عجيبة! مَن ذا الذي يقوى على جمعها؟ على إحصائها؟ كما لو أنّ هذا الأمر السخيف في ظاهره، يقدّم بعض الاستمراريّة لو أنّ في الحياة هذه، «حيث الإنسان، على حدّ تعبير صاحب المزامير، ليس سوى شبه نفسٍ وأيّامه كظلٍّ تمضي» لا تكون الخيرات الزائلة والأرضيّة إلّا من نصيب الأشرار وامتحان السوء من نصيب الصالحين؛ إذ ذاك يمكننا أن نعزو هذا التقرير لعدل الله الرؤوف الذي يترك، لمَن ينبذهم إلى الأبد عن الخيور الأبديّة؛ وَهْمَ التعزية بالخيور الزمنيّة الذي يغذّي بما هم عليه من شرّ؛ وهي تعزية قائمة على رحمةٍ منه؛ بيد أنّ الناس الذين عُصِموا من العذابات العتيدة في الأبديّة يجدون في العذابات الحاضرة عقابًا على خطاياهم أو امتحانًا لفضائلهم؛ وكما أنّنا نرى اليوم أنّ الألم هو نصيب الصالحين نرى أيضًا أنّ الخير نصيب الأشرار؛ وهذا أمر يبدو غير عادل؛ وكما أنّ الشرّ يحلّ غالبًا بالأشرار، والخير بالصالحين، آنذاك تبدو أحكام الله

غير قابلة للإدراك وطرقه غير قابلة للفحص. وعليه، وإن كنّا نجهل كيف أنّ الله يقضي بهذا ويريده على ذاك النحو، هو الذي فيه، كلّ الفضيلة والحكمة والبرّ، بعيدًا عن كلّ أثرٍ للضعف والسخافة والإثم، يجب أن ندرك أنّه خير لنا أن نتعلّم ألّا نعير، كبير أهمّيّةٍ للخيرات أو للشرور التي نراها مشتركة بين الأخيار والأشرار، ولا نطلب سوى الخيور الخاصّة بالصالحين؛ ولا نتجنّب سوى ما يختصّ بالأشرار من شرور. وحين نصل إلى هذا القضاء الإلهيّ الذي سمّي، بيوم الدينونة، وأحيانًا، يوم الربّ، فإنّ أحكام ذاك اليوم الأخير، وأحكام البداية وكلّ تلك الأحكام سوف تلفظ حتّى نهاية الأزمنة تكشف كلّها عن عدالتها الأصليّة. آنذاك سوف يظهر أيضًا كم هو عادل قضاء الله ذاك الذي يُخفي عن حسّ البشر وذكائهم سرّ عدالته. لكنّ ما ليس سرًّا لإيمان الأنفس المتديّنة، من العدل أن يبقى مخفيًّا.

٣

تأرجح الإنسان في هذه الحياة بين الصالح والطالح

إنّ سليمان، ملك أورشليم، أكثر ملوك إسرائيل حكمةً، وصاحب كتاب الجامعة الذي يعتبره اليهود كتابًا قانونيًّا بين الأسفار المقدّسة، يبدأ كتابه بهذه الكلمات: «باطل الأباطيل يقول الجامعة، باطل الأباطيل كلّ شيءٍ باطل. أيُّ فائدةٍ للبشر من جميع تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس». (جا ١/٢-٣) وإذ يربط كلّ شيءٍ بهذه الفكرة يصوّر ما في الحياة من أخطاء وأحزان، الوقت الهارب باستمرار، غير تاركٍ شيئًا ثابتًا للاحتفاظ

به؛ وفي بطلان كلّ شيء، تحت الشمس، فإنّ ما يؤسف له، أكثر من سواه، هو أنّ مصيرًا يهدّد الجميع، في هذه الحياة، التي تنقضي تحت الشمس، بالرغم من بهاء الحكمة، بالنسبة إلى الخَبَل، كبهاء النور بالنسبة إلى الظلمة، وإن تكن عينا العاقل ثابتتين في رأسه بينما الأحمق يمشي في الظلام. وبكلّ تأكيد، فإنّه يشير إلى تلك الشرور التي نراها مشتركة بين الصالحين والطالحين. ويقول أيضًا إنّ الصالحين يتعذّبون كما لو كانوا أشرارًا؛ والأشرار يزدهرون كما لو كانوا صالحين؛ إليكم هذه الكلمات: «باطل يُجرى على الأرض. صدّيقون يصيبهم ما يليق بعمل المنافقين ومنافقون يُصيبهم ما يليق بعمل الصدّيقين. فقلت هذا أيضًا باطل». (جا ٨/ ١٤) في سبيل هذا الباطل الذي يرغب في أن يقنعنا به، يكرّس الحكيم كتابه، ليحيي فينا الشوق إلى الحياة الأخرى، حيث لا مجال للباطل تحت الشمس بل للحقيقة تحت الذي صنع الشمس. وبدون قضاءٍ من الله، عادل، فهل يتلاشى الإنسان في باطله وقد أصبح شبيهًا بالباطل عينه؟ مع أنّه، في أيّام الباطل هذه، يقاوم بشدّة أو يستسلم للحقيقة، لا، لكي ينال خيرات هذه الحياة أو ليتجنّب شرورها وكلّها بخار خفيف يزول؛ بل خوفًا من القضاء الآتي الذي يُعدُّ الخيور للصدّيقين وللأشرار العذابات الأبديّة؛ وأخيرًا ينهي الحكيم كتابه بالتعليم التالي: «إتّقِ الله واحفظ وصاياه؛ ذاك هو الإنسان كلّه... لأنّ الله سيُحضر كلّ عملٍ، ليدين على كلّ خفيّ، خيرًا كان أو شرًّا». (جا ١٢/ ١٣). وهل أوجز وأصحّ وأقرب إلى الخلاص من ذاك القول؟ «إتّقِ الله واحفظ وصاياه ذاك هو الإنسان كلّه» أجل، كلّ إنسان موجود هو هذا، الحافظ لوصايا الله؛ ومَن ليس هكذا فهو لا شيء؛ لأنّ

الإنسان الذي لا يستعيد صورة الحقيقة، في ذاته، يبقى أشبه بالباطل. إنّ كلّ عملٍ يعمله الإنسان في هذه الحياة «خيرًا كان أم شرًّا» يبرزه الله للدينونة، سواء أكان أحقر الأعمال وأتفهها أمام أعين الناس أم لا؛ ولكنّه ظاهر أمام عينَي الله الذي لا يُشيح بنظره عنه؛ بل يحاسب عليه.

٤

الشهادات في الدينونة مأخوذة من العهدين القديم والجديد

أمام الشهادات في الدينونة الأخيرة التي أخذت على نفسي أن أسأل عنها الكتب المقدّسة، فعليَّ أن أختارها من أسفار العهد الجديد وأسفار العهد القديم لأنّه، وإن يكن القديم سابقًا في الزمن، فالجديد يسمو عليه، لأنّ القديم هو مدخل إلى الجديد؛ وعليه فإنّنا سنبدأ بشهادات الجديد؛ ولكي نقدّمها، بثبات، نستند فيها على القديم الذي يتضمّن الشريعة والأنبياء؛ والجديد يتضمّن الأناجيل وأسفار الرسل. ويقول الرسول: «لا يُبرَّر بأعمال الناموس أحد من ذوي الجسد أمامه؛ لأنّها بالناموس عُرِفت الخطيئة. أمّا الآن فقد اعتلن برّ الله بغير الناموس مشهودًا له من الناموس والأنبياء. وهو برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كلٍّ وعلى كلٍّ من الذين يؤمنون؛ لأنّه لا فرق. (روم ٣/ ٢٠-٢٢) على أنّ برّ الله ذاك مرتبط بالعهد الجديد ويتّخذ براهينه من القديم، أي من الناموس والأنبياء. علينا في البداية أن نركّز الحدث ثمّ نستمع إلى الشهود؛ وهذا النظام هو ما يعلّمناه السيّد المسيح بقوله: «كلّ كاتب متعلّمٍ في ملكوت السماوات يشبه

رجلًا ربَّ بيت يخرج من كنزه جُدُدًا وقُدُمًا». (متّى ١٣/ ٥٢) ولا يقول «قدمًا وجددًا» وهذا كان قاله لو لم يفضّل نظام الجودة على نظام الأزمنة.

٥

عرض الربّ الفادي حول الدينونة التي يقوم بها الله في آخر العالم

حين راح المخلّص نفسه يؤنّب مدنًا كثيرة، أظهر فيها سلطته، على عدم إيمانها، مفضّلًا عليها مدنًا غريبةً قائلًا: «الحقّ أقول لكم، إنّ صور وصيدا ستكونان أخفَّ حالة منكما في يوم الدين». (متّى ١١/ ٢٢) ومن ثمّ قال أيضًا لمدينة أخرى: «لكنّني أقول لكم إنّ أرض سدوم ستكون أخفَّ حالةً منك في يوم الدين». (متّى ١١/ ٢٤) ويقيم بوضوح من خلال تلك الكلمات يوم الدينونة الآتي؛ ثمّ يقول في محلّ آخر: «رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويحكمون عليه لأنّهم تابوا بكرز يونان وههنا أعظم من يونان. ملكة التيمن ستقوم في الدين مع هذا الجيل وتحكم عليه لأنّها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان وههنا أعظم من سليمان». (متّى ١٢/ ٤١) نتعلّم حقيقتين من هذا النصّ: مجيء الدينونة وفي الوقت عينه، قيامة الأموات. بالتأكيد، حين كان المخلّص يتكلّم هكذا عن سكّان نينوى وعن ملكة التيمن، كانوا جميعًا مائتين وما سبق من الكلام يشهد على أنّهم يقومون في يوم الدينونة؛ وإذا قاموا «للشجب» فليس، بصفتهم، قضاة؛ غير أنّ حضورهم كاف لتبرير حكم الآخرين.

وبينما يتكلّم في محلّ آخر عن الاختلاط الحاليّ بين الصدّيقين والأشرار وعن تمييزهم المقبل يوم الدين يقدّم السيّد مَثَل الحقل المزروع حَبًّا جيّدًا حيث زُرع أيضًا الزؤان؛ وفي شرحه المَثَل لتلاميذه قال: «إنّ مَن يزرع الحَب الجيّد هو ابن الإنسان والحقل هو العالم؛ والحَب الجيّد هم أبناء الملكوت؛ الزؤان يعني أبناء الهلاك والعدوّ الذي يزرعه هو الشيطان والحصاد هو نهاية الجيل؛ والحصّادون هم الملائكة. وكما أنّ الزؤان يُجمع ويلقى في النار ليحترق هكذا سيكون في نهاية الجيل يرسل ابن الإنسان ملائكته فينتزعون من مملكته جميع الشكوك وفاعلي الإثم ليلقي بهم في أتون النار حيث البكاء وصريف الأسنان «حينذاك يضيء الصدّيقون كالشمس في ملكوت أبيهم. مَن له أذنان سامعتان فليسمع» (متّى ١٣/ ٤٣) لا شكّ في أنّه لا يسمّي هنا الدينونة، ولا يوم القضاء، إنّما يعبّر عنه، بشكل واضح، بواسطة الأشياء ذاتها؛ ويعلن عن أنّه سيكون في آخر الزمان.

وقال أيضًا لتلاميذه: «الحقّ أقول لكم أنتم الذين تبعتموني في جيل التجديد متى جلس ابن البشر على كرسيّ مجده تجلسون أنتم على اثني عشر كرسيًّا وتدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر». (متّى ١٩/ ٢٨). نعرف هنا أنّ يسوع يدين البشر مع تلاميذه؛ ويقول أيضًا لليهود في مكان آخر: «إن كنت أنا أخرج الشياطين ببعل زبوب فأبناؤكم بمَن يخرجونهم؟ فمن أجل هذا هم يحكمون عليكم». (متّى ١٢/ ٢٧) ولا تحدّ العروش الاثنا عشر التي يتكلّم عنها باثني عشر عدد الذين يحكمون معه لأنّ الرقم ١٢ يعبّر عن كثرة القضاة بقوّة الجزءين اللذين يتركّب منهما العدد ٧ الذي يمثّل الشموليّة وهذان الجزءان هما ثلاثة وأربعة اللذان إذا ضرب

أحدهما بالآخر يعطي الرقم ١٢ لأنّ ثلاثة ضرب أربعة؛ وأربعة ضرب ثلاثة تعطي الرقم ١٢؛ ودون المساس بأيّ سبب آخر يمثّله هنا العدد ١٢؛ وإلّا كما أنّ ماتياس رُفع إلى مصاف الرسل، محلّ يهوذا الخائن، ما كان بقي لمَن عمل أكثر من سواه. للرسول بولس، أي كرسيّ للقضاء؟ ومع ذلك نراه يعلن عاليًا أنّه سيكون هو ذاته مع القدّيسين في عداد القضاة حين يقول: «ألا تعلمون أنّنا سوف ندين العالم» (١ قور ٦/ ٣) وبهذا المعنى يستعمل العدد ١٢ في سبيل مَن يدانون إذ إنّه لا يجوز، انطلاقًا من التعبير «أسباط إسرائيل الاثنا عشر» الاستنتاج بأنّ سبط لاوي السبط الثالث عشر يُعفى من الدينونة أو أنّ الدينونة ستطال هذا الشعب وحده دون سائر أمم العالم. وإنّه انطلاقًا من هذا التعبير «في جيل التجديد» قد أراد بلا ريب أن يعني قيامة الموتى، إذ إنّ جسدنا سوف يتجدّد ويصير غير قابل للفساد؛ كما تجدّدت نفسنا بالإيمان. إنّي أتجاوز عدّة نصوص تتعلّق ظاهريًّا بالدينونة الأخيرة تَظْهَرُ، من خلال درس جدّيّ، ملتبسةً في معانيها، أو قابلةً لاجتهادٍ آخر؛ سواء مثلًا، أكان مجيء المسيح المخلّص يتمّ كلّ يوم في كنيسته أي في أعضائه، بشكل خاصّ، وشيئًا فشيئًا، لأنّ الكنيسة بأسرها هي جسده؛ أم كان يعني خراب أورشليم الأرضيّة لأنّ ربّنا يتكلّم عن تلك الكارثة بكلام يسمح بالخلط بينه وبين نهاية الأزمنة مع يوم الدينونة العظيم والأخير؛ ولن يستطيع إنسان أن يميّز بين ذينك الحدثين إذا لم نقابل معًا، بشأن هذه النقطة، بين نصوص الإنجيليّين الثلاثة؛ متّى ومرقس ولوقا، إذ حيث تفسير الواحد غامض يبدو تفسير الآخر، أكثر وضوحًا، وما كان بينها متعلّقًا بشيءٍ واحد، يبدو

أكثر وضوحًا وجلاءً. وهذا ما عملته، بقدر ما استطعت، في رسالتي إلى هازيكيوس، الطيّب الذكر، أسقف صالون. وعنوان الكتاب «في نهاية العالم».

وأخيرًا، ها إنّي أصل إلى هذا المقطع في إنجيل متّى حول تمييز الأبرار عن الأشرار، عندما يجلس المسيح، شخصيًّا، للدينونة الأخيرة: «ومتى جاء ابن البشر في مجده وجميع الملائكة معه فحينئذ يجلس على عرش مجده وتُجمع لديه كلّ الأمم فيميّز بعضهم من بعض كما يميّز الراعي الخراف من الجداء ويقيم الخراف من عن يمينه والجداء من عن شماله. حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدَّ لكم منذ إنشاء العالم لأنّي جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريبًا فآويتموني وعريانًا فكسوتموني ومريضًا فعدتموني ومحبوسًا فأتيتم إليَّ. حينئذ يجيبه الصدّيقون قائلين، يا ربّ، متى رأيناك جائعًا فأطعمناك؟ أو عطشان فسقيناك ومتى رأيناك غريبًا فأويناك أو عريانًا فكسوناك ومتى رأيناك مريضًا أو محبوسًا فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: «الحقّ أقول لكم، إنّكم كلّما فعلتم ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغار، فبي فعلتموه. حينئذ يقول أيضًا للذين عن يساره اذهبوا عنّي يا ملاعين إلى النار الأبديّة المعدَّة لإبليس وملائكته». (متّى ٢٥/ ٣١) ثمّ يؤنّبهم لأنّهم امتنعوا عن القيام بما فعله أولئك الذين هم عن يمينه وحين يسألونه أيضًا: متى رأوه هكذا عريانًا؟ الجواب عينه: كلّ ما لم يصنعوه إلى الصغار من جماعته فله لم يصنعوه ويعني قائلًا: «هؤلاء يذهبون إلى العذاب الأبديّ وأولئك إلى حياة الأبد». يشهد يوحنّا الإنجيليّ بوضوح أنّ يسوع أشار

إلى مجيء الدينونة ساعة قيامة الموتى لأنّه بعد أن قال: «إنّ الآب لا يدين أحدًا بل أعطى الابن السلطة على الدينونة لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب ومَن لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله». (يو ٥/ ٢٢-٢٤) وللحال يضيف الربّ قائلًا: «الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ مَن يسمع كلامي ويؤمن بمَن أرسلني، له الحياة الأبديّة، ولن يأتي إلى الدينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة». وها هو يؤكّد أنّ المؤمنين به لا يأتون إلى الدينونة؛ فكيف إذًا يتميّزون عن الأشرار، ويقومون إلى يمينه إن لم تكن لفظة «دينونة» مرادفة للفظة «حكم» وذلك الحكم لن يجري على الذين يسمعون كلمته ويؤمنون بمَن أرسله؟

٦

القيامة الأولى والقيامة الثانية

ويضيف: «الحقّ الحقّ أقول لكم، لقد أتت الساعة التي يسمع فيها الأموات صوت ابن الله والذين يسمعونه يحيون لأنّ الآب له الحياة في ذاته وأعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته». (يو ٥/ ٢٥) لا يتكلّم حتّى الآن عن القيامة الثانية، قيامة الأجساد، التي هي القيامة الأخيرة، بل عن الأولى، التي هي القيامة الحاضرة؛ ثمّ يقول مميّزًا لها عن الثانية: «ستأتي الساعة وها هي قد أتت». إنّ تلك القيامة ليست اليوم قيامة الأجساد بل قيامة النفوس، لأنّ للنفوس أيضًا موتها: الخطيئة والكفر. عن الناس المائتين بتلك الميتة قال الربّ: «دعوا الموتى يدفنون موتاهم» (متّى ٨/ ٢٢) موتى النفس يدفنون موتى الجسد؛ وعليه، عن

موتى النفس يقول إنّهم موتى الخطيئة والكفر: «تأتي الساعة، وها قد أتت يسمع فيها الموتى صوت ابن الله» والذين يسمعون يحيون؟ «الذين يسمعون» أي الذين أطاعوه آمنوا وثبتوا حتّى النهاية. هنا لا يعمل أيّ فرقٍ بين الأشرار والصدّيقين؛ لأنّه حسن أن يسمعوا صوته ويحيوا، عبورًا من موت الكفر إلى حياة النعمة. وعن هذا الموت يتكلّم الرسول بولس حين يقول: «الجميع، إذن، ماتوا؛ وإنّما مات المسيح عن الجميع لكي لا يحيا الأحياء لأنفسهم فيما بعد؛ بل للذي مات وقام لأجلهم». (٢ قور ٥/ ١٤) وهكذا فإنّهم جميعًا، دون استثناء، في موت الخطيئة، سواء بالخطيئة الأصليّة أم بالخطايا الإراديّة التي تضيفها إلى الأولى: الجهل والخُبْثُ وتناسي العدل؛ ومن أجل أولئك الموتى جميعًا واحد حيٌّ مات؛ هو النقي، الخالي من كلّ خطيئة؛ حتّى إنّ الذين يحيون، بمغفرة الخطايا، لا يحيون لأنفسهم، بل للذي مات من أجلنا ومن أجل خطايانا وقام من الموت من أجل تبريرنا؛ وإذ نؤمن بالذي يبرّر الخاطئ، وقد انتقلنا من الكفر إلى البرّ، كما من الموت إلى الحياة، نستطيع أن نكون من أبناء القيامة الأولى، القيامة الحاضرة. على أنّ الذين ينتسبون إلى تلك القيامة يصبحون سعداء إلى الأبد. لأنّ المعلّم سوف يعلّمنا أنّ في القيامة الثانية يجتمع الطوباويّون والتعساء. القيامة الأولى تقوم على الرحمة، والثانية على العدل: «في الرحمة والعدل نشيدي، يهتف صاحب المزامير، لك يا ربّ أشيد» (مز ١٠٠/ ١).

إنّه يتكلّم عن الحكم الأخير حين يقول: «وأعطاه السلطان أن يجري الحكم لأنّه ابن البشر» وسيأتي إذن بالجسد، الذي به جاء، ليُحكم عليه. ذاك هو معنى هذه الكلمات «لأنّه ابن البشر» (يو ٥/

٢٧) ويضيف إلى الموضوع الذي يشغلنا: «لا تتعجّبوا من هذا لأنّها تأتي ساعة يسمع فيها جميع مَن في القبور صوت ابن الله فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيّئات إلى قيامة الدينونة». (يو ٥/ ٢٨) قضاء، بمعنى حكم، كما في السابق: «إنّ مَن يسمع كلمتي ويؤمن بمَن أرسلني فله الحياة الأبديّة ولا يأتي إلى الحكم بل قد انتقل من الموت إلى الحياة». (يو ٥/ ٢٤) أي إنّه ينتسب إلى القيامة الأولى التي هي الممرّ الراهن من الموت إلى الحياة؛ ولن يقع في الحكم الذي تعبّر عنه هنا كلمة دينونة: فالذين عملوا السيّئات إلى قيامة الدينونة أي إلى الحكم الثاني. وعليه، فإنّ القيامة الأولى، مارسوها أنتم، يا مَن لا تريدون أن تدانوا في الثانية؛ لأنّ الساعة تأتي؛ وها هي قد أتت حيث الأموات يسمعون صوت ابن الله والذين يسمعونه يحيون؛ أي إنّهم لن يقعوا في الحكم، في الموت الثاني، حيث، بعد القيامة الثانية، قيامة الأجساد، يُلقى أولئك الذين لا يقومون في القيامة الأولى، أي قيامة الأنفس. «ستأتي الساعة» ولا يزيد «ها قد أتت» لأنّها لن تأتي إلّا في آخر الزمان أي في دينونة الله الكبرى والنهائيّة؛ «سوف تأتي الساعة وجميع الذين في القبور يسمعون صوته ويخرجون». ولا يقول كما قال في القيامة الأولى «والذين يسمعونه يحيون». لأنّهم لن يحيوا جميعًا تلك الحياة التي وحدها، على الأقلّ، وهي طوباويّة، تستحقّ اسم الحياة. ولكن عليهم أن يكونوا في حياةٍ ما لكي يسمعوا، لكي ينفضوا الغبار عنهم من أعماق قبورهم. ولِمَ لا يحيون بأجمعهم؟ يعلّمنا إيّاه عندما يضيف: «فالذين عملوا الصالحات يخرجون لقيامة الحياة؛ أولئك يحيون؛ «أمّا الذين عملوا السيّئات فيقومون

للدينونة» أولئك لا يحيون؛ لأنّهم، ميتةً ثانية يموتون، وقد عملوا السيّئات وعاشوا حياة سيّئة؛ عاشوا حياة سيّئة لأنّهم لم يقوموا القيامة الأولى، قيامة الأنفس الحاليّة، أو لكونهم لم يثبتوا حتّى النهاية. وعلى هذا أكرّر ما قلته سابقًا. في الحياة قيامتان: قيامة، بحسب الإيمان، تتحقّق الآن بالعماد، والثانية، بحسب الجسد سوف تتحقّق في الخلود وعدم الفساد، يوم الدينونة الأخيرة والعظيمة: قيامتان إحداهما في الزمن وهي قيامة النفوس؛ وتخلّصنا من الموت الثاني؛ والأخرى، ما بعد الزمان، في نهاية العالم، قيامة الأجساد، وليست قيامة النفوس؛ وتلك قيامة ترسل بقوّة القضاء النهائيّ، هؤلاء إلى الحياة التي لا تعرف الموت وأولئك إلى الموت الثاني.

٧

القيامتان والألف الأوّل، أوصافهما وشروحهما في رؤيا يوحنّا

إنّ الإنجيليّ نفسه يوحنّا في كتابه «الرؤيا» يتحدّث عن هاتين القيامتين، غير أنّ كلامه لم يسمح للكثيرين بأن يفهموا القيامة الأولى فحوّلوها إلى أساطير لا قيمة لها. وإليكم الأسلوب الذي اتّخذه يوحنّا في كتابه: «ورأيت ملاكًا هابطًا من السماء ومعه مفتاح الهاوية، وبيده سلسلة عظيمة فقبض على التنّين، الحيّة القديمة، الذي هو إبليس والشيطان وقيّده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأقفل خاتمًا عليه؛ لئلّا يُضِل الأمم بعد إلى تمام الألف سنة وبعد ذلك سيحُلُّ زمانًا يسيرًا. ورأيت عروشًا فجلسوا عليها؛ وأوتوا الحكم ورأيت نفوس الذين قُتلوا لأجل شهادة

يسوع ولأجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يتّسموا بالسمة على جباههم ولا في أيديهم فحيُّوا وملكوا مع المسيح ألف سنة. فأمّا باقي الأموات فلم يحيوا إلى تمام الألف سنة. هذه القيامة الأولى. سعيد ومقدّس مَن له نصيب في القيامة الأولى. إنّ هؤلاء لا يكون عليهم، للموت الثاني، سلطان؛ بل يكونون كهنة، لله وللمسيح، ويملكون معه ألف سنةً. إنّ الذين ظنّوا أنّ القيامة الأولى، استنادًا إلى ما سبق من كلام الرؤيا، سوف تكون للأجساد، فوجئوا حقًّا بالعدد، ألف سنة، كما لو أنّ ذاك الزمن سيكون، بالنسبة إلى القدّيسين، السبت الجديد، مرحلة مقدّسة، بعد التعب، على مدى ستّة آلاف سنة انقضت منذ خلق الإنسان الأوّل، وتكفيرًا عن خطيئته الكبرى الأولى، انتُزِعَ من مسرّات الفردوس وألقي في بؤس الموت؛ وطالما أنّ يومًا واحدًا، عند الربّ، كألف سنة وألف سنة كيوم واحد» (٢ بط ٣/٨) وإن كانت ستّة آلاف سنة انقضت كما تنقضي ستّة أيّام فالألف سنة الباقية قد تكون اليوم السابع أو سبت القدّيسين القائمين من الموت للاحتفال به؛ إنّه لرأي قد يكون مقبولًا، إن افترضنا أنّ حضور الربّ قد يفيض على ذلك السبت بعض المسرّات الروحيّة. وأنا شخصيًّا، قد جاهرت، في الماضي، بهذا الشعور؛ ولكن بما أنّهم يزعمون أنّ تلك القيامة تصير في موائد طويلة لا اعتدال فيها، فأقول إنّها تفوق فجورًا أو عربدةً ما يجري على الموائد الوثنيّة، إذ ذاك يجب التخلّي عن تلك المعتقدات إلى النفوس الجسديّة. الناس الروحانيّون يسمّون مَن يتبنّون تلك العقيدة «ألفيّين» نقلًا عن كلمة يونانيّة؛ إنّ دحض مزاعمهم، بالتفصيل يتطلّب وقتًا طويلًا؛ ومن الأفضل محاولة

درس النصّ الكتابيّ.

قال الربّ يسوع شخصيًّا: «كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القويّ وينهب أمتعته إلّا أن يربط القويّ أوّلًا وحينئذ ينهب بيته». (متّى ١٢/٢٩) ويعني «بالقويّ» الشيطان الذي استطاع أن يحفظ الجنس البشريّ في الأسر. وبالأمتعة التي يحاول أن ينهبها يعني مؤمنيه، العتيدين، الذين كانوا مقيَّدين في الجريمة والكفر. ولهذا رأى الرسول ملاكًا نازلًا من السماء، بيده مفتاح الجحيم وسلسلة، بغيةَ ربط القويّ. وأمسك بالتنّين، الحيّة القديمة، التي يسمّونها أيضًا إبليس أو الشيطان، وربطه لمدّة ألف سنة». (رؤ ٢٠/١) أي إنّه يربط سلطة الإغراء والسيطرة عنده لكي يحرّر المختارين. أمّا الألف سنة تلك، فيمكن فهمها بطريقتين: إمّا أن تتمّ تلك الأشياء في الألف سنة الأخيرة، أو في الألف السادس، كما في اليوم السادس، الذي تنقضي الحقبة الأخيرة ليتبعها السبت الذي لا مساء له؛ أو ما يسمّى براحة القدّيسين الأبديّة؛ وتلك هي نهاية اليوم الألفيّ الذي يدوم حتّى نهاية الأجيال الذي يسمّيه الكتاب المقدّس ألف سنة، متّخذًا الجزء في سبيل الكلّ؛ أو أنّه يعبّر، بهذا العدد، عن مدى الدهر. وهو عدد كامل يعبّر عن ملء الأزمنة؛ لأنّ العدد الألفيّ هو المربّع القاطع للرقم عشرة. عشرة مضروبة بعشرة تساوي مائة وهي صورة مربّعة إنّما مسطّحة على أنّ مَن يريد أن يرفعها إلى فوق ويجعلها أكثر متانةً يجب عليه أن يضرب العشرة بالمائة وهذا ما يعطي ألفًا. وإذا اعتبر العدد مائةَ إلى ما لا نهاية الأعداد يكون ربّنا الذي يَعِدُ مَن يترك كلّ شيء ويتبعه قائلًا منذ الحياة الدنيا ينال مائة ضعفٍ بما يفسّره الرسول بالكلمات التالية «كأنّ لا شيء له وهو يملك

كلّ شيء» (٢ قور ٦/١٠) أو لم يُقَل سابقًا: «العالم بأسره كنز المؤمن» وكم وكم أيضًا يمكن التعبير بالعدد ألف عن أعداد لا نهاية لها؛ وهو التربيع للعدد عشرة؟ وأيضًا لا يمكننا أن نفقه إلّا بذاك المعنى كلمات المزمور التالية: «تذكّر إلى الأبد ميثاقه، الكلمة التي أوصى بها إلى ألف جيل». (مز ١٠٤/٨) أي إلى جميع الأجيال.

«ودفعه إلى الجحيم». هذا الجحيم، الذي يلقي فيه بالشيطان، يرمز إلى جماعةٍ لا تُحصى من الكفرة؛ قلوبهم جحيم من الكراهية والبغض لكنيسة الله؛ لا لأنّ الشيطان لم يكن فيها؛ بل لأنّ المؤمنين تحرّروا منه، ولم يعد مستمسكًا، بشدّة، بالكفرة؛ لأنّ ذاك يُعتبر ملكًا للشيطان، ليس مَن لم يكن فقط مبتعدًا عن الله بل مَن كان يضمر بغضًا مستمرًّا لخدّام الله. وأغلق عليه، خاتمًا للجحيم، لكي يتوقّف عن إغراء الناس حتّى نهاية الألف سنة» أغلق، أي منعه من الخروج، أو مِنْ أن يتجاوز الأمر؛ وختم؛ كأنّ هذا الظرف بالنسبة إليَّ يشير إلى السرّ الذي به تحجب عن أعيننا الإرادة الإلهيّة الذين ينتمون أو لا ينتمون إلى الشيطان. إنّه لسرّ لا يمكن إدراكه في الزمن: مَن ذا الذي يدري إن كان هذا الواقف لا يسقط أو ذاك الذي يبدو ساقطًا لا ينهض؟ ولكي ينتزع من الشيطان الأمم المختارة، وهي ميراث المسيح المغتصب، يضغط السجن والقيد على وقاحته لأنّ الرسول يقول: «واختار الله أولئك الشعوب قبل خَلْقِ العالم ليخرجها عن سلطان الظلمة وينقلها إلى ملكوت ابن محبّته». وفي الواقع، فليغوِ الآن أيضًا الشعوب، غير المعدّة للحياة الأبديّة، وينقلها معه إلى العذابات الأبديّة؛ وأيّ مؤمن لا يعرفه؟ ولا نعجبنّ إن كان يغوي

في أغلب الأحيان أولئك الذين تجدّدوا بالمسيح ويسيرون على طرق الله لأنّ الربّ يعرف الذين له» (٢ قور ٢/ ١٩)؛ ومن بين المختارين لا يغوي أحدًا فيجرّه إلى الشجب الأبديّ. الربّ يعرفهم كالله، كالذي لا يخفى عليه شيء من المستقبل؛ وليس كالإنسان الذي لا يرى سوى الإنسان الحاضر (إن رأى الإنسان الذي يبقى قلبه خفيًّا عليه) دون أن يعرف ما سيكون عليه ذاك الإنسان في المستقبل ولا يرى أيضًا ما سيكون هو عليه مستقبلًا. لذاك السبب، يبقى الشيطان مقيّدًا ومحبوسًا في الجحيم (الهاوية) فلكي لا يغوي الأمم التي تجمعها الكنيسة والتي كان يسيطر عليها بإغراءاته قبل أن تكون الكنيسة. لم يُقَل، لكي يتوقّف عن الإغراء بل لكي يتوقّف عن إغراء الشعوب الذين بهم يريد أن يفهم الكنيسة «حتّى اكتمال الألف سنة» أي حتّى انتهاء الحقبة الأخيرة من اليوم السادس الألفيّ أو سائر السنوات التي تتمّ في الجيل.

والكلمات «لكي يتوقّف عن إغواء الشعوب حتّى انتهاء الألف سنة» لا يجوز أن تُفهم بمعنى أنّه يجب عليه أن يمارس من الآن وصاعدًا مهابته على الشعوب الذين تتألّف منهم الكنيسة المصطفاة والتي بخلاف ما يُظنّ، تسبّبت له بالسجن والقيود. ولكن، أمّا أن يكون التعبير، المستعمل بكثرة، في الكتاب المقدّس، مماثلًا لتعبير المزامير «كذلك عيوننا إلى الربّ إلهنا حتّى يتحنّن علينا» (مز ١٢٢/ ٢)؛ وهذا تعبير لا يعني أنّ عيوننا، عيون خدّامه، تتوقّف عن التطلّع إليه، حينما تتأكّد من أنّه ترأف عليها؛ وكذلك هو ترتيب الكلمات التالية: «وأغلق خاتمًا الجحيم عليه حتّى اكتمال الألف سنة» والجملة العرضيّة «ليتوقّف

عن إغواء الشعوب» يجب تحريرها من الجملة الأساسيّة وفهمها مستقلّةً عن سواها كما لو انّها جاءت تابعة بالتوالي فيُفهم الكلّ على هذا النحو: «وأغلق عليه، خاتمًا الجحيم، حتّى تكتمل الألف سنة فليتوقّف عن إغواء الشعوب؛ وبتعبير آخر، لكي يمتنع عن إغواء الشعوب يبقى الجحيم مغلقًا عليه حتّى اكتمال الألف سنة.

٨

ربط الشيطان وتحريره

ومن ثمّ يقول الرسول «وبعد ذلك سيُحلُّ زمنًا يسيرًا» (رؤ ٢٠/ ٣). إن كان بالنسبة إلى الشيطان، البقاء في القيود والأسر يعني عجزه عن إغواء الكنيسة؛ فهل خلاصه منها يعني القدرة على ذلك؟ يا له من تجديف! كلّا ثمّ كلّا، لن يضلّ الكنيسة المصطفاة والمختارة قبل خلق العالم، الكنيسة التي قيل عنها: «الربّ بعلم مَن له» ومع ذلك فتلك الكنيسة ساعة خلاصها بالذات من الشيطان ستكون، كما كانت منذ يوم تأسّست، وكما ستكون في كلّ زمنٍ، ها هنا، بأولادها الذين يتعاقبون في الولادة والموت، لأنّ الرسول يقول للحال بعد ذلك، إنّ الشيطان الحرّ والسيّد على الأمم الضالّة يجرُّها إلى الحربّ ضدّها؛ وأنّ أعداء الكنيسة سوف يساوون حبّات رمل البحر عدًّا. «فطلعوا على سَعَةِ الأرض وأحاطوا بمعسكر القدّيسين وبالمدينة المحبوبة فهبطت نار من عند الله، من السماء، وأكلتهم وطرح إبليس الذي أضلّهم في بحيرة النار والكبريت حيث

الوحش والنبيّ والكذّاب. هناك يعذّبون، نهارًا وليلًا، إلى دهر الدهور». (رؤ ٢٠/٨-١٠) ولكنّ هذا مختصٌّ بالدينونة الأخيرة؛ وظننت أنّ من واجبي أن أذكّر بهذا النصّ لئلّا يتصوّر أحد أنّ الكنيسة ستزول عن وجه الأرض؛ أمّا لأنّه لا يجدها ساعة الخلاص؛ أو لأنّه سوف يمحوها عن وجه الأرض بواسطة الاضطهادات العنيفة والمتكاثرة ضدّها. وعلى هذا النحو، وطوال الحقبة التي يتضمّنها هذا الكتاب العجيب، منذ المجيء الأوّل للمسيح، حتّى نهاية الدهر، زمن المجيء الثاني، طوال الحقبة، التي يسمّيها الرسول زمن الألف سنة؛ فأسر الشيطان ليس عجزه عن تضليل الكنيسة طالما أنّه، وهو حرّ من قيوده، لن يستطيع أن يضلّلها. ومع ذلك، إن كان عدم القدرة لديه أو عجزه عن إغواء الكنيسة يعني أنّه راسف في القيود، فالتحرّر من القيود، هل يعتبر استعادة القدرة أو الإذن بإغوائها؟ معاذ الله! أسر الشيطان هو حرمانه من حرّيّة استعمال كلّ التجارب، إمّا بالقوّة، أو بالحيلة، التي يقدر أن يستعملها إغواءً للناس، سواء أكان بضمّهم، عن طريق العنف، إلى حزبه، أم بالحيلة والدهاء. لو كان له الإذن، خلال هذه المدّة الزمنيّة الطويلة للنيل من ضعفنا المتفاقم لكان سقط الكثيرون ممّن يريد الله أن يخلّصهم من تلك التجارب؛ يحرم بعضهم من الإيمان والبعض الآخر يبعدهم عنه. لهذا هو مقيّد.

وسوف يحرّر من القيود، حين لا يبقى سوى زمن قصير. يترك الكتاب المقدّس ثلاث سنوات وستّة أشهر للشيطان وزبانيته؛ ولكنّ المؤمنين الذين يواجهونه لن ينهزموا أمام أحابيله المتعدّدة وشراسة محازبيه. على أنّه، لو لم يكن حرًّا، لكانت قدرته الشرّيرة أخفّ

وطأة؛ إنّ صبر المدينة المقدّسة والأمينة، الأقلّ امتحانًا، وكلّ الخير الذي يمكن أن يجنيه العليّ من شرٍّ هكذا كبير، قد يكون أكثر ضمانًا. الشيطان لم يفقد القدرة على تجربة القدّيسين، وإن لم يكن له محلّ في ضمير الإنسان، حيث الإيمان بالله؛ لكنّه يُسمح له بالهجمات الخارجيّة في سبيل تقدّم المختارين؛ وهو مرتبط بمؤيّديه، مخافة أن ينطلق بثورة غضبه، فيرهق ضعفاء كثيرين، تعتمد الكنيسة عليهم، لكي تتكاثر وتتكامل؛ ويحطّم إيمان البعض ويقضي على حبّة الإيمان لدى البعض الآخر؛ وسوف يحرّر من قيده، في نهاية الأزمنة، لكي تعترف الكنيسة لمجد فاديها وراعيها ومحرّرها بقدرة الخصم الذي تغلّبت عليه. مَن نحن بالمقارنة مع القدّيسين والمؤمنين الذين سوف يكونون في التجربة أقوياء أمام عدوّ يتمتّع بحرّيّته بينما نواجهه، مقيّدًا، عرضةً لخطر كبير؟ إنّما نجد، ولا شكّ في أيّامنا، جنودًا للمسيح، على جانب كبير من الفطنة والقوّة، وإن كانوا يعيشون في الجيل الأخير، يكشفون بحكمتهم عن جميع الشِراك المنصوبة، ويقاومون، بصبر، جميع الهجمات المنقضّة عليهم.

على أنّ الشيطان لم يكن مقيّدًا فقط عندما خرجت الكنيسة من أرض اليهوديّة وراحت تنطلق وتنتشر، شيئًا فشيئًا، في سائر الأمم؛ بل لا يزال اليوم مقيّدًا؛ وسيظلّ هكذا حتّى نهاية الجيل إلى أن يتحرّر من جديد. لأنّنا، اليوم أيضًا، نرى الناس ينبذون الكفر الذي كان يقيّدهم به، ليهتدوا إلى الإيمان؛ وسيظلّون على هذا النحو يهتدون حتّى النهاية. ويرتبط القويّ بكلّ عبدٍ، انتزع منه، كما بمتاع له؛ ومن جهة أخرى، فالهاوية لم يملأها موت المضطهدين الذين كانوا يعيشون في أيّام الأسر الأولى؛ ولكنّ آخرين أتوا بعدهم،

سيخلفونهم حتّى النهاية، بمثابة أعداء للمسيحيّين، ويعطونه كلّ يوم الهاوية السحيقة والعمياء في قلوبهم سجنًا له. وهل يستطيع الإيمانّ أن يُحرز بعض فتوحات في السنوات الثلاث الأخيرة التي سيقاوم خلالها، بكلّ قواه، بعد أن يستعيد حرّيّته؟ إنّه لسؤال! وكيف يمكن أن نبرّر السؤال التالي: «مَن ذا الذي يدخل بيت القويّ لينهب أمتعته دون أن يربط القويّ أوّلًا؟» إن كانت تلك الأمتعة تُنهب؛ مع أنّه حرّ؟ إنّها لفكرة تضطرّنا، على ما يبدو لي، إلى الاعتقاد بأنّه، في ذاك الوقت القليل، لن ينضمّ مؤمن واحد جديد إلى الشعب المسيحيّ؛ بل إنّ الشيطان سوف يعلن الحرب على مَن يكونون آنذاك مسيحيّين؛ حتّى إذا انضمّ بعض المهزومين منهم إليه فهؤلاء ليسوا من الشعب المصطفى لأن يكونوا أبناء الله. ولا يقول، عن عبثٍ، صاحب الرؤيا، الرسول يوحنّا في رسائله: «خرجوا من عندنا ولم يكونوا منّا ولو كانوا منّا لظلّوا معنا». (١ يو ٢/١٩) وماذا يكون مصير الصغار؟ ومن غير الممكن، في الواقع، ألا تُفاجئ، هذه التجربة أحدًا منهم، قبل عماده؛ ولا يولد أحد منهم، خلال تلك الأيّام، أو لا يقدّمهم أهلهم المسيحيّون، للحال، بعد ولادتهم إلى العماد التجديديّ. وإن كانت تلك هي الحال فكيف يسمح الشيطان المحرّر من قيوده أن تنهب أمتعته هو الذي يجب ربطه للدخول إلى بيته؟ ومن ثمّ، علينا أن نعتقد بأنّه، لا الاهتداءات ولا جحود الإيمان يكون لها محلّ في الكنيسة؛ بيد أنّ الآباء، لكي يعمّدوا أطفالهم والمؤمنين الجدد، يعملون جهدًا كبيرًا حتّى يتغلّبوا على ذاك القويّ المتمتّع بالحرّيّة؛ وأمام الحِيَل الأشدّ فسادًا والجهود المتّصفة بالعنف، يبقى السهر والحكمة وقوّة الصبر سدًّا منيعًا لا يُقهر؛ ومع أنّه حرّ

تُنهب منه أمتعته؛ وتبقى المشورة الإنجيليّة قائمة: «مَن ذا الذي يدخل بيت القويّ لينهب له أمتعته ولا يربطه أوّلًا؟» وفي الواقع، ذاك هو الأمر المحفوظ نظاميًّا، الشاهد على الكلمة الإلهيّة: لقد استلم القويّ سلاسل، واغتنى بتلك الأمتعة المسروقة، جامعًا لها، من البعيد، عند الشعوب، الفقراء منهم، والأغنياء؟ وقد كثرت فتوحات الكنيسة حتّى إنّ ثقتها، التي لا تقهر، في كلمة الله الأمينة، تضمن لها القدرة على نهب أمتعة الشيطان القويّ؛ وإن يكن حرًّا، طليقًا. لأنّه، وإن يكن الاعتراف ضروريًّا، بأنّ محبّة الكثيرين تفتر أمام رؤية الفساد ينتصر وبأنّ العدوّ المتحرّر من قيوده سيتسبّب بسقوط الكثيرين ممَّن لم يسجّلوا في كتاب الحياة، لما ينزل بهم من اضطهادات، لا توصف، وحيلٍ لم يعرف التاريخ لها مثيلًا، نرى الكثيرين يأتون، من الخارج، تلبيةً لنعمةٍ إلهيّة ولقراءة من الكتب المقدّسة التي تتكلّم عن نهاية الأزمنة التي يشعرون بقربها فيجدون جرأةً للإيمان بما لم يكونوا به مؤمنين، وقدرةً على التغلّب على الشيطان المحرَّر من قيوده. وعلى هذا النحو، لن يقيّد بالحديد، إلّا لكي يتحرّر منها فيما بعد، أسيرًا وطليقًا، بحسب الكلمة: «مَن ذا الذي يدخل بيت القويّ لينهب له أمتعته دون أن يربطه أوّلًا»؟؟

٩

طبيعة مملكة القدّيسين خلال الألف سنة
والفرق بينها وبين الملكوت الأبديّ

على أنّ الألف سنة التي يبقى فيها الشيطان مربوطًا، أي المدّة

الفاصلة بين المجيء الأوّل والمجيء الثاني هي الألف سنة من ملك القدّيسين مع المسيح إذ إنّه في ما عدا هذا الملك الذي يجب عليه أن يباشره بالكلمات التالية: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدَّ لكم». (متّى ٢٥/ ٣٤) إن لم يكن منذ اليوم لا يشاطر ملكًا أدنى جدًّا مع القدّيسين الذين يقول لهم: «أنا معكم حتّى منتهى الدهر». (متّى ٢٨/ ٢٠) فلن تكون الكنيسة اليوم مملكته أو مملكة السماوات إذ إنّ الملكوت السماويّ يخبر عنه ذاك الكتاب الذي تحدّثت عنه من مدّة وجيزة، يخرج من ذخائره جددًا وقدماء؛ وفي الكنيسة، على الحصّادين أن يفصلوا الزؤان الذي يسمح له ربّ العائلة بأن ينمو مع القمح حتّى زمن الحصاد؛ وبحسب ذلك المثل الذي يشرحه هكذا: «الحصاد، نهاية الدهر؛ الحصّادون هم الملائكة؛ وكما أنّ الزؤان يُجمع ويلقى في النار، هكذا يكون في نهاية العالم، يرسل ابن الإنسان ملائكته لينزعوا من مملكته كلّ الشكوك». (متّى ١٣/ ٣٩) ماذا! من الملكوت حيث لا شكّ بعد اليوم؟ إذن، من الملكوت الذي على الأرض، من كنيسته، يقول أيضًا: «فمَن خالف وصيّته، من أصغر تلك الوصايا وعلّم الناس أن يفعلوا مثله، عُدَّ الصغير في ملكوت السماوات. وأمّا الذي يعمل بها ويعلّمها فذاك يدعى كبيرًا في ملكوت السماوات» (متّى ٥/ ١٩). يضع هذا وذاك في ملكوت السماوات والذي لا يعمل ما يعلّمه، أي لا يحفظ الوصيّة، فعدم حفظها مخالفة؛ والذي يعمل ويعلّم، غير أنّه يقول إنّ الواحد صغير جدًّا والآخر كبير ويضيف للحال: «إنّي أقول لكم، إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين» أي برّ الذين يخالفون ما يعلّمونه وقد قيل في محلّ آخر عن الكتبة والفرّيسيّين: «يقولون ولا يعملون» (متّى ٢٣/ ٣)؛

وعليه، إن لم يَزِد برّكم على برّهم، أي إن لم تعملوا ما تعلّمونه تخالفون الوصيّة: «لن تدخلوا ملكوت السماوات» ومن ثمّ يجب تمييز ملكوت السماوات حيث يوحد، في مرتبة غير متساوية مع الحقيقة الذي يخالف ما يعلّمه والذي يعمل بما يعلّمه، عن الملكوت الذي لا يدخله سوى مَن يعمل بما يعلّم. وعلى هذا النحو فإنّ الملكوت الذي يجمع هذين الإنسانين، هو الكنيسة كما هي اليوم؛ والملكوت الذي لا يقبل سوى واحد من اثنين، هو الكنيسة كما ستكون، بدون الأشرار. وإذن، فالكنيسة في هذه الساعة هي معًا ملكوت المسيح وملكوت السماوات وقدّيسوها يملكون اليوم معه بطريقة مختلفة عن تلك التي يكونون فيها معه في المستقبل؛ معه لا مجال للزؤان؛ وإن كان ينمو في الكنيسة مع حبّة القمح الصالحة. معه يملك الذين يعملون ما يقول الرسول: «أمّا وقد قمتم مع المسيح، فاسعوا إلى الأمور التي في العلى حيث المسيح قد جلس عن يمين الله. إرغبوا في الأمور التي في العلى، لا في الأمور التي في الأرض». (قول ٣/ ١) وعن أولئك يقول أيضًا إنّ حديثهم في السماء؛ وأخيرًا يملك معه في ملكوته هم الذين يؤلّفون ملكوته. وعليه فكيف يمكن أن يكونوا ملكوت المسيح هؤلاء الذين يسكنون ملكوته حتّى انتهاء هذا الدهر وحتّى القضاء على كلّ الشكوك، بينما نراهم يبحثون عن مصالحهم ولا يبحثون عن مصالح يسوع المسيح؟؟

على هذا النحو، يتكلّم الكتاب النبويّ الخاص بذلك الملكوت المجاهد، حيث لا نزال في مقاومةٍ ضدّ العدوّ، تارة ننهزم أمام هجمات عيوبنا وطورًا ننتصر عليها، منتظرين مجيء الملكوت الهادئ حيث نملك بلا قتال؛ وهكذا، فإنّه يتكلّم عن

القيامة الأولى، وهي القيامة الحاليّة؛ إنّ الكنيسة بعد أن تشهد على مدى ألف سنة لسلاسل الشيطان وخلاصه لزمن وجيز وإذ يعرض، للحال، عمل الكنيسة أو ما يحدث فيها على مدى الألف سنة يقول: «ورأيت عروشًا ورأيت كثيرين يجلسون على تلك العروش وعُهِد إليهم في القضاء». (رؤ ٢٠/ ٤) ولا يظنَّن أحد أنّ تلك الكلمات تعني الدينونة الأخيرة؛ بل تعني عرش القضاة الذين يرأسون الكنيسة؛ ولا تعني السلطة على القضاء إلّا ما وعدوا به: «ما ربطتم في الأرض رُبِط في السماء وما حللتم في الأرض حُلَّ في السماء». (متّى ١٨/١٨) ولهذا يقول الرسول: «فما بالي أدين الذين في خارج الكنيسة؟ أما عليكم أن تدينوا الذين في داخلها؟» ونفوس الذين بذلوا دماءهم شهادة ليسوع ولكلمة الله، وهنا يجب أن نشير إلى ما يلي: «ملكوا ألف سنة مع يسوع» عنيت بهم أرواح الشهداء الذين لم تُعَد إليهم أجسادهم لأنّ أرواح الأبرار بعد الموت لا تنفصل عن الكنيسة التي هي اليوم بالذات ملكوت المسيح. وإلّا هل يُذكرون فوق مذبح الربّ الشركة بجسد المسيح؟ وهل يفيد شيئًا، حين يبلغ الخطر، اللجوء إلى العماد لئلّا يغادر الإنسان هذه الحياة بدونه أو إلى المصالحة حين تكون الندامة أو ضمير ما مجرم، فصلنا عن ذاك الجسم نفسه؟ ولِمَ كلّ ذلك؟ إلّا لأنّ المؤمنين، وإن كانوا أمواتًا، هم أعضاؤه؟ وأرواحهم، وإن تكن منفصلةً عن أجسادهم، تملك مع المسيح طوال تلك الحقبة الممتدّة على ألف سنة. وفي كتاب يوحنّا كما في مكان آخر نقرأ ما يلي: «طوبى للأموات الذين يموتون في الربّ! يقول الروح، فيستريحوا منذ اليوم من المتاعب، لأنّ أعمالهم تصحبهم». (رؤ

١٤/ ١٣) إنّ الكنيسة تملك ها هنا أوّلًا مع المسيح في الأحياء والأموات. ويقول الرسول: «وقد مات المسيح وعاد إلى الحياة ليكون ربّ الأموات والأحياء». (روم ١٤/ ٩) لكنّ الرسول لا يذكر سوى أنفس الشهداء الذين، وحدهم يملكون بعد الموت، وقد ناضلوا في سبيل الحقيقة حتّى الموت؟ على أنّنا إذ نأخذ الجزء، من أجل الكلّ، ندرك، أنّ الأموات الآخرين ينتمون إلى الكنيسة مملكة المسيح.

أمّا المقطع التالي: «والذين لم يسجدوا للوحش وصورته، أو لم يكونوا موسومين على جباههم أو أيديهم» هذا قول يعني الأحياء والأموات. والوحش ذاك، وإن تكن المسألة تستوجب فحصًا أكثر جدّيّة، قد يعني، دون أن يتأثّر منه الإيمان المستقيم، المدينة الكافرة والشعب غير المؤمن، المناهض للشعب المؤمن ولمدينة الله؛ وصورة الوحش هي إخفاء للناس، الذين يتظاهرون بالإيمان ويحيون في الكفر؛ لأنّهم يتظاهرون بخلاف ما هم عليهم في الحقيقة؛ ولا يعطون عن المسيحيّة سوى صورة مضلّلة، بخلاف حقيقتها. للوحش لا ينتسب أعداء المسيح العلنيّون وأعداء مدينة المجيدة بل وأيضًا ذلك الزؤان الذي في آخر الأزمنة يُنتزع من الكنيسة، مملكته. ومَن هم الناس الذين يرفضون تقديم البخور إلى الوحش وصورته؟ إنّهم أولئك المطيعون لأمر الرسول «الذين لا يكونون مقرونين بالكفار في نير واحد» (٢ قور ٦/ ١٤) لا يعبدون؛ أي إنّهم لا يقبلون ولا يخضعون؛ يرفضون الختم أو علامة الجرم على الجباه بسبب إيمانهم المقدّس ولا يقبلونها في أيديهم بسبب أعمالهم. وهكذا فإنّ المؤمنين الذين يكرهون الشرّ، سواء أكانوا أمواتًا أم أحياء، لا يزالون في ذاك الجسم

المائت، يشاركون اليوم في ملكوت المسيح؛ إنّهم يملكون بقدر ما يتطلّب العالم، طوال المدّة التي يشير إليها العدد الألف.

«الآخرون لم يعيشوا» يقول الرسول: «تأتي ساعة - وقد حضرت الآن - فيها يسمع الأموات صوت ابن الله، والذين يسمعونه يحيون والآخرون لا يحيون، حتّى اكتمال الألف سنة» ليقول إنّهم لن يحيوا حتّى الزمن الذي كان يجب أن يَحيوا فيه، مرورًا من الموت إلى الحياة. وعلى هذا النحو عندما يأتي اليوم الذي فيه تقوم الأجساد سيخرجون من قبورهم لا للحياة بل للدينونة؛ أي للحكم أو الموت الثاني؛ لأنّه حتّى اكتمال الألف سنة؛ كلّ مَن لا يكون قد عاش، أي إنّ كلّ مَن يكون قد رفض أن يسمع صوت ابن الله وينتقل من الموت إلى الحياة وعندما تحين ساعة القيامة الثانية أو قيامة الجسد يتأكّد من الانتقال بجسده إلى الموت الثاني لأنّ الرسول يضيف: «سعيد مقدّس مَن كان له حظّ في القيامة الأولى!» (رؤ ٢٠/ ٥) ويكون له حظّ فيها ليس فقط مَن يحيا من جديد بقيامته من موت الخطيئة بل مَن يثبت في تلك القيامة. «عليهم، يقول الرسول، لن يكون للموت الثاني من سلطان» إنّما له سلطان على الآخرين الذين قيل عنهم سابقًا: «ما عاش الباقون حتّى اكتمال الألف سنة» أي في الحقبة المسمّاة ألف سنة أيًّا تكن مدّة حياته الجسديّة، وما قام من موت الإثم، متجدّدًا في القيامة الأولى، لكي يتحرّر من الموت الثاني.

فكرة القيامة تعود فقط للجسد وليس للنفس

بحسب ما يظنّ بعض الناس لا قيامة إلّا للأجساد، ويدعون أنّ القيامة الأولى العتيدة هي فقط جسديّة؛ لأنّهم يقولون إنّ القيامة لا تصحُّ إلّا لمَن يسقط؛ والأجساد تسقط بالموت؛ وبسبب سقوطها تسمّى الأجساد جثثًا وباللغة اللاتينيّة (a cadendo) على هذا النحو لا يمكن أن تكون فيه قيامة إلّا للأجساد. وما جوابهم إذن على الرسول القائل بقيامة روحيّة؟ إنّهم يقومون؛ لا بحسب الإنسان الخارجيّ بل بحسب الإنسان الباطنيّ، هؤلاء الذين يقال عنهم: «أمّا وقد قمتم فاسعوا إلى الأمور التي في العلى حيث المسيح قد جلس عن يمين الله». (قول ٣/ ١) وهو يعبّر عن الفكرة ذاتها بكلام آخر قائلًا: «كما أقيم المسيح من بين الأموات، بمجد الآب، فإذا اتّحدنا به، في موتٍ، يشبه موته، فكذلك تكون حالنا في قيامته» (روم ٦/ ٤)؛ وانطلاقًا من ذلك يقول: «قم أيّها النائم من بين الأموات والمسيح يضيء لك» (أف ٥/ ١٤) أمّا المبدأ القائل بأنّ القيامة هي فقط لمَن يسقط، أي للأجسام وليست للأنفس لأنّ السقوط لا يختصّ إلّا بالأجساد، فلم لا يُصغون إلى الكلمة التالية: «لا تتخلَّ عنه، مخافة أن تسقط، وهو لربّه يثبت واقفًا، ولربّه يسقط؛ ومَن ظنّ نفسه واقفًا فليخشَ السقوط!» وبالتأكيد على النفس أن تتفادى هذا السقوط، لا على الجسد. وعليه، إن كانت القيامة فقط للذي يسقط، فللنفوس سقطاتها فأعطها القيامة؛ وبعد أن قال «ليس للموت

الثاني من سلطان عليهم» يضيف الرسول قائلًا: «لكنّهم كهنة الله والمسيح، وسيملكون معه ألف سنة» ذاك لا يعني الأساقفة والكهنة وحدهم، أي الجسم الكهنوتيّ وحده في الكنيسة؛ إنّما لكونهم يدعون جميعًا مسيحيّين بسبب الميرون السرّيّ، هكذا جميعهم كهنة، لأنّهم أعضاء لكاهن واحد عظيم. وعنهم يقول الرسول بطرس «أنتم أمّة مقدّسة وكهنوت ملوكيّ» (١ بط ٢/٩) وفي هذا المجال يقول القدّيس يوحنّا بإيجاز وسرعة إنّ المسيح هو الله: «كهنة الله والمسيح» أي كهنة الآب والابن وإن يكن ابن الإنسان «بسبب صورة العبد» فالمسيح أُقيم كاهنًا إلى الأبد، بحسب رتبة ملكيصادق، كما قلته مرارًا في هذا المؤلَّف.

١١

جوج وماجوج زبانية الشيطان في الاضطهاد قبيل نهاية العالم

وبعد اكتمال الألف سنة سيُحرَّر الشيطان من سجنه فيخرج ليضلّل الشعوب في أربعة أرجاء الأرض «جوج وماجوج، ويسوقهم إلى الحرب ويكون عددهم كرمال البحر». يُغويهم آنذاك ويسوقهم إلى هذه الحرب؛ إذ إنّه كان يقودهم، بكلّ الإغراءات الممكنة، إلى خطايا لا تعدُّ ولا تحصى. إذ ذاك «يخرج» من ظلمات الكراهية ويرتمي في ثورات من الاضطهاد، القريب من الدينونة الأخيرة، وسيكون الاضطهاد النهائيّ؛ وسوف يضايق الكنيسة المقدّسة في كلّ العالم؛ وتتعذّب مدينة المسيح بأسرها، بسبب مدينة الشيطان، بكاملها، وفي الواقع وبتلك الأمم التي يسمّيها الرسول جوج وماجوج لا يعني شعوبًا متوحّشة مقيمة في

منطقة معيّنة كما يتصوّر ذلك البعض بسبب الحروف الأولى من أسمائهم، أو عِرقًا مجهولًا ومستقلًّا عن القانون الرومانيّ. من الواضح جدًّا أنّ الأعداء سيأتون من الأرض كلّها لأنّه قيل: «الأمم الموجودة في أربعة أقطار العالم». وهي أمم جوج وماجوج؛ وإليكم معنى الكلمات كما تعلّمته: «جوج» معناه السقف؛ «وماجوج» ما هو من «السقف» وبتعبير آخر تقريبيّ «البيت» والذي يخرج من «البيت»؛ إذن إنّها الأمم حيث أغلق على الشيطان في هاوية؛ وهو الذي يثب وينطلق إلى الخارج بسرعة؛ إنّها السقف وهو يخرج من السقف؛ إذا نسبنا هذه التعابير، كلّها إلى الأمم ولا ننسبها، مثلًا إلى الأمم وتلك إلى الشيطان، حينذاك فالأمم هي ذاتها «السقف» الذي يأوي تحته؛ ونوعًا ما أنّه يغطّي العدوَّ القديم وكلّها تكون «من السقف» حينما تحطّم حواجز الكراهية التي تغطّيها. ويقول الرسول أيضًا: «وانتشروا فوق كلّ الأرض، وأحاطوا بمخيّم القدّيسين، وبالمدينة المحبوبة؛ على أنّه لا يجوز لنا أن نتصوّرها هنا، وكأنّها آتية إلى مكان محدود، لمهاجمة معسكر القدّيسين والمدينة المقدّسة لأنّ هذه المدينة ليست سوى كنيسة المسيح المنتشرة فوق كلّ الأرض. وحيثما ستكون، عليها أن تكون في كلّ الأمم كما يؤكّده التعبير التالي: «مدى الأرض» هناك يكون معسكر القدّيسين وهناك أيضًا مدينة الله المحبوبة؛ هناك يجتمع أعداؤها المنتشرون معها في كلّ الأمم؛ ويؤلّفون حولها حزامًا مشؤومًا وستكون محصورة ومتضايقة ضمن دائرة من الشدائد والمِحَن؛ إنّما لن تخون راياتها في التزامها معسكرها.

١٢

النار التي تحرق جوج وماجوج ونار العقاب الأخير

أمّا التعبير التالي: «وهبطت نار من السماء والتهمتها» فلا يجوز أن نعني بها العذاب الأخير، الذي يبدأ بالنسبة إليهم، حين يسمعون الصوت التالي: «إذهبوا عنّي يا ملاعين إلى نار الأبد» (متّى ٢٥/٤١) على أنّ تلك «النار من السماء» يمكن أن تعني أيضًا ثبات القدّيسين؛ ثباتٌ يجعلهم صامدين، بوجه كلّ عنف، ولا يترك للعدوّ، ساعة يشاء، أيّ سلطان عليهم؛ لأنّ الفلك هو السماء وها هي تلك الصلابة السماويّة تضرم في قلب الكفرة تلك الغيرة اللهّابة؛ غيرة يائسة تعرف أنّها عاجزة عن سوق قدّيسي المسيح إلى معسكر المسيح الدجّال. تلك هي النار الآكلة، الآتية من الله، لأنّ نعمة الله تهب القدّيسين ذاك الثبات الذي لا يقهر، وهو الذي يتسبّب بالعذاب لأعدائهم. إن كان في الواقع من غيرة شرعيّة فعلى هذا النحو «غيرة بيتك أكلتني» (مز ٦٨/١٠) والكتاب المقدّس يشير إلى غيرة مضادّة قائلًا: «سيطرت الغيرة على مجموعة من الشعب جاهلة، وإذا بالنار تلتهم الآن الكفرة». مع عدم المساس بالنار المنتقمة في الدينونة الأخيرة. وإذا كانت هي الضربة التي تنزل بمَن يضطهدون الكنيسة التي يجدها المسيح حيّة، لدى مجيئه، حين يُهلك الدجّال بنفَسٍ من فمه؛ أقول، إذا كانت هي الضربة التي يشير إليها بالنار النازلة من السماء، بالنار الآكلة، فلن تكون العذاب الأخير للكفرة: إنّ العذاب الأخير هو ذاك الذي ينتظرهم بعد قيامة الأجساد.

١٣

العلاقة بين اضطهاد المسيح الدجّال على مدى ألف سنة

لقد قلنا سابقًا استنادًا إلى شهادة الرؤيا وقول النبيّ دانيال إنّ الاضطهاد الأخير، الذي يأتي من المسيح الدجّال، سيكون على مدى ثلاث سنوات وستّة أشهر. على أنّ ذاك الوقت مهما كان قصيرًا فهل يختصّ بالألف سنة لأسر الشيطان وملك القدّيسين مع المسيح أم هو خارجًا عن تلك الحقبة الزمنيّة؟ إنّها لنقطة تستحقّ الدرس. إن كان هذا الوقت القصير داخلًا في الألف سنة، وجب أن يمتدّ ملك القدّيسين مع المسيح إلى ما بعد أسر الشيطان؛ لأنّه ثابت أنّ القدّيسين سوف يملكون مع ملكهم، ولا سيّما في الامتحان الأخير، الذي فيه سينتصرون، على عدّة مساوئ، حين يتحرّر الشيطان من قيوده ويضطهدهم بكلّ ما لديه من قوى. وعليه فكيف يرسم الكتاب المقدّس لأسر الشيطان وملك القدّيسين لفظة الألف سنة ذاتها إن كانت سلاسل الشيطان ستقع قبل نهاية ملك الألف سنة بثلاث سنوات وستّة أشهر؟

ومن جهة أخرى، إن كنّا لا نصدّق بأنّه يجب أن نضع تلك المدّة القصيرة من الاضطهاد في الألف سنة بل بالعكس تجب إضافتها إلى الألف سنة المكتملة، متّخذين بالمعنى الحقيقيّ التعبير، «نهاية الألف سنة وتحرير الشيطان» وهو قول يأتي حالًا بعد التعبير التالي: «إنّ كهنة الله والمسيح سيملكون معه طوال ألف سنة» إذ ذاك نوفّق بين نهاية ملك القدّيسين ونهاية أسر الشيطان ولا يعود زمن الاضطهاد متعلّقًا لا بزمن ملكهم ولا

بتحريره؛ بل بوقت جانبيّ يكون خارجًا عن الألف سنة. ولكنّنا نجد أنفسنا مضطرّين إلى الإقرار بأنّ القدّيسين لن يملكوا مع المسيح خلال ذلك الاضطهاد. ومع ذلك، فمَن ذا الذي يجرؤ على أن يقول إنّ أعضاءه يتوقّفون عن الملك معه حين يتّحدون به اتّحادًا وثيقًا جدًّا ومتينًا ويعطي عنف المعركة مجدًا جديدًا للثبات وأشعّة جديدة لإكليل الاستشهاد؟ أو إن كانت الضيقات التي يجب أن يتحمّلوها تنفي فكرة الملك، ينتج، إذ ذاك، أنّه في الأيّام السابقة وطوال الألف سنة فجميع القدّيسين الذين تعذّبوا، ما ملكوا مع المسيح إبّان عذاباتهم؛ كما وأنّ أولئك المؤمنين الذين يشهد صاحب الرؤيا بأنّه رأى نفوسهم، شهودًا مذبوحين، حبًّا بالمسيح، وفي سبيل كلمة الله، ما كانوا يملكون مع المسيح خلال عذاباتهم من الاضطهاد، وما كانوا ملكوت المسيح حين كانوا أثمن ميراث له؟ إنّها لنتيجة غير معقولة ومكروهة جدًّا! على الأقلّ، من الأكيد أنّ الأنفس المنتصرة للشهداء المجيدين، التي قامت بواجبها وتحمّلت العذابات وقد تحرّرت من أعضائها الميّتة ملكت وتملك مع المسيح حتّى اكتمال الألف سنة لتملك في المستقبل وقد اتّخذت أجسادًا غير قابلة للموت. وعلى هذا النحو، خلال تلك السنوات الثلاث، سوف تملك مع المسيح حتّى نهاية الجيل المائت؛ حتّى مجيء الملكوت الذي لن يعود فيه مجال للموت؛ أنفس الأبرار الذين مهروا إيمانهم بدمهم، الأنفس التي خرجت منذ زمن طويل من أجسادها مع تلك التي تخرج منها في الاضطهاد النهائيّ. وعلى هذا النحو، فإنّ سنوات ملك القدّيسين تمتدّ إلى ما بعد تحرير الشيطان من قيوده، طالما أنّهم سيملكون مع ابن الله ملكهم، طوال ثلاث سنوات وستّة

أشهر، التي فيها سيتحرَّر الشيطان. ماذا نستنتج من الكلمات التالية: «سوف يملك كهنة الله والمسيح معه ألف سنة وبعد اكتمال الألف سنة سوف يتحرّر الشيطان؟» إمّا أنّ تلك الألف سنة لا تنهي حكم القدّيسين بل تنهي قيود الشيطان وأسره بحيث إنّ تلك الحقبة ذاتها تعني مدى زمنيًّا بالنسبة إليه وإلى أخصامه غير متساوٍ ويستمرّ ملك القدّيسين بعد تحرير الشيطان؛ وإمّا أنّ الكتاب المقدّس لم يُعِر اهتمامه لتلك المدّة الزهيدة المكوَّنة من ثلاث سنوات ونصف فسواء انتزعها من أسر الشيطان أم أضافها إلى ملك القدّيسين. وعلى هذا النحو نجد في الكتاب السادس عشر من هذا المؤلَّف أنّ الكتاب يحسب أربعمئة سنة على ما فيه من زيادة خفيفة؛ وإن أردنا أن نتوقّف عليه نلحظ فيه أسلوب الإنشاء العاديّ للكتب المقدّسة.

١٤

الحكم على الشيطان وزبانيته وحساب إجماليّ لقيامة كلّ واحد والدينونة الأخيرة

بعد هذه النبوءة عن الاضطهاد الأخير يرسم الرسول، بقليل من الكلمات، ما سوف يتحمّله الشيطان في الدينونة الأخيرة من عذاب ومعه الدينونة العدوَّة التي يرئسها ويقول: «إنّ الشيطان، الذي يضلّلهم طرح في أتون من نار وكبريت مع الوحش والنبيّ الكذّاب ليعذّبا ليل نهار إلى دهر الدهور». الوحش هو، على الأرجح، كما قلت سابقًا، المدينة الكافرة؛ النبيّ الكذّاب أو المسيح الدجّال هو الرسم، هو الإخفاء الذي تكلّمت عنه في

الموضع ذاته؛ ومن ثمّ وإذ جاء إلى الدينونة الأخيرة التي ستصير عند قيامة الأموات الثانية، قيامة الأجساد، يحكي كيف أوحي به إليه فيقول: «ورأيت، عرشٌ كبيرٌ أبيض وأمام الجالس عليه هربت الأرض والسماء ولم يعد لهما محلّ». «إنّه لا يقول: رأيت عرشًا كبيرًا أبيض والذي كان جالسًا عليه وأمامه السماء والأرض تهربان؛ لأنّ ذلك لم يحدث في ذلك الوقت أي قبل أن يصدر الحكم على الأحياء والأموات؛ قال إنّه رأى جالسًا على العرش ذاك الذي هربت السماء والأرض أمامه إنّما بعد مدّة. لأنّ الحكم، وقد صدر، فالسماء والأرض سوف تزولان، وستكون سماء جديدة وأرض جديدة. وفي الواقع سيزول هذا العالم، عن طريق التغيير، وليس بالهدم. يقول الرسول: «صورة هذا العالم في زوال وبودّي لو كنتم من دون همّ». (١ قور ٧/ ٣١) الرسم يزول من دون الطبيعة. لكنّ يوحنّا رأى ذاك الذي تهرب من أمامه السماء والأرض. ويضيف: «ورأيت الأموات، كبارًا وصغارًا، قائمين قبالة العرش. وفُتحت الكتب. ثمّ فُتح كتاب آخر، سفر الحياة لكلّ واحد. وعوقب الأموات مثلما في الكتب، كلّ واحدٍ بأعماله». وهكذا فتحت كتب ، ثمّ فتح كتاب واحد. وما هو هذا الكتاب؟ هو كتاب كلّ واحد، يقول الرسول. على أنّ تلك الكتب الأولى هي بالتأكيد الكتب المقدّسة القديمة والجديدة؛ إنّه كتاب الإرادات الإلهيّة. أمّا كتاب كلّ واحد فهو مجموعة الأعمال الموافقة أو المضادّة لتلك الإرادات. وإذا أخذناه ماديًّا، فمَن ذا الذي يقدر أن يثمّن أحجامه؟ وكم يلزم من الوقت لمطالعة ذلك المجلّد الذي يتضمّن حياة كلّ إنسان؟ هل يساوي عدد الملائكة فيه عدد الناس؟ وهل

يسمع كلّ إنسان من ملاكه قراءة لحياته؟ لن يكون كتاب واحد للجميع، بل كتاب واحد لكلّ إنسان؛ على أنّ الكتاب المقدّس لا يتكلّم إلّا عن كتاب واحد ثمّ يقول: «وفتح كتاب آخر». وهنا يجب أن ندرك وجود إرادة إلهيّة تصوّر أمام ذاكرة كلّ إنسان جميع أفعاله الصالحة أو الشرّيرة؛ وتلك الأعمال المرئيّة بطرفة عين تدركها النفس بشكلٍ عجيب وتجعلها تفهم ما يتّهم فيها الضمير وما لا يتّهمه؛ وعلى هذا النحو، في برهة من الزمن، كالكلّ يمثل أمام القضاء. وتلك القوّة الإلهيّة تسمّى «كتابًا» وفيه يُقرأ ما يُوحي به من ذكريات. ولكي يشير إلى الأموات الذين تجب دينونتهم، الكبار منهم والصغار، يضيف الرسول وكأنّي به يعود إلى ما قد أغفله أو بالأحرى أرجأه فيقول: «وقذف البحر الأموات الذين فيه وقذف الموت والجحيم ما فيهما» وذاك ما حدث، ولا ريب، قبل أن يدان الأموات؛ لكنّ الرسول يبدأ بالدينونة ويوجز، وإنّي أكرّر ما قلت، ويعود إلى ما قد أغفله. والآن هوذا يتبع النظام؛ وحفاظًا عليه يعود إلى دينونة الأموات ويضعها في مكانها. وهكذا يقول: «ويقذف البحر الأموات الذين فيه ويقذف الموت والجحيم ما فيهما» مضيفًا: «فعوقب كلّ واحد بأعماله» كما قد قال سابقًا «وعوقب الأموات مثلما جاء في الكتب، كلّ واحد بأعماله» (رؤ ٢٠/ ١١-١٣)

١٥

الأموات الذين يقذفهم البحر من جوفه (مستنقع النار)

ولكن، مَن هم الأموات الذين يقذفهم الجحيم من قعره؟ هل

هم الذين يموتون في البحر فيخلصون من الجحيم ويحتفظ البحر بأجسادهم؟ أو الأسخف من ذاك كلّه، هل للبحر، الأموات الفضلاء، وللجحيم، الأشرار؟ مَن يصدّق هذا القول؟ وعليه، لربّما توافق الكثيرون على تفسير كلمة البحر هنا بالعالم؛ وعلى هذا النحو، حين يقول الرسول إنّ الذين يجدهم المسيح أحياء بالجسد، يدانون مع الذين يقومون، يسمّيهم أمواتًا، سواء أكانوا صالحين أم أشرارًا؛ ويقال للصالحين: «لقد مُتّم وحياتكم محتجبة مع المسيح في الله» (قول ٣/٣)؛ ويقال للأشرار: «دع الموتى يدفنون موتاهم» (متّى ٨/٢٢)؛ ويمكن أيضًا أن يسمّوا أمواتًا لأنّهم يلبسون أجسادًا ميتة. ويقول الرسول: «الجسد ميّت بسبب الخطيئة، غير أنّ الروح حيّ لكم، بسبب من البرّ» (روم ٨/١٠) مبيّنًا بذلك أنّ الإنسان الحيّ، الحامل هذا الجسد، يجمع هذين العنصرين: جسد هو الموت وروح هي الحياة. ولا يقول جسدًا صائرًا إلى الموت بل «ميّت» وإن يكن قد استعمل بعدئذ التعبير الأكثر رواجًا «جسد مائت» أولئك هم الموتى الذين يقذفهم البحر؛ وبتعبير آخر، العالم قذف الناس الذين فيه إذ لم تكن ساعتهم قد أتت. والموت والجحيم قذف الأموات الذين فيهما؛ البحر يقذفهم لأنّهم يظهرون في حالتهم الراهنة لكنّ الموت والجحيم يقذفانهم لأنّ الموت والجحيم يدعوانهم إلى الحياة التي تركوها؛ وعبثًا قد يستعمل الرسول لفظتَي «الموت والجحيم» بدلًا من أن يختار بينهما؛ إنّه يستعمل «الموت» بسبب الأبرار الذين ماتوا ولم يعرفوا الجحيم ويستعمل «الجحيم» بسبب الأشرار الذين سُلّموا إلى العذاب، وإن لم يبدُ الاعتقاد سخيفًا بأنّ قدّيسي الأزمنة القديمة الذين آمنوا بمجيء المسيح العتيد، قد

قاموا، بعد الموت، بعيدًا بالطبع عن جحيم الأثمّة، في المساكن السحيقة، حتّى الساعة التي أُخرجوا فيها منها، بقوّة دم المسيح ونزوله إلى اليمبس؛ فمن المؤكّد، من الآن وصاعدًا، أنّ الأبرار المشتَرَيْن بهذا الدم الثمين المسفوك يُعفَون من الجحيم، ولا ينتظرون سوى اليوم الذي يعودون فيه إلى أجسادهم، وينالون المكافأة التي يستحقّونها. ومن ثمّ، بعد الكلمة: «ويعاقبون كلّ واحد بحسب أعماله» يقول الرسول بكلمات موجزة كيف يكون ذلك الحكم «وطُرِحَ الموت والجحيم في مستنقع النار»، مشيرًا بهذين الاسمين إلى ربّ الموت والعذابات الجهنّميّة، أي إلى الشيطان وكلّ زبانيته الشياطين. وهذا ما كان قد استبقه بصراحة كلّيّة: «وطُرح الشيطان الذي ضلّلهم في أتون النار والكبريت» وأضاف بتعابير، أشدّ غموضًا: «مع الحيوان والنبيّ الكذّاب»؛ وها هنا يكرّر القول بتعابير أشدّ وضوحًا: «والذين لم يسجّلوا في كتاب الحياة طرحوا في مستنقع النار». إنّ ذاك الكتاب لم يكن لمساعدة الذاكرة، عند الله، فيوفّر عليه ضلال النسيان؛ إنّما يعني قضاء الله الأبديّ بالنسبة لمَن سيُعطون الحياة الأبديّة، لأنّ الله لا يجهلهم؛ ولا يقرأ في الكتاب لكي يعرفهم؛ لكنّ معرفته المسبقة بمصيرهم التي لا تخطأ هي ذاك الكتاب، المسجّلة أسماؤهم فيه، يعني أنّهم معروفون منذ زمن بعيد.

١٦

السماء الجديدة والأرض الجديدة

لم يعد من مجال للرسول لكي يتكلّم عن دينونة الصالحين بعد

الدينونة التي بها يتقرّر مصير الأشرار. لقد بدأ يشرح ما قاله ربّنا بكلمة واحدة: «هؤلاء يذهبون إلى العذاب الأبديّ» (متّى ٢٥/ ٤٦) وبقي عليه أن يشرح ذلك الوعد: «الأبرار للحياة الأبديّة» السماء الأولى والأرض الأولى قد زالتا. «ولم يبقَ للبحر وجود». (رؤ ٢١/ ١) وذاك ما سوف يتمُّ في النظام الذي أشار إليه حين رأى على العرش جالسًا ذاك الذي تهرب السماء والأرض من أمام وجهه لأنّ الذين لم تكتب أسماؤهم في سفر الحياة وقد عوقبوا وأُرسلوا إلى النار الأبديّة (ما تكون تلك النار وأيّ جزء من الكون يجب أن يضاء إن لم يكشف له روح الله عن ذلك)؛ إذ ذاك تنقضي صورة هذا العالم في نيرانه كما أنّها انقضت في اجتياح مياه العالم. ويقضي ذاك الحريق على أوصاف العناصر القابلة للفساد والمتجانسة مع أجسادنا القابلة للفساد. وينمّي تحوُّل عجيب في الجوهر، صفات تلائم الأجساد الخالدة، ويتجانس العالم المتجدّد مع الإنسان المتجدّد حتّى في جسده. أمّا الكلمة التالية «والبحر زال» فهل تعبّر عن جفاف المياه بسبب ذلك الاشتعال أو بسبب تجدّدها؟ مسألة يصعب حلُّها. إنّي أقرأ جيّدًا بأنّ هناك سماءً جديدة وأرضًا جديدة؛ ولكن بقدر ما أذكر، ما قرأت شيئًا يحكي عن بحر جديد إنّما أجد، حقًّا، في الكتاب عينه، الكلمات: «كبحر من زجاج يشبه البلّور»؛ غير أنّ الرسول لا يتكلّم حتّى الآن عن نهاية العالم ولا يقول بعبارة صريحة: «البحر» بل «كبحر» ومع ذلك بما أنّ إنشاء الأنبياء يريد أن ينشر على المعنى حجبًا من الأساطير، أحبّ يوحنّا أن يعني بذلك البحر «الذي زال» ذاك الذي يقول عنه: «وقذف البحر الأموات الذين فيه»؛ أي إن بحر هذا العالم يزول؛

البحر الهائج والمضطرب في هذه الحياة.

١٧

مجد الكنيسة الذي لا ينتهي في نهاية العالم

ويقول: «ورأيت المدينة المقدّسة أورشليم الجديدة، نازلةً من السماء، من عند الله، وقد تزيَّنت كما تتزيَّن العروس لبعلها». وسمعت صوتًا يهتف من العرش: «هوذا بيت الله والناس: يسكن معهم ويكونون له شعبًا. الله معهم ويكون لهم إلهًا، يكفكف كلّ دمعةٍ تسيل من عيونهم. لم يبقَ للموت وجود، ولا للبكاء ولا للصراخ ولا للألم لأنّ العالم القديم قد زال» وقال الذي على العرش استوى: «هاءنذا أجعل كلّ شيءٍ جديدًا» (رؤ ٢١/ ٢-٥) هذه المدينة تنزل من السماء لأنّها عمل النعمة السماويّة؛ ولهذا يقول لها الله أيضًا بلسان أشعيا: «أنا الربّ خلقته» (أش ٤٥/ ٨) ونزلت من السماء، في الأصل، منذ أن تجدَّد أولادها بمياه النعمة الخلاصيّة النازلة من السماء مع الروح القدس وراحوا يكثرون في هذا العالم. ولكن في الدينونة الأخيرة، في دينونة الله بابنه، يسوع المسيح، ستنال، من الجودة الإلهيّة، مجدًا بهيًّا وجديدًا يزول به كلّ ما للشيخوخة من آثار؛ وتنتقل الأجساد المتجدّدة من خراب الموت والفساد إلى الخلود الأبديّ. إنّ مَن يزعم أنّ تلك الحالة من المجد تختصّ بزمن الألف سنة الذي تملك خلاله مع ملكها، يرتكب نوعًا من الوقاحة السمجة وقد قال الرسول بوضوح: «يكفكف الله كلّ دمعة تسيل من عيونهم ولم يبقَ للموت وجود ولا للبكاء ولا للصراخ ولا للألم». أيّ

سخيف تملّكه هوَس العناد، أنّه في مضايق هذه الحياة، ليس فقط الشعب القدّيس، بل وأيضًا كلّ قدّيس، بنوع خاصّ، يخلو من الدموع والآلام؛ بينما نجد، بخلاف ذلك، أنّ الإنسان بقدر ما يزداد قداسة وشوقًا مقدّسًا تزداد دموعه غزارة في صلاته! أوليس هذا هو هتاف مواطن في المدينة السماويّة يعلو صارخًا: «قد أعييتُ في زفيري؛ في كلّ ليلة أغمر سريري بدموعي وأميع بها فراشي». «وتنهّدي غير خفي عليك» و«هاج وجعي» (مز ٦/٧؛ ٣٧/١٠؛ ٣٨/٣) أليسوا أبناء أورشليم الذين يئنّون تحت ثقل هذا الجسد، توّاقين، لا إلى التخلّص منه، بل إلى أن يلبسوا عدم الفساد فوقه، لكي يُبتلعَ الموت بالحياة؟ أليسوا هم الذين يملكون بواكير الروح ويئنّون في داخلهم منتظرين التبنّي الإلهيّ، أي افتداء أجسادهم؟ والرسول بولس نفسه، أليس مواطنًا للأعالي، وبخاصّة عندما يشعر داخليًّا، بحزن شديد على الإسرائيليّين إخوانه الجسديّين، ووجع في قلبه لا ينقطع؟ (روم ٩/٢) ومتى يتلاشى الموت في المدينة المقدّسة إلّا حين يدوّي ذلك الصوت القائل: «أين غلبتك أيّها الموت وأين شوكتك ايّها الموت؟ إنّ شوكة الموت هي الخطيئة» (١ قور ١٥/٥٥) ولكن، اليوم، ليس هذا مواطنًا عاديًّا في المدينة الممجّدة، إنّه يوحنّا ذاته الذي يهتف في رسالته: «إذا زعمنا أنّنا بلا خطيئة خدعنا أنفسنا ولم نكن على الحقّ». (١ يو ١/٨) صحيح أنّ كتاب الرؤيا يتضمّن أمورًا كثيرة غامضة تفرض على القارئ أن يتمرّن عليها، ومقاطع قليلة، على شيء من الوضوح، تساعد في تفسير النصوص الأخرى، بكثير من الجهد. وفي الواقع، فإنّ صاحب الرؤيا يقدّم المعنى ذاته تحت أشكال متنوّعة فيبدو، كأنّه يتكلّم

عن شيء جديد، بتعابير مختلفة. ولكن حين يقول: «يكفكف الله كلّ دمعة من عيونهم؛ ولم يبقَ للموت وجود، ولا للبكاء ولا للصراخ ولا للألم» تفيض تلك الكلمات على العالم الجديد نورًا قويًّا وعلى خلود القدّيسين إلى الأبد (لأنّه هناك وهناك فقط لا مجال للألم وللموت)؛ وعلينا أن نكفَّ عن البحث عن بعض الوضوح في الكتب المقدّسة إذا رأينا أنّ هذا المقطع غامض.

١٨

أقوال بطرس الرسول في الدينونة الأخيرة

والآن لنرَ ما كتبه بطرس الرسول حول الدينونة: «فاعلموا، أوّل الأمر، أنّه سيأتي، في آخر الأيّام، قوم مستهزئون جدًّا تقودهم أهواؤهم فيقولون: «أين موعد مجيئه. مات آباؤنا ولا يزال كلّ شيءٍ، منذ بدء الخليقة، على حاله». فهم يتجاهلون أنّه كان هناك، من قبل، سماوات وأرض خرجت من الماء وبالماء عند كلام الله، وبهذه الأسباب نفسها هلك عالم الأمس غرقًا في الماء. أمّا السماوات والأرض، في أيّامنا هذه، فإنّ الكلام نفسه أبقى عليها النار، إلى يوم الدين وهلاك المنافقين. وهناك أمر لا يحقُّ لكم أن تجهلوه، أيّها الأحبّاء، وهو أنّ يومًا واحدًا عند الربّ، بمقدار ألف سنة، وألف سنة بمقدار يوم واحد. إنّ الربّ لا يؤخّر إتمام وعده، كما اتّهمه بعضهم، ولكنّه يصبر عليكم، لأنّه لا يشاء أن يهلك واحد منكم، بل أن تبلغوا جميعًا إلى التوبة. سيأتي يوم الربّ كالسارق فتزول السماوات في ذلك اليوم بدويٍّ قاصف وتنحلّ العناصر مضطرمة وتحترق الأرض بما فيها

من الأشياء المصنوعة. فإذا كانت هذه الأشياء ستنحلّ على ذلك الوجه، فما أحوجكم إلى قداسة السيرة والتقوى، تنتظرون وتستعجلون مجيء يوم الله. إذ تنحلّ السماوات مشتعلة وتذوب العناصر مضطرمةً. غير أنّنا ننتظر، كما وعد الله، سماواتٍ جديدة يُقيمُ فيها البرّ». (٢ بط ٣/٣-١٣) هنا لا يقول شيئًا عن قيامة الأموات؛ إنّما يلحّ، وهذا ما نراه، على خراب العالم؛ وإذ يذكّر بكارثة الطوفان في القديم، يبدو كأنّه يدفعنا إلى أن نؤمن بالشكل الذي يخرّب به العالم؛ لأنّه يقول إنّ العالم القديم يخرّب وليس فقط هذه الكرة الأرضيّة، بل السماوات أيضًا أي تلك الفسحات في الفضاء التي غمرتها المياه بصعودها. الهواء كلّه أو تقريبًا كلّه (يدعوه السماء أو بالأحرى السماوات مقام الرياح وليست المنطقة التي تُقيم فيها الشمس والقمر والكواكب) يتحوّل آنذاك إلى عنصر سائل ويهلك هكذا مع الأرض التي كان الطوفان قد خرّب وجهها الأوّليّ. ولكن يضيف الرسول: «أمّا السماوات والأرض في أيّامنا هذه فإنّ الكلام نفسه قد أبقى عليها للنار، إلى يوم الدين، وهلاك المنافقين». وهكذا فإنّ هذه السماء وهذه الأرض أي هذا العالم الخارج من المياه عينها، والذي أُقيم كلّ العالم القديم الذي ابتلعه الطوفان محفوظ للنيران الأبديّة ليوم الدينونة وهلاك الكفرة لأنّه لا يتردّد في أن يسمّي «خرابًا» ذلك التحوّل في البشر مع أنّ طبيعتهم تبقى في العذابات الأبديّة. قد يسأل الإنسان عمّا إذا كان العالم يحترق بعد الدينونة قبل ظهور سماء جديدة وأرض جديدة، خلال ذلك الانفجار الشامل، أين يكون القدّيسون؟ إن كان لهم أجساد فيجب أن يكون لهم محلّ يحتويهم؛ لكنّنا نستطيع أن نجيب، بإمكانهم

الارتفاع إلى الأعالي حيث تطالها لهبات الحريق المستقبليّ كما كانت حال مياه الطوفان القديم. سيكون لأجسادهم صفات تؤهّلهم لأن يكونوا حيثما أرادوا. ماذا أقول؟ خالدون وغير قابلين للفساد لا يخافون النار الأخيرة: إنّ أجسام الفتيان الثلاثة الصائرة إلى الموت والقابلة للفساد ألم تبقَ سليمة معافاة في الأتون المضطرم؟

١٩

أقوال بولس في رسالته إلى أهل تسالونيكيّ حول ظهور الدجّال الذي يسبق يوم الربّ

إنّي أرى، خوفًا من التوسّع الذي يزيد من ضخامة هذا العمل، أن أترك الحديث عن شهادات الإنجيل والرسل حول الدينونة الأخيرة، مكتفيًا بكلام بولس إلى أهل تسالونيكيّ حيث قال: «ونسألكم أيّها الإخوة، في أمر مجيء ربّنا يسوع المسيح واجتماعنا لديه، ألّا تكونوا سريعي التزعزع في رشدكم وسريعي الارتياع من نبوّةٍ أو قولٍ أو رسالة يُزعم أنّها منّا تقول إنّ يوم الربّ قد حان. لا يخدعنكم أحد بشكل من الأشكال.

فلا بدَّ قبل ذلك أن يكون ارتداد عن الدين وأن يظهر أخو الإلحاد، ابن الهلاك، والخصم الذي يناصب كلّ مَن يحمل اسم الله أو ما كان معبودًا، حتّى إنّه يجلس في هيكل الله ويظهر نفسه أنّه إله. أما تذكرون أنّي، لمّا كنت عندكم، قلت لكم ذلك مرارًا؟ وتعرفون الآن ما يعوقه عن الظهور إلّا في حينه. إنّ سرّ

الإلحاد قد أخذ في العمل. فإذا أزيل العائق انكشف الملحد ذاك الذي يبيده الربّ بنفَسٍ من فمه ويمحقه بضياء مجيئه؛ ويكون مجيء الملحد بقدرة من الشيطان على جميع المعجزات والآيات والأعاجيب الكاذبة وعلى جميع مغاوي الباطل للذين يسلكون سبيل الهلاك. لأنّهم لم يتقبّلوا حبّ الحقّ لينالوا الخلاص. لذلك يرسل الله إليهم ما يعمل على ضلالهم ويحملهم على تصديق الكذب، ليدين جميع الذين أبَوا أن يؤمنوا بالحقّ ورغبوا في الباطل». (٢ تس ٢/١-١٢)

لا شكّ في أنّه يتكلّم عن المسيح الدجّال وأنّ يوم الدينونة (الذي يسمّيه يوم الربّ) يأتي بعد مجيء الكافر، الذي تخلّى عن الربّ إلهنا، كافرًا به، لأنّه إن كان ذاك الاسم يلائم جميع الكفرة، فكم بالحريّ ينطبق عليه؟ ولكن في أيّ هيكل يجلس الله؟ هل يجلس في هيكل مهدوم كان قد بناه سليمان، أو في الكنيسة؟ إنّ الرسول لا يسمّي هيكلًا وثنيًّا، هيكلًا للشيطان، هيكل الله. وهكذا بنظر الكثيرين، لا وجود هنا لرئيس الأئمة. بل جميع أعضاء جسده، ومجموعة الناس التي تختصّ به، وهو رئيس لها الذي يسمّيه الرسول المسيح الدجّال؛ ويفكّرون بأنّه من الأفضل أن تقرأ، بحسب الدرس الإغريقيّ، لا «في هيكل الله» بل «في هيكل لله» كأنّ المسيح الدجّال هيكل الله أو الكنيسة. ونطالع أيضًا بين التعابير المماثلة؟ يجلس، كصديق، بدلًا من أن يجلس صديقًا. ويضيف الرسول: «وأنتم تعلمون ما يمنعه» وبتعبير آخر، لماذا يرجئ؟ ما هو سبب تلك التأخيرات؟ «لكي يظهر في وقته». أنتم تعرفون؛ وبما أنّهم يعرفونه، لم يرد أن يتكلّم بمزيد من الوضوح؛ أمّا ما كانوا يعرفونه، فهذا ما نجهله

وكلّ أشواقنا وجهودنا لا يمكن أن تصل إلى ما يعنيه الرسول، وبخاصّة، لأنّ المقطع التالي يزيد في غموضه؟ لأنّه، ما معنى سرُّ الشرّ يتحقّق؟ «وفقط مَن يثبت، فليثبت دائمًا إلى أن ينسحب؛ وإذ ذاك ينكشف الكافر». إنّي أقرّ بأنّ المعنى هنا يخفى عليَّ؛ إنّما لن أسكت عن بعض تقديرات جمعتها بالقراءة أو بالحديث.

بعضهم يدّعي أنّها كلمات تعني الأمبراطوريّة الرومانيّة وأنّ الرسول حافظ على الغموض في حديثه عنها؛ خوفًا من أن يتّهمَه النمّامون بالعمل ضدّ الأمبراطوريّة الرومانيّة الموعودة بالخلود. وهكذا فإنّ «سرّ الشرّ» ذاك قد يعني نيرون الذي كانت أفعاله، على ما يبدو، تكشف عن المسيح الدجّال والاعتقاد بأنّه سيقوم من الموت وأنّه المسيح الدجّال العتيد. وإذا كان لنا أن نصدّق بعض الناس، فلم يُقتَل بل رُفِعَ وذاع خبرُ وفاته؛ والآن هو محفوظ، خفيةً، مليء بالحياة وغضارة العمر كما في زمن موته المفترض إلى أن يعود من جديد للظهور ويدخل في الاستيلاء على الملك. في الحقيقة، لا يمكنني إلّا أن أعجب بما فيه الكفاية لهذا الرأي الغريب والجسور. لكنّ التعبير: «مَن ثبت فليثبت دائمًا إلى أن ينسحب، ألا يمكن تطبيقه على الأمبراطوريّة الرومانيّة كما لو قيل: مَن أمر فليأمر دائمًا إلى أن ينسحب، وبتعبير آخر إلى أن يُنزع. و«آنذاك ينكشف الكافر» أو المسيح الدجّال، بدون صعوبة. «وأنتم تعلمون مَن الذي يقيّده إذ يكتمل سرّ الشرّ» كلمة يوجّهها آخرون إلى الأشرار والخدّاعين وحدهم، الموجودين في الكنيسة الذين يصبحون كثيرين ليكوّنوا للدجّال شعبًا عظيمًا؛ وهذا ما يسمّيه الرسول «سرّ الشرّ» لأنّه يبدو خفيًّا؛ بيد أنّ الرسول، على حدّ ما يزعمون، يحثّ المؤمنين على

الثبات، بقوّة في الإيمان الذي به يمسكون، حين يقول: «مَن ثبت فليثبت دائمًا، إلى أن ينسحب» أي إلى أن ينسحب سرّ الشرّ من قلب الكنيسة ويخرج من الظلمات. ويربطون بذلك السرّ، كلمات الإنجيليّ يوحنّا في رسالته: «يا أولادي الصغار ها هي ذي الساعة الأخيرة قد أتت؛ سمعتم أنّ المسيح الدجّال سيأتي وقد أتى كثير من المسحاء الدجّالين؛ من ذلك نعرف أنّ الساعة الأخيرة قد أتت. خرجوا من عندنا ولم يكونوا منّا. لو كانوا منّا لظلّوا معنا». (١ يو ٢/١٨) هراطقة كثيرون يسمّيهم الرسول القدّيس يوحنّا مسحاء دجّالين قد خرجوا من قلب الكنيسة قبل الأيّام الأخيرة. وفي الساعة التي يسمّيها الأخيرة، فإنّ نهاية الأزمنة تُخرجُ منهم جميع الذين ليسوا للمسيح، ولكن لهذا المسيح الدجّالَ الأخير، آنذاك سوف يظهر.

وتلك هي التكهّنات الأخيرة التي نتّخذها من كلمات الرسول الغامضة. ولكن، لا شكّ بأنّه صرّح بأنّ المسيح سوف يأتي ليدين الأحياء والأموات، وأنّ المسيح الدجّال يأتي أوّلًا ليضلّل الموتى روحيًّا وإن يكن تضليلهم متعلّقًا بسرّ أحكام الله، لأنّه قيل «الكافر يظهر في كلّ قدرة الشيطان قائمًا بعجائب كثيرة وعلامات وأكاذيب وأوهام وإغراءات الشرّ للذين يهلكون». حينذاك يتحرّر الشيطان، وبواسطة المسيح الدجّال، يُظهر قدرته من خلال العجائب الكاذبة. يتساءل الإنسان عمّا إذا كانت تلك العلامات والغرائب الكاذبة تعني بطلان المذهلات التي يغري بها الحواسّ البشريّة لكونها ظاهريّة؛ أو هل تعني أنّ حقيقة تلك المذهلات تقود إلى الكذب الذين يظنّون أنّهم يجدون فيها حضور القدرة الإلهيّة لأنّهم لا يعرفون أنّها قوّة شيطانيّة كما هي، حين نال

قدرة، كانت حتّى ذلك الحين مجهولة. وفي الواقع أنّ النار التي تسقط من السماء وتلتهم جميع خدّام أيّوب البارّ وقطعانه الكثيرة؛ وذلك الإعصار الهائل الذي هدم البيت على أولاده وطمرهم تحت أنقاضه أليست مذهلات باطلة؟ تلك كانت عمل الشيطان الذي منحه الله تلك القدرة. ولكن، لماذا يقول الرسول: «علامات وعجائب كاذبة» فهذا ما سنعرفه فيما بعد. ولكن لم تضلّل تلك العلامات والأمور العجيبة الكاذبة الكثيرين؟ إنّه يصرّح قائلًا: «لأنّهم رفضوا محبّة الحقيقة التي كانت خَلّصتهم لو قبلوا بها» ولا يخاف الرسول من أن يقول: «ويقيم الله ضدّهم قدرة من الضلال هائلة تجعلهم يصدّقون الكذب» الله يدفع بها لأنّه يعطي الشيطان الإذن بأن يعمل؛ وأيًّا كان عدل القاضي الذي يأذن فذاك لن يخفّف البتّة من ظلم الشيطان الذي يعمل ومن شرّه. ويتابع الرسول قائلًا: «الكي يدان الذين رفضوا الحقيقة ولم يؤمنوا بها بل ارتضوا الظلم». لقد دينوا لأنّهم وقعوا في شرك الإغواء؛ وسوف يقعون في هذا الشرك لكي يدانوا؛ لقد دينوا بحكم الله لكونهم وقعوا في الضلال، الله الذي هو عادل بشكل عجيب أيضًا في عدله؛ وهي دينونة لا يزال الرهيب والساطع من قِبَل يسوع المسيح الذي سوف يدين بعدل كلّيّ هو الذي قد دين ظلمًا...

٢٠

تعليم بولس الرسول في رسالته الأولى إلى التسالونيكيّين حول قيامة الميّت

هنا يحتفظ الرسول بالصمت حول قيامة الأموات؛ لكنّه في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكيّ يقول: «ولا نريد أيّها الإخوة أن تجهلوا مصير الأموات لئلّا تحزنوا كسائر الناس الذين لا رجاء لهم. فأمّا، ونحن نؤمن بأنّ المسيح قد مات ثمّ قام فكذلك نؤمن بأنّ الذين ماتوا في المسيح سينقلهم الله إليه معه. ونقول لكم ما قاله الربّ يسوع. وهو أنّنا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الربّ لن نتقدّم الأموات لأنّ الربّ نفسه؛ عند الصيحة وصوت رئيس الملائكة والنفخ في بوق الله، سينزل من السماء فيقوم أوّلًا الذين ماتوا في المسيح ثمّ نُرفع معهم في الغمام، نحن الأحياء الباقين، لملاقاة المسيح في الجوّ، فنكون مع الربّ دائمًا أبدًا». (١ تس ٤/١٣-١٧) كلمات الرسول تلك تشير بوضوح كلّيّ إلى قيامة الأموات ساعة مجيء الربّ يسوع ليدين الأحياء والأموات.

ويتساءل الإنسان، غالبًا، عن مصير أولئك الذين يجدهم المسيح أحياء، الذين يمثّلهم الرسول بشخصه، وفي مَن يعاصرونه؛ هل يُعدّون لعدم الموت، أو أنّهم يموتون في البرهة عينها التي فيها يرفعون إلى الجوّ، مع الأموات القائمين من الموت ليمثلوا أمام المسيح؟ وهل ينتقلون بسرعة مذهلة بالموت إلى عدم الموت؟ ولا يجوز اعتبار انتقالهم إلى السحب زمنًا غير

كافٍ للموت والحياة من جديد. وفي الواقع، إنّ الكلمة التالية: «وهكذا نكون مع الربّ إلى الأبد» لا يجوز أن تعني إقامةً أبديّة، في مناطق الهواء، مع الربّ؛ لأنّه، لدى مجيئه، يمرّ فيها مرورًا ولا يقيم. سنذهب إلى ملاقاته، حيث يجب أن يكون، دون أن يقيم فيه؛ ولكن «هكذا نكون مع الربّ» أي، حيث نكون معه سنلبس أجسادًا لا تموت. بيد أنّ امتحان الموت، وفي الوقت عينه، هبة عدم الموت، لمَن سوف يجدهم الربّ أحياء، يبدو أنّ الرسول يدعونا إلى القبول به وتصديقه بقوله: «سيحيون في المسيح» (١ قور ١٥/٢٢)؛ ألا يقول أيضًا في مكان آخر متكلّمًا عن القيامة الجسديّة: «يا جاهل ما تزرعه أنت لا يحيا إلّا إذا مات» (١ قور ١٥/٣٦) وعليه، كيف يمكن للذين يجدهم المسيح أحياء أن يحيوا، من جديد، لعدم الموت، إن لم يموتوا؟ حين نقرأ شهادةً على تلك الحقيقة: «ما تزرعه أنت لا يحيا إلّا إذا مات» ولكن إذا صحّ بأنّه لا يجوز أن نقول إنّ جسد الإنسان يُزرع إلّا إذا عاد إلى الأرض بحسب الزرع الذي ضرب به العدل الإلهيّ، أبا الجنس البشريّ، الشرّير الأوّل، قائلًا: «أنت تراب وإلى التراب تعود» إذ ذاك يجب الاعتراف بأنّ الذين يجدهم ربّنا لدى مجيئه، في أجسادهم، لن ينطبق عليهم كلام الرسول ولا ما جاء في سفر التكوين. يُرفعون إلى السحب ولا يعودون إلى الأرض كما هي حال الزرع؛ ولا يخرجون من الأرض إمّا لأنّهم يخلَّصون من الموت وإمّا لأنّ الموت لا يداهمهم إلّا، لبرهة، في الجوّ.

هنا اعتراض آخر: يقول الرسول للقرنثيّين «سنقوم جميعًا» أو بحسب ترجمة أخرى «نرقد جميعًا»؛ وعليه فإن لم تكن القيامة

ممكنة، إلّا إذا سبقها الموت، ولا يمكننا أن نرى في ذلك الرقاد سوى الموت، فكيف يموت أو يقوم الكثيرون إن كان المسيح يجدهم بأجسادهم، لا راقدين ولا مائتين؟ وعليه إن كنّا نؤمن أنّ القدّيسين الذين يجدهم المسيح أحياء، حال اختطافهم إلى الجوّ، يخرجون من أجسادهم المائتة، ليستعيدوها، للحال، غير مائتة، فلا ضيرَ علينا من كلمة بولس الرسول: «ما تزرعه أنت لا يحيا إلّا إذا مات» أو من قوله: «جميعًا نقوم» أو «نرقد كلّنا» لأنّ أولئك المؤمنين أنفسهم لا يحيون، من جديد لعدم الموت، إلّا إذا ماتوا ولو لبرهةٍ من الزمن؛ ومن ثمّ لن يكونوا غرباء عن القيامة التي يسبقها رقاد، وإن يكن وجيزًا جدًّا؛ ولماذا يبدو لنا غير قابلٍ للتصديق أن تزرع تلك الكثرة من الأجسام في الهواء لتعود فجأة إلى الحياة، غير قابلة للموت وللفساد، طالما أنّنا نؤمن، كما يقول الرسول، بوضوح، أنّ طرفة عين كافية لأن تتمّ فيها القيامة، ثمّ تعود بسرعة وسهولة لا توصف إلى الأجساد المعدّة لأن تحيا إلى الأبد، إلى تراب الأموات الأوّلين القديم؛ ولا نفكّرنَّ بأنّ الحكم الصادر، بحقّ الإنسان، القائل: «إنّك تراب وإلى التراب تعود» لا يطال قدّيسي اليوم الأخير الذين لن يعود جسمهم إلى التراب؛ بل يموتونِ ويقومون، باختطاف إلى السحب. إنّ تعبير «ستعود إلى التراب» يعني أنّك، عند خروجك من الحياة، ستعود إلى ما كنت عليه سابقًا قبل الحياة: كنت جامدًا لا حياة فيك، قبل أن تحيا؛ أنّ الله في الواقع، ينفخ نسمة الحياة، في قليلٍ من التراب، فتجعله نفسًا حيّة. وكما أنّه قيل: أنت تراب حيّ؛ ولـم تكن كذلك؛ هكذا تعود ترابًا، لا حياة فيه، كما كنت؛ هكذا كانت أجسام الموتى قبل أن تبلى؛

وهكذا ستصير إليه، إن ماتت وحيثما تموت، حين تخرج منها الحياة لتعود إليها حالًا. إذن، تعود إلى التراب؛ هكذا يصير رمادًا كلّ ما كان رمادًا؛ ويصبح خرابًا كلّ ما كان ذلك إلخ... لكنّ جهود عقلنا الضعيف لا تستطيع أن تتعدّى بعض التكهّنات؛ وحينما يتحقّق الشيء نعرفه؛ أن تكون قيامة الموتى قيامةً للأجساد أيضًا لدى مجيء المسيح ليدين الأحياء والأموات فهذا ما يجب الإيمان به إن أردنا أن نكون مسيحيّين. إنّ ما لا نستطيع أن نفهمه حقًّا ولا نفهم كيف يصير فهل يعني أنّ إيماننا به باطل؟ علينا أن نقدّم الشهادات التي أدّاها الأنبياء حول دينونة الله الأخيرة. ولن نكون بحاجة إلى استفاضة في شرح الموضوع إن أراد القارئ العودة إلى ما ذكرناه سابقًا.

٢١

أشعيا والقيامة؛ أشعيا وحكم المجازاة

يقول النبيّ أشعيا: «ستحيا موتاك وتقوم أشلائي وجميع الذين فوق الأرض يفرحون لأن نداك ندى النور والأرض تُسقط الجبابرة» (أش ٢٦/١٩) القسم الأوّل من هذا المقطع يعني قيامة الطوباويّين والقسم الثاني «الأرض تسقط الجبابرة» يعني تلك الهوّة السحيقة للدينونة التي يسقط فيها أجساد الكفرة. أمّا قيامة الأبرار، فدرس جدّيّ لهذا المقطع يقنعنا بأنّه من الضروريّ توجيه العبارة التالية إلى القسم الأوّل: «والأموات يقومون أيضًا»؛ إلى القسم الثاني العبارات التالية: «ويقوم الأموات أيضًا أولئك الذين في القبور» أمّا الأبرار الذين يجدهم أحياء في مجيئه فيشير إليهم بوضوح

النصّ التالي: «وجميع الذين فوق الأرض سيفرحون لأن نداك ندى النور وبه يتعافَون» العافية هذه تعني حقًّا الصحّة التامّة التي تستغني عن علاج الأطعمة اليوميّ. ثمّ يعبّر الرسول أخيرًا عن يوم الدينونة، فيشجّع الصالحين بالرجاء ويضرب الأشرار بالإرهاب قائلًا: إليكم كلمة الربّ «هاءنذا أميل إليهم السلام كالنهر ومجد الأمم كالوادي الطافح فترضعون وفي الحضن تُحمَلون وعلى الركبتين تُدلَّلون. كمَن تعزّيه أمّه هكذا أعزّيكم أنا وفي أورشليم تعزَّون. وتنتظرون فتُسرّ قلوبكم وتزهر عظامكم كالعشب وتعرَفُ يد الربّ مع عبيده ويغضب على أعدائه. لأنّه هوذا الربّ يأتي ومعه النار وعجلاته كالزوبعة ليُبلّغ غضبه بحنقٍ وانتهاره بلهيب نار لأنّ الربّ بالنار والسيف يخاصم كلّ البشر ويكون قتلى الربّ كثيرين». (أش ٦٦/ ١٢-١٦). الوادي الطافح الذي وُعِد به البارّ هو وفرة السلام، أعظم سلام يمكن أن يكون؛ إنّه الينبوع الذي فيه نوضع في النهاية والذي تكلّمنا عنه كثيرًا في كتابنا السابق. إنّ ذاك النهر (الوادي الطافح)، يقول النبيّ، يميل إلى الذين وُعدوا بالسعادة في السماء؛ وكلّ شيء يغطس في مياه هذا النهر. وبما أنّ سلام عدم الفساد وعدم الموت يجري منه في الجسر لذلك يميل النهر لينطلق بسرعة من الأعالي إلى اللجج ويجعل الناس متساوين مع الملائكة. وأورشليم هذه ليست أورشليم السماويّة الأسيرة ها هنا مع بنيها، بل أورشليم الحرّة. يقول الرسول، أمّنا الأبديّة في السماء. هي التي في خروجنا من القيود المؤلمة التي نعاني منها في حياتنا الميتة تعيدنا إلى حضنها؛ وكأطفال تحملنا على كتفيها. سعادة مجهولة تغمر بعناية فائقة ولطيفة طفولتنا في بدايتها. هناك سنرى وسيفرح قلبنا. ماذا نرى؟ النبيّ لا يقول ما

نرى. ولكن ماذا نستطيع أن نرى إن لم يكن الله؟ إذ ذاك يتحقّق فينا وعد الإنجيل: «طوبى للأنقياء القلوب فإنّهم يعاينون الله» (متّى ٥/ ٨) كلّ ما لا نراه اليوم إلّا بالإيمان والذي ندركه بالفكر في حدود عقلنا هو دون الحقيقة ذاتها ويقول: «سترون وسيفرح قلبكم». هنا تؤمنون وهنالك ترَون.

وتداركًا لأيّ خطأ حول الكلمة: «وسيفرح قلبكم» ولكي نميل إلى الاعتقاد بأنّ خيور أورشليم السماويّة لا تهمّ، سوى الفكر، يضيف النبيّ قائلًا: «وستزهر عظامكم كالعشب». كلمات تتضمّن قيامة الأجسام وكأنّها تعويض عن إهمالٍ؛ لأنّ القيامة لا تصير عندما نكون قد شاهدنا؛ بل عندما تجيء، سنراها. وفي الواقع لقد تكلّم النبيّ عن سماءٍ جديدة وعن أرض جديدة في تنبّؤاته الكثيرة عن السعادة التي وُعِد بها القدّيسون في آخر الأزمنة: «ستكون سماء جديدة وأرض جديدة ويُمحى الماضي كلّه من ذاكرتهم؛ ولا ذكر يبقى في قلوبهم. إنّما يجدون الفرح ويغتبطون في أورشليم؛ وها إنّي أعمل من أورشليم عيدًا ومن شعبي البهجة وبأورشليم أغتبط وأُسرّ؛ وبشعبي أفرح وأبتهج؛ ولن يُسمع من الآن وصاعدًا صوت بكاء ونحيب» (أش ٦٥/ ١٧-١٩) وسائر الأقوال الأخرى التي يريد بعض العقول أن يلصقها بملك الألف سنة الجسديّ؛ إذ إنّه هنا، وبحسب الأنبياء، فالإنشاء المجاز يغلب على الإنشاء الخاصّ لكي ترتفع الإرادة المستقيمة، بعد جهود خلاصيّة ومفيدة، إلى المعنى الروحيّ؛ لكنّ الكسل الجسديّ وبطء التفكير غير المثقّف وغير المتمرّن لا يفكّر بأن يكتشف شيئًا تحت القشرة الحرفيّة. حسبنا ما قاله النبيّ في ما سبق المقطع الذي نحن بصدده. لنعد إلى النصّ الذي ابتعدنا

عنه، لبرهة من الزمن، وفيه يقول النبيّ: «وستزهر عظامكم كالعشب»؛ ولكي يبيّن أنّ الموضوع مرتبط بالقيامة الجسديّة، أي قيامة الأبرار، التي يعنيها، يردف قائلًا: «ويظهر له عونه لخدّامه الأمناء». وما معنى هذا سوى يد الذي يميّز خدّامه من أعدائه؟ وتسقط تهديداته على الثائرين؛ أو بحسب ترجمة أخرى تسقط على الكافرين. ولن يكون الزمن، زمن تهديد، إنّما التهديدات المفصَّلة اليوم تتمُّ حقًّا. «هوذا الربّ آتٍ كالنار وعرباته كالعاصفة وها هوذا يصبُّ غضبه وينتقم بالنار لأنّ الأرض بكاملها ستدان بنار الربّ وكلّ جسدٍ، بحدّ سيفه؛ وكثيرون يجرحهم الربّ». نار وعاصفة وسيف كلّها صور لعذابات الدينونة. «والرب الآتي كالنار» أليس ضدّ الذين يكون مجيئه عذابًا عليهم؟ «المركبات» يمكن أن تعني، بدون صعوبة، وظيفة الملائكة. وفي هذه الدينونة، لكلّ الأرض ولكلّ جسد بنار الربّ وسيفه لا يدان فقط القدّيسون والروحانيّون، بل أيضًا أولئك الناس الجسديّون والترابيّون الذين يُقال عنهم: «إنّ همّهم في الأرضيّات» (فل ٣/ ١٩) «وفطنة الجسد موت» بالنسبة إليهم؛ هؤلاء الذين يسمّيهم الربّ جسدًا، بقوله: «لا تحلّ روحي على هؤلاء البشر جميعًا لأنهم أجساد» (تك ٦/ ٣) «وكثيرون يجرحهم الربّ» يضيف النبيّ؛ وهذا الجرح هو الموت الثاني. النار والسيف والجرح يمكن أن تؤخذ كلّها مأخذًا جيّدًا. ألا يقول الربّ جاء يلقي على الأرض نارًا؟ أولم يرَ الرسل شبه السنة نار تنقسم حين نزل عليهم الروح القدس؟ قال الربّ: «ما جئت لألقي على الأرض سلامًا بل نارًا» (متّى ١٠/ ٣٤) ويسمّي الكتاب المقدّس كلمة الله، سيفًا، ذا حدَّين: هذا الحدّ المزدوج هو هذا العهد وذاك.

وفي نشيد الأناشيد تهتف الكنيسة، وقد جرحها سهم المحبّة. ولكن بما أنّه واضح هنا أنّ الربّ آتٍ ليهدّد فلا يلتبس علينا معنى تلك الكلمات إذ يحصي بكلمة واحدة أولئك الذين تلتهمهم الدينونة، أي الخطأ والكفرة الذين تدلّ عليهم الأطعمة المحرّمة تحت الشريعة القديمة التي لم يحفظوها، يعود إلى نعمة العهد الجديد، مجيء المخلّص الأوّل حتّى الدينونة الأخيرة، التي إليها يقود وعندها يختم نبوءته. في كلامه يعلن الربّ أنّه آتٍ ليجمع الأمم؛ وأنّ الأمم آتيةٌ لتشهد لمجده، لأنّ الرسول يقول: «إذ الجميع قد خطئوا فيعوزهم مجد الله» (روم ٣/ ٢٣) ويقول النبيّ أيضًا إنّه سوف يشرق عليهم عجائب كبرى تحملهم على الإيمان به وسوف يرسل من بينهم مختارين كثيرين إلى الشعوب الغريبة والجزر النائية حيث لم يسمع أحد باسمه بعد ولا شاهد مجده؛ وسيكون أولئك المختارون مبشّرين بمجده بين الأمم ويجتذبون إخوة أولئك الذين يكلّمهم، إخوة الإسرائيليّين المنتخبين إلى الإيمان ذاته بالله الآب؛ ومن جميع المناطق يأتون بتقدمة إلى الربّ محمولة على مراكب وأحصنة (بواسطة الملائكة ورجال الله) ويدخلونها إلى المدينة المقدّسة، في أورشليم، المنتشرة الآن في كلّ الأرض بالمؤمنين. لأنّهم حيث يشعرون بمساعدة الله لهم، هناك يؤمنون؛ وحيث يؤمنون، هناك يأتون؛ ويشبّههم الربّ بأبناء إسرائيل الذين يقدّمون إليه، في هيكلهم، ذبائح وأناشيد، كما هي الحال في الكنيسة، في كلّ مكان، ويعد الإسرائيليّين بأن يختار من بينهم كهنة ولاويّين؛ وذاك ما نراه اليوم يتحقّق. وليس بحسب النبوّة بالجسد والدم كما كانت الحال مع الكهنوت البدائيّ، بحسب هارون، بل كما يليق، تحت العهد الجديد

للمسيح الذي هو الحبر الأعظم، بحسب كهنوت ملكيصادق، استنادًا إلى الاستحقاقات ترضى النعمة بأن تنتشر؛ وهكذا يصير اختيار الكهنة واللاويّين؛ خدّام يُختارون استنادًا إلى قداستهم التي لا يمكن أن تكون مشتركة بين الصالحين والأشرار؛ وليس بالنظر إلى مقامهم الذي يصل إليه غالبًا مَن لا يستحقّونه.

بعد الحديث على هذا النحو عن رحمة الله الواضحة والملموسة جدًّا، اليوم، تجاه كنيسته، يعد كلّ إنسان بالغاية الأخيرة التي يجب أن يبلغها، بعد أن تميّز الدينونة الأخيرة بين الأبرار والأشرار. إليكم ما يقول الربّ بلسان النبيّ أو النبيّ، من قبل الربّ: «لأنّه كما أنّ السماوات الجديدة والأرض الجديدة التي أصنعها تدوم أمامي يقول الربّ كذلك تدوم ذرّيّتكم واسمكم. ومن رأس شهر إلى رأس شهر ومن سبتٍ إلى سبت، كلّ بشرٍ يأتي، ليسجد أمامي قال الربّ. ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصَوني لأنّ دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ ويكونون رذالةً لكلّ بشر». (أش ٦٦/ ٢٢-٢٤). هكذا ينهي النبيّ الكتاب حيث ينتهي الجيل. بدلًا من «جثث» بعض المترجمين يقول «أعضاء الناس» أي العذابات الجسديّة. ومع أنّ كلمة جثّة لا تقال إلّا عن جسد، لا حياة فيه، بينما سيكون لتلك الأجساد روح، وإلّا لما شعروا بالعذابات. ولربّما كان الأمر متعلّقًا بأجساد بشر مائتين، ساقطين في الموت الثاني؛ فهل يمكن إذ ذاك أن نطلق عليها ببساطة لفظة «جثث»؟ ومن هنا استشهد بكلمة النبيّ التي ذكرتها سابقًا: «تسقط أرض الكفرة». ومَن ذا الذي لا يعرف أصل كلمة Cadavre وهي المشتقّة من لفظة لاتينيّة تعني «Cadare» أو ليس واضحًا أنّه بلفظة «بشر» (Virorum)

Hommes لا يعني الرجل بالمفرد؛ أنّ اسم الجنس هذا يشير إلى الجنسين. لا أحد يدّعي حقّ حرمان النساء الخاطئات من العذاب الأبديّ: إنّما ما يهمّنا في الموضوع، هو أنّ النبيّ يقول في حديثه عن الأنبياء «كلّ جسد يأتي» لأنّ الشعب المختار سيتكوّن من كلّ الأمم؛ وهذا لا يعني أنّ جميع الناس سوف يجتمعون إلى ذاك الشعب لأنّ كثيرين سيكونون في العذابات؛ ولكنّي أقول، تكرارًا، كما أنّ الصالحين يشار إليهم بلفظة «جسد» Chaire والأشرار بلفظة «أعضاء» Membres فمن الواضح أنّه بعد قيامة الجسد التي يعبّر عنها، بوضوح بتلك الكلمات تكون الدينونة التي تفصل نهائيًّا بين الأبرار والأشرار.

٢٢

معرفة القدّيسين لعقاب الأشرار

ولكن كيف «يخرج» الصالحون ليَروا الأشرار يتعذّبون؟ وهل يقومون بحركة جسديّة ويتخلّون عن المساكن السعيدة ليذهبوا إلى مكان العذابات، ويحضروا جسديًّا عذابات الأشرار؟ معاذ الله. يخرجون فكريًّا. وهذا التعبير يعني أنّ المعذّبين سيكونون «خارجًا»، وعلى هذا النحو، فإنّ ربّنا يسمّي تلك الأمكنة «الظلمات الخارجيّة» بخلاف «المدخل» الذي يدلّ الخادم الأمين عليه بقوله: «أدخل فرح سيّدك» (متّى ٢٥/ ٢١) وخوفًا من دخول الأشرار فيه ليكونوا معروفين، يخرج منه الأبرار، فكريًّا، لكي يعرفوا لأنّ عليهم أن يعرفوا في الخارج. إنّ الذين يكونون في العذابات سيجهلون ما يحدث في الداخل، في الفرح بالربّ؛

لكنّ الذين يفرحون يعرفون ما يحدث في الظلمات الخارجيّة، وبهذا المعنى «يخرجون» إذ إنّ الذين في الخارج سيكونون معروفين منهم. وفي الواقع، إن كان الأنبياء استطاعوا أن يعرفوا تلك الأشياء قبل حدوثها لأنّ الله موجود، وإن قليلًا، في عقلهم الصائر إلى الموت، فكيف يستطيع القدّيسون، العديمو الفساد، أن يجهلوها وقد تحقّقت؛ «والله كلّ في الكلّ؟» (١ قور ١٥/ ٢٨) الثبات في تلك السعادة خاصّة بالزرع وباسم القدّيسين. عن الزرع يقول القدّيس يوحنّا: «لأنّ زرعه ثابت فيه» (١ يو ٣/ ٩) الاسم الذي قيل عنه بلسان أشعيا: «إنّي أعطيهم في بيتي وداخل أسواري موضعًا واسمًا، خيرًا من البنين والبنات اسمًا أبديًّا لا ينقرض، من شهر إلى شهر ومن سبت إلى سبت، من قمر إلى قمر، ومن راحة إلى راحة» (أش ٥٦/ ٥) والقدّيسون أنفسهم سيكونون هذا وذاك حين ينتقلون من الظلال القديمة والزمنيّة إلى الأنوار الجديدة والأبديّة. أمّا عقاب الأشرار، تلك النار التي لا تطفأ، والدود الذي لا يموت، فقد أخذ كلّه، بمعنى مختلف. بعضهم يخصّ الاثنين بالجسد والبعض الآخر بالنفس. وبحسب رأي ثالث، قد يبدو أكثر قبولًا أنها نار حقيقيّة تتمسّك بالجسد وهو دود رمزيّ لينخر النفس؛ إنّما ليس الوقت صالحًا لمناقشة هذا الفرق. غاية هذا الكتاب، الدينونة الأخيرة، الفصل النهائيّ بين الأشرار والأبرار. أمّا المكافآت والعقابات فسوف نتحدّث عنها في مكان آخر بنوع خاصّ.

٢٣

نبوءات دانيال عن المسيح الدجّال، دينونة القدّيسين وملكوتهم

ها هي نبوءة دانيال عن الدينونة الأخيرة التي يسبقها مجيء المسيح الدجّال والذي يوصله إلى ملكوت القدّيسين الأبديّ. بعد أن شاهد، في رؤية نبويّة، أربعة حيوانات تمثّل أربع ممالك؛ وقد احتلّ المملكة الرابعة ملك يُعرف بالمسيح الدجّال؛ ثمّ أخيرًا المملكة الأبديّة، لابن الإنسان، أو المسيح قال: «تُروَّع روحي أنا دانيال في وسط جسمي وأقلقتني رؤى رأسي فاقتربت إلى أحد الواقفين وسألته عن حقيقة ذلك كلّه فأخبرني وأعلمني بتعبير الكلام». (دا ٧/ ١٥) حينذاك يقصّ النبيّ من فم ذاك الذي سأله وراح يحكي ما يمليه عليه: «إنّ هذه الحيوانات الأربعة العظيمة هي أربعة ملوك يقومون من الأرض ثمّ يُنزعون عنها؛ لكنّ قدّيسي العليّ يأخذون الملك ويحوزونه إلى الأبد وإلى أبد الآباد. فرغبت في الاطّلاع على حقيقة الحيوان الرابع الذي كان مخالفًا لسائرها وهائلًا جدًّا؛ الذي أسنانه من حديد وأظفاره من نحاس وقد أكل وسحق وداس الباقي برجليه. وعلى القرون العشرة، التي في رأسه، وعلى الآخر الذي طلع فسقطت من أمامه ثلاثة؛ ذلك القرن الذي له عيون وفم ينطق بعظائم، ومنظره أعظم من أصحابه. وقد رأيت فإذا بهذا القرن يحارب القدّيسين فغلبهم حتّى جاء القديم الأيّام، فأوتي قدّيسو العليّ القضاء وبلغ الزمان وحاز القدّيسون الملك». (دا ٧/ ١٥-٢٢) هكذا يعرض دانيال أسئلته الخاصّة وإليكم ما سمع وجواب الذي سأله فيقول: إنّ

الحيوان الرابع يكون المملكة الرابعة على الأرض وتكون مخالفةً لسائر الممالك فتأكل الأرض كلّها وتدوسها وتسحقها والقرون العشرة التي من هذه المملكة هي عشرة ملوك يقومون ويقوم ضدّهم آخر؛ وهذا يخالف الأوّلين ويُخضع ثلاثة ملوك وينطق بأقوال ضدّ العليّ ويبتلي قدّيسي العليّ ويخال أنّه يغيّر الأزمنة والشريعة وسيدفعون إلى يده إلى زمانٍ وزمانين ونصف زمان؛ ثمّ يجلس أهل القضاء، فيذلّ سلطانه ويُدمَّر ويُباد على الدوام. ويُعطى الملك والسلطان وعظمة الملك تحت السماء بأسرها لشعب قدّيسي العليّ؛ وسيكون ملكه ملكًا أبديًا ويعبده جميع السلاطين ويطيعونه. إلى هنا نهاية الكلام: فأقلقتني أنا دانيال أفكاري جدًّا وتغيّرت منّي سحنتي وحفظت الكلام في قلبي»: (دا ٧/ ١٥ وما إليها). أناس يرون في تلك الممالك الأربع ممالك الأشوريّين والفرس والمكدونيّين والرومان. وإذا أردنا تقدير السبب يجب الرجوع إلى تفسيرات الكاهن إيرونيموس حول دانيال؛ وكلّها مكتوب بدقّة وعلم. أمّا الاستبداد الدامي الذي يمارسه المسيح الدجّال، مهما كانت مدّة ممارسته على الكنيسة قصيرة، فهل يحقّ للقارئ البسيط بأن يشكّ بأنّ حكم المسيح الدجّال يسبق الدينونة الأخيرة وملك القدّيسين الأبديّ؟ لأنّ التعابير: زمان وأكثر من زمان ونصف زمان تعني سنة وسنتين ونصف سنة؛ وتاليًا ثلاث سنوات وستّة أشهر؛ بيد أنّ عدوّ الأيّام المعبَّر عنه، فيما بعد، ينير ظلمة الألفاظ؛ وفي محلّ آخر من الكتب المقدّسة فإنّ عدد الأشهر يبدّد كلّيًا تلك الظلمة. لفظة «زمن» أو «أزمنة» باللغة اللاتينيّة قد يشير إلى زمن لا حدَّ له. إنّما الأصل يشير إلى المثنّى غير المستعمل لدى اللاتين وهو

مستعمل، كما قيل، لدى العبرانيّين واليونان؛ وعليه فإنّ لفظة «زمان» هنا متّخذة بمعنى زمانين.

حول عدد الملوك العشرة المعيّنين كعشرة رجال يجدهم المسيح الدجّال لدى مجيئه، أخاف أن أخدع. وهل نعرف إن كان عدد الملوك لدى الشعب الرومانيّ لدى مجيئه سيكون بهذا الرقم؟ وهل نعرف إن كان ذاك العدد كالأعداد ألف ومائة وسبعة إلخ... لا يعبّر عن شموليّة الملوك الذين يسبقون ملكه؟ يقول دانيال في محلّ آخر: «وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم لبني شعبك ويكون وقت ضيّق لم يكن منذ كانت أمّة إلى ذلك الزمان. وفي ذلك الزمان ينجو شعبك، كلّ مَن يوجد مكتوبًا في الكتاب، وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبديّة؛ وبعضهم للعار والرذل الأبديّ ويضيء العقلاء كضياء الجلد والذين جعلوا كثيرين أبرارًا كالكواكب إلى الدهر والأبد». (دا ١٢/١-٣) مقطع مطابق كلّيًا لشهادات الإنجيل حول القيامة الجسديّة؛ لأنّ الذين «هم في القبور»، حسب ما جاء في الإنجيل، يسمّيهم النبيّ «يرقدون تحت التراب»، أو بحسب نصوص أخرى، «في تراب الأرض»؛ ويقول الإنجيل «سوف يخرجون» والنبيّ «سوف ينهضون» والإنجيل: «فالذين عملوا الصالحات، إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيّئات، إلى قيامة الدينونة». (يو ٥/ ٢٨)؛ والنبيّ: «هؤلاء للحياة الأبديّة وأولئك إلى الأبد في الرذل والعار» ولا نتصوّرنّ أيّ تناقض في التعبير الإنجيليّ: «جميع الذين في القبور» مع كلام النبيّ: «كثيرون ممّن يرقدون تحت التراب». هكذا قيل لإبراهيم: «لقد جعلتك أبًا لشعوب كثيرة» مع أنّ الله

يقول له في مكان آخر: «وبنسلك تتبارك جميع الشعوب». وحول تلك القيامة ذاتها قيل، للحال للنبيّ دانيال: «وأنت اذهب إلى الانقضاء؛ وستستريح وتقوم في قرعتك إلى انقضاء الأيام».

٢٤

النبوءات في المزامير حول نهاية العالم والدينونة الأخيرة

تتضمّن المزامير عدّة شهادات في الدينونة الأخيرة، وجيزة وسريعة، في معظمها؛ إنّما كلمات، تحكي بوضوح كلّيّ عن نهاية العالم لا أستطيع إلّا أن أتكلّم عنها: «يا ربّ، في البدء أسّست الأرض والسماوات هي صنع يديك؛ هي تزول وأنت تبقى وكلّها تبلى كالثوب وتطويها كالرداء فتتغيّر وأنت أنت وسنوك لن تفنى». (مز ١٠١/ ٢٦-٢٨) ولم نجد برفيروس، يثني على تقوى العبرانيّين، لكونهم يعبدون الله الحقّ العظيم، ويهاجم، بعنف، آلهته ويأتي على ذكر أعمالهم ثمّ يتّهم المسيحيّين بضعف العقل، لأنّهم يقولون بنهاية العالم؟ بيد أنّ أسفار العبرانيّين المقدّسة تقول لله الذي ترتعد أمامه آلهة الوثنيّين، كما يعترف بذلك الفيلسوف الكبير؟» «السماء هي عمل يديك وستزول». ولماذا؟ عندما تزول السماوات، وهي الجزء من العالم الأعلى، والأضمن؛ وهل العالم لا يزول؟ إن كان هذا القول لا يروق جوبيتر الذي، بحسب شهادة ذاك الفيلسوف، يستند إلى قول آلهتهم ليوجّه اللوم إلى إيمان المسيحيّين، فلماذا لا يتّهم بالجنون حكمة العبرانيّين الذين تتضمّن أسفارهم ذلك الاعتقاد؟ إن كانت الحكمة التي يُسرُّ بها كثيرًا برفيروس فيعظّمها

كثيرًا بواسطة أقوال آلهته. وإن كانت تشهد لنا بخرابٍ عتيدٍ للسماوات فما هو هذا الضلال المتفاقم والماكر، الذي يكره في المسيحيّين إيمانهم بنهاية العالم، كرهًا شديدًا، فتجرُّ وراءها خراب السماوات؟ وفي الأسفار الخاصّة بنا، وحدنا، ولا شراكة فيها بيننا وبين العبرانيّين، في الأناجيل ورسائل الرسل ألسنا نقرأ: «هيئة هذا العالم في زوال»؛ «العالم يزول»؛ «السماء والأرض تزولان» (١ قور ٧/ ٣١؛ ١ يو ٢/ ١٧، متّى ٢٤/ ٣٥) وهي تعابير أشدّ عذوبة من لفظة «تخرب». وفي رسالة القدّيس بطرس يقول إنّ العالم القديم يهلك تحت مياه الطوفان؛ ألا نجد بوضوح أيّ جزء من العالم يعني الكلّ؟ وكيف إنّه يهلك وما هي السماوات المتجدّدة والمحفوظة اليوم للنيران الأخيرة، ليوم الدينونة، وهلاك الكفرة؟ «وبتلك أُغرِق في الطوفان العالم الذي كان حينئذ فهلك. أمّا السماوات والأرض التي هي الآن فإنّها مذخورة بتلك الكلمة عينها ومحفوظة للنار إلى يوم الدين وهلاك القوم المنافقين. ولكن، أيّها الأحبّاء، ينبغي ألّا يخفى عليكم أمر، وهو أنّ يومًا واحدًا عند الربّ، كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد. إنّ الربّ لا يُبطئ بوعده كما يزعم قوم؛ وإنّما يتأنّى لأجلكم إذ لا يريد أن يهلك أحد بل أن يُقبلَ الجميع إلى التوبة. وسيأتي يوم الربّ كاللصّ فيه تزول السماوات بدويٍّ قاصف وتنحلُّ العناصر متّقدةً وتحترق الأرض وما فيها من المصنوعات». (٢ بط ٣/ ٦-١٠)؛ ثمّ يضيف: وبانتظار هذا كلّه فأيُّ سيرة مقدّسة وتقوى يجب عليكم؟ ألّا نستطيع أن نفهم بالسماوات التي ستزول السماوات ذاتها التي قال عنها إنّها ستتجدّد والآن تعدُّ للنيران؛ والعناصر التي ستحترق، هذه التي

تقيم في المناطق السفلى من الكون محلّ إقامة الثورات والعواصف، بينما، لا شيء يعكّر سلام السماوات العليا وكمالها الثابت هي التي تركّز الكواكب في أفلاكها؟ لأنّ الكلمات التالية: «تتساقط الكواكب من السماء» إضافة إلى ما يمكنها أن تتحمّل من تفسيرات مختلفة، وأقرب إلى الحقيقة، فقد تبرهن بالأحرى عن استمراريّة السماوات إن كان على الكواكب أن تتساقط منها. وفي الواقع، إنّ هذا التعبير إمّا هو استعاريّ، استنادًا إلى كلّ الاحتمالات، وإمّا أنّه يشير إلى حدثٍ ما، غير معروف الآن، وستكون السماء الدنيا مسرحًا له: تلك هي نجمة فيرجيل التي تسرع في جريها تاركة وراءها خطًّا طويلًا من النور لتعود فتضيع في غابة «إيرا» (Virgile, *Eneîde 11.694*). إنّ النصّ الذي ذكرناه سابقًا لا يوفّر أيًّا من السماوات، من الزوال؛ وعلى ما يبدو، إذ يقول: «السماوات عمل يديك تزول» كلّ شيءٍ هو صنع يديه؛ ولا شيء ينجو من الزوال العامّ لأنّه من الثابت أنْ لا أحد يتنازل ويتوسّل شهادات الرسول بطرس، دفاعًا عن تقوى العبرانيّين التي توافق عليها أعمال الآلهة. ولا أحد يريد أن يوافق على الكلّ من خلال العبارة: «ستزول» وإن تكن السماوات السفلى هي معدّة للزوال كما هي معتبرة ككلّ في الرسالة التي يشهد فيها الرسول أنّ العالم يهلك بالطوفان؛ وإن يكن القسم الأسفل للكون هو الذي هلك مع سمائه. وأيضًا، لمرّةٍ واحدة، لن نتنازل ونوفّق بين تلك الشهادات خوفًا من القبول برأي الرسول بطرس فنعزو إلى الاشتغال الأخير من قدرة توازي ما كان للطوفان حين نقول إنّه يستحيل على الجنس البشريّ بكامله أن يهلك بالنيران أو بالمياه. إنّما لم يبقَ من جواب سوى أنّ

أولئك الآلهة لم يثنوا على حكمة العبرانيّين إلّا لأنّهم قرأوا ذلك المزمور. ويجب أن يُفهم المقطع الأخير من المزمور التاسع والأربعين عن دينونة الله الأخيرة. «إلهنا يأتي منظورًا، ولا يصمت؛ قدّامه نار آكلة وحوله عاصفة شديدة. ينادي السماء من فوق الأرض ليدين شعبه. أن أجمعوا لي أصفيائي الذي بتّوا على الذبيحة عهدي». (مز ٤٩/٣-٥) كلّ النبوءات التي نوجّهها إلى سيّدنا يسوع المسيح الذي يأتي، حسب ما نرجو، من السماء ليدين الأحياء والأموات؛ سوف يأتي منظورًا ليدين، بعدل، هو الذي قد جاء، أوّلًا، خفيًّا، ودين ظلمًا من قِبَل الظالمين. أقول: «هو يأتي منظورًا؛ ولن يصمت». سوف يظهر ممجّدًا مع كلمة الديّان هو الذي جاء، خفيةً، وصمت أمام ديّانه كالنعجة تساق إلى الذبح، كالحمل أمام الذي يجزّه ذاك ما نقرأه من نبوءات، لدى أشعيا، ونراه يتحقّق في الإنجيل. أمّا «النار» و«العاصفة» فقد قلنا حول بعض تعابير متشابهة في أشعيا ما يجب أن تعني. ولكن «سوف يدعو السماء فوق». القدّيسون والأبرار يسمّون شرعًا السماء أو ليس يعني ذاك القول ما يسمّيه الرسول: «نحن الأحياء نُختطف معهم في السحب لنلاقي المسيح في الجوّ» (١ تس ٤/١٦)؛ لأنّ التوقّف على حرفيّة ما يقال فهل تسمّى السماء، فوق، كما لو أمكن أن تكون في مكان آخر؟ «والأرض ليدين شعبه» إن لم يُضمِر سوى الكلمة التالية «سيدعو» أي سيدعو الأرض دون أن يُضمر «فوق»؛ أنّ الإيمان المستقيم يرضى بأن تقبل السماء مَن يشاركونها في الدينونة ويدانون أيضًا؛ ومن ثمّ «سيدعو المساء فوق» ولا يعني أنّه يختطف القدّيسين في السحب؛ بل يرفعهم إلى عروش العدالة. يمكننا أن نعطي تلك

الكلمات معنى آخر، أي سيدعو الملائكة من المناطق العليا، لينزل معهم في يوم الدينونة وسيدعو الأرض أو الناس الذين يدانون فوق الأرض. ولكن إن أضمرنا هذا وذاك «سيدعو» و«فوق» أي سيدعو السماء فوق، والأرض تحت، لا يمكن أن نفهمه إلّا عن البشر المختطفين إلى السحب أمام المسيح؛ السماء، نفسهم، والأرض، جسدهم. على أن «ميّز شعبه» يعني فصل الأشرار عن الصالحين كالنعاج عن التيوس؟ والكلمة التالية تختصّ بالملائكة: «إجمعوا له الأبرار»؛ ولا شكّ؛ بواسطة الملائكة يتحقّق حدث هكذا عظيم. ولكن أيّ أبرار؟ يقول: هم الذين يرفعون العهد فوق الذبائح؛ هكذا تختصر حياة الأبرار: أن يرفعوا عهد الله فوق الذبائح. وفي الواقع إمّا أن تكون أعمال الرحمة فوق الذبائح، أي أفضل منها، بحسب الوصيّة وكلمة الله: «أريد رحمة لا ذبيحة» (هو ٦/٦) وأمّا إذا كان التعبير «فوق الذبائح على الذبائح» يعني الأعمال التي تتضمّنها الذبائح (هكذا يُقال إنّ عملًا أرضيًّا يقام فوق الأرض) فلا شكّ إذ ذاك أنّ أعمال الرحمة هي الذبائح التي ترضي الله؛ أنّ ما توسّعت به، على ما أذكر، في الكتاب العاشر من هذا المؤلّف. وتلك الأعمال تعبّر عن طاعة الأبرار في العهد الإلهيّ؛ أعمال تمّت لمصلحة مواعيد العهد الجديد ولهذا حتّى الدينونة الأخيرة يجتمع القدّيسون ويقفون إلى يمين المسيح الذي يقول لهم: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملك المعدّ لكم منذ خلق العالم لأنّي جعت وأطعمتوني» (متّى ٢٥/ ٣٤)؛ وما يتبع الأعمال المعدودة بين أعمال الأبرار الصالحة والمكافآت الأبديّة التي يُعطيها لهم حكم الديّان الأعلى.

٢٥

نبوءات ملاخي حول الدينونة الأخيرة والعقابات المطهّرة

إنّ النبيّ ملاخي الذي يشير إليه الكتاب المقدّس تحت اسم الملاك الذي، بحسب ما يقوله البعض، هو ذاته الحبر أسدراس الذي ترك عدّة كتب دخلت في عداد الأسفار المقدّسة (ذاك هو رأي العبرانيّين على ما يقول إيرونيموس) وهو يتكلّم هكذا عن الدينونة الأخيرة: «ها إنّه آتٍ قال ربّ الجنود. فمَن يحتمل يوم مجيئه ومَن يقوم عند ظهوره فإنّه مثل نار الممحِّص وكاشنان القصّارين فيجلس ممحِّصًا ومنقّيًا الفضّة فينقّي بني لاوي ويصفّيهم كالذهب والفضّة فيكونون للربّ مقرّبين تقدمةً بالبرّ. وتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للربّ، كأيّام الدهر، وكالسنين القديمة. وأتقرَّب منكم للحكم وأكون شاهدًا سريعًا على المتفائلين والفاسقين والحالفين زورًا والظالمين الأجير في أجرته والأرملة واليتيم وعلى الذين يصدّون الغريب. ولا يخشونني قال ربّ الجنود. فإنّي أنا الربّ لا أتغيّر وأنتم يا بني يعقوب لم تفنوا. ألا نرى في هذه الكلمات أنّه سيكون لكثيرين عذاب للتنقية والتطهير؟ حين يقول النبيّ «فمَن يحتمل يوم مجيئه؟ ومَن يقوم عند ظهوره، فإنّه مثل نار الممحّص وكأشنان القصّارين فيجلس ممحّصًا ومنقّيًا الفضّة فينقّي بني لاوي ويصفّيهم كالذهب والفضّة» وأيّ معنى آخر يمكن أن يكون لتلك العبارات؟ ألسنا نقرأ في أشعيا نبوءة مشابهة؟ «يرحض السيّد قذَرَ بنات صهيون ويمحو الدماء من أورشليم بروح العدل وروح الإحراق». (أش ٤/ ٤) إلّا إذا كان مَن يدّعي أنّ ذاك التطهير، ونوعًا ما، وتلك التصفية

الروحيّة يعني إخراج الكفرة، بقوّة الحكم الأخير، ويعتبر فصل المحكومين تنقيةً للمختارين ليعيشوا في المستقبل دون الاختلاط بالقطيع النجس. بيد أنّ النبيّ يتابع قائلًا: «فينقّي بني لاوي ويصفّيهم كالذهب والفضّة فيكونون للربّ مقرّبين تقدمة بالبرّ وتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضيّة للربّ». وهكذا فإنّه لوضح أنّ الذين ينقّيهم يكونون مرضيّين للربّ، مقرّبين تقدمةً بالبرّ، متحرّرين من الظلم الذي لا يرتضيه الله فيهم. وعلى هذا النحو يتطهّرون ويصبحون تقادم برٍّ تامّ، أنقياء، وأيّ تقدمة أفضل من ذواتهم يقدّمونها للربّ؟ إنّما يجب إرجاء مسألة العذابات المنقّية لدرسها بمزيد من الجدّيّة. أمّا فيما يختصّ بأبناء لاوي ويهوذا وأورشليم فهؤلاء يمثّلون كنيسة الله التي لا تتألّف من العبرانيّين وحدهم بل من سائر الأمم؛ ليست كما هي اليوم، في حالتها الحاضرة، حيث لا نستطيع أن نقول إنّنا بلا خطيئة دون أن نخدع أنفسنا وليس الحقّ فينا» (١ يو ١/٨) بل كما يجب أن تكون آنذاك منقّاة بواسطة الدينونة الأخيرة، كما هي حال البيدر مع مَن يذرّي، وحين تكون النار قد طهّرت مَن كان الامتحان الأخير لهم ضروريًا، ولن يعود لأيّ كان أن يكفّر عن خطاياه؛ لأنّ تقديم تلك الذبائح اعتراف بوثاقات الخطيئة التي نتوق إلى التخلّص منها. والتقدمة التي يقبلها الله هي بمثابة استعادة للحرّيّة.

[٢٦]

الذبائح المرضية لله يجب أن يقدّمها الشعب السعيد

وإذ اراد الله أن يبيّن أنّ المدينة المقدّسة لن تعود مرتبطة

بالخطيئة يقول إنّ أبناء لاوي يقرّبون تقدمةً بالبرّ، لا بالخطيئة، ومن ثمّ لا من أجل الخطيئة. واستنتاجًا ممّا تقدّم، يمكننا أن نقول إنّ العبارات التالية: «وتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للربّ كأيّام الدهر وكالسنين القديمة» لا تسمح لليهود بانتظار عودة الذبائح الملغاة في العهد القديم، لأنّه آنذاك لم تقدّم الذبائح، من أجل البرّ، بل من أجل الخطيئة وقد كانت في الأساس والبدء تقرَّب عن الخطايا وحتّى ذلك الوقت، كان كبير الكهنة، كعادته، أكثر من الآخرين وبحسب الوصيّة الإلهيّة، يقرّب أوّلًا عن خطاياه، ثمّ عن خطايا الشعب. لنشرح إذن ما يعني «بتلك الأيّام القديمة والسنوات الأولى». هل هذا يعني الزمن الذي كان الأوّلون في الفردوس؟ «لا وصمة فيهما ولا أثر لخطيئة كانا يقدّمان نفسيهما إلى الله كأنقى ذبائح؛ ولكن، منذ أن خطئا وطردا من الفردوس، في شخصيهما، حكم على الطبيعة البشريّة، ما عدا الوسيط الوحيد وبعض الأولاد بعد الغسل التجديديّ» «مَن يأتي بطاهرٍ من نجسٍ. لا أحد». (أي ١٤/ ٤) فهل يقال إنّ مَن يقدّمون ذبائح بالإيمان يقدّمون حقًّا ذبائح «لأنّ البارّ بالإيمان يحيا» وإن يكن هو الذي يغوي ذاته، إن قال إنّه، بلا خطيئة، ولا يقوله لأنّه بالإيمان يحيا. ولكن هل يقارن زمن الإيمان باليوم الأخير إذ فيه يتنقّى الأبرار بنار الدينونة الأخيرة ليستطيعوا أن يقدّموا ذبائح بالبرّ؟ وبما أنّه يستحيل على الإنسان أن يصدّق أنّ الأبرار، بعد امتحانٍ كهذا، يحتفظون بأثرٍ للخطيئة فإنّ زمن الطهارة ذاك لا يقارن إلّا بالزمن الذي كان فيه البشر الأوّلون قبل أن يخطأوا وكانوا يعيشون في الفردوس في سعادة برارتهم. وعليه يمكننا أن ننسب إلى ذلك الزمن كلمات الكتاب هذه

«الأيّام القديمة والسنوات الأولى». وحين يعد الله بلسان أشعيا بسماءٍ جديدة وأرضٍ جديدة إلى سائر ما أوحى به حول سعادة القدّيسين تحت ستار الأحاجي والاستحضارات التي أخشى من أن أطيل في كلامي عنها إذا ما انطلقت في تفسيرها ألم يقل: «إنّ أيّام شعبي كأيّام شجر الحياة». (أش ٦٥/ ٢٢) ومَن ذا الذي لا يعرف بعد لمحة بصر، تلقى على الأسفار المقدّسة، موضوع شجرة الحياة، التي حُرِم البشر الأوّلون منها حين أجرموا فطردوا من الفردوس؟ وأيّ حارس رهيب ومتّقدٍ نارًا قام على حراسة تلك الشجرة؟

إن كان بأيّام شجرة الحياة هذه التي يتكلّم عنها أشعيا النبيّ يَعْنُون أيّام كنيسة المسيح التي تنقضي الآن ويريدون أن تكون شجرة الحياة، تلك، صورةً نبويّة عن المسيح نفسه، بصفته حكمة الله، التي قال عنها سليمان: «إنّه شجرة حياة لجميع الذين يعانقونه» وإذا ما ادّعى إنسان أنّ الناس الأوّلين لم يمكثوا عدّة سنوات في الفردوس الذي طردوا منه ولم يلدوا إلّا في المنفى؛ إذ ذاك لا يستطيع أن ينسب إلى تلك الحقبة الزمنيّة كلمات الكتاب التالية: «كما في الأيّام القديمة كذلك في السنوات الأولى» فإنّي أحتفظ بالصمت تجاه هذه المسألة لأنّنا إذا أردنا أن نبرهن عن كلّ حقيقة خاصّة وجب علينا أن نقوم بنقاشٍ مملٍّ حول جميع نقاطها. على أنّني أرى هنا معنى آخر يمنعنا من أن نقلّل من أهمّيّة ذلك الوعد الرائع، الذي يعيد الأيّام القديمة والسنوات الأولى إلى عودة الذبائح اللحميّة؛ لأنّ ضحايا الشريعة القديمة التي وجب أن تكون مختارة، بحسب الشريعة الإلهيّة، نقيّة لا عيب فيها، كانت تمثّل أيضًا القدّيسين، بين الناس، كما

وجد المسيح وحده معصومًا من الخطيئة. وبعد الدينونة وبعد أن تنقّي النار الناس الجديري بذلك الامتحان الأخير كالقدّيسين الذين لن تكون فيهم خطيئة ولا واحدة، يقدّمون ذواتهم تقادم برّ، ضحايا روحيّة، نقيّة، لا عيب فيها؛ إذ ذاك يصبحون كما في الأيّام القديمة، في السنوات الأولى، حينما كانت تقدمة الذبائح التي لا عيب فيها، ممثّلين، بمثابة ظلّ، للذبيحة العتيدة. لأنّ تلك الطهارة تكون في الجسد، الغير المائت، وفي نفس القدّيسين التي كانت تمثّلها مادّيًّا الذبائح القديمة.

«أمّا الذين يستحقّون أن يدانوا، لا أن يتطهّروا سأقترب منكم كقاضٍ وسأكون شاهدًا سريعًا على فاعلي الشرّ وعلى الزناة» وبعد أن يحصي الكتاب المقدّس الجرائم القابلة للدينونة يردف قائلًا: «لأنّي أنا الربّ إلهك ولن أتغيّر»؛ وكأنّه يقول: وبينما جرائمكم تزيدكم إثمًا ونعمتي تزيدكم حسنًا أنا لن أتغيّر. وسيكون شاهدًا لأنّ برّه لا يحتاج إلى شهود. «شاهد سريع» إمّا بسبب مجيئه السريع وقضائه الفجائيّ السريع الذي كان يبدو بعيدًا وإمّا بسبب سرعة القرار الذي يُقنع الضمائر بكلام مقتضب. لأنّ الكتاب يقول: «في أفكار المنافق يُحكم وعلى آثامه» (حك ١/ ٩) وبحسب كلام الرسول: «ويُظهرون عمل الناموس المكتوب في قلوبهم وضميرهم شاهد وأفكارهم تشكو أو تحتجّ فيما بينها يوم يدين الله سرائر الناس بحسب إنجيلي بيسوع المسيح» (روم ٢/ ١٥-١٦) وبهذا المعنى يصير الربّ شاهدًا سريعًا لأنّه بطرفة عين يضع أمام الذاكرة ما يقنع الضمير ويعاقبه عليه.

٢٧

الفصل بين الأبرار والأشرار في الدينونة الأخيرة

إنّ ما نقلتُه في الكتاب الثامن عشر، حول مسألة أخرى، عن النبيّ نفسه، يختصّ أيضًا بالدينونة الأخيرة؛ يقول الربّ: «إنّهم سيكونون خاصّةً لي قال ربّ الجنود يوم اعمل وأشفق عليهم كما يشفق الإنسان على ابنه الذي يخدمه. فتتوبون وتُميّزون بين الصدّيق والمنافق بين الذي يعبد الله والذي لا يعبده» (ملا ٣/ ١٧)؛ «فإنّه هوذا يأتي اليوم المضطرم فيكون جميع المتكبّرين وجميع صانعي النفاق عصافةً فيحرقهم اليوم الآتي قال ربّ الجنود حتّى لا يستبقي لهم جرثومة ولا أفنانًا وتشرق لكم أيّها المتّقون لاسمي شمس البرّ، والشفاء في أجنحتها، وتطفرون كعجول المعلف وتطأون المنافقين؛ وهم رماد تحت أخامص أقدامكم يوم أعمل أنا يقول ربّ الجنود». (ملا ٤/ ١-٣) عندما يظهر هذا التناقض في المكافآت والعذابات، الذي يميّز بين الأبرار والأشرار، تحت شمس البرّ، في بهاء الحياة العتيدة، حينذاك تكون قد حانت ساعة الدينونة الأخيرة، لأنّه لا يرى تحت هذه الشمس في هذه الحياة الباطلة.

٢٨

تُعطى شريعة موسى تفسيرًا روحيًّا

ويضيف النبيّ: «أذكروا شريعة موسى عبدي التي أوصيته بها

في حوريب إلى جميع إسرائيل رسومًا وأحكامًا. وبهذا المعنى يقرّب بين الشريعة والدينونة بعد أن يتكلّم عن الفرق الذي يجب أن يكون، يومًا ما، بين الذين يحفظون الشريعة والذين يتجاوزونها؛ وهذا أيضًا يكون بقصد تعليم اليهود أن يعانقوها روحانيًّا وأن يجدوا فيها المسيح القاضي الأعلى الذي يميّز بين الأبرار والأشرار. ولا يقول المسيح، عبثًا؛ تلك الكلمة يوجّهها إلى اليهود: «لو كنتم تؤمنون بموسى لكنتم تؤمنون بي لأنّه كتب عنّي». (يو ٥/ ٤٦). إنّ الفهم المادّيّ للوصيّة والجهل لوعودها، بصفتها رمزيّة، دفعت بهم إلى تلك التذمّرات: أيّها الجاهل مَن يخدم الربّ؟ وما المنفعة في حفظنا محفوظاته وفي مشينا بالحداد أمام ربّ الجنود... فإنّ صانعي النفاق قد ابتنَوا». (ملا ٣/ ١٤) يواجه النبيّ تلك التذمّرات بالكلام عن الدينونة الأخيرة حيث لن يكون للأشرار سعادة كاذبة بل يظهرون بكلّ ما هم عليه من شقاء واضح؛ وبالعكس فإنّ الصالحين المتحرّرين من كلّ همّ زمنيّ يملكون السعادة الأبديّة في المجد؛ والنبيّ نقل إلى أولئك الناس تذمّرًا آخر: «لقد أسأمتم الربّ بكلامكم وتقولون بِمَ أسأمناه. بقولكم كلّ مَن يصنع الشرّ فهو صالح في عينَي الربّ وبهؤلاء يرتضي وإلّا فأين إله العدل؟» (ملا ٢/ ١٧) إنّهم يعطون شريعة موسى معنى مادّيًّا ويتذمّرون على الله؛ ومنها ما جاء في المزمور الاثنين والسبعين: «أمّا أنا فأوشكت قدماي أن تزيغا وخطواتي كادت تزلُّ لأنّي غرت من السفهاء إذ رأيت سلام المنافقين». (مز ٧٢/ ٢) ويقول الكافر: «وهل يعلم الله ذلك؟ وهل يدرك العليّ كلّ ذلك؟ ويهتف صاحب المزامير: «إذن باطلًا زكّيت قلبي وغسلت كفّي بالنقاء». (مز ٧٢/ ١٣) وأمّا ما يختصّ بحلّ تلك

المشكلة فإنّ بؤس الأبرار وازدهار الأشرار: «باطلًا يتعبون حتّى أدخل قدس أقداس الله وأعرف كيف تنتهي الأمور» لأنّه في الدينونة الأخيرة لن يكون هكذا حيث نور جديد يشعّ على بؤس الأشرار وسعادة الأبرار بوضوح كلّيّ.

٢٩

مجيء إيليّا قبل الدينونة ضروريّ من أجل ارتداد اليهود

وإذ نبّههم إلى أن يتذكّروا شريعة موسى أنّه كان يعرف كم يلزمهم من الوقت لكي يعرفوها جيّدًا، بحسب الروح، أضاف الربّ للحال: «هاءنذا أرسل إليكم إيليّا التشبي قبل أن يجيء يوم الربّ العظيم الرهيب فيردّ قلوب الآباء إلى البنين وقلوب البنين إلى آبائهم لئلّا آتي وأضرب الأرض بالإبسال». (ملا ٤/ ٥) أمّا في الأيّام الأخيرة التي تسبق الدينونة فعلى ذاك النبيّ العظيم والعجيب إيليّا أن يشرح الشريعة لليهود ويردّهم إلى الإيمان بالمسيح الحقيقيّ، بمسيحنا، وهو إيمان شهير في التقليد وقلوب المؤمنين. بحقٍّ، يُنتظر مجيئه قبل مجيء المخلّص الثاني، وبحقٍّ، حتّى اليوم، لا يزالون يؤمنون بأنّه حيّ. مركبة ناريّة، بحسب ما جاء في الكتاب، رفعته عن الأرض. أليس كذلك؟ وحين يعود شارحًا، بحسب الروح، الشريعة التي لم يدركها اليهود إلّا بحسب الجسد «يردُّ قلب الآباء إلى البنين» والمعنى هو التالي: هو أنّ الأبناء أو اليهود سيفهمون الشريعة كما فهمها آباؤهم، أو الأنبياء، ومن بينهم موسى ذاته فهموه. وعلى هذا النحو فإنّ قلب الآباء يُردّ إلى الأبناء عندما ينتقل إدراك الآباء إلى

البنين: «وقلب البنين يردّ إلى آبائهم» حين يدخلون في الأفكار ذاتها وهذا ما تعبّر عنه «السبعون» «وقلب الإنسان يردّ إلى قريبه» إذ لا مسافة أقرب بين إنسان وآخر من المسافة الفاصلة بين الأب وابنه. لكنّنا نستطيع أن نعطي معنى آخر لكلمات «السبعون» بعد استشارة مفسّرين ملهمين؛ ويكون المعنى مختارًا. سوف يجيء إيليّا ليردّ قلب الله الآب نحو الابن؛ لا بصفته، أصل محبّة الآب للابن، بل كمَن يتعلّم أنّ الآب يحبّ الابن لكي يحبّ اليهود موضوع كراهيّتهم، أي المسيح، مسيحنا. لأنّ الله، بنظر اليهود، مرتدٌّ قلبه عن مسيحنا، لأنّ ذاك هو إيمانهم. وبنظرهم، يرتدّ قلب الله إلى ابنه حينما يرتدّ قلبهم فيعلّمهم محبّة الآب للابن. أمّا الكلمات التالية: «وقلب الإنسان إلى قريبه» يعني بتعبير آخر، أنّ إيليّا سيردّ قلب الإنسان إلى قريبه وهذا يعني طبعًا قلب الإنسان إلى المسيح الإنسان. وفي الواقع، هو الذي بصورة الله، إلهنا، تنازل، بشبه صورة العبد، وأصبح قريبًا لنا. تلك تكون مهمّة إيليّا. «مخافة أن يأتي ويُبسل الأرض كلّها» هؤلاء، هم أرض، مَن لا يتوقون إلّا إلى الأرض كما هي حال اليهود الجسديّين. ومن ذاك الفساد ترتفع ضدّ الله التذمّرات: «الأشرار يرضونه؛ يا أحمق، مَن يخدم الربّ!!

٣٠

نبوءات العهد القديم حول الدينونة لا تحكي بوضوح عن المسيح إنّما بعض مقاطع فيها يتكلّم عن الله بوضوح ويوجّهها إلى المسيح

هناك مجموعة لا تحصى من الأقوال في الأسفار المقدّسة عن

الدينونة الأخيرة يطول بنا الكلام عنها في هذا الكتاب. حسبنا أن برهنّا بأنّ أسفار العهدين القديم والجديد شهدت بذلك؛ وإن تكن نصوص القديم، غير واضحة، كنصوص العهد الجديد التي تبيّن أنّ الدينونة سيقوم بها المسيح، إذ ينزل من السماء قاضيًا. وفي الواقع، تقول كتب العهد القديم، إنّ الربّ الإله سيأتي؛ وحين تذكر أنّ الربّ الإله آتٍ لا يُفهم منها أنّه المسيح لأنّ الربّ الإله هو الآب، هو الابن وهو الروح القدس. على أنّنا لن نترك هذه النقطة دون توضيحها. ولهذا يجب أن نظهر، بادئ ذي بدء، كيف أنّ يسوع المسيح يتكلّم بالأنبياء بصفته الربّ الإله ومن ثمّ كيف يظهر في أقوالهم بوضوح يسوع المسيح لكي نفهم من النصوص الغامضة التي تتكلّم عن المسيح يسوع أنّه، هو حقًّا المسيح يسوع؛ ذاك ما يبيّنه بوضوح أشعيا النبيّ حين يتكلّم الله بلسانه قائلًا: «إسمع يا يعقوب ويا إسرائيل الذي دعوته. أنا هو؛ أنا الأوّل وأنا الآخر. يدي أسّست الأرض ويميني شبرت السماوات. أدعوهنّ فيقفن جميعًا. إجتمعوا كلّكم واسمعوا. مَن منكم أخبر بهذه. إنّ الربّ قد أحبّه فهو يقضي مشيئته على بابل ويكون ذراعه على الكلدانيّين. أنا أنا تكلّمت ودعوته وأتيت به وسينجح طريقه؛ تقدّموا إليّ واسمعوا هذه. إنّي من الأوّل لم أتكلّم في خفيةٍ. أنا من قبل أن يحدث الأمر كنت هناك، والآن السيّد الربّ أرسلني هو وروحه. هكذا قال الربّ فاديك قدّوس إسرائيل» (أش ٤٨/١٢-١٧) ومع ذلك ما كنّا نتصوّر هناك يسوع المسيح لو لم يزد قائلًا: «والآن السيّد الربّ أرسلني هو وروحه» يتكلّم هكذا بصورة العبد مستعملًا الماضي للمستقبل. ألسنا نقرأ أيضًا لدى النبيّ ذاته: «كشاةٍ سيق إلى الذبح» (أش ٥٣/٧) ولا

يقول سوف يساق؛ يعبّر عن المستقبل بواسطة الماضي. تلك هي لغة الأنبياء الدائمة.

وهناك برهان واضح حين يقول زكريّا إنّ القدير أرسل القدير. مَن ذا الذي يرسل؟ إن لم يكن الله الآب؟ ومَن هو المرسل إن لم يكن الله الابن؟ إليكم المقطع: «فإنّه هكذا قال ربّ الجنود إنّه بعد المجد أرسلني إلى الأمم الذين سلبوكم لأنّ مَن يمسّكم يمسّ حدقة عينه. وهاءنذا أهزّ يدي عليهم فيكونون سلبًا لعبيدهم فتعلمون أنّ ربّ الجنود أرسلني». (زك ٢/٨) ها إنّ الله القدير يقول عن نفسه إنّه مرسل من قبل الله القدير. مَن ذا يجرؤ أن يطبّق هذا الكلام على غير المسيح، متكلّمًا عن الخراف الضالّة من إسرائيل؟ ألا يقول في الإنجيل: «أنا لم أرسل إلّا من أجل الخراف الضالّة من إسرائيل؟» (متّى ١٥/٢٤) ويشبهها بحدقة عين الله بسبب حنان رحمته التي لا توصف. الرسل كانوا من أولئك الخراف. ولكن، بعد مجد القيامة، لأنّه حسب قول الإنجيليّ، «لم يكن المسيح قد مُجّد» (يو ٧/٣٩) فأرسل كذلك إلى الشعوب، بواسطة رسله، وهكذا تمّم ما وعد به المزمور: «شعب لم أعرفه يتعبّد لي. عند سماع الآذان يطيعونني. بنو الغرباء يتملّقون لي. بنو الغرباء يخورون ويخرجون مرتعدين من حصونهم» (مز ١٧/ ٤٤-٤٦) وذاك ما وعد به الرسل قائلًا لهم: «سأجعلكم صيّادي الناس» (متّى ٤/١٩). ولواحدٍ منهم قال: «من الآن تكون صائدًا للناس» (يو ٥/١٠) أسلاب مباركة منتزعة من القويّ الذي تربطه يد أقوى منه.

وإذ يتكلّم الربّ أيضًا بلسان النبيّ يقول: «ويكون في ذلك اليوم أنّي ألتمس تدمير جميع الأمم القادمين على أورشليم.

وأفيض على بيت داود وعلى سكّان أورشليم روح النعمة والتضرّعات فينظرون إليّ، أنا الذي طعنوه، وينوحون عليه، كما يُناح على الوحيد ويتفجّعون عليه كما يُتفجّع على البكر». (زك ٩/١٢).

ومَن هو القادر، سوى الله، على إبسال جميع أعراق أعداء مدينة أورشليم المقدّسة، القائمين ضدّها أي مناهضيها؛ أو بحسب ترجمة أخرى، القادمين إليها ليسيطروا عليها؟ ولمَن الحقّ بأن يمنح بيت داود وسكّان تلك المدينة ذاتها روح النعمة والرحمة؟ أليس ذلك الله دون سواه، هو الذي هكذا يتكلّم بلسان نبيّه؟ ذاك هو المسيح الذي يظهر ذاته إلهًا، القائم بقوّة عجائب إلهيّة حين يضيف: «فينظرون إليّ أنا الذي طعنوه؛ وينوحون عليه كما يُناح على الوحيد ويتفجّعون عليه، كما يُتفجَّع على البكر». في ذلك اليوم، اليهود أنفسهم الذين يجب عليهم أن يقبلوا روح النعمة والرحمة سوف يندمون على إهانتهم للمسيح في آلامه حين يرونه يعود في مجده وسيعرفون يسوع، الوديع، الذي اتّخذه آباؤهم ألعوبة. ماذا أقول؟ آباؤهم، أنفسهم، اقترفوا ذلك الانتهاك الفظيع للقدسيّات سوف يرونه لدى قيامتهم من الموت لا لكي يهتدوا إلى الإيمان بل لكي ينالوا العقاب. ولا تنطبق عليهم هذه العبارة: «وسأفيض على بيت داود، وعلى سكّان أورشليم، روح النعمة والرحمة، وينظرون إليّ أنا الذي طعنوه»؛ ومع ذلك، من نسلهم يتحدّر هؤلاء الذين سيؤمنون على يد إيليّا. ولكن كما نقول لليهود. أنتم أمتُّم المسيح، وإن يكن ذاك ما صنعه آباؤكم هكذا سيحزنون لكونهم أصحاب الجرم الذي اقترفه آباؤهم؛ وإن كانوا قد أصبحوا أوفياء بهبة روح النعمة والرحمة

فلا يجرّمون بانتهاك المقدّسات، على أنّهم سوف يبكون على الجرم الذي اقترفه آباؤهم كما لو أنّه جرم اقترفوه بأنفسهم؛ وهذا الألم ناتج، لا عن شعور بخطأ، بل بدافع من التقوى. وعن الخطأ نطالع في «السبعون» ما يلي: «ينظرون إليّ أنا الذي أهانوه» بيد أنّ النصّ العبريّ يقول حرفيًّا: «وينظرون إليّ أنا الذي طعنوه» كلمات تظهر لنا بوضوح المسيح. أمّا الإهانة التي فضّلتها «السبعون» تملأ كلّ مشهد من آلامه، حين ألقي القبض عليه وربطوه وساقوه من قاضٍ إلى آخر مهانًا، لابسًا ثوب المهانة، مكلّلًا بالشوك، مضروبًا بقصبة على رأسه، يهزأون به وهم راكعون على ركابهم، حاملًا صليبه، معلّقًا على خشبة العار، مهانًا من جلّاديه. وإذا جمعنا الترجمتين قرأنا «مهانًا»، مطعونًا بالحربة؛ وأدركنا، بشكل أفضل، حقيقة آلام سيّدنا يسوع المسيح.

وهكذا حين تصرّح النبوءات دون أن تميّز الشخص، بأنّ الله آتٍ ليقوم بالدينونة الأخيرة، يجب أن نفهم ذلك عن المسيح، دون سواه؛ لأنّه، وإن كان على الآب أن يدين، فلن يدين إلّا بمجيء ابن الإنسان. وفي الواقع «إنّ الآب لا يدين أحدًا» بحضوره بل «أعطى الابن كلّ سلطان ليدين الناس» (يو ٥/ ٢٢). سوف يأتي الابن بشكل منظور كإنسان، هو الذي كإنسان، حكم عليه. وأيّ إنسان آخر تحت اسم يعقوب وإسرائيل، أجداده بالجسد، يجب أن تُعرف كلمة الله بلسان أشعيا: «هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سُرَّت به نفسي، قد جعلت روحي عليه فهو يبدي الحكم للأمم. لا يصيح ولا يجلّب ولا يسمع صوته في الشوارع. قصبةً مرضوضة لا يكسر وكتانًا مدخّنًا لا يُطفئ؛ يُبرز الحكم بحسب الحقّ. لا يني ولا ينكسر إلى أن يجعل الحكم في الأرض

فلشريعته تنتظر الأمم». (أش ٤٢/١-٤) لا نطالع في النصّ العبريّ «يعقوب وإسرائيل»؛ بيد أنّ «السبعون» تريد، ولا شكّ، أن تنبهنا إلى معنى لفظة «خادم» الموجودة في النصّ الأصليّ بسبب شكل عبد أحنى ذاته إليه العليّ، بتواضع عميق، وسمّوه إنسانًا أعطته ذرّيّته شكل إنسان. لقد أعطي الروح القدس وهي الحمامة التي يظهرها لنا الإنجيل؛ وحكم على الشعوب لأنّه تنبّأ لهم عن المستقبل الذي كانوا يجهلونه. عذوبته منعته من الصراخ ومع ذلك فما كفّ عن الدعوة إلى الحقيقة، دون أن يسمع أحد صوته؛ لم يُسمع في الخارج؛ لأنّ الذين خرجوا عنه لا يطيعونه؛ واليهود أنفسهم مضطهدوه، قصبة تلوي؛ لأنّ قدرتهم قد خانتهم؛ كتّان مدخّن، لأنّهم فقدوا النور أراد أن يحطّمهم ولا أن يطفئهم؛ أنّه يبقي عليهم؛ ما جاء ليدينهم؛ بل لكي يدان منهم. على أنّه أعلن الدينونة حقًّا، معلنًا لهم العقاب، الذي ينتظرهم إذا استمرّوا في شرّهم. لقد أشرق وجهه على الجبل واسمه في الكون. ما كُسِر ولا تحطّم؛ لا يُقهر في ذاته وفي كنيسته؛ عجز مضطهدوه عن إلغائه من الوجود. وهكذا كانت دومًا باطلة، باطلة كلمة أعدائه هذه: «متى يموت ومتى ينقضي اسمه؟ إلى أن يعلن حكمه على الأرض؟». ها هو السرّ الذي كنّا نبحث عنه؛ إنّه الحكم الأخير على وجه الأرض، حين ينزل من السماء. وها نحن نرى أنّ تلك الكلمة الأخيرة التي قالها النبيّ تتحقّق: «ولشريعته تنتظر الأمم» (أش ٤٢/ ٤) إنّ هذا الحدث الذي لا يمكن إنكاره يجب أن يدفع إلى تصديق ما ننكره بوقاحة. ومَن ذا الذي انتظر في حياته ما يراه غير المؤمنين معنا والذي يحملهم وضوحه، غير القابل للاعتراض، على أن يصرفوا

بأسنانهم ويتحرّقوا غضبًا. أجل، مَن ذا الذي كان ينتظر أن تنتظر الشعوب المسيح، بينما كان مربوطًا، مجلودًا مهانًا، مصلوبًا ومنبوذًا من تلاميذه، حتّى إنّ الرجاء الذي كانوا يعلّقونه عليه فقدوه؟ لصّ واحد حرّ من على صليبه، آمن به؛ جميع أمم العالم يرجونه، اليوم، وخلاصًا من الموت الأبديّ يطلبون ويرسمون إشارة الصليب الذي عليه مات.

وعلى هذا النحو، أن يلفظ يسوع الحكم الأخير، كما جاء في الأسفار المقدّسة، فهذا ما لا ينكره أحد ولا أحد، يشكّ فيه؛ ما عدا بعض عقول، عنيدة أو مصابة بعمى لا يصدّق، ترفض الإيمان بالأقوال المقدّسة التي برهنت للعالم بأسره عن حقيقتها. إليكم الأحداث التي يجب أن تتحقّق في الدينونة أو ساعة الدينونة.

مجيء إيليّا التشبي، إيمان اليهود، اضطهاد المسيح الدجّال، قيامة الأموات، تمييز الأخيار من الأشرار، احتراق العالم وتجدّده. كلّ ذلك يجب أن يصير ويجب تصديقه؛ ولكن كيف؟ وبأيّ طريقة؟ فهذا ما سوف نعرفه من الاختبار آنذاك والذي لا تستطيع الجهود العقيمة للعقل البشريّ أن تصل إليه. إنّما أظنّ، مع ذلك، أنّ كلّ شيء سيصير، وفقًا للترتيب الذي أشير إليه.

يبقى علينا كتابان للانتهاء من هذا المؤلَّف وتحقيق وعودنا، بعون الله. أحدهما يبغي درس عذاب الأشرار والآخر سعادة الأبرار؛ وبقدر ما يمنحني الله من قوّة، سوف أدحض بنوع خاصّ اعتراضات أولئك الأشقياء الباطلة؛ يدّعون الحكمة في تمزيق شهادات الوعود الإلهيّة ويحتقرون، وكأنّها ضلالات سخيفة، أطعمة الإيمان الذي به نخلص. أمّا الحكماء بالله، فمن

كلّ ما يبدو الآن غير قابل للتصديق؛ وإن أكّدته الكتب المقدّسة المعروفة بأمانتها، فالدافع الأخير، هو قول الله الحقّ، الكلّيّ القدرة، الواجب القبول به، لأنّهم واثقون من أنّ الله غير قادر على أن يكذب وقادر على القيام بما يراه غير المؤمن مستحيلًا.

الكتاب الحادي والعشرون

المصير النهائي وعقاب الأشرار

وفي النهاية إنّ المسيح يسوع يعطي كلّ مدينة ما تستحقّه: العذاب للشيطان وزبانيته؛ والسعادة الأبديّة للأبرار؛ في حين أنّ قيامة الأجساد تواجه صعوبة، ولا سيّما فكرة القيامة إلى عذاب أبديّ؛ وهي التي يدور حولها الكتاب الحادي والعشرون.

الاعتراضات تأتيه من أوساط مختلفة: يبذل أوغسطينس جهودًا جبّارة للردّ عليها من خلال التمسّك بالنصّ الحرفيّ للأسفار المقدّسة، وبخاصّة ما جاء منها في العهد الجديد: «إذهبوا عنّي يا ملاعين إلى النار الأبديّة، المعدّة للشيطان وملائكته». (متّى ٢٥/٤١)

يحاول في الجزء الأوّل من هذا الكتاب أن يقرّب من مفهوم مناوئي فكرته ما يؤمن به ويدافع عنه، في حين أنّهم يقولون إنّه لا يمكن لأيّ جسد أن يقوم من الموت ليحترق إلى الأبد؛ وأنّه لمن الظلم القبول بعذابٍ أبديّ، تكفيرًا عن خطأ محدود في الزمان والمكان.

وفي الفصل السابع عشر من هذا الكتاب يضطرّ أوغسطينس إلى المواجهة مع فئة من المسيحيّين «الرحومين» أمثال تلاميذ

أوريجانوس وسائر المسيحيّين القائلين، استنادًا إلى هذا النصّ أو ذاك من الكتاب المقدّس، بأنّ الرحمة الإلهيّة سوف تتغلّب على العدل الإلهيّ وأن ما جاء دعمًا لمواقف أوغسطينس في الكتاب المقدّس يجب أن يُفهم كتهديدات نبويّة وليس كعقاب نهائيّ وأبديّ؛ غير أنّ أوغسطينس يتّهم تلك المواقف المناوئة بالتساهل الخطر.

وإنّ هذا الكتاب الصادر عن المؤلّف نحو السنة ٤٢٧ ميلاديّة يشير إلى تغيير ملحوظ في الفكرة الأوغسطينيّة ويؤثّر تأثيرًا كبيرًا على الفكر المسيحيّ اللاتينيّ في ما يتعلّق بعذابات جهنّم الأبديّة.

١

عقاب الأشرار إلى الأبد يبدو غير قابل للتصديق

عندما ساق سيّدنا يسوع المسيح، ديّان الأحياء والأموات، كلًّا من هاتين المدينتين، مدينة الله ومدينة الشيطان إلى مصيرها النهائيّ، فما الذي ينتظر الشيطان وجماعته من عذاب؟ هذا ما أبغي درسه في هذا الكتاب، بعون الله؛ على أنّي آثرت إتباع هذا الترتيب، تاركًا موضوع سعادة القدّيسين إلى مرحلة ثانية؛ لأنّ الحالة التي تواجه المصير جسديّة؛ ويبدو، بقاء الأجساد في عذاب أبديّ غير قابل للتصديق؛ في حين أنّ سواها يسعد إلى الأبد، بلا ألم. وعلى هذا النحو، حين أُبرهن عن القبول بأبديّة العقاب يسهل عليّ جدًّا البرهان عن الخلود السعيد للأجساد في القدّيسين؛ وهذا الترتيب الذي أتّبعه لا يتناقض مع ما جاء في

الكتاب المقدّس الذي يبدأ كلامه أحيانًا كثيرة عن سعادة الأبرار كما يشهد بذلك النصّ التالي: «ويخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيّئات إلى قيامة الدينونة». (يو ٥/ ٢٩) وأحيانًا لا يذكرها إلّا في المقام الثاني: «يرسل ابن الإنسان ملائكته، فيجمعون مسبّبي العثرات والفاسقين كافّة، ويخرجونهم من ملكوته ويقذفون بهم في أتّون النار فهناك يكون البكاء وصريف الأسنان. والصدّيقون يُشعّون حينئذ كالشمس في ملكوت أبيهم؛ إذ ذاك يذهب الأشرار إلى العذابات الأبديّة والأبرار إلى حياة الأبد». (متّى ١٣/ ٤١؛ ٢٥/ ٤٦) ويحافظ الأنبياء، تارة على هذا الترتيب، وطورًا على الآخر؛ حسبنا أن نلقي نظرة خاطفة عليه لنقتنع به؛ أمّا أنا فقد علّلت الترتيب الذي أتبنّاه.

٢

هل يستطيع الجسد الترابيّ أن يصمد في النار؟

أيّ برهانٍ أقدّم لأقنع غير المؤمنين بأنّ الأجساد البشريّة الحيّة والمحيية تستطيع أن تتحدّى الموت وأن تستمرّ في عذابات النيران الأبديّة؟ إنّهم لا يدَعُوننا نلجأ إلى العليّ القدير، ويطالبوننا ببعض أمثلةٍ لكي يقتنعوا. وهل نجيبهم بأنّ حيوانات معيّنة قابلة للفساد لكونها صائرة إلى الموت تحيا مع ذلك في النار؛ وأنّ نوعًا من الديدان يعيش في مياه ساخنة، لا تستطيع أن تضع فيها يدك؛ ولا يشعر بأيّ عذاب؛ ماذا أقول؟ إنّها لا تقدر أن تعيش في مكان آخر؛ ولكنّهم إمّا يرفضون هذا الحدث إذا لم يظهروه لهم

حتّى ولو شهد لهم بذلك رجال ثقة؛ وإمّا لا يكتفون به، تبيانًا لما نعرضه عليهم؛ والسبب، بادئ ذي بدءٍ، أنّ تلك الحيوانات لا تعيش إلى الأبد أو لكونها تعيش في تلك المياه الحارّة يعتبر ذلك الجوّ الملائم لطبيعتها مبدأ قوّة وليس مبعث ألم؛ لأنّه إن كان من المستغرب أن يتألّم حيّ في النار دون أن يموت فمن المستغرب أكثر وأكثر أن يعيش في النار دون أن يتألّم. وإذا صدّقنا الواحد فلماذا لا نصدّق الآخر؟

٣

هل يستطيع الجسد الترابيّ أن يتحمّل العذاب الأبديّ؟

ولكنّهم يقولون: ما من جسدٍ يتألّم إلّا ويموت. وكيف نعرف ذلك عنه؟ وهل من الثابت أنّ الشياطين لا يتألّمون جسديًا حين يقرّون بعنف عذاباتهم؟ وإن أجابوا أنْ لا جسد ترابيّ، جامد وملموس؛ لا جسد، وبكلمة واحدة، يتألّم إلّا ويموت، فهذا يوصل إلى حدود شهادة الحواس؛ والملاحظة لأنّ الإنسان لا يعرف جسدًا من لحم ودم إلّا ويموت؛ حجّتهم الوحيدة أنّ كلّ ما لا يقع تحت حواسّهم يعتبر غير ممكن؛ ومع ذلك فكيف يجعلون من الألم برهانًا عن الموت حين يكون الألم علامة حياة؟ نتساءل هل كلّ مَن يتألّم يظلّ حيًا؟ فثابت أنّ كلّ مَن يتألّم يحيا؛ وأنّ الألم لا يكون إلّا في مَن يحيا؛ حتمًا كلّ مَن يتألّم يحيا؛ وليس من الضروريّ أن يكون الألم مميتًا؛ لأنّ أجسادنا ذاتها؛ الصائرة والمعدّة للموت لا يقتلها كلّ وجع؛ وإذا كان الوجع يقتل الآن، فهذا يعني أنّ النفس متّحدة اتّحادًا وثيقًا

بالجسد ويجعلها عنف الألم تهرب وتنسحب لأنّ ارتباط الأعضاء والأطراف الحيويّة فيما بينها وثيق جدًّا بحيث لا يستطيع أن يقاوم تلك الأزمة، الضيق الرهيب، وآخر ما يصل إليه الألم. هكذا هو الجسد؛ وذاك هو اتّحاد النفس بالجسد بحيث لا يستطيع أيّ مدى زمنيّ أن يحلّ تلك العقدة ولا أيّ ألم أن يحطّمها. صحيح الآن أنّه ما من جسدٍ حيّ يتألّم إلّا ويموت؛ بيد أنّ الجسد لن يكون آنذاك كما هو اليوم؛ كما أنّ الموت يبطل أن يكون ما كان عليه في الزمن؛ سيكون دومًا موت، إنّما موت أبديّ. وفي الواقع لن تستطيع النفس أن تحيا منفصلة عن الله ولن تقوى في الموت على الخلاص من الألم. بالموت الأوّل تطرد النفس، رغمًا عنها، من الجسد؛ وبالموت الثاني، تبقى النفس في الجسد، رغمًا عنها. ما هو مشترك بين هذا الموت وذاك هو ما يجعل النفس تتألّم في جسدها ممّا لا تريده.

يلاحظ خصومنا جيّدًا أنّه ما من جسدٍ حيّ يتألّم إلّا ويموت؛ ولا يلاحظون أنّ ذلك صحيح أيضًا في طبيعة معيّنة أسمى من الجسد. إنّ هذا العامل الذي يُحيي الجسد ويدبّره، أي العقل، يتألّم ولا يستطيع أن يموت. وذاك هو الذي يشعر بالألم مع أنّه لا يموت. وتلك تكون حال أجساد الهالكين، كما هي اليوم، على حدّ ما نعرف، حال سائر البشر. لكنّنا مدعوّون إلى التفكّر مليًّا، في ما نسمّيه ألم الجسد وهو مرتبط بالنفس. وفي الواقع، النفس هي التي تتألّم وليس الجسد، حتّى ولو جاءها الألم من الجسد فتألّمت من حيث يُجرح الجسد؛ وكما أنّنا نقول أجسادًا حسّاسة، أجسادًا حيّة، وإن تكن النفس بالنسبة إلى الجسد مبدأ الشعور والحياة، نقول كذلك: أجساد متألّمة، وإن يكن الألم

صادرًا عن النفس إلى الجسد. وعليه فإنّ النفس تتألّم مع الجسد ألمًا محليًّا يشعر به الجسد؛ النفس تتألّم وحدها، وإن تكن مقيمة في الجسد حينما يحزنها سببٌ غير مرئي دون أن تؤثّر على الصحة الجسديّة؛ وأحيانًا كثيرة تتألّم خارج الجسد ويشهد بذلك ما يقاسي الغنيّ من عذاب في جهنّم يجعله يهتف قائلًا: «إنّي أتعذّب في هذا اللهيب». (لو ١٦/ ٢٤)؛ ومن ناحية أخرى، إنّ الجسد لا يتألّم إلّا إذا كان حيًّا؛ إذ ذاك فالنفس أيضًا تتألّم. وعليه، إن استطعنا أن ننتقل شرعًا من الألم إلى الموت، أي أن يصير الموت نتيجة حتميّة للألم، إذ ذاك فالنفس تموت طالما أنّها تتألّم؛ ولكن بما أنّها لا تموت هي التي تقدر أن تتألّم أكثر، من أين لنا أن نقول إنّ أجساد الهالكين ستموت لأنّ عليها أن تكون في العذابات؟ لا شكّ من أنّ الأفلاطونيّين اعتقدوا بأنّ الخوف والشوق والألم والفرح ينبعث من تلك الأجساد الترابيّة وتلك الأعضاء الآئلة إلى الموت نحو النفس، على حدّ ما يعبّر عنه فرجل في الأبيات الشعريّة التالية: «من هناك الخوف والشوق والألم والفرح». بيد أنّني في الكتاب الرابع عشر من هذا المؤلَّف قد أقنعتهم بأن يضعوا في النفوس المنقّاة من كلّ وصمةٍ ترابيّة، الشوق اللاواعي إلى أجسادها. ولكن أين هو الشوق؟ إنّه بالتأكيد الألم؛ لأنّ الشوق الذي يخيب في رجائه والشوق القلق يتحوّل إلى الألم. وعليه، إن كانت النفس وحدها والأكثر حدّة في الألم تملك خلودًا لها خاصًّا فكيف يمكن للموت أن يكون في المستقبل نتيجة الألم الحتميّة؟ وفي النهاية إن كان الجسد هو الذي يتسبّب بعذاب النفس فكيف لا يحملها على الموت كما يجعلها تتعذّب إن لم تكن النتيجة مغلوطة وهو أنّ ما يُؤلم يُميت؟

ولِمَ يرفض الإنسان الاعتقاد بأنّ تلك النيران تجرّ الأجساد إلى الألم لا إلى الموت؛ طالما أنّ الأجساد ذاتها تعذّب النفوس دون أن تضطرّها إلى أن تموت؟ وتاليًا ليس الألم برهانًا حتميًّا على الموت التالي.

٤

أمثلة في الطبيعة على أجسادٍ تستطيع أن تظلّ حيّةً تحت العذاب

وعلى هذا النحو، فإنّ السمنور (وهي حشرة صغيرة) تعيش في النار، على حدّ قول علماء الطبيعة؛ بعض الجبال الشهيرة في صقلية تلفظ منذ أجيال كثيرة من فوهاتها نيرانًا دون أن يتغيّر شيء فيها؛ وتعتبر شهودًا مقنعة بأنّ كلّ ما يحترق لا يزول؛ ومن ناحية أخرى، فإنّ النفس تدلّ على أنّ كلّ ما هو قابل للألم ليس، تاليًا، قابلًا للموت. والآن أيَّ أمثلة يطلبون منّا أيضًا لنثبت أنّ الأجساد البشريّة تحتفظ بنفوسها في النيران الأبديّة وتحترق دون أن تتغيّر؛ وتتألّم إلى ما لا نهاية له؟ تلك هي الميزة الجديدة التي يحصل عليها الجسد ممّن أضفى ميزات رائعةً ومتنوّعة على أشياء كثيرة حولنا، يُرهقنا إحصاؤها. وهل مَن يعطي لحم الطاووس الميّت أن لا يفسد سوى الله خالق كلّ شيء؟ ما كان بإمكاني أن أصدّق ذلك؟ ولكن، في أحد الأيّام قدّموا لنا طيرًا من ذلك النوع وطلبنا الاحتفاظ ببعض قطع من صدره؛ وبعد أيّام معدودة تكفي لأن يفسد كلّ جسد؛ قدّموا لنا تلك القطعات دون أن تزعجنا رائحتها. إحتفظ بها من جديد على مدى ثلاثين يومًا فبقيت على تلك الحال؛ وهكذا بعد سنة، إنّما ازدادت جفافًا

واختمارًا. مَنْ الذي أعطاها تلك الميزة، من جهةٍ، باردة إلى حدّ الاحتفاظ بالثلج ومن جهة أخرى، حارّة إلى حدّ أن تجعل الثمار الخضراء تنضج؟

مَن ذا يشرح غرائب النار الشديدة اللمعان التي تجعل كلّ ما يحترق أسود والفاقعة اللون التي يمحو لهيبها كلّ لونٍ يزحف إليها ويجعل من كلّ جمرةٍ ملتهبة فحمةً سوداء؛ بيد أنّ هذا الحدث لا يصير بشكل عاديّ، إذ، بخلاف ذلك، تبيِّضُ حرارة النار الحجارة؛ وبالرغم من فرق بياض الحجارة المحروقة بالنار الحمراء فإنّ البياض يتناسب مع النور كالأسود مع الظلمة. ولكن، إن تكن النار تلتهم الخشب لتجعل الحجر كلسًا فلا يجوز الاستخلاص من خلال تناقض نتائجها إلى تناقض الأشياء. الخشب والحجر شيئان مختلفان وليسا متناقضين كالأبيض والأسود؛ مع أنّ هاتين النتيجتين المتناقضتين، الأبيض على الحجر والأسود على الخشب، هما نتيجة النار؛ لمّاع، يضيء الواحد ويُظلم الآخر، على أنّه ينتهي على الحجر. الأسود في الخشب من صنع النار؛ على أنّه ينتهي على الحجر لو لم يكن مركزه في الخشب. أليس غريبًا في الخشب، من جهة، ما نرى فيه من سهولة في الكسر تحت ضربة خفيفة أو انسحاق سريع تحت ضغط بسيط؛ ومن جهة أخرى، ما نرى فيه من صمود لا يقهر أمام الرطوبة وتقادم الأزمان عليه؟ إذا غرزنا مثلًا، وحتّى آخر الأزمنة، على حدود حقلٍ ما، خشبًا محروقًا يبقى شاهدًا إلى الأبد على حقيقة القسمة ضدّ مَن يعترض عليها؟ ومَن ذا الذي في قلب الأرض الرطبة أو في الخشب يستطيع أن يحتفظ بذاك الفحم سليمًا من كلّ فساد سوى النار التي تقضي على كلّ الأشياء؟

هناك غرابة جديدة وطبيعيّة، في الكلس؛ عدا أنّه يبيَضُّ تحت تأثير النار التي تجعل كلّ شيء أسود فالنار تولد في الكلس خفيةً، النار؛ وإن لم يظهر تحت اللمس سوى كتلة باردة فالنار تحجب نارًا أخرى عن حواسّنا. الاختبار يظهر حضورها المستتر الساكن؛ ذاك ما نسمّيه الكلس الحامي؛ إنّ النار المخبّأة هي الروح غير المرئيّة للجسم المرئيّ؛ والأغرب من ذاك كلّه أنّنا بأطفائنا له نضرمه. وفي الواقع تُسكب المياه عليه فتخرج النار منه؛ ومهما يكن الكلس باردًا فإنّه يسخن لدى اتّصاله بالعنصر الذي يبرّد كلّ حجم تَحَمَّى؛ وإذ تبدو النار متخلّية عن الكلس الذي يلفظ أنفاسه، فإنّ النار التي كانت خفيَّةً تظهر وهي تنسحب وتثبت وكأنّ برودة الموت في داخلها؛ دون أن توقظ فيها نافورة ماء أي حياة؛ كانت كلسًا حارًا فأصبحت كلسًا مطفأً. وأيّ شيء نضيف إلى هذه الغرابة؟ ومع ذلك فإليكم واحدة أخرى. بدلًا من الماء اسكبوا الزيت، غذاء النار الحادّ يبقى الكلس باردًا. لو قرأنا أو أخبرونا عن شيء غريب كهذا على حجر من الهند ودون أن نتمكّن من أن نتحقّق منه بذواتنا فإمّا أنّنا ننبذه كما ننبذ كذبة معيّنة أو نفاجأ بما لا حدَّ له. لكنّ تلك الغرائب التي نراها كلّ يوم بأمّ العين ومع أنّها تستحقّ كلّ إعجاب تخسر مع ذلك من وهجها لكونها ماثلة أمامنا؛ وهذا صحيح جدًّا، حتّى إنّ بعض الأشياء النادرة جدًّا المستوردة من أقاصي الهند لا تعود تستدعي إعجابنا حين تمثل أمامنا.

كثيرون بيننا ولا سيّما الصاغة وتجّار الحجارة الكريمة يملكون الألماس وهو حجر كريم لا يعمل فيه لا الحديد ولا النار ولا أيّة قوّة أخرى ولكنّه يضعف أمام دم التيوس؛ ومالكو هذا النوع من

الحجارة وقد عرفوا قيمته يعجبون به كما يعجبون بمَن اكتُشفت فضيلتهم للمرّة الأولى؛ في حين أنّ الذين لم يكتشفوها يرفضون لربّما الإيمان بها للوهلة الأولى؛ أو إذا آمنوا فإعجابهم متأتٍّ عن عدم خبرة؛ وإذا ما أتيح لهم أن يختبروها فإنّهم يعجبون بالحدث كأنّه غير عادي؛ بيد أنّ الاستمراريّة في الخبرة تقضي شيئًا فشيئًا على الإعجاب. إنّنا لنعرف أنّ للماس على الحديد جاذبيّة غير عاديّة؛ وللمرّة الأولى شاهدته فاضطربتُ، معجبًا به، وكنت أرى، في الحقيقة، خاتمًا من الحديد يحمله حجر من الماس وكأنّي بذلك الحديد يحمل خاتمًا آخر ملتصقًا به كما أنّ الأوّل هو ملتصق بحجر الماس؛ وهنالك أيضًا ثالث ملتصق بالثاني ثمّ رابع بالثالث بحيث تتشابك الخواتم من جهاتها الخارجيّة وتؤلّف ما يشبه سلسلة من الحلقات المعلّقة. ومَن ذا الذي لا يعجب لقدرة ذلك الحجر وهي قدرة لا تكمن في الحجر ذاته بل تتجاوزه إلى سلسلة من الحلقات كبيرة وتجمع في ما بينها ربطًا غير مرئيّة؟ وهنالك أيضًا حدث آخر لذاك الحجر تعلّمته من أخي وزميلي سفروس Sévérus مطران ميلف Milève ويدعو إلى مزيد من الاستغراب. روى لي أنّه خلال مأدبة في بيت باتاناريوس، كونت بلاد أفريقيا سابقًا، رآه يمسك بحجر مغناطيس ويضعه تحت جاط من الفضّة وضع فيه حديدًا؛ وراح يحرّك يده الممسكة بالحجر فتحرّك الحديد الذي فوقه بالمثل بينما ظلّ المعدن ثابتًا لا يتحرّك وهكذا فإنّ المعدن هذا كان ينقل إلى الحديد الحركات بكلّ ما كانت عليه من سرعة. أقول ما شاهدت وأقول ما أخذته عن رجلٍ تبقى شهادته بالنسبة إليّ ثابتة ثبوت ما أراه بأمّ العين. وماذا أقول أيضًا عن كلّ ما قرأته حول ذلك

الحجر الممغنط. حين يوضع حجر ماس قريبًا منه لا يعود يرفع الحديد؛ وإذا رفعه فحين يقترب منه الماس يسقط الحديد. إنّها الهند التي تبعث إلينا بتلك الحجارة؛ وإن امتنعنا عن النظر إليها بإعجاب لأنّنا نعرفها، فكم بالحريّ أولئك الذين يرسلونها إلينا إذا حصلوا عليها بسهولة كلّيّة؟ وهل هم غير مبالين بتلك الغرابة كما نحن بالنسبة إلى الكلس الذي يشتعل عندما يلمس الماء الذي يطفئ النار بخلاف الزيت، العنصر المثير للنار، والذي يبقيه باردًا؟ إنّه لحدث قائم دومًا أمام أعيننا فلا نستغربه.

٥

في الطبيعة أشياء كثيرة يجب الاعتراف بها ولو لم يكن البرهان عقليًا ممكنًا

ولكنّنا حين نبشّر غير المؤمنين بعجائب الله، الماضية أو العتيدة، التي لا نقدر على أن نبرهن عنها بالاختبار يطلبون منّا السبب الدافع إليها؛ وبما أنّنا لا نستطيع الإجابة لأنّ الأحداث تفوق طاقة عقلنا البشريّ يصفونها بالأساطير. عليهم هم، بالمقابل، أن يبرهنوا لنا عن غرائب كثيرة نراها. إن كان ذلك مستحيلًا بشريًّا، بالنسبة إليهم، وجب عليهم أن يقرّوا بأنّ هذا الشيء ممكن، وإن لم نستطع البرهان عنه؛ طالما أنّ هناك أشياء كثيرة يوميّة. وعلى هذا النحو ودون أن أقدّم مجموعة لا تحصى من الأحداث الثابتة تاريخيًّا أكتفي بالعدد القليل منها غير مأخوذة من التاريخ أو الماضي إنّما مستمرّة حتّى إذا أراد أحدهم واستطاع التحقّق من الحقيقة مكانيًّا. يقال إنّ ملح أغريجنتا في

صقلية يذوب كما في الماء إذا أُدني من النار وفي عمق المياه يفرقع كما في النار. لدى الغرامانتيّين ينبوع ماء تبلغ برودته في النهار حدًّا يصعب على الإنسان أن يشرب منه وفي الليل تصبح مياهه حارّة ومحرقة لليد التي تمتدّ إليها؟ وينبوع آخر في أبيريا Epire حيث، والشيء عاديّ، تنطفئ المشاعل المضاءة ولكن المستغرب أنّ المشاعل المنطفئة تشتعل. في أركاديا حجر يسمّى أسبستيا لأنّه إذا ما حمّي بالنار لن يعود يبرد. في مصر يقال إنّ خشب تينة معيّنة لا يطفو على وجه الماء كسائر الأخشاب بل يغوص في الماء والمستغرب أكثر فأكثر أنّه بعد مدّة وجيزة في قعر المياه يطفو على سطح الماء بعد أن يمتصّ الماء الذي يزيد من وزنه. إنّ الثمار في أرض صادوم تنمو وتصل إلى نضوج ظاهريّ ولكن إذا ضغط عليها الإنسان بيده أو بأسنانه تفتّحت وتساقطت رمادًا ودخانًا. الحجر الفارسيّ في بلاد الفرس يحرق اليد التي تمسكه وفيها اتّخذت ذلك الاسم. وأيضًا في بلاد الفرس حجر آخر يزداد بياضًا ويخفّ مع ضوء القمر. في كبادوكيا، الهواء يلقّح الأغراس؛ والثمار لا تعيش أكثر من ثلاث سنوات. في الهند، جزيرة تدعى تيروس، بخلاف جميع مناطق الهند، لا تتعرّى فيها الأشجار من أوراقها.

على غير المؤمنين أن يشرحوا لنا هذه الأحداث المدهشة والغريبة التي لا نراها في كتب التاريخ، في كتاب الطبيعة الثابت حتّى إذا أحصيناها طال بنا الوقت كثيرًا؛ أجل، فليبرهنوا لنا عن أسباب تلك الأحداث إن استطاعوا هم الذين يرفضون القبول بالأسفار المقدّسة دون أيّ سبب لكونها إلهيّة إلّا لأنّها تتضمّن أشياء لا تصدَّق؛ وهكذا كالأحداث التي سبق الكلام عنها.

يقولون لا شيء يدعو إلى القبول بجسد يحترق ولا يفنى، يتعذّب ولا يموت أبدًا. أيّها المدّعون التفكير، القادرون على أن تبرهنوا عن تلك الغرائب المنتشرة في هذا الكون تفضّلوا وبرهنوا عن هذا العدد الضئيل من الأحداث التي أشرت إليها سابقًا منذ برهة. على أنّي أؤكّد أنّه لو كان الوجود الحاليّ لهذه الأحداث خفيًّا عليهم وأخبروا عنها للمستقبل لكان إيمانهم بها أقلّ من إيمانهم بالأمور التي نبشّرهم بها. وعليه فكما نعلن أنّ الأجساد البشريّة في يوم من الأيّام ستحيا لتحترق وتتألّم إلى الأبد دون أن تموت، لقيل إنّه في المستقبل، بعض الملح يذوب في النار كما لو كان في الماء ويفرقع في الماء كما لو كان في النار؛ ينبوع ما، يجعله بردُ الليل حارًّا جدًّا كما لو أنّه مسخَّن على النار ولا يمكن لمسه؛ وحرّ النهار يجعله باردًا جدًّا بحيث لا يمكن الشرب منه؛ حجر، إذا ضغطت عليه بيدك أحرقها؛ وآخر مشتعل لا ينطفئ؛ وهنالك عدد لا يحصى من الغرائب والعجائب. وهل يصدّقوننا إن أخبرناهم بأنّ تلك الأحداث ستحقّق في الجيل المقبل؛ ويجيب أولئك القليلو الإيمان: إن أردت أن تحملنا على الإيمان بها تفضّل وبرهن لنا عنها؛ بيد أنّنا نقرّ ونعترف بعجزنا وضعف عقلنا لنقيس أنفسنا بأعمال الله العجيبة الرائعة؛ ولكنّنا نقول أيضًا إنّ هذا العقل فينا لا يتزعزع؛ وأنّ القدير لا يعمل شيئًا بلا سبب؛ ولا تزال إرادته، بالنسبة إلينا، قادرة على كلّ شيء ولا شيء يستحيل عليه ونؤمن بما يقول لنا لأنّه يستحيل علينا أن نظنّ أنّه كذّاب أو عاجز. ومع ذلك فإنّ أولئك الذين يرفضون الإيمان ويلتمسون العقل وحده كيف يجيبون على ما لا يمكن أن يفسّر بشريًّا وهو موجود ومناهضٌ على ما يبدو للطبيعة؟

إن أعلَنّنا عن أنّ وجودها ضروريّ ألا يطالبوننا بأن نؤدّي حسابًا عنها كما عن جميع العجائب التي نتكلّم عنها؟ وعلى هذا النحو، إن عجز عقل الإنسان وكلامه أمام المقدرة الإلهيّة التي صنعت هذه العجائب لا يثبت شيئًا ضدّ وجودها الراهن كما لا يثبت شيئًا ضدّ الوجود المستقبليّ للعجائب المعلن عنها؛ في كلا الحالين يبقى عقل الإنسان عاجزًا عن فهمها.

٦

ليست الغرائب كلّها طبيعيّة: بعضها من صنع عبقريّة الإنسان وبعضها الآخر حِيَل شيطانيّة

ولكنّهم سيهتفون: هذا غير موجود ولا نصدّق شيئًا منه؛ كلّ ما قيل عنه وكلّ ما كتب عنه خطأ؛ ويقدّمون الرأي التالي: إن وجب الاعتقاد بمثل تلك الأحداث فآمنوا أيضًا بما يحكيه الكتّاب أنفسهم أنّه كان لأولفينوس هيكل يحتوي على شمعدان كبير يعلوه قنديل يشتعل في الهواء وله لهيب حادّ حتّى إنّ العاصفة والمطر يعجزان عن إطفائه؛ وهذا ما أعطاه اسم «النور غير القابل للانطفاء» وقد يتصوّرون بأنّه يزعج جوابنا؛ في الواقع، إذ قلنا إنّه يجب أن نصدّقه نقبل بآلهة الوثن؛ وإن رفضنا نلغي الأشياء العجيبة الأخرى التي أعلنّنا عنها. ولكنّنا لسنا مضطرّين إلى القبول بجميع أخبار التاريخ العالميّ كما سبق وقلنا في الكتاب الثامن عشر من هذا المؤلَّف طالما أنّ المؤرّخين أنفسهم، باعترافٍ من فرّون، غالبًا ما يتناقضون؛ أمّا نحن فإنّنا نصدّق ما لا يتناقض والكتب الواجب الإيمان بها. ونكتفي من الأشياء العجيبة بما

يُبرهن لغير المؤمنين عن الحقائق المستقبليّة؛ والتي يمكننا أن نتحقّق من صحّتها من خلال الاختبار واستنادًا إلى شهودٍ جديرين بالثقة. أمّا القنديل، غير القابل للانطفاء في هيكل فينوس فهو يفتح لنا المجال الأوسع دون أن يدخلنا في الممرّ الضيّق ونضيف إليه غرائب العلوم البشريّة والسحريّة، أي الأعمال الشيطانيّة التي يقومون بها مباشرة أو بواسطة الناس؛ ولسنا قادرين على إنكارها دون أن نناقض حقيقة الأسفار المقدّسة. وعليه فإمّا أن يكون الفنّ البشريّ قد أقام آلة معيّنة مع ذلك الحجر المعدنيّ الخاصّ وإمّا أن يكون عملًا سحريًّا يثير في الهيكل إعجاب الناس أو هو حضور فاعل للشيطان، تحت اسم فينوس، جعل ذاك الشيء الغريب باديًا للعيان باستمرار إذ إنّ الشياطين تدخل في مخلوقات صنعها الله فتندفع في أثر مفاتن متنوّعة بحسب عبقريّتها ولا تستسلم كالحيوانات إلى إغراء الأطعمة ولكن، بصفتها طبائع روحيّة تنقاد وراء علاماتٍ مطابقة لمخيّلة كلّ واحد، أنواع متعدّدة من الحجارة والأعشاب والخشب والحيوانات، أفراح وطقوس مختلفة؛ تباشر الشياطين بإغراء الناس لكي يجتذبهم الناس إليهم بإلقاء سمّ خفيّ في قلوبهم أو بتقديم طعم الصداقات الخبيثة؛ ويجعلون لهم عددًا صغيرًا من التلاميذ يصبحون فيما بعد معلّمين للآخرين؛ وهل نعلم إن لم يكونوا قد لقّنوهم ذلك الشيء، ما يهوون أو ما يكرهون؟ أي اسم يجتذبهم أو يمجُّهم، فنّ السحر بكامله وعلم السحرة؟ لكنّهم يتوقون بنوع خاصّ إلى امتلاك قلوب الناس حتّى إذا نجحوا في ذلك تباهوا بذلك حين يتحوّلون إلى ملائكة النور. من جهتهم، هنالك أفعال كثيرة يجب أن نتلافاها باللباقة، وقدر ما تثير فينا من استغراب؛ على أنّ هذه

الأعمال هي لنا بمثابة براهين. وفي الواقع إذا كان لبعض الشياطين الفاسقين قدرة كهذه فما أقوى الملائكة القدّيسين وما أقدر الله خالق الملائكة الذين يأتون بعجائب كثيرة!!

أن يعمل العلم البشريّ، المستند إلى ما خلق الله، في الفنون الميكانيكيّة، تلك الأشياء الغريبة المذهلة وحيث السرّ مجهول فيعزوها إلى اليد الإلهيّة مثلًا، في معبد مكسوّة أرضه ومغطّى سقفه بحجارة من المغناطيس متجانسة مع قياسات البناء، ذاك تمثال من حديد معلّق ما بين المغناطيس المزدوج؛ وعدم فهم ذاك التأثير من فوق وإلى أسفل ينسب هذا الحدث إلى القدرة الإلهيّة؛ وقنديل فينوس ذاك الذي سبق الكلام عنه، مَن يدري إذا لم يكن الفنّ الصناعيّ في ذلك الحجر لم يعطه تلك الميزة؟ وعليه إذا كانت أعمال السحرة الذين يسمّيهم الكتاب المقدّس مشعوذين رفعت الثقة بالشياطين إلى هذه الدرجة حتّى إنّ شاعرًا كبيرًا فكّر بأن ينقض رأي أولئك الناس بأبياتٍ نظمها في مشعوذة خلّابة وقديرة قائلًا فيها: «تَعِدُ الناس بأعمالها الخلّابة بأن تخلّص الأنفس على هواها أو بأن ترسل إليهم هواجس مريرة، بإيقاف مياه الأنهر وتغيير مجرى الكواكب، تستحضر أرواح الموتى المظلمة؛ الأرض توشك أن تعجَّ تحت قدميها وسترى العصافير تتساقط من أعالي الجبال» (virigle, *Eneïde 1V, 487*) وكم هو قدير الله الذي قام بالمذهلات التي لا يصدّقها مَن لا يؤمنون؛ وهي صنع عظمته! أليس هو الخالق لتلك الحجارة ولما تتميّز به ولعبقريّة الناس الذين يعرفون كيف يستعملونها استعمالًا عجيبًا كما خلق الطبائع الملائكيّة الأقوى من جميع ما في الطبيعة من طاقات حيوانيّة؟ وما لا يُحدُّ ولا يدرك من كلّ تلك الغرائب أليس

هو أدنى من لا محدود القدرة والحكمة، العامل والآمر والناهي، الرائع والعجيب، في سلوكه، كما هو في خلق الكون؟

٧

قدرة الخالق هي الحافز على الاعتقاد بالعجائب

ومن، ثمّ فلِمَ لا يقدر الله يا ترى أن يقيم أجساد المائتين ويعذّب في النيران الأبديّة الهالكين، هو الذي خلق السماء والأرض، الهواء والمياه المليئة بالمذهلات اللامحدودة وصنع كلّ العجائب التي هو بها مليء، وأعظمها وأكبرها هذا الكون؟ لكنّ الذين نناقشهم ونقاومهم لكونهم يقولون بإله خالق، وآلهةٍ أخرى، وخدّام له في إدارة هذا الكون يعترفون بالقدرات ويعظّمونها لأنّها تأتي بالغرائب تلقائيًّا وعلى هواها؛ أو تجاوبًا مع دعوات واحتفالات تقام لها؛ وحين نقول لهم إنّ قدرة تلك الأشياء العجيبة ليست لحيوانات عاقلة ولا لأرواح عاقلة، مثلًا، تلك التي ذكرتها سابقًا يكون عادةً جوابهم: تلك هي ميزتها الطبيعيّة، وتلك هي طبيعتها التي تملك تلك القدرة التي تنفرد بها. ولهذا فإنّ ملح أغريجنتا يذوب في النار ويفرقع في الماء، وتلك هي طبيعته؛ ومع ذلك أليس مناقضًا للطبيعة التي أعطت الماء أن يذيب الملح؛ لا للنار؛ وأعطت النار أن تجعل الملح يفرقع، لا للماء؟ إنّما يقولون إنّ ميزة هذا الملح الطبيعيّة أن تعطي ظواهر مضادّة لما هو معروف عنه. وهكذا تفسَّر طبيعة ينبوع الغرامنتيّين الذي يكون جليدًا في النهار ومُحرقًا في الليل، بحيث لا تستطيع اليد أن تتحمّل سخونته وبرودته؛ والغريب هو

أنّ مياهه الباردة تطفئ المشاعل المتّقدة وتضرم المطفأة منها! وأهمّيّة هذا الحجر (وهو مادّة معدنيّة لا تشتعل) يشتعل بالنار التي يأخذها من الخارج، دون أن يكون له محراق داخليّ، ولا يعود ينطفئ؛ وهنالك أيضًا أشياء أخرى كثيرة لها أهمّيّتها إنّما الكلام عنها مضنٍ؛ ولا داعي، بكلمة واحدة، وإن تكن تلك الأشياء تقدّم بعض خصائص جديدة مضادّة لطبيعتها؛ أجل، السبب الوحيد هو أنّ تلك هي طبيعتها. جوابي على كلّ ذلك وجيز وكاف وموافق على كلّ ما تقدّم. ولكن، بما أنّ الله هو الخالق لكلّ طبيعة، لماذا يمنعوننا من أن نقدّم سببًا أفضل؛ حين يرفضون القبول بشيءٍ ما متذرّعين بأنّه غير ممكن؟ نجيب على إلحاحهم بمعرفة السبب بأنّ الله القدير يريد ذلك؛ وهو يسمّى القدير؛ لأنّه يعمل كلّ ما أراد. وهكذا فإنّ تلك العجائب التي خلقها، إن لم تكن واضحة وثابتة من قبل شهودٍ ثقة، تعتبر غير ممكنة. أمّا تلك التي يشهد لها صانعوها فقط ويجهلون كلّيًّا الأنوار الإلهيّة ويتبعون الأضاليل البشريّة فلا حرج عليهم إن لم يصدّقوها.

في الواقع، لست أدّعي أنّه من الضروريّ الإيمان بكلّ ما ذكرت لأنّ الشكّ لا يزال يخامرني؛ إنّما أستثني ما اختبرته شخصيًّا؛ وما يمكن لكلّ إنسان أن يختبره: مثلًا الكلس في الماء مُحرِقٌ؛ وفي الزيت بارد؛ المغناطيس يحرّك بقدرة غير مرئيّة الحديد ولا يستطيع شيئًا أمام قشّة. لحم الطاووس يُحفظ من الفساد الذي يفتك بأفلاطون؛ القشّة الباردة جدًّا لا تسمح للثلج بأن يذوب بينما إذا كانت حامية تنضج الثمار. النار الشديدة تشرك الحجارة ببياضها إذا ألهبتها ويخفّ لمعانها حين تحوّل ما

تحرقه إلى سواد. التناقض عينه قائم بين شفافيّة الزيت وسواد البقع المنتشرة منه وبين لون الفضّة القويّ والخطوط السود التي ترسمها؛ وتلك أيضًا هي حال تحويل الخشب إلى فحم بالنار؛ إنّه يتحوّل من لمّاع وقاس وقابل للزوال إلى أسود، سريع العطب، باقٍ على الدهر. أعرف شيئًا عن تلك الأمور كما يعرفها الكثيرون؛ إنّما أكثرها يعرفه الناس كما أعرفه أنا ويطول بنا إحصاؤها في هذا المجال؛ أمّا التي ذكرتها استنادًا إلى ما قرأت عنها دون أن أختبرها، ما عدا الينبوع الذي تنطفئ عليه المشاعل المتّقدة وتتّقد المشاعل المنطفئة، والثمار وأرض صادوم، الناضجة خارجيًّا ومن الداخل رماد ودخان، فتلك أمور ما استطعت أن أجد شاهد ثقةٍ لها. على أنّي لست أدري إن كان إنسانٌ قد رأى ذلك الينبوع في أبيريا Epire بينما أكّد لي الكثيرون بأنّهم رأوا مثيلًا له في بلاد الغول، على مقربة من مدينة غرونبل Grenoble. أمّا ثمار صادوم فقد حكى عنها شهود كثيرون في كتبٍ، موثوق بها، كما تكلّم أيضًا أناس عن خبرةٍ شخصيّة لا يخامرني شكّ بصدقهم. أمّا الباقي فألتزم الصمت تجاهه، فلا أنفيه ولا أؤكّده. أمور أذكرها استنادًا إلى ما قاله مؤرّخون أخصام لنا، لكي أبيّن ما يقبلون به، بلا حقّ، دون أيّ مرجعيّة، سوى تلك التي لكتّابهم، هم الذين لا يتنازلون ويصدّقوننا ولا يعلّلون رفضهم حين نعلن لهم عن العجائب، التي، على القدير أن يحقّقها، في يوم من الأيّام؛ وهي ما لا يمكننا أن نختبرها بحواسّنا. وهل من برهان أقوى وأفضل من أنّ القدير قد أخبر عنها في الكتب التي تروي أحداثًا مماثلة لها قد تحقّقت؟ وهكذا فكما أنّه وعد بأن يعمل فسيعمل ما يبدو مستحيلًا، هو الذي، بحسب وعده، جعل

الشعوب غير المؤمنة تؤمن بما يفوق كلّ اعتقاد.

٨

إنّ تغييرًا في إحدى الميزات ليس مخالفًا للطبيعة

وقد يكون جوابهم لنا، إن رفضوا تصديق ما نقوله عن الأجسام البشريّة، إنّها تحترق باستمرار ولا تموت أبدًا هو أنّنا نعرف أنّ طبيعة الأجسام البشريّة لم تخلق في تلك الشروط، وذاك ما يبعد التعليل الذي نقدّمه عن سائر العجائب الأخرى التي يمكن أن يقال عنها: إنّها ميزة طبيعيّة خاصّة بها، وهي طبيعة تلك المادّة؛ لأنّنا نعرف أنّها ليست طبيعة جسم الإنسان؛ على أنّ الأسفار المقدّسة تجيز لنا الإجابة بأنّ جسم الإنسان خُلِقَ في ظروف مختلفة قبل الخطيئة؛ أي إنّه كان قادرًا على ألّا يموت ومنذ أن خطئ أصبحت الطبيعة غير قادرة على أن تحيا إلى الأبد؛ إذ إنّ الشقاوات الزمنيّة تعلن عن سقوطها. ومن ثمّ فحين تقوم الأجساد، تتعرّض إلى تحوُّل جديد؛ ولكنّ غير المؤمنين يرفضون سلطة تلك الكتب التي تثبت لنا الحالة التي يعيشها الإنسان في الفردوس؛ وكم كان بعيدًا عن حتميّة الموت؛ (لو أنّهم آمنوا بها فهل كان من الصعب علينا أن نبرهن لهم عن عذاب الهالكين الأبديّ في الدهر العتيد؟) فلنسأل كتّابهم المتقدّمين في العلوم كيف يبرهنون عن أنّ شيئًا ما يصبح غير ما كان معروفًا به في طبيعته المحدّدة؟

في كتاب مركوس فرّون «بنوّة الشعب الرومانيّ» مقطع أنقله بحرفيّته يقول: «ظهرت في السماء مسألة غريبة: نجمة فينوس

الرائعة التي سمّاها بلوتوس فسبروغو Vesperugo وهوميروس سمّاها هسبروس معظّمًا جمالها، هذه النجمة يؤكّد كاستور Castor أنّها تغيّرت في لونها وحجمها وصورتها وحركتها؛ حدث لم يكن له مثيل حتّى ذلك الوقت ولم يعد يتكرّر منذ ذلك التاريخ. إنّ عالِمَيْ الرياضيّات أدرست السيزيكي Adraste de Cyzique وديون النابلي Dion de Naples ينسبان ذلك الحدث إلى عهد أوجيجاس Ogygas «بكلّ ما كان فرّون سمّاه أعجوبة لو لم يبدُ له مخالفًا للطبيعة ولكن هذا لم يحدث؛ وكيف يكون مخالفًا للطبيعة ما يصير بإرادة إلهيّة طالما أنّ الإرادة الإلهيّة لا تعمل شيئًا مخالفًا لطبيعة كلّ مخلوق؟ الأعجوبة ليست ضدّ الطبيعة بل ضدّ الطبيعة كما نعرفها. ومَن ذا يستطيع أن يحصي الأعاجيب الكثيرة التي تملأ كتب التاريخ الدنيويّ؟ حسبنا هذا الحدث الذي تطالب به المسألة التي تستأثر باهتمامنا. وأيّ نظام وضعه خالق السماء والأرض أفضل من نظام الكواكب الرائع؟ وهل من شيءٍ قائم على قوانين لا تغيير فيها ولا تبديل؟ ولكن، عندما أراد مدبّر الخليقة، بسلطة له مطلقة، وسيادة تامّة، وجدت النجمة الأشهر، بحجمها وبهائها ولونها وأحجامها وصورتها، ولمزيد من الغرابة، نظام مسيرتها وسنّتها، كلّ ذلك يتغيّر. بكلّ تأكيد لو شوّه هذا الحدث كلّ الألواح التنجيميّة لو كان لها وجود؛ إنّ الألواح التي تتضمّن حسابات الحركات السماويّة، الماضية والمستقبليّة تتوق إلى مثل تلك العصمة حتّى إنّ أصحابها يستشهدون بها ليثبتوا أنْ لا شيء يشبه ذلك، حدث في السماء، لا سابقًا ولا لاحقًا؛ أمّا نحن، ألسنا نقرأ في الأسفار المقدّسة أنّ يشوع الرجل البارّ قد تضرّع إلى الربّ فتوقّفت الشمس عن

مسيرتها لكي تعطيه وقتًا لإكمال انتصاره؛ والكواكب ذلك هو أيضًا ليتقهقر ليخبر الملك حزقيا عن الخمس عشرة سنة الجديدة التي تبقى له من عمره والله يثبت وعده بهذه الأعجوبة؟ بيد أنّ تلك العجائب المعطاة، تجاوبًا مع ما يستحقّه القدّيسون، عندما يقبل بها غير المؤمنين ينسبونها إلى السحر. وهذا ما يقوله فيرجل في بيت من الشعر: «إيقاف نظام الأنهار وتحويل الكواكب عن مسيرتها» ونرى كذلك في الكتب المقدّسة أنّ نهرًا يحبس مياهه العالية ويترك المنخفضة تسيل؛ وتحت أمرة يشوع نفسه يحاول شعب الله أن يمرّ وتتجدّد هذه الأعجوبة إكرامًا لإيليّا وتلميذه أليشاع؛ وليتقهقر كوكب النهار في عهد حزقيّا غير أنّ ما جرى لنجمة فينوس التي حكى عنها فرّون فلم يُقل لنا إنّها تمّت تلبية لصلاة إنسان.

كلّا! لا يجعلنّ غير المؤمنين من معارفهم الطبيعيّة ضبابًا يُعميهم كما لو أنّ اليد الإلهيّة لا تستطيع أن تُدخل في مادّة معيّنة تطويرًا يجرّدها من صفاتها الطبيعيّة لتتكشف أمام الخبرة البشريّة؛ وفي الحقيقة وإن تلك الأشياء الطبيعيّة الأكثر شهرة تسترعي الإعجاب، حقًّا، فإنّ الناس ما تعوّدوا أن يعلنوا عن إعجابهم إلّا بما هو رائع ونادر الوجود. ومهما قلّ الأخذ برأي العقل فمَن ذا الذي، في هذه الكثرة التي لا تحصى من الناس المتجانسين في طبيعتهم، لا يتوقّف معجبًا أمام تشابههم المتنوّع؟ إن لم يكن الشبه إجماليًّا فلا شيء يميّز النوع عن سائر الأنواع الحيوانيّة؛ ولولا الفروق الجزئيّة الخاصّة لما تميّز الفرد عن سائر الناس؛ حيثما اعترفنا بالتشابه وجدنا أيضًا فرقًا؛ بيد أنّ الفرق يثير إعجاب الفكر أكثر من التشابه لأنّ وحدة الطبيعة تفرض على ما

يبدو التشابه؛ ومع أنّنا لا نعجب إلّا ممّا هو نادر، نحتفظ بإعجابنا الكلّيّ أمام شخصين متشابهين حتّى يصعب علينا التمييز بينهما دون الوقوع في أخطاء مستمرّة وكثيرة.

لكنّ تلك الظاهرة التي أنقلها كما وردت لدى فرّون قد يرفضونها؛ وإن يكن فرّون، واحدًا من كتّاب التاريخ، بنظرهم، وأكثرهم علمًا؛ ألأنّها قصيرة في مدّتها قد جعل تلك الظاهرة العجيبة أقلّ تأثيرًا عليهم فضلًا عن العودة إلى السنن العاديّة؟ وها هوذا حدث آخر، يمكنهم أن يتأكّدوا منه، اليوم؛ وقد يكفي أيضًا، على ما أظنّ، ليقنعهم بأنّ شيئًا ما في الطبيعة درسوه وفهموه جيّدًا لا يجوز أن يتذرّعوا به ليمنعوا عن الله حقّ تحويل هذا الشيء إلى آخر غير الذي يعرفونه. إنّ أرض صادوم ما كانت أبدًا ما هي عليه اليوم. وعلى مداها، لا نراها تقدّم شيئًا شبيهًا بسائر المناطق؛ كانت تتساوى معها بل كان تفوّقها خصبًا ونموًّا؛ لأنّ الأسفار الإلهيّة تشبّهها بالفردوس الأرضيّ؛ وما إن لمستها نار السماء، على حدّ ما جاء في تاريخهم، والمسافرون يتحقّقون من ذلك بأنفسهم، حتّى صارت أرضها رمادًا بشعًا وثمارها لا تخفي تحت ستار من النضج الظاهريّ سوى دخان. لم تكن هكذا أوّلًا إنّما أصبحت غير ما كانت عليه؛ ومن ثمّ، بتغيير عجيب، جعل خالقُ كلّ طبيعةٍ طبيعتها مختلفة جدًّا؛ وبشكل بشع! وهذا التغيير الذي حدث بعد أجيال كثيرة يدوم أيضًا على مدى أجيال كثيرة!

وعليه، فكما لم يكن مستحيلًا على الله أن يخلق ما أراد من الطبائع فهكذا لا يستحيل عليه أن يغيّرها على هواه. ومن النافل تعداد الأحداث العجائبيّة، المدعوّة أقزامًا وغرائب إلخ... التي

لا أستطيع أن أحصيها دون التوسّع بهذا المؤلَّف إلى ما لا نهاية له. كلمة «أقزام» المشتقّة من فعل قزم أي عابَهُ وكان دنيئًا ولئيمًا تعني بالفرنسيّة Monstres المشتقّة من لفظة «Montrer» تعني أنّها تُظهر؛ لأنّ الأقزام تعني شيئًا وكلمة Prodiges تشير إلى المستقبل؛ وليستسلم المفسّرون إلى كلّ الافتراضات، سواء أخُدِعوا بوحيٍ من الأرواح المكلّفة بتغليف النفوس المستحقّة لذلك القصاص بشبكة من حبّ الاستطلاع الخبيث ينبؤون عن الحقيقة أم أنّهم بالكلام عنها باستمرار يلتقونها أحيانًا. أمّا نحن فنقول إنّ كلّ ما يظهر أو يصل مخالفًا للطبيعة؛ (وعلى هذا النحو يقول الرسول، بحسب كلام الناس، إنّ الزيتون البرّيّ الذي يطعّم بخلاف الطبيعة على الزيتونة المقدّسة يشارك بماويّة الزيتونة المقدّسة) كالأقزام والمظاهر العجيبة، فهي تدلّ وتشير إلى أنّ الله يعمل من الأجسام البشريّة ما سبق وقال عنها؛ وأيّ شيءٍ يمنعها عن ذلك؟ أيّ سنة طبيعيّة تحرّم عليه ذلك؟ ولكن كيف تنبّأ عن ذلك؟ ذاك ما أظنّ أنّني برهنت عنه، بما فيه الكفاية، في كتابي السابق، إذ استخرجت من الأسفار المقدّسة القديمة والجديدة المقاطع التي خلقها كافية لهذا الموضوع دون التطرّق إلى كلّ النصوص المتعلّقة بالموضوع.

٩

طبيعة العقاب الأبديّ

واستنادًا إلى ما ذكرنا، فإنّ التهديد بعذابات الأبد، الصادر عن الله، بلسان نبيّه، سوف يتحقّق. أجل، سوف يتحقّق: «دود

الهالكين» لن يموت والنار التي تلتهمهم لن تطفأ». (أش ٦٦/ ٢٤) ولكي يعمّق، أكثر فأكثر، تلك الحقيقة في نفوسنا، فإنّ الربّ الذي يعني بالأعضاء، التي تشكّل الإنسان، البشرَ أنفسَهم، يدعونا إلى أن نقطعها، وإن نكن نحبّهم كما نحبّ أعضاءنا، قائلًا: «خير لك أن تدخل الحياة من أن يكون لك يدان وتذهب إلى جهنّم، إلى نارٍ، لا تطفأ، حيث لا يموت دودهم ولا تطفأ النار». (مر ٩/ ٤٤-٤٥) ويضيف: «خير لك أن تدخل الحياة الأبديّة، وأنت أعرج، من أن يكون لك رجلان، وتلقى في نار أبديّة حيث دودهم لا يموت ونارهم لا تُطفأ» كما يقول أيضًا: خير لك أن تدخل ملكوت الله بعينٍ واحدة من أن تكون لك عينان وتلقى في العذاب الأبديّ، حيث دودهم لا يموت ونارهم لا تُطفأ». ولا يتردّد في أن يستعيد ثلاث مرّات الفكرة عينها في الوقت ذاته. ومَن ذا لا يرتعد لسماعه التهديد الثلاثيّ الرهيب يخرج بقوّة من الفم الإلهيّ؟

على أنّ الذين يردّدون هذا العذاب وذاك، هذه النار وذلك الدود، عذاب النفس والجسد، يزعمون أنّ عذاب ندامةٍ متأخّرة وعقيمة يُحرق النفوس المفصولة عن ملكوت الله؛ واستطاع الكتاب المقدّس أن يعبّر بالنار عن ذلك العذاب الكاوي. ألا يقول الرسول بهذا المعنى: «وأيّ إنسان زلّت قدمه فلا أحترق أنا بالنار؟» (٢ قور ١١/ ٢٩) العذاب عينه يعبّرون عنه بالدود؛ ألم يكن مكتوبًا: «كما أنّ العثّ ينخر الثوب والدود الخشب كذلك هو الحزن في قلب الإنسان؟» ومن جهة أخرى، فإنّ الذين لا يشكّون في أنّ النفس والجسد يتعذّبان ذاك العذاب الأخير يؤكّدون أنّ الجسد سيكون فريسة النار والنفس طعامَ دود اليأس. ومع أنّ هذا الرأي هو الأرجح لأنّ غياب الألم الروحيّ أو

الجسديّ هو افتراضٌ سخيف، فإنّي أعزوهما إلى الجسد، بدلًا من أن أعصمه من كليهما؛ ولا يستطيع صمت الكتاب المقدّس عن ألم النفس، إلّا أن يعني النتيجة الضروريّة للعذابات الجسديّة، عذابات ندامة عقيمة. وفي الواقع إنّنا نطالع في العهد القديم: «ضع نفسك جدًّا لأنّ عقاب المنافق نار ودود» (سير ١٩/٧) كلمتان كانتا كافيتين: عقاب المنافق. ولِمَ يقول إذًا: «جسد المنافق» إلّا لأنّ الدود والنار سيكونان عذابَ الجسد؟ أو إن كان يعني بتلك الكلمات الانتقام المفروض على الإنسان الذي يكون قد عاش بحسب الجسد (ولهذا يقع في الموت الثاني الذي يعبّر عنه الرسول بما يلي: «لأنكم إذا حييتم حياة الجسد تموتون»). (روم ٨/١٣) على كلٍّ، كما يشاء، أن يختار توجيه النار إلى الجسد، الدود إلى النفس، إمّا بالمعنى الحقيقيّ أو بالمعنى المجازيّ؛ أو بأن يوجّههما كليهما، دون مجازٍ، إلى الجسد، لأنّي برهنت، بما فيه الكفاية سابقًا، عن أنّ الحيوانات تستطيع أن تعيش في النار، تحترق ولا تفنى؛ تتعذّب ولا تموت، بأعجوبة من قدرة الخالق؛ وكلّ مَن لا يعترف له بهذه القدرة يجهل خالق كلّ ما يروقه في الطبيعة؛ لأنّ الله ذاته هو الذي خلق كلّ عجائب هذا العالم، كبيرة أو صغيرة؛ أشرنا إليها سابقًا؟ وهنالك عجائب أكثر احتفظنا بالصمت تجاهها؛ وهو الذي ضمّنها كلّها في وحدة هذا الكون، أكثرها إثارة للعجب بين كثير من مثيلاتها. على كلّ إنسان، حسب ما يشاء، أن يختار إلحاق الدود بالجسد دون سواه أو مَجَازيًّا بالنفس. أمّا حقيقة الاختيار فالحادث هو الذي يقرّر ذلك في الوقت الذي لن يعود علم القدّيسين بحاجة إلى اختبار تلك العذابات؛ وحيث الحكمة التامّة والكاملة كافية

لمعرفتها. الآن معرفتنا لها جزئيّة بانتظار مجيء الكمال» (١ قور ١٣/٩) فلنكتفِ إذًا برفضٍ، أقلّه، لحالة جسديّة مستقبليّة مفترضةٍ تنفي عذابات النار.

١٠

إن كانت نار جهنّم نارًا ماديّة فهل تستطيع أن تنال من الشياطين؟

هنا مسألة عارضة: إن كانت النار غير ماديّة كألم النفس بل كانت نارًا محسوسة تنسحب عنها اليد وتستطيع أن تعذّب الأجساد فكيف يمكنها أن تكون عذابًا للأرواح الشرّيرة؟ لأنّها هي النار عينها التي تنال من الناس والشياطين على حدّ قول المسيح: «إذهبوا عنّي يا ملاعين إلى النار الأبديّة المعدّة للشيطان وملائكته» (متّى ٢٥/٤١). إن توقّفنا، عند رأي علماء كثيرين، وقبلنا به فللشياطين أيضًا أجسادٌ مكوّنة من طبيعة معيّنة، مركّبة من هواء سميك ورطب، يتحرّك عند كلّ هبّة ريح. وفي الواقع، إن لم يكن ذاك العنصر الخاصّ مؤهّلًا للتأثّر بالنار، فلا يمكنه أن يكون مُحرِقًا عندما يسخن في الحمّام؛ ولكي يكون مُحرقًا يجب أن يكون قابلًا للاحتراق ويتسبّب بما يتأثّر به. وإذا أنكرنا وجود أجساد الشياطين، نوفّر على أنفسنا مشقّة مساعٍ مضنية أو التزام مناقشة طويلة وعنيدة. وفي الواقع، مَن ذا الذي يمنعنا عن القول إنّ الأرواح التي لا جسد لها، تتحمّل عذابات جسديّة، بشكل حقيقيّ وعجيب، طالما أنّ عقل الإنسان الذي ليس جسديًّا يمكن أن ينحصر في أعضاء جسديّة ويمكن أن يرتبط بها، فيما بعد، بربط ثابتة، غير قابلة للانحلال؟ وعليه، إن كانت أرواح

الشياطين غير جسديّة أو بالأحرى إن كانت الأرواح الشيطانيّة التي لا أجسام لها ترتبط مستقبلًا بنيران جسديّة، تعذيبًا لها، فلا تحيي تلك النيران وتحوّلها بحكم اتّحادها الوثيق إلى كائنات حيّة مكوّنة من نفوس وأجساد بل أقول تكرارًا إنّها، انطلاقًا من ذلك التعانق الفائق الوصف والرهيب، تأخذ من تلك النيران، العذاب ولا تعطيها الحياة. إنّ الاتّحاد الحاليّ بين الأرواح والأجساد الذي تنشأ عنه الطبيعة الحيوانيّة لعجيبة مذهلة لا يدركها الإنسان؛ ومع ذلك فهي الإنسان، كلّ الإنسان.

وأقول أيضًا إنّ الأرواح تحترق بمعزل عن أجسادها كما يحترق في النيران ذلك الغنيّ صارخًا: «إنّي أتعذّب في هذا اللهيب» (لو ١٦/ ٢٤) غير أنّ الجواب يقول إنّ ذلك اللهيب هو من طبيعة تلك الأعين التي يرفعها إلى لعازر وذلك اللسان المرطّب بنقطة الماء وإصبع البارّ الحاملة الخير إليه؛ وهذا يحدث حيث الأنفس بلا أجساد. وعليه، فتلك نار غير مادّيّة تحرقه ونقطة ماء غير مادّيّة يطلبها شبيهة بالأحلام أو بالهذيان، رؤى غير مادّيّة ترسم صور الأجساد التي يرى الإنسان ذاته فيها، في الروح، لا في الجسد، شبيهًا جدًّا بجسده الذي يستحيل عليه أن يتميّزه. بيد أنّ ذلك «العذاب» وذلك المستنقع من «النار والكبريت» يكون نارًا جسديّة تعذّب أجساد الهالكين، بشرًا وشياطين، أجسادٌ صلبة لأولئك وأجساد هوائيّة لهؤلاء أو أجساد البشر مع أرواحهم؛ والأرواح نفسها غير الجسديّة، الأرواح الشياطين التي تتعذّب بلقاء النار دون أن تعطي الحياة لأنّ نارًا واحدة تكون للجميع؛ وذاك هو كلام الحقيقة.

١١

النسبة الوقتيّة بين الإهانة والعقاب

إنّ أخصامًا لمدينة الله يرون، في المسألة، ظلمًا، لأناس يرتكبون جرائم، في برهة من الزمن، وإن كبيرة، فيطالهم عقاب أبديّ؛ كما لو أنّ عدل الله يبغي قياس مدّة العذاب، استنادًا إلى مدّة الجريمة أو الإثم. يضع شيشرون، بحسب القوانين، ثمانية أنواع للعذابات: التعويض، الحبس، الجلد، الثأر، الإذلال، النفي، الموت، الاستعباد. ومن بين تلك العذابات كلّها، هلّا نجد ما يقيس سرعة الانتقام على سرعة العمل الأثيم ويحصر العقاب في الحدود الدقيقة للعمل الإجراميّ؟ قد يكون ذلك في الثأر دون سواه الذي ينزل بالمجرم العقاب الذي أنزله بالمغدور: «العين بالعين والسنّ بالسنّ». (أح ٢٤/ ٢٠) تقول الشريعة. ومن الممكن أن تتساوى في السرعة قسوة الانتقام مع سرعة اليد الشرسة التي اقتلعت عين الإنسان الآخر. ولكن، إنّ أمر العقل بالانتقام جلدًا لقبلة أثيمة زانية ألا تترك ساعات التعذيب آلامًا طويلة، مقابل لذّة خاطفة؟ والحكم الذي يقضي بالسجن أيوقف المجرم لوقتٍ مساوٍ للوقت الذي نفّذ فيه المجرم جريمته التي استحقّ بها ذلك العقاب؟ أوليس من العدل أيضًا أن يكفّر العبد عن الضربة السريعة التي جرح بها معلّمه، خلال سنوات طويلة من الأسر؟ ماذا أقول؟ التعويض والنفي والمهانة والعبوديّة المنزلة، عادة، دون أيّة رأفة تخفّف من العقاب؛ أليست كلّها بالنسبة إلى الحياة القصيرة شبيهة بالعذابات الأبديّة؟ لا يمكنها أن تكون أبديّة لأنّ الوجود، الذي تنزل به، محدود زمنيًّا؛ على أنّ

الانتقام طويل والعدل يمارس على الجرائم التي ارتكبت في برهة من الزمن؛ ولم يخطر قطّ على بال الإنسان أن يقيس سرعة العذابات المحكوم بها بسرعة جريمة القتل أو الزنى أو انتهاك القدسيّات والقياس بالوقت دون النظر إلى فظاعة الجرم ومدّة العذابات. وعندما يُنزل الموت بمجرم كبير، فهل تضع القوانين العذاب في برهة تنفيذ الحكم التي لا تقاس أم في حرمانه إلى الأبد من مجتمع الأحياء؟ غير أنّ إخراجه من مدينة البشر الصائرين إلى الموت بعذاب الميتة الأولى أليس شبيهًا بإخراجه من مدينة الخالدين في الموت الثاني؟ إنّ قوانين المدينة الأولى لا تعيد إليها المجرم المحكوم عليه بالموت، كما أنّ قوانين المدينة السماويّة لا تعيد إلى الحياة الأبديّة الإنسان المحكوم عليه بالموت الثاني. ولكنّهم يهتفون، أين هي حقيقة كلام مسيحكم: «بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم». (لو ٦/٣٨) إن كانت الخطيئة الزمنيّة تستوجب عقابًا أبديًّا؟ وما من أحدٍ يرى أنّ ذلك القياس عينه، لا يفرض أن تتساوى المدّة بين الجريمة والعقاب بل القسوة الشرعيّة لردّة الفعل؛ وبكلام آخر، يجب التعويض عن العمل الشرّير بالعقاب الأليم وإن أمكنَ فهمُ كلمة الربّ تلك، بالمعنى الحقيقيّ، أي بمعنى الأحكام والعقوبات. وعلى هذا النحو فكلّ مَن يدين ويحكم ظلمًا يُحاكم ويُدان بعدل، فينال بالمقياس ذاته ولا ينال بموجب ما أعطى. إنّه يعاقب بموجب الحكم الذي أصدره، بيدَ أنّ الحكم الظالم الذي أصدره يعوَّض عنه بالحكم العادل الذي يقاسيه.

١٢

فداحة الخطيئة الأولى تقود إلى العقاب الأبديّ جميع الذين لم يستفيدوا من نعمة المسيح المخلّص

لكنّ عقابًا أبديًّا لا يبدو قاسيًا وظالمًا للإنسان الضعيف الصائر إلى الموت، إلّا لأنّ معنى الحكمة السامية والكلّيّة النقاوة التي بواسطتها يدرك فظاعة الخطيئة الأولى، ينقصه. بقدر ما كان الإنسان يتمتّع بالله، بقدر ذلك يتعاظم كفره بالله، ويصبح جديرًا بشرٍّ أبديّ، يقضي فيه على خيرٍ قد يكون أبديًّا. ومن هنا نتجت الدينونة العامّة للجنس البشريّ لأنّ المجرم الأوّل قد جرَّ ذرّيّته بأسرها إلى العذاب لأنّها كانت فيه كما في الأصل؛ ولم يعد أحد معصومًا من ذاك العذاب العادل والحقّ، إلّا إذا تحرَّر بعطيّة النعمة التي لا يستحقّها، وذاك هو نصيب البشر، فتلحظ بوضوح في بعضهم قوّة الرحمة بأكملها، وفي البعض الآخر عدالة الانتقام؛ إذ لا تستطيع كلتاهما أن تظهرا في الكلّ: إن كانوا جميعًا مرتبطين بعذابات حكمٍ عادل، فلا أحد يبيّن صرامة العدالة؛ وإذا طالب الثأر بما هو أكبر من الغفران فلكي يبيّن ما يجب على العدل تجاه الكلّ؛ لأنّه إذا كان العدل مؤمَّنًا، بدقّة، للجميع، فلا يبقى لأحدٍ الحقّ باتّهام العدالة، ولكن بما أنّ الكثيرين قد خلصوا، فبأيّ أفعال شكرٍ لا نرتفع حقًّا إلى رأفة المحرّر؟

١٣

العقاب، بعد الموت، ليس للتطهير

تا الأفلاطونيّون فلا يرضون، حقًّا، أن تبقى خطيئة بلا
؛ ولكنّهم لا يقبلون، في مجموعة الشرائع البشريّة أو
أن تكون عقابات لإصلاح المجرمين، في هذه الحياة، أو
وت، استنادًا إلى ما يكون الإنسان قد نال في هذ الحياة
و رفض تجربة غير كافية. وحين يقدّم إلينا فيرجل
اد الأرضيّة والأعضاء الميتة» (*Eneîde VI*, 733-742) التي
نها إلى النفس «وما بها من خوف ورغبات وآلام وأفراح
الأسر القاتم المظلم، في ذلك السجن الأعمى، الذي
الهواء» ويضيف: «وحين تتخلّى الحياة عن النفوس في
الأخيرة أي في اليوم الأخير حين تنسحب هذه الحياة من
نفوس، مع ذلك فلا تفضح كلّ ما فيها من شقاء ولا
للحال كلّ ما فيها من أوساخ جسديّة. من الضروريّ
ّ العيوب المتجذّرة تتّخذ فيها نموًّا جديدًا؛ لقد امتحنت
وكفّرت هكذا عن جرائمها السالفة، بعضها معلّق بتقلّب
وبعضها الآخر غارق في هاوية سحيقة؛ المياه تجرف،
يُحرِقُ ما بقي من الجرائم».

يقبل أصحاب هذا الرأي سوى العذابات المطهّرة بعد
وكما أنّ الماء والهواء والنار هي عناصر أسمى من
يريدون أن يكون أحد تلك العناصر صالحًا للعذابات
يّة محوًا للأوساخ الأرضيّة. ويشير إلى الهواء بهذه

الأبيات: «معلّقة على تقلّبات الرياح؛ والماء تعني «الهاوية السحيقة» والنار معروفة باسمها الذاتيّ «النار تحرق ما بقي من جرائمهم» هل نعترف ونقرّ بأنّ في هذه الحياة الدنيا عذابات مطهّرة لا تصيب حياة مَن لا يعرفون التحسّن بواسطتها بل تزداد دائمًا ولا تنقّي إلّا مَن تردعهم وتصلحهم. وسائر العذابات الأخرى الزمنيّة والأبديّة، وبحسب ما تعالج بها العناية الإلهيّة نراها تصيب الناس، أمّا بسبب خطاياهم الماضية، أو الإنسان المعاقب الذي لا يزال رازحًا تحت ثقل الخطيئة، أو بالأحرى فإنّها تُعتَبَرُ بمثابة امتحان للفضيلة أو إعلان عنها؛ ويُنزِلها البشر أو الملائكة الصالحون أو الأشرار. وفي الواقع حين يتعذّب إنسان بسبب خطأ إنسان آخر وخبثه؛ فالخطيئة تلحق الإنسان الذي، عن ظلم، أو عن جهل ارتكب الشرّ؛ بيد أنّ الله لا يخطأ وقد سمح به بقضاء منه عادل وسرّيّ. وعلى هذا النحو، فإنّ أناسًا في هذا العالم فقط، وأناسًا آخرين بعد الموت، وسواهم في هذه الحياة أو بعدها، إنّما قبل صدور الأحكام النهائيّة القاسية، يتحمّلون عذابات زمنيّة؛ بيد أنّ العذابات الأبديّة التي يُلقى فيها الهالكون فلا تنتظر مَن يتألّمون، إلى زمن، بعد الموت؛ لأنّنا نكرّر ونقول بأنّ ما لم يُغفر لكثيرين في هذا العالم سيُترك لهم في العالم الآتي لكي ينجوا من العذابات الأبديّة.

١٤

العذابات الزمنيّة في هذه الحياة التي يمكن للطبيعة البشريّة أن تتعرَّض لها

قليلون جدًّا هم الذي يَخْلُون من العذاب في هذه الحياة؛ ولا يكفّرون إلّا بعد الموت؛ ومع ذلك، أناس كثيرون يصلون إلى شيخوخة متقدّمة، دون أن يعرفوا درجة خفيفة من الحمّى ويقضون حياة هادئة؛ أعرفهم وأعلم بذلك أيضًا؛ ومع ذلك فإنّ حياة البشر ليست بكاملها سوى تعب؛ لأنّها تعب كلّها. والأسفار المقدّسة تقول: «إنّ حياة الإنسان على الأرض تجنّد وكأيّام أجيرٍ أيّامه». (أي ٧/١) ونقص الحكمة أو الجهل، مزعج جدًّا، يجب الهروب منه، أمام أعين العقل لنوفِّر على الأولاد، المتاعب الأشدّ إيلامًا، في تعلُّم الفنون أو الآداب، وإنَّ الدرس المفروض عليهم تحت التهديد بالعقوبات مزعجٌ حتّى إنّهم ليُؤثرونَ على الدرس العقوبات التي تفرض عليهم الدرس. مَن ذا الذي لا يرتجف خوفًا، ومَن ذا الذي لا يختار الموت إن خُيّر بين الموت أو العود إلى سنّ الطفولة إذ إنّ الإنسان لا يدشّن الدخول إلى النور بالحياة بل بالدموع، الدخول إلى عدد من الآلام التي تبشّر بها، نوعًا ما، على غير علم منه. يقال إنّ زرادشت وحده ضحك لدى ولادته وتلك الضحكة الغريبة لم تبشّره بأيّ سعادة (P. *Histoire Naturelle*) لأنّه قيل، كان المخترع للعلوم السحريّة التي لم تقدّم له من أجل السعادة الباطلة في الحياة الحاضرة مساعدة على أعدائه. ملكٌ على البكتريان انهزم

أمام نينوس، ملك الأشوريّين. وهكذا فإنّ تلك العبارة الكتابيّة: «جهد عظيم خُلقَ لكلّ إنسان؛ ونير ثقيل وضع على بني آدم يومَ خروجهم من أجواف أمّهاتهم إلى يوم دفنهم في الأرض أم الجميع». (سير ٤٠/١). تلك العبارة تتوق إلى أن تتحقّق بدقّة كلّيّة حتّى إنّ الأطفال أنفسهم الذين تحرّروا في حوض التجديد من قيود الخطيئة الأصليّة الوحيدة التي تثقل عليهم، من بين عددٍ لا يحصى من الآلام التي تعذّبهم، يتعرّضون أحيانًا أيضًا لهجمات الأرواح الشرّيرة. معاذ الله أن يكون ذلك الامتحان مشؤومًا عليهم، حين تصبح تلك الهجمات مرهونة لضعف السنوات الأولى، فتنتزع النفس من الجسد وتخرجهم من الحياة.

١٥

إنّ عمل الله الخلاصيّ يهدف إلى العالم الآتي

أمّا النير الثقيل الذي يحمله أبناء آدم منذ خروجهم من بطون أمّهاتهم حتّى يوم دفنهم في حشا أمّهم المشتركة، يكشف عن الهدف الرائع الذي يبغي تنويرنا وتعليمنا أنّ حياة العذاب هذه التي نعيشها هي نتيجة الخطيئة الأولى في الفردوس وأنّ كلّ ما يعدُّه العهد الجديد يصبو إلى تأمين الإرث الجديد في العالم الآتي وهو يقدّم لنا عربون الحقيقة التي نحصل عليها في الزمن المحدّد. والآن إذ نسير متسلّحين بالرجاء، نتكامل يومًا بعد يوم، ونميت بالروح أعمال الجسد لأنّ الله يعلم مَن له. «والذين يُقتادون بروح الله هم أبناء الله» (٢ تيمو ١٩/٢؛ روم ١٤/٨)، أبناء بالنعمة وليسوا بالطبيعة. إبن الله، وحده بالطبيعة، ابن الله،

صار، حبًّا لنا، وبرحمةٍ منه، ابن الإنسان، لكي نصير به، هو، ابن الإنسان بالطبيعة، أبناء الله بالنعمة. وإذ أصبح ثابتًا لا يتغيّر، لكي يقبلنا، أخذ طبيعتنا دون أن يتخلّى عن طبيعته الإلهيّة؛ ولبس ضعفنا؛ وإذ نقَلَنا إلى الخير فقدنا، بالاشتراك بعد ميتوتته وبرّه، كلّ ما فينا من خطيئة وموت، لكي نبقى في الخير ونُحفظ في صلاح طبيعته الإلهيّة. بخطيئة إنسان واحد سقطنا في الشرّ وببرّ إنسان واحد، الذي هو الله الإنسان، ارتفعنا إلى الخير الأسمى؛ ولا يحقّ لأحد أن يتأكّد أنّه تخلّى عن الإنسان الأوّل في سبيل الثاني قبل دخوله في الميناء الأمين حيث تبطل التجربة؛ وقبل الحصول على السلام الذي تسعى إليه ظروف الحرب القاسية حيث الروح يطلب ما هو ضدّ الجسد والجسد يطلب ما هو ضدّ الروح. ولو انّ الطبيعة البشريّة تثبت على ما كانت عليه من استقامة أصليّة لما كانت تلك الحرب؟ ولكنّها في سعادتها رفضت السلام مع الله وقبلتْ، لشقائها، الحرب مع ذاتها. على أنّ ذاك الشرّ، على فظاعته، لا يزال أفضل من حال اللامبالاة القديمة لأنّه من الأفضل محاربة الرذيلة على الاستسلام لها سلميًّا.

الحرب، مع الأمل بالسلام الأبديّ، أفضل من العبوديّة دون العمل على الخلاص. بكلّ تأكيد، إنّنا نرغب في إنهاء هذه الحرب وفي أن يرفعنا لهيبُ الحبّ الإلهيّ إلى ذلك النظام الثابت اللامتغيّر من السلام والاستمرار الذي يعطي الحقائق السامية الأفضليّة على ما دونها من حقائق. ولكن إن لم يكن التوقُ إلى مثل ذلك الخير سوى حلم (وهذا ما لا نرضاه) فإنّنا نفضّل النزاعات الأبديّة في الصراع الثنائيّ على الاستسلام بلا مقاومة إلى شهواتنا الطاغية.

١٦

قوانين النعمة التي تحكم كلّ مرحلة في حياة التجديد

تلك هي رأفة الله بآنية الرحمة التي يُهيِّئها للمجد في ولادة الإنسان الأولى والثانية، إحداهما خاضعة لسلطان الجسد بلا مقاومة؛ والأخرى؛ حيث العقل لا يبدي أدنى مقاومة، ولا تتقدّم على الأولى إلّا بالقدرة على النطق؛ وحيث لا يزال العقل الضعيف العاجز يطلب، أمام الانحرافات العاطلة، مجالًا للتسلّط؛ وإذ تلفظ الأولى أو الثانية أنفاسها لدى مشاركتها في أسرار الوسيط وتنتقل من سلطان الظلمة إلى مملكة المسيح دون أن تسلَّم إلى العذاب الأبديّ فإنّها لا تخضع لدى خروجها من هذه الحياة لامتحان النار المطهّرة لأنّ التجدّد الروحيّ، وحده، كافٍ لأن يمنع الأذى، بعد الموت، الذي يتسبّب به الاتّحاد بين الولادة الجسديّة والموت. ولكن، عند بلوغ سنٍّ معيّنة، يصبح فيها العقل قادرًا على الإدراك وعلى الالتزام بسلطان القانون؛ حينذاك يجب الدخول في عراك مع الرذائل والمقاومة ببطولة، تجنّبًا للخطايا التي تقود إلى الهلاك. ومن ثمّ، فإنّ الغرائز الفاسدة، إن لم تكن قد تنشّطت بما أحرزته من الانتصار الذي تكرّر لها، فمن السهل التغلّب عليها؛ ولكن، إن تعوّدت الانتصار والسيطرة فالتغلّب عليها يكلّف غاليًا؛ ولن يكون النصر شرعيًّا وصحيحًا، إلّا إذا كان عن محبّة للبرّ الحقيقيّ؛ وهذه المحبّة هي الإيمان بالمسيح الذي يوحي بها. وفي الواقع إنّ ما تأمر به الشريعة يثير، عن طريق التحريم، الشهوة الأثيمة، إذا

غاب عنها الروح؛ وهذه الشهوة إذا انتصرت، تزيد الإثم من خلال مخالفة الشريعة. ونرى أيضًا عيوبًا تخنقها عيوب أخرى خفيّة، يظنّها الإنسان فضائل في النفوس، التي تسيطر عليها الكبرياء؛ وهذا التلذّذ، بحدّ ذاته، هو نوع من الصنميّة المتعجرفة والمدمّرة؛ ولهذا لا يجوز اعتبار الرذائل مهزومة إلّا بقدر ما تكون محبّة الله مسيطرةً عليها؛ وهذه المحبّة هي عطيّة من الله، دون سواه؛ ولا يعطيها إلّا بواسطة الوسيط الإلهيّ إلى الناس، يسوع المسيح الإنسان، الذي أحبّ أن يشاركنا في الموت ليشركنا بألوهيّته؛ وقد لا نجد نفوسًا مختارة أُعطيت السعادة السامية التي تجعلها في حمى من كلّ خطيئة مميتة؛ والتي حُفظت، في سنّ المراهقة الأولى، من الإثم ومن الفجور المزدوج للحواسّ والكفر فنفضت بواسطة النعمة الروحيّة الفيّاضة على كلّ ما تثيره الشهوة الجسديّة من انتفاضات؛ وإذ يَقبَلُ معظمُ الناس ما يأمر به القانون نراهم يسقطون أمام هجمات الرذيلة ويخالفون الشريعة ثمّ يتوسّلون مساعدة النعمة التي تضاعف من مرارة الندامة والاندفاع الجريء وتجعل الروح خاضعًا لله لكي تعيد إليه سلطته على الجسد. على أنّ مَن يرغب في اجتناب العذابات الأبديّة لا يكتفي بالعماد بل يجب عليه، بعد أن يتبرّر بالمسيح، أن ينتقل حقًّا من الشيطان إلى المسيح؛ ولا يظنّنّ أنّ عذابًا ما مطهّرًا يسبق الدينونة الأخيرة والرهيبة. ولكنّنا لا نستطيع أن ننكر أنّ النار الأبديّة، تتفاوت حدّتها أو خفّتها بحسب درجات الخطيئة. سواء أكان عنف القصاص أو شدّته يتغيّر بنسبة تنوّع الاستحقاقات؛ أو أنّ النار المحرقة لا تتسبّب للجميع بعذابات متساوية.

١٧

رأي القائلين بمحدوديّة العقاب

وعليّ الآن أن أقاوم، بهدوء، تلك الرحمة التي يدعو إليها مَن يرفضون الاعتقاد بالعذابات الأبديّة. هؤلاء كلّهم أو بعضهم، أمام حكم القاضي، المتسامي بعدله، يزعمون أنّهم بعد، زمن محدود، يطول أو يقصر، وبحسب الجرائم التي ارتكبوها، يُدعَون إلى الخلاص، على سبيل الرأفة؛ وهي دون ما ينادي به أوريجانوس القائل بأنّ الشيطان وملائكته سوف يتحرّرون، مستقبلًا، بعد أن يكفّروا عن شرورهم على مدى طويل وقاس، ثمّ يدخلون، نهائيًا، مصاف الملائكة القدّيسين؛ لكنّه رأي مضلّ، فضلًا عن ذاك الذي يقول إنّ النفس تمرُّ في حركات زمنيّة تعرف فيها السعادة والشقاء، وهذا الرأي أنزل بأوريجانوس حرمًا كنسيًا عادلًا. وفي الواقع، أين هي الرحمة في الحكم على القدّيسين بعذابات أبديّة تكفيريّة وحقيقيّة وسعادة باطلة، رافضًا لهم فرحًا حقيقيًا وطمأنينة في الحصول النهائيّ وإلى الأبد على الخير الأسمى؟ إنّ ذاك الخطأ في فهم الرحمة البشريّة الرافضة لعذاب زمنيّ يقاسيه الناس المحكوم عليهم في الدينونة الأخيرة ويدّعي جميعهم، بعد خلاص، يطول أو يقصر وقته، إلى سعادة أبديّة. إن كان هذا الرأي جيّدًا وصحيحًا لكونه رحيمًا ألا يزداد جودة وحقًّا كلّما ازداد رحمة؟ وأن يقبل ينبوع الرحمة ذاك بأن يمتدّ ويفيض على الملائكة الأشرار أيًّا يكن عددهم؛ والمدّة الزمنيّة اللازمة لامتحانهم، وأن يشمل الطبيعة البشريّة بأسرها، وأن

يصل إلى الطبيعة الملائكيّة ثمّ يجفّ للحال! فإنّ تلك الشفقة لا تجرؤ على أن يتابع أو تبلغ تحرير الشيطان من أسره. ولكنْ، إن تابع أحدٌ المسيرة حتّى ذلك الحدّ، يفوق الآخرين، شفقةً، إنّما يقتنع بضلاله الذي يزداد شرًّا ومناقضة لاستقامة الكلمة الإلهيّة، بقدر ما يوهم نفسه بالرأفة السمحاء.

١٨

رأي القائلين بأنّ جميع البشر يخلصون من الهلاك بشفاعة القدّيسين

وهنالك مَن عرفتهم، من خلال أحاديثهم، يُخفون سلوكهم الذي يستوجب اللوم تحت ظواهر الاحترام للكتاب المقدّس؛ ويدافعون عن قضيّتهم الشخصيّة حين يغالون في الكلام عن رحمة الله تجاه الجنس البشريّ؛ يقولون إنّ التهديدات الإلهيّة للأشرار والكفرة حقيقيّة لكون أولئك البشر يستحقّون العقاب إنّما يزعمون أنّ الرأفة، ساعة الدينونة، تنتصر، قائلين إنّ الله يعطيهم استجابةً لصلوات قدّيسيه وشفاعتهم؛ ولو كان القدّيسون يصلّون لأجلهم وهم يُضطَهدون، فكم بالحريّ يفعلون ذلك من أجلهم وهم يستشفعونهم، متوسّلين على أقدامهم، بتواضع؟ وفي الواقع هل يصدَّق أنّ القدّيسين يحبسون شفقتهم عندما يصيرون في تلك الحال من القداسة والكمال؟ حين كانوا بلا خطيئة كانوا يصلّون لأعدائهم؛ فهل يمنعون صلواتهم عمَّن يتضرّعون إليهم ساعة لم يعودوا قادرين على ارتكاب خطيئة؟ وهل يصمُّ الله أذنيه عن صراخ تلك العائلة الكبيرة والممجَّدة حين تترك قداسة أبنائه

لصلواتهم كلّ طاقاتها؟ إنّ الرأي الذي سبق ذكره، القابل، للتكفيرات الطويلة، بالألم، ينهي كلامه قائلًا بخلاص الكفرة النهائيّ متسلّحًا بما جاء في المزمور: «أنسي الله الرأفة أم حبس على الغضب أحشاءه؟» (مز ٧٦/ ١٠) ولا سيّما وأنّ أصحاب الرأي الذي أقاومه الآن يستعينون بذاك المقطع لمصلحتهم قائلين إنّ غضب الله عدل يقضي على جميع الذين لا يستحقّون السعادة الأبديّة بالعذابات الأبديّة ولكن، لكي لا يسمح لهم بأيّ عذاب، مهما يكن قصيرًا، ألا يجب أن يحبس على الغضب أحشاءه؟ وهذا ما لن يحدث أبدًا؛ لأنّه على حدّ قول صاحب المزامير لا يقول: «هل يحبس غضبه الرحمة لمدّة طويلة؟» بل «هل يحبس رحمته» وبحسب رأيهم، وإن لم يكن الله مستعدًّا للحكم على أحد فإنّه، إذ يهدّد بالحكم، فلن يكون أقلّ من تهديد لنينوى بالخراب. ومع أنّ التهديد مطلق، فلم ينفذ: «سوف تخرب نينوى إن لم تصنع توبة وتصحّح وضعها؛ ودون أيّ شرط ينبئ بخرابها. إنّه لتهديد حقيقيّ بمعنى أنّ الله ينذرهم بالعقاب الذي يستحقّونه؛ وإن اكتفى بالتهديد. ويضيفون: إن غفر الله لأهل نينوى التائبين فهذا يعني أنّه كان عارفًا بندامتهم مع أنّ الإنذار صريح ونهائيّ. ومن ثمّ فهو مقيم على الحقّ والعدل لأنّ أولئك الناس يستحقّون العقاب ولكن، ليس من منطق رحمته ألّا يحبس غضبه، فيرفع العقاب تجاوبًا مع الدموع التي تتوسّل إليه. وعليه فإن كان يسامح مع أنّ الغفران يثير غضب نبيّه، فكم يسهل الحصول على رحمته التي تتجاوب مع أدعية قدّيسيه المشاركين للتائبين في تضرّعاتهم إليه؟ إنّما يفترض خصومنا في سرّهم أنّ الكتاب المقدّس الذي يلتزم الصمت تجاه هذا الغفران يريد أن

يصل الكثيرون إلى التوبة عن طريق الخوف من العذابات الأبديّة وأن يصلّي الكثيرون أيضًا لأجل الذين لا يتوبون؛ ولكنّهم لا يقولون إنّ الكتاب احتفظ بصمت مطلق. أيَّ شيءٍ ينتظرون من العبارة التالية: «ما أعظم جودتك التي ادّخرتها للمتّقين لك وجعلتها للمعتصمين بك تجاه بني البشر»؟ (مز ٣٠/ ٢٠) وماذا يعني ذلك القول سوى أنّ ملذّات الرحمة الإلهيّة الخفيّة تبقى خفيةً على الإنسان لكي تبقى في جوّ من المخافة؟ ذاك هو المعنى الذي يعطونه أيضًا لكلمة الرسول: «إنّ الله أغلق على الجميع في الكفر ليرحم الجميع» (روم ١١/ ٣٢) أي إنّه لن يهلك أحدًا؛ على أنّ الذين يجاهرون بذلك الرأي لا يبسطون الرحمة الإلهيّة على خلاص الشيطان وملائكته. تلك هي رحمة بشريّة وحسب؛ لا يشعرون بها إلّا تجاه البشر؛ ويدافعون عن قضيّتهم الشخصيّة، بنوع خاصّ، حين ينظرون إلى النعمة التي يترأّف بها الربّ على الجنس البشريّ بأسره؛ ويعدون أنفسهم الفاسدة بصفح خدّاع.

ولكنّ هؤلاء يزايدون على أولئك بإعلان الرأفة الإلهيّة حين يبسطون الصفح على ملك الشياطين وزبانيته.

١٩

رأي القائلين بأنّ الهراطقة أيضًا ينجون من العقاب بفضل اشتراكهم بدم المسيح

آخرون يعدون بالخلاص من العذابات الأبديّة، إن لم يكن جميع الناس، فأقلّه الذين اغتسلوا بمياه العماد وشاركوا في جسد

المسيح وأيًّا كانت حياتهم وسقطوا في بدعة أو إثم؛ ويتذرّعون بكلمة الربّ التالية: «هذا هو الخبز النازل من السماء لكي لا يموت كلّ مَن يأكل منه. أنا الخبز الحيّ النازل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد». (يو ٦/ ٥٠-٥١) وعليه، يقولون إنّه من الضروريّ أن ينجُو أولئك الناس من الموت الأبديّ ويصلوا يومًا ما إلى الحياة الأبديّة.

٢٠

الإيمان بأنّ الخلاص مؤمّن للكاثوليك الذين يسامحون بالرغم من جرائمهم وأخطائهم

كما أنّ آخرين يرفضون تلك النعمة عن كلّ معمّد شارك في جسد يسوع المسيح ويحصرونها بالكاثوليك وحدهم؛ وإن لم يحيوا حياة جديرة بالاحترام إذ إنّهم لم يشاركوا فقط في جسد المسيح السرّيّ بل تناولوا جسد المسيح الحقيقيّ وأصبحوا أعضاء في جسده فقال عنهم الرسول: «السنا جميعنا سوى خبز واحد وجسد واحد». (١ قو ١٠/ ١٧) حتّى ولو سقطوا في المستقبل في بدعة أو عبدوا الأصنام؛ وبما أنّهم قبلوا العماد وتناولوا جسد المسيح فلا يموتون إلى الأبد بل سيحصلون يومًا ما على حياة الأبد؛ ولا يمكن لفظاعة كفرهم أن تتسبّب لهم بعذاب أبديّ إنّما تطيل عذاباتهم وتزيد منها.

٢١

الاعتقاد بأنّ جميع الذين اعتنقوا الإيمان الكاثوليكيّ يخلصون مهما عملوا من سيّئات

وآخرون أيضًا ينطلقون من كلمة الإنجيل هذه: «مَن يثبت إلى المنتهى يخلص». (متّى ٢٤/ ١٣) فلا يقبلون بالخلاص إلّا للذين ظلّوا أمناء للوحدة في الكنيسة الكاثوليكيّة وإن كانوا قد شكّكوها في حياتهم؛ واستنادًا إلى ذلك الرأي فإنّ خلاصهم يتحقّق بالامتحان في النار، ولمَا استحقّه لهم حجر الزاوية الذي قال عنه الرسول: «إذ لا يستطيع أحد أن يضع أساسًا غير الموضوع وهو يسوع المسيح. فإن كان أحد يبني على هذا الأساس ذهبًا أو فضّة أو حجارة ثمينة أو خشبًا أو حشيشًا أو تبنًا فإنّ عمل كلّ واحد سيكون بيّنًا لأنّ يوم الربّ سيظهره إذ يعلن بالنار وستمتحن النار عمل كلّ واحد ما هو. فمَن بقي عمله الذي بناه على الأساس فسينال أجره ومَن احترق عمله فسيخسر إلّا أنّه سيخلص ولكن كما يخلص مَن يمرّ في النار». (١ قور ٣/ ١١-١٥) وعلى هذا النحو، وبحسب أصحاب هذا الرأي، فإنّ المسيحيّ الكاثوليكيّ، أيًّا تكن حياتُه، فأساسه المسيح؛ وهو أساس ينقض كلّ بدعة خرجت عن وحدة جسد المسيح. وبقوّة ذاك الأساس، وعلى ما في الحياة من فوضى، فإنّ المسيحيّ الكاثوليكيّ الذي يبني بيته على الصخرة، الأساس، من خشب أو حشيش أو قشّ يخلص بالنار؛ أي إنّه يتخلّص من لهيبها الذي يحتفظ به القضاء الأخير للأشرار.

٢٢

الاعتقاد بأنّ الصدقات تنجّي من العذابات الأبديّة

وإنّي لأعرف أيضًا كثيرين يقولون بالعذابات الأبديّة للذين يهملون التعويض عن خطاياهم بالصدقة على حدّ ما يقول يعقوب الرسول: «إنّ الدينونة بلا رحمة تكون على مَن لا يصنع رحمة». (يع ٢/ ١٣). وعليه فإنّ الذي يصنع رحمة، وإن لم يكن قد أصلح أخلاقه وجمع بين ممارسة الرحمة وعادات حياة أثيمة ومخجلة، فذاك يجد رحمة يوم الدين، سواءٌ أنجا من كلّ قضاء أم حصل على النجاة بعد أن كفّر لمدّة طويلة أو قصيرة. وينظر أولئك أيضًا، فحين يحكم ديّان الأحياء والأموات للذين، إلى يمينه، بالحياة الأبديّة وللذين إلى يساره، بالعذاب الأبديّ، فإنّ كلماته تستند إلى صدقات صنعوها أو صدقات امتنعوا عنها. وكذلك فإنّهم يحصرون بالصدقة الصلاة اليوميّة التي تتلى يوم الأحد وتقول: «أترك لنا ديوننا كما نحن نترك لمَن أساء إلينا». (متّى ٦/ ١٢) وكلّ مَن يغفر ويترك للآخر ما أساء به إليه يمارس الصدقة ولا شكّ؛ وذاك هو الصفح الذي أوصانا به ربّنا بشكل صريح فقال: «إن غفرتم للذين أساؤوا إليكم فأبوكم يغفر لكم زلّاتكم وإن لم تغفروا فأبوكم لا يغفر لكم شيئًا». وينطبق، على هذا النوع من الصدقات، كلمة القدّيس يعقوب: «الدينونة بلا رحمة تكون على مَن لا يصنع رحمة». والربّ لدى سماعهم لا يميّز بين الخطايا الكبيرة أو الصغيرة «أبوكم يغفر لكم زلّاتكم إن غفرتم لمَن يسيءُ إليكم». فيستنتجون، استنادًا إلى تلك الصلاة

اليوميّة، أنّ الخاطئ وإن عاش في فوضى حتّى اليوم الأخير، تُترَكُ له خطاياه، كلّ يوم، مهما كانت فظيعة، شرط أن يتذكّر أيضًا أنّ الصفح مطلوب منه من كلّ قلبه تجاه مَن خطئ إليه. آراء كثيرة ومتعدّدة سأقوم بدراستها، بعون الله، وأنهي هذا المؤلَّف.

٢٣

عدم القبول بأنّ الخلاص يشمل أيضًا الشياطين

وفي بداية الأمر علينا أن نسعى إلى معرفة السبب الذي لم تقبل الكنيسة به فرفضت إمكانيّة، تطهُّر الشيطان ونيل الرضى بعد المقاساة لعذابات طويلة ومضنية. وأخيرًا لأنّ قدّيسين كثيرين تعمّقوا في درس الكتاب المقدّس في عهدَيه القديم والجديد، ولم يغاروا من الملائكة، أيًّا كانوا، من حيث العدد والعظمة، بعد مقاساتهم لعذابات قاسية وكثيرة لكونهم استعادوا برارتهم وحُظوا بالسعادة في السماء؛ وهذا، لكونهم تراجعوا أمام قرار الربّ المعلن الذي سوف يلفظه في الدينونة الأخيرة: «أبعدوا عنّي يا ملاعين إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكته». (متّى ٢٥/ ٤١) ويصرّح هكذا بأنّ الشيطان وملائكته يحترقون في النيران الأبديّة. وهذه الكلمة من رؤيا يوحنّا: «فهبطت نار من السماء وأكلتهم وطرح إبليس الذي أضلّهم في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبيّ الكذّاب. هناك يعذّبون نهارًا وليلًا إلى دهر الدهور». (رؤ ٢٠/ ٩) «فوق أبديّ» وهنا «إلى دهر الدهور» وهي ألفاظ مترادفة تعوّد الكتاب المقدّس أن يعبّر فيها عن المدى الذي لا نهاية له. ولا سبب آخر؛ ولا يمكننا أن نجد

سببًا أصحّ وأوضح منه لهذا الاعتقاد الثابت واللامتغيّر بأنّ التقوى الصحيحة تقاوم عودة إبليس وزبانيته إلى البرّ وإلى حياة القدّيسين سوى السلطة الصادقة التي يتمتّع بها الكتاب المقدّس الذي يؤكّد أنّ الله لم يغفر لهم بل أوقفهم وقد أعدّوا مسبقًا للهلاك في سجون الجحيم المظلمة لكي يسلّمهم، ساعة يحين زمن العدل الأسمى، إلى النيران الأبديّة حيث يعذّبون إلى دهر الدهور. وإن كانت الحال على هذا النحو فكيف ينجو من العذاب الأبديّ، بعد أيّ تكفيرٍ كان، جميع الناس أو بعضهم دون الحطّ من قيمة الإيمان الذي يقول بأبديّة عذاب الشياطين؟ وفي الواقع إن وجب على مَن يقال لهم: «أبعدوا عنّي يا ملاعين إلى النار الأبديّة المعدّة للشيطان وملائكته» ألّا يبقوا جميعهم أو بعض منهم فما هو الداعي إلى الاعتقاد بأنّ الشيطان وملائكته يبقون فيه إلى الأبد؟ وهل هو من باب الصدف أو يكون قضاء الله على الأشرار من البشر أو الملائكة صحيحًا بالنسبة إلى الملائكة وخاطئًا بالنسبة إلى البشر؟ وهل يمكن أن يكون على ذاك النحو إن كانت تقديرات الناس أهمّ من كلمة الله؛ ولكن بما أنّ ذلك مستحيل فبدلًا من الدخول في خلاف مع الله فمن الأفضل لكم أن تطيعوا الوصيّة الإلهيّة قبل أن يفوت الأوان، أنتم الذين تريدون أن تتآمروا على العذاب الأبديّ. ثمّ كيف تفسّرون «هذا العذاب الأبديّ» بحياة لا تعرف نهاية حين نجد المسيح في الوقت عينه، والفكرة ذاتها، يضمُّ الاثنتين معًا قائلًا: «سيذهبون، هكذا؛ الأشرار إلى العذاب الأبديّ والأبرار إلى الحياة الأبديّة» إن كان كلاهما إلى الأبد أو كلاهما إلى زمنٍ طويل يبقيان أو يدومان إلى ما لا نهاية له؛ فالمساواة إذ ذاك تكون بين أبديّة العذاب وأبديّة

الحياة؛ ولكن، إن يقال بكلمة واحدة أنّ الأبديّة لن تعرف النهاية والعذاب الأبديّ سينتهي أليس ذلك غير معقول» ولكن، بما أنّ حياة القدّيسين لن تعرف نهاية وهذا لا يقبل الشكّ أيضًا، فهل يعرف العذاب الأبديّ نهاية؟

٢٤

رفض الرأي القائل بأنّ شفاعة القدّيسين تخلّص المجرمين

ويقود هذا التفكير، القابلين به، خدمةً لمصلحتهم، إلى مقاومة كلمة الله، في الدفاع عن رحمته، ويبنون حقيقة تهديداته، لا على تحقيقها في المستقبل، بل على إثم الناس الذين استحقّوا عدالته الصارمة. لأنّهم يقولون إنّ الله، سوف يعطيها، تجاوبًا مع شفاعة قدّيسيه، الذين يرفعون آنذاك عن أعدائهم، بكلّ ما لديهم من قداسة، صلواتٍ يثقون بفاعليّتها، وبرحمة الله؛ بحيث تكون أمنية النفوس المتحرّرة من كلّ خطيئة. ولِمَ ترفض تلك القداسة أن تساعد، بقوّةٍ، بصلواتها الطاهرة والطافحة بالرحمة، الملائكة أنفسهم الذين تنتظرهم النيران الأبديّة لكي يغيّر الله أو يتراجع عن حكمه ويوفّر عليهم ذلك العذاب؟ مَن ذا الذي يجرؤ أن يحمل إلى السيّد مزاعمه الوقحة ويدّعي بأنّ الملائكة القدّيسين سيضمّون صلواتهم إلى صلوات الأبرار الذين يصبحون منذ الآن متساوين معهم فيبعدوا عن الملائكة والناس الأشرار الهلاك الأبديّ، ويحوّلوا لمصلحتهم عدل الله إلى رأفة؟ ذاك ما قاله قطّ، وما لن يقوله، إيمان صافٍ. وإلّا، فلا شيء يمنع من أن تصلّي الكنيسة لأجل الشيطان وملائكته، هي التي يأمرها الله معلّمها بأن تصلّي

لأجل أعدائها. على أنّ ما يمنع الكنيسة من أن تصلّي، اليوم، لأجل الملائكة الأشرار، الذين تجدهم أعداء لها، هو عينه يمنعها من أن تصلّي، على الرغم من كمال قداستها، لأجل البشر، الذين حكمت عليهم الدينونة الأخيرة بعذابات نار الأبد. الآن، أنّها تصلّي لأجل أعدائها، بين الناس، لأنّ الزمان هو زمن توبة مُجدية. وفي الواقع، ماذا تطلب صلواتها لهم سوى أن يعطيهم الله، على حدّ قول الرسول، نعمة التوبة والخلاص من شراك إبليس الذي يستعبدهم على هواه»؟ (٢ طيم ٢/ ٢٥). لو كانت الكنيسة تعرف منذ هذه الحياة وتتأكّد من الذين يعدّون الذهاب إلى نار الأبد مع الشيطان لما وصلت قليلًا من أجلهم ومن دونه. ولكن بما أنّها ليست متأكّدة فإنّها تصلّي لأجل جميع أعدائها العائشين في هذا الجسد المائت مع العلم بأنّها لن تستجاب صلواتها من أجل الجميع؛ ولا تستجاب إلّا من أجل أعدائها الذين، إذ تجعلهم صلواتها أبناء للكنيسة، لكونهم أعدّوا مسبقًا لذلك. ولكن هل تصلّي الكنيسة لأجل الذين يحافظون حتّى الموت على قلوبٍ غارقةٍ في الكفر والشرّ؟ وهل تصلّي لأجل أعداء لها لن يصيروا أبناء لها؟ وهل تصلّي لأجل نفوس أولئك الموتى التعساء؟ ولماذا؟ إلّا لأنّها تضع في صفّ إبليس ذاك الذي، منذ الحياة الحاضرة لا يذهب إلى المسيح؟

وعليه، فإنّ ما يمنع من الصلاة لأجل الناس المحكوم عليهم بالنار الأبديّة يمنع إلى الأبد من الصلاة لأجل الملائكة الملاعين؛ ومنذ الآن يمنع كذلك الصلاة لأجل مَن يموتون في الكفر والعناد؛ لأنّ الله لا ينعطف إلى صلوات الكنيسة وإلى توسّلات النفوس التقيّة المقامة لأمثالهم؛ ولكنّ هذا الوضع لا ينطبق على مَن تجدّدوا

بالمسيح ولم يقضوا حياتهم في الإثم كليًّا حتّى اعتُبروا غير أهل للرأفة القصوى؛ بحيث لا تعود نافعة لهم. كما أنّ الكثيرين ينالون نعمة الخلاص من النار الأبديّة لدى قيامة الموتى بعد أن يكفّروا عن خطاياهم؛ وهل صحيح القول إنّ من الناس مَن لا يغفر لهم، لا في هذا الزمان ولا في الآتي؟ وإن كانت تلك هي الحال فهل إنّ مَن لا ينالون الغفران في هذا الزمان ينالونه في الزمن الآتي؟ (متّى ١٢/ ٣٢) ولكن بما أنّ ديّان الأحياء والأموات قال: «هلمّوا يا مباركي أبي رِثوا الملك المعدَّ لكم منذ خلق العالم»؛ وبما أنّه قال أيضًا: «أبعدوا عنّا يا ملاعين إلى النار المعدّة لإبليس وملائكته» ثمّ أخيرًا: «يذهب الكفرة إلى العذاب الأبديّ والأبرار إلى حياة الأبد» (متّى ٢٥/ ٣٤) أوليس باطلًا الإدّعاء بأنّ مَن يُعلن الله عنهم أنّهم إلى العذاب الأبديّ ذاهبون، لن يذهبوا إليه؟ أو لا يقود هذا الإدّعاء إلى الشكّ بحياة الأبد وقطع الرجاء منها؟

علينا أن ننتبه إلى كلمة المزمور: «أنسي الله الرأفة أم حبس على الغضب أحشاءه» فلا نفهمها كما لو أنّها صحيحة بالنسبة إلى الأبرار وخاطئة بالنسبة إلى الكفرة أو صحيحة بالنسبة إلى الناس الأبرار والملائكة الأشرار، وخاطئة بالنسبة إلى الناس الكفرة؛ لأنّ ذاك المقطع يتعلّق بآنية الرحمة، بأبناء الوعد؛ والنبيّ ذاته، فيقول واحد منهم: «أنسي الله الرأفة أم حبس على الغضب أحشاءه؟» ثمّ يضيف «لقد قلت هذا هو سقامي. إنّما الإحالة بيمين العليّ». وهو شرح لما قال سابقًا: «أحبس على الغضب أحشاءه؟» أليس غضب الله هو تلك الحياة ذاتها التي يصير فيها الإنسان شبيهًا بالباطل وحيث تنقضي أيّامه كالظلّ؟ وهل نراه في

هذا الغضب العارم يحبس أحشاءه؟ ألا يُشرق شمسه على الصالحين والأشرار ويمطر غيثه على الأبرار والفجّار؟ إنّ غضبه لا يحبس عن الناس رأفته؛ إنّما الأصالة بيمين العليّ. في هذه الحياة المليئة بالويلات، الحياة التي هي غضب الله، نراه يُدخِلُ تحسينًا على آنية الرحمة؛ ومع أنّ غضبه باقٍ في العمق من بؤسنا الأثيم، فلا يوقف عنّا رحمته. وعليه، فإن وَجَدَتْ حقيقةُ هذا النشيد، ها هنا، كمالها، فهل من الضروريّ بَسْطُها فوق الأماكن التي لا تختصّ بمدينة الله؟ ولكن، أن يقبل المفسّرون الداعون إلى التسامح بأبديّة الغضب على الكفرة القائل بأبديّة العذاب، وأرادوا أن تكون الرحمة ضابطةً للانتقام، مخفّفة من قسوة العذابات التي تنتظر المجرمين، لا لكي تحفظهم منها إلى الأبد أو لكي تخلّصهم منها في يوم من الأيّام فسوف تكتفي بأن تجعلها أخفّ ممّا يستحقّون. وعلى هذا النحو فإنّ غضب الله يبقى قائمًا دون أن يوقف رأفته؟ ومع أنّني لا أشجب تلك الفكرة فإنّي أظلّ بعيدًا عنها.

أمّا هذا الرأي القائل بأنّ ما جاء هو نوع من التهديد وليس تنبّؤًا حقيقيًّا: «إذهبوا عنّي يا ملاعين إلى نار الأبد». «وهؤلاء يذهبون إلى نار الأبد» (متّى ٢٥/ ٤١) «حيث يعذّبون إلى دهر الدهور» (رؤ ٢٠/ ١٠) «حيث دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ» (أش ٦٦/ ٢٤)؛ وهذا الرأي لست أنا مَن يدحضه بالتمام والكمال بل الكتاب المقدّس؛ لأنّ أهالي نينوى تابوا في هذه الحياة توبةً مجدية فزرعوا، في الحقل الذي أراده الله، بالدموع ليحصدوا بعدئذ بالفرح؛ ومع ذلك فمَن ذا الذي ينكر أنّ ما قاله الربّ عن نينوى قد تمّ حقًّا إلّا إذا نسي كيف أنّ الله يهلك

الخطأة بغضبه، أو على مثال أهالي صادوم يهلكهم بسبب خطاياهم؛ أو على مثال أهالي نينوى يقضي على خطايا الناس بالتوبة وصار تاليًا كلّ ما تكلّم الله عنه. وسقطت نينوى الأثيمة وقامت نينوى المبرّرة تلك التي لم تكن؛ وإذ بقيت بيوتها وجدرانها قائمة قضي على أخلاقها الفاسدة؛ ومع أنّ النبيّ حزن جدًّا لأنّ الحدث لم يتجاوب مع تهديدات النبوءة ومخاوف نينوى فقد تمّ كما كان مقرّرًا في العلم الإلهيّ المسبق إذ إنّ مَن أملى النبوءة كان يعرف جيّدًا أنّها سوف تتمّ في شكل ملائم.

ولكن، بغية أن يدرك أولئك البشر ذوو الرحمة العلنيّة معنى كلمة الكتاب المقدّس التالية: «يا ربّ، ما أعظم جودتك التي ادّخرتها للمتّقين لك» (مز ٣٠/ ٢٠) ليقرأوا للحال: «وجعلتها للمعتصمين بك تجاه بني البشر». وما معنى: «إدّخرتها للمتّقين لك» سوى أنّ الناس الجادّين في إقامة برهم الخاصّ على أسس الشريعة فلا طعم لجودة الله بالنسبة إليهم لأنّهم يجهلونها؛ إذ إنّهم يطلبونها في ذواتهم؛ ولهذا فإنّ ذاك الكنز من الجودة مخفيّ عليهم؛ لا شكّ في أنّهم يخافون الله ولكنّهم يخافونه خوف العبيد، دون محبّة، لأنّ كمال المحبّة تنفي الخوف «إنّه يدَّخر ذاك الكنز من الجودة للذين يرجونه فيلهمهم حبّه حتّى إذا ثبتوا إلى الأبد في ذلك الحبّ المقدّس الذي لا ينفيه الخوف لا يتمجّدون إلّا في الربّ لأنّ برّ الله هو «المسيح الذي أعطاناه الله، على حدّ قول الرسول ليكون لنا حكمة وبرًّا وفداء وقداسة، كما هو مكتوب، إنّ مَن يفتخر فليفتخر بالربّ» (١ قور ١/ ٣٠-٣١). إنّ برّ الله، عطيّة النعمة الصافية، لا يعرف أولئك الذين يسعون إلى إقامة برهم ويرفضون الانصياع لبرّ الله الذي فيه «كنز

الجودة» الذي يجعل صاحب المزامير يقول: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الربّ» (مز ٣٣/ ٩) طوال سفرنا على هذه الأرض نذوقه دون أن نشبع منه؛ بنا إليه جوع دائم، وعطش دائم، حتّى نراه، كما هو والذي فيه تتمّ كلمة الكتاب: «أمّا أنا فبالبرّ أعاين وجهك وأشبع عند اليقظة بصورتك». (مز ١٦/ ١٥) وعلى هذا النحو فإنّ المسيح يدَّخر كنز الجودة للذين يرجونه؛ ولكن إن كانت رأفته، على حدّ قول الكثيرين، التي تلغي القضاء على الكافرين، هي ذاك الكنز الذي يدّخره للمتّقين له» لكي يضطرّهم، لجهلهم الصفح الآتي وخوفهم من الانتقامات الأبديّة، إلى أن يحيوا حياة حسنة ويصلّوا، هكذا لأجل أخوة لهم يعيشون بالسوء؛ وكيف يدّخر الله هذا الكنز للذين يرجونه في حين أنّ هؤلاء الحالمين يصفونه بالتساهل تجاه مَن لا يتّقونه؟ إبحثوا إذًا عن الجودة التي يدّخرها للذين يرجونه ولا تسعوا إلى تلك الجودة الوهميّة تجاه الذين يحتقرونه ويشتمونه. إذ إنّ الإنسان باطلًا يسعى، في نهاية الزمن، إلى ما أهمل الحصول عليه في ملء الزمان.

وإنّ هذه العبارة للرسول (روم ١١/ ٣٢) «إنّ الله أغلق على الجميع في الكفر ليرحم الجميع». لا تعني أنّ الله لن يدين أحدًا لأنّ ما سبق يكشف عن المعنى؛ وبينما هو يتكلّم في رسائله إلى الأمميّين عن اليهود الذين سوف يهتدون في يوم من الأيّام قال: «فكما أنّكم كفرتم حينًا بالله ونلتم رحمة من أجل كفرهم (اليهود) كذلك فإنّ اليهود أيضًا كفروا الآن لأجل رحمتكم حتّى ينالوا هم أيضًا رحمة». (روم ١١/ ٢٩-٣١) مضيفًا هذه الكلمات: «لقد أغلق الله على الجميع في الكفر ليرحم الجميع». مَن هم الجميع؟ إن لم يكونوا هؤلاء الذين يتكلّم عنهم؟ أي أنتم وهم؛

جميع اليهود وجميع الأمميّين الذين سبق وأعدّهم ليكونوا مشابهين لصورة ابنه؛ وأغلق عليهم جميعًا في الكفر حتّى إذا أعيدوا عن مرارة التوبة إلى حلاوة الرحمة الإلهيّة يؤمنون ويهتفون: «ما أعظم جودتك يا ربّ، للمتّقين لك!» ولكنّك تدّخر رحمتك للذين لا يتّكلون على ذواتهم بل عليك»؛ وهكذا فإنّه يغفر لجميع آنية الرحمة. للجميع؟ ما معنى هذا القول؟ أجل، لجميع هؤلاء الوثنيّين واليهود الذين أعدّهم ودعاهم وبرّرهم ومجّدهم؛ من هؤلاء جميعًا لا من جميع الناس، لا أحد يهلك.

٢٥

دحض الاقتراحات القائلة بأنّ الأسرار تخلّص من العقاب الأبديّ الهراطقة، والكاثوليك الخطأة أو الكاثوليك ذوي الحياة الشرّيرة

والآن فلننتقل إلى الرأي الذي لا يعد ما سبق ووعد به الشياطين وملائكته أي رفع العذابات الأبديّة عنهم؛ بل إنّه لا يشرك بهذه النعمة جميع البشر ويحصرها فقط دون سواهم بالذين تطهّروا بالعماد وتناولوا جسد المسيح ودمه سواء أعاشوا عيشة حسنة أم لا حتّى ولو كانوا قد سقطوا في بدعة أو كفر. بيد أنّ الرسول يدحض هذا الرأي قائلًا: «وأعمال الجسد واضحة وهي الزنى والنجاسة والعهر وعبادة الأوثان والسحر والعداوات والخصام والغيرة والمغاضبات والمنازعات والمشاقات والبدع والمحاسدات والقتل والسكر والقصوف وما يشبه ذلك. وعنها أقول لكم أيضًا كما قد قلت إنّ الذين يصنعون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله». (غل ٥/١٩-٢١) كاذبٌ كلام الرسول هذا إن

حصل هؤلاء الكفرة على ملكوت الله، بعد التكفير المطلوب. ولكن، بما أنّ هذا الكلام هو الحقيقة عينها، فمن الأكيد أنّهم لا يحصلون على ذاك الملكوت. وإن لم يحصلوا عليه يسلّمون إلى العذاب الأبديّ إذ ليس من مكانٍ متوسّط يحمي مَن لا يتمتّع بالسعادة السماويّة من عذابات جهنّم.

فكيف إذًا نفهم كلمة الربّ يسوع: «هذا هو الخبز النازل من السماء كيلا يموت كلّ مَن يأكل منه. أنا الخبز الحيّ الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد والخبز الذي سأعطيه أنا هو جسدي لحياة العالم». (يو ٦/ ٥٠-٥٢) إنّ الذين نُوجّهُ جوابنا الآن إليهم عاجزون عن فهم هذا المقطع من قبل مَن نزمع أن نردّ عليهم والذين لا يقبلون بأن ترفع العذابات عن كلّ مَن تعمّد وتناول جسد المسيح بل عن الكاثوليك وحدهم مهما كانت الفوضى في حياتهم يقولون إنّ الكاثوليك وحدهم لم يأكلوا فقط الجسد السرّيّ للمسيح بل جسده الحقيقيّ، وهم أعضاء ذاك الجسد؛ وقد قال الرسول في هذا الصدد: «فإنّا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأنّا جميعًا نشترك في الخبز الواحد». (١ قور ١٠/١٧) ومن ثمّ لا يُعتبر أنّه يأكل جسد المسيح ويشرب دمه إلّا مَن كان متّحدًا بالجسد وعضوًا بذاك الجسد الذي يتناول أعضاؤه السرّ على المذبح. وانطلاقًا ممّا تقدّم فإنّ الهراطقة والمنشقّين المنفصلين عن وحدة جسده، ينالون السرّ عينه بلا ثمرة. وماذا أقول؟ وذلك على حسابهم متحمّلين دينونة أقسى من أيّ خلاص يتمّ فيما بعد. لأنّهم ليسوا مرتبطين بالسلام الذي يعبّر عنه ذاك السرّ.

على أنّ هؤلاء يستطيعون أن يمنعوا عمَّن ليس في جسد

المسيح، المناولة الحقيقيّة لجسد المسيح؛ إنّما لا يحقّ لهم أن يَعِدوا مَن سقط من وحدة ذاك الجسد في الهرطقة أو الوثنيّة، بالخلاص، يومًا ما، من نيران العذاب الأبديّ. أولا يرون، بادئ ذي بدء، كم هو مرفوض وخارج عن سبل التعليم الصحيح، التأكيد بأنّ أولئك الذين مرقوا من إيمان الكنيسة الكاثوليكيّة وأوجدوا بدعًا كريهة وخرجوا عن الحقّ يكون حظّهم أفضل من حظّ أولئك الذين لم يدخلوا البتّة في الكنيسة الكاثوليكيّة ووقعوا في شراكهم. لكونهم هراطقة، فالذي ينجّيهم من العذابات الأبديّة هو العماد الذي قبلوه في الكنيسة الكاثوليكيّة؛ وهو أيضًا سرّ جسد المسيح الذي اشتركوا به قديمًا في جسد المسيح الحقيقيّ! ما القول؟ خارج عن الإيمان الكاثوليكيّ، ومضطهد له، أليس هو حقًّا أشدّ لؤمًا وكرهًا ممّن لم يخن ما آمن به قطّ؟ أو لم يلتقِ الرسول أصحاب هذا الرأي الذي بعد أن أحصى أعمال الجسد يعلن بالحقيقة عينها أنّ القائمين بمثل تلك الجرائم لا يحصلون على ملكوت الله؟

وعلى هذا النحو يجب على أولئك الناس ذوي الأخلاق الأثيمة والمخجلة، الثابتين إلى النهاية في ذلك النوع من المشاركة مع الكنيسة الكاثوليكيّة، أن يتوقّفوا عن بناء طمأنينتهم على الكلمات التالية: «مَن يثبت إلى المنتهى يخلص». (متّى ١٠/ ٢٢) عندما يكونون بما هم عليهم في حياتهم من إثم وعدم الأمانة للبرّ وللمسيح يدفعون بأجسادهم إلى الزنى والنجاسات التي يتنزّه الرسول عن ذكرها ويتعاطون جميع أنواع الفجور والتجاوزات التي قيل عنها «إنّ فاعلي تلك الآثام لا يرثون ملكوت الله» يطردون من ملكوت الله لأنّهم معدّون للعذاب

الأبديّ لا محالة. وإذ يواظبون على تلك الفوضى حتّى آخر حياتهم فهل يمكن القول إنّهم ثابتون في المسيح حتّى النهاية؟ لأنّ الثابت في المسيح ثابت على الإيمان به؛ والإيمان على حدّ ما يقول الرسول «يعمل بالمحبّة». (غل ٥/ ٦) كما أنّ «المحبّة لا تصنع السوء». (روم ١٣/ ١٠)؛ ومن ثمّ فلا يحقّ لهم أن يأكلوا جسد المسيح طالما لا يحقّ لهم أن يُحسبوا بين أعضائه؛ على الأقلّ لأنّهم لا يستطيعون أن يكونوا أعضاء المسيح وأعضاء الزانية. وأخيرًا حين يقول المخلّص ذاته: «مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو ٦/ ٥٧) يبيّن ما هو أن يأكل الإنسان جسده ويشرب دمه متجاوزًا السرّ، أي في الحقيقة. وهذا هو الثبات في المسيح لكي يثبت المسيح فينا كما لو أنّه قال في الواقع: إنّ مَن لا يثبت فيَّ ولا أثبت أنا فيه، إيّاه أن يقول إنّه يأكل جسدي أو يشرب دمي؛ لا يثبتون في المسيح مَن ليسوا أعضاء له؛ وليسوا أعضاء للمسيح مَن هم أعضاء للزانية إلّا إذا كفروا بشرّ، هكذا عظيم، عن طريق التوبة، وعادوا إلى خيرٍ، هكذا عظيم، بالمصالحة.

٢٦

الفكرة القائلة إنّ الذين اتّخذوا المسيح أساسًا لهم أو الذين يخلصون كما بالنار

ولكنّهم يقولون لنا إنّ المسيح هو أساس الكاثوليك الذين لم يتخلّوا عن الاتّحاد به أيًّا تكن حياة الشكّ والعثار هذه، «خشبًا أو حشيشًا أو تبنًا» (١ قور ٣/ ١٢) التي بنَوْها على ذاك الأساس. وفي

الواقع، إنّ استقامة إيمانهم المبنيّ على المسيح يستطيع أن يخلّصهم يومًا من النار الأبديّة؛ ولكن من دون سائر أضرارها لأنّها سوف تحرق كلّ ما بنوا على ذلك الأساس. وعلى الرسول يعقوب أن يعطيهم الجواب كلمة واحدة: «ما المنفعة يا إخوتي، إذا قال أحد إنّ له إيمانًا ولا أعمال له. ألعلّ الإيمان يستطيع أن يخلّصه» (يع ٢/ ١٤) إلّا أنّه سيخلّص؛ ولكن كما يخلّص مَن يمرّ في النار» (١ قور ٣/ ١٥). ومَن هو؟ لنبحث معًا. ليس الإنسان ذاته وهذا شيء أكيد؛ وإلّا كان تعليم الرسولين متناقضًا؛ واحد يعد بالخلاص بواسطة النار بالرغم من الأعمال الشرّيرة وآخر يهتف قائلًا: «إن لم يعمل فهل يخلّص بالأعمال؟»

سوف نجد مَن يستطيع أن يخلّص، إن فهمنا أوّلًا ما يعني أن يكون مؤسّسًا على المسيح. وهذه صورة تجعلنا نفهم المعنى: لا بناء بلا أساس؛ أنّ مَن تأسّس على المسيح في وجدانه وفضّله على كلّ ما في الدنيا من خيور مقبولة ومسموح بها، زمنيّة ومكانيّة، كان المسيح حقًّا أساسًا له. أمّا إن فضّلها على المسيح وتظاهر بأنّه يؤمن بالمسيح فلن يكون مؤسّسًا على المسيح إذ يفضّل عليه تلك الخيرات. وكيف تكون الحال حين يحتقر الإنسان الوصايا الخلاصيّة ويقوم بأعمال محرّمة فلا يفضّل المسيح على كلّ شيء بل يفضّل كلّ شيء على المسيح إمّا إشباعًا لنزواته من كلّ ما يحرمه المسيح أو يذهب إلى أبعد من ذلك؟ أن يحبّ مسيحيّ مثلًا زانية ويلتصق بها ليصيرا معًا جسدًا واحدًا فذاك مسيحيّ لم يقم في الأساس على المسيح. ماذا أقول؟ إن أحبّه جسديًّا، بحسب العالم، وبحسب أوهان الجسد كالأمم التي لا تعرف الله فهل المسيح يسمح له بذلك والرسول

أيضًا؟ ومن ثمّ يستطيع أن يكون له المسيح بمثابة أساس، لأنّه إن لم يفضّل عليه في شيء تلك الميول والملذّات أيًّا يكن البناء الذي يرفعه، خشبًا كان أم حشيشًا أم قشًّا، فالمسيح الذي يبقى الأساس لمَنْ يؤمّن له الخلاص بواسطة النار. إنّ تلك الملذّات الأرضيّة وأفعال الحبّ التي يحميها الوثاق الزواجيّ من الهلاك تمرّ على نار الشدائد والمحن؛ وتلك النار تمثّل حالات الترمّل والانفصالات القاسية؛ وعلى هذا النحو فإنّ تلك العمارات البشريّة تصبح بدورها مؤلمة إذ إنّها تختفي ويبقى جريحًا بسبب خسارة تلك الأشياء التي كان يسرُّ التمتّع بها؛ ولكنّه سوف يخلّص بالنار استنادًا إلى الأساس؛ ولو أنّ إنسانًا مضطرًّا له عرض عليه أن يختار بين تلك الأشياء والمسيح لما فضّل شيئًا على المسيح. هذا هو الإنسان، كما يشير إلينا عنه الرسول؛ الذي يبني على الأساس الذهب والفضّة والحجارة الثمينة. «... ومَن كان بلا زوجة يفكّر بما لله لكي يرضي الله». (١ قور ٧/ ٣٢) «وإليك الإنسان الآخر الذي يبني على الخشب والقشّ والحشيش» أمّا الذي يرتبط بزوجة فإنّه يفكّر بما للدنيا ليرضي زوجته؟ وسيظهر عمل كلّ إنسان فينكشف في النهار أي في يوم الشدّة إذ يقول الرسول: «سوف تنكشف بالنار ويسمّي الشدّة نارًا حين يقول: «الأتّون يختبر آنية الفجّار والشدّة تختبر الأبرار» وعمل كلّ واحد تختبره النار؛ فالذي يثبت عمله (لأنّ الأفكار التي لله والعمل على إرضائه كلّ هذا يثبت) ينال الجزاء على كلّ ما بناه؛ أي إنّه يكافأ بحسب أعماله» أمّا الذي يحترق عمله فيتأثّر به ولن يبقى له ما قد أحبّه ولن يكون له خلاص؛ لأنّ ما له في سكرة الحبّ لا يفقده بلا مهماز الألم؛ أليست تلك هي

النار، إن لم أغال، التي لا تهلك أيًّا من ذينك الشخصين وتكون للواحد غنى وللآخر خسارة؟

إن أردنا أن نعني بتلك النار هذه التي يذكرها الربّ قائلًا للذين عن يساره: «إذهبوا عنّي يا ملاعين إلى نار الأبد» إن كنّا نحكم بها على الذين يؤسّسون على خشب وقشّ أو تبن، عارفين أنّهم بعد وقت معيّن يكفرون فيه عمّا استحقّوا عليه الشجب غير أنّهم يخلّصون من تلك النار بفضل الأساس. وعليه فمَن هم، بنظرنا، الواقفون إلى اليمين الذين يقال لهم: «تعالوا يا مباركي أبي ورثوا الملكوت المعدّ لكم» إن لم يكونوا هؤلاء الذين وضعوا الأساس على الذهب والفضّة والحجارة الثمينة؟ حين يقول «كما لو بالنار» فإذا كان يقصد بالنار هذه النار الأخيرة وجب أن يُلقى فيها آل اليمين وآل اليسار، امتحانًا لهم؛ في النهار ينكشف كلّ شيء؛ والنار تمتحن عمل كلّ إنسان حتّى إذا ثبت عمله أمام النار ينجح ويكافأ على ما عمل وبنى؛ والذي يحترق عمله يخسر؛ وليست النار نارًا أبديّة؛ إنّما، لهذا قصاص أبديّ، لا نهاية له؛ ولذاك اختبار زمنيّ مختصّ بالمختارين آل اليمين. فالذي تجده النار مؤسّسًا على المسيح يثبت أمام الحريق والآخر تلتهمه النار فيحترق ويتعذّب إلى حين؛ ويخلّص فيما بعد لأنّ محبّة سامية حافظت عليه مستقرًّا في المسيح؛ هؤلاء يخلصون مع آل اليمين وعلى مثالهم يسمعون الصوت القائل: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدّ لكم...» ولن يكونوا إلى اليسار مع الذين يسمعون الصوت القائل: «أبعدوا عنّي يا ملاعين إلى نار الأبد...» وكلّ مَن حكم عليه بالموت يعذّب بتلك النار ويساق إلى عذاب أبديّ حيث الدود لا يموت والنار لا تطفأ، ليلًا نهارًا، مدى الدهور.

على أنّه، إذا تركت نفوس الموتى، طوال الزمن الفاصل بين الموت الجسديّ وقيامة الأجساد يوم النقمة والمجازاة، في عذابات النار التي لا يشعر بها مَن لم تقدّم أخلاقهم وعواطفهم طوال حياتهم الجسديّة إلى النار بناءً من خشب أو حشيش أو قشّ بل يشعر بها فقط، إمّا الآن وفيما بعد، وإمّا آنذاك فقط، أو الآن وحسب، مَن أقاموا بناءً سريع العطب، تاركين في نار التجارب العابرة الميول الزمنيّة البسيطة؛ هذا الرأي أقبل به وقد يكون صحيحًا. وقد تتضمّن هذه البليّة موت الجسد أيضًا، الإرث الذي وصل إلينا من الجريمة الأولى وأنّ الزمن الذي يعقب البليّة يمتحن كلّ واحد استنادًا إلى البناء الذي بناه. والاضطهادات التي يكلّل بها شهداء كثيرون ومنها يعاني كلّ مسيحيّ هي أيضًا النار التي تمتحن تلك البنايات المتنوّعة وتحرقها مع صانعيها لأنّ الأساس يضمن لهم الخلاص لقاء ما يعانون من عذاب ويحترم سواها من البنايات التي يجدها مبنيّة للأبد. في آخر الدهر سيقوم المسيح الدجّال باضطهاد وسيكون الأخير والأشدّ ضراوة؛ حينذاك كم من بنايات مصنوعة من ذهب أو قشّ، قائمة على المسيح، الأساس الذي لا يقوى عليه شيء، يتحمّل تجربة النار، بعضها يقبلها بفرح وبعضها الآخر بألم وجميعهم متأكّدون من الخلاص استنادًا إلى ثبات الأساس؟ على مَن يفضّل على المسيح، لست أقول، زوجته واللذّات الجسديّة الناتجة عن الزواج بل سواها من العواطف الغريبة عن الأولى ولها أسماء أخرى في لغة القلب فذاك لا يتّخذ المسيح أساسًا له ولن يخلص بواسطة النار؛ ماذا أقول؟ لن يخلص لأنّه لن يستطيع أن يقيم مع المسيح القائل بصراحة: «مَن أحبّ أبًا أو أمًّا أكثر منّي لا يستحقّني؛ ومَن أحبّ

أبناء أو ابنة أكثر منّي فلن يستحقّني» (متّى ١٠/ ٣٧) ولكن الذي لا يفضّل أهواءه البشريّة على محبّة المسيح وعند التجربة يضحّي بها حبًّا بالمسيح فذاك يخلّص بالنار، وبقدر ما يكون تعلّقه بها قويًّا بقدر ذلك يكون انسلاخه عنها مؤلمًا. وبكلمة واحدة، فإنّ مَن يحبّ أباه أو أمّه أو بنيه وبناته بحسب ما يريد المسيح، سواء أمدّ لهم يد المساعدة ليوصلهم إلى الملكوت وإلى الوحدة الأبديّة أم أحبّ فيهم أعضاء المسيح دون سواها فحاشى أن تكون تلك المحبّة مماثلة لما يبني بالخشب والقشّ والحشيش المهيّأة للنار؛ بل كبناية من ذهب ومن فضّة وحجارة ثمينة ترتفع. وكيف للإنسان أن يحبّ أكثر من المسيح أولئك الذي لا يحبّهم إلّا من أجل المسيح؟

٢٧

دحض الرأي القائل بأن أعمال الصدقة تكفّر عن شرور مستمرّة

يبقى علينا أن نقاوم رأيًا أخيرًا يقول بنار الأبد لكلّ مَن لا يقدّم الصدقات القيّمة تكفيرًا عن خطاياه. ويستند هذا الرأي إلى ما يشهد به يعقوب الرسول: «فإنّ الدينونة بلا رحمة تكون على مَن لا يصنع رحمة» (يع ٢/ ١٣) وعليه فكلّ مَن صنع رحمة وإن لم يكن قد أصلح أخلاقه ثمّ أضاف إلى ممارسة الصدقة ما تعود عليه في حياته من الإثم والعيوب فهذا يجب رحمته يوم الدين سواء أنجا من الهلاك أم بعد تكفير، طال أم قصر، حصل على الخلاص؛ والمسيح لا يركّز إلّا على ممارسة الرحمة أو الامتناع عنها، التمييز بين آل اليمين وآل الشمال، فيعدُّ آل اليمين إلى الملكوت وآل الشمال

إلى العذاب الأبديّ. بيد أنّ مؤيّدي هذا الرأي يسعون إلى التوفيق بين الشهادة وقوّة الصلاة التي يعلّمنا إيّاها الربّ، ليقيم الفداء بواسطة الصدقة عن الخطايا أيًّا كان نوعها وهي خطايا يستمرّ الإنسان في ارتكابها لأنّهم يقولون إنّه ما من يوم إلّا ويتلوها المسيحيّون فيه وما من خطيئة يوميّة إلّا وتمحوها تلك الصلاة القائلة: «واغفر لنا ذنوبنا» (متّى ٦/ ١٢) إذا مارسنا بجدّيّة ما يتبع: «كما نغفر لمَن يسيئون إلينا» وفي الواقع، يضيفون أنّ الربّ لا يقول: إن غفرتم للناس خطاياكم فأبوكم يغفر لكم خطاياكم الخفيفة اليوميّة بل: «فأبوكم يغفر لكم خطاياكم» وتاليًا، أيًّا تكن خطاياكم كبيرة ويوميّة ولا تكفّرون بها وتحيون حياة أفضل فإنّ قوّة الصدقة تضمن لكم الصفح عنها.

وإنّهم لعلى حقّ إذ يطلبون صدقات تتناسب مع الخطايا؛ لأنّهم لو ادّعوا أنّ كلّ صدقة كافية للتعويض عن خطايا يوميّة وثقيلة لتعوّد الإنسان على ارتكابها كلّ يوم؛ إذ ذاك يكون رأيهم مدعاةً إلى الاستهزاء والاستخفاف لتفاهته. وفي الواقع فإنّ ذاك الرأي يدفعهم إلى إعطاء الغنيّ القدرة على التصدّق بعشرة نقود مثلًا يوميًّا تعويضًا عن قتل وزنى وأمور أخرى إجراميّة. يا للسخافة، يا للحماقة! ولكن ما هي تلك الصدقات المحترمة التي تكلّم عنها يوحنّا السابق للمسيح بالشكل التالي: «إثمروا ثمرًا يليق بالتوبة» (متّى ٣/ ٩)؛ بالتأكيد أنّها ليست صدقات الذين، كلّ يوم وحتّى الموت، يغطّون حياتهم بجراح الإثم والجريمة. وفي البدء حين يتّخذون من الأموال المسروقة التي بها يغتنون شيئًا ما ينفقونه على المساكين، ظنًّا منهم، أنّ تلك الأطعمة المعطاة للمسيح الفقير اشتروا بها أو يشترون الإذن بعمل السوء،

والطمأنينة إلى ما يفعلون من أمور تستوجب الدينونة. آه! حين يوزّعون كلّ ما يملكون على أعضاء المسيح المتألّمة تكفيرًا عن سيّئة واحدة ولم تضع حدًّا تلك الرحمة لعادة عاطلة فيهم تصبح تلك الصدقة غير مجدية. وعلى مَن يقوم بصدقات جديرة بالتقدير، تكفيرًا عن خطاياه، فليبدأ العمل بها شخصيًّا؛ وأين هو الداعي إلى رفض عمل الرحمة مع نفسه حينما يمارسها تجاه القريب وحين يسمع الربّ يقول: «أحبب قريبك كنفسك». (مر ١٣/١٢) ثمّ «أحبب نفسك وفرّج عن قلبك» (سير ٣٠/ ٢٤) ومَن رفض أن تكون نفسه مرضية لله فهل يمكننا أن نقول إنّه يقوم بصدقات جديرة بالقبول عن خطاياه؟ وبهذا المعنى جاء في سفر يشوع بن سيراخ: «مَن أساء إلى نفسه فإلى مَن يحسن؟» (سير ١٤/ ٥)

الصدقة تعضد الصلاة؛ فلنتأمّل جيّدًا في هذه الكلمة: «يا بنيّ إن خطئتَ فلا تزِدْ بل استغفر عمّا سلف من الخطأ» (سير ٢١/ ١)، وعليه يجب أن نعمل صدقات لكي ننال بصلواتنا غفران خطايانا؛ لا لكي نؤمن ونحن نواظب بأنّنا نكمل الإذن لعمل السوء من خلال الصدقات التي نقوم بها.

وحين يعلن الربّ عن صدقات الذين إلى يمينه وعن تلك التي امتنع عن القيام بها الذين إلى يساره فهو يبغي إظهار قدرة الصدقة على محو الخطايا السالفة لا على استمرارها إلى الأبد، مع الوعد بعدم المعاقبة عليها. وإذا لم ينسحب الإنسان من دروب الإثم فلا يمكنه أن يمارس الصدقة؛ وحين يقول لنا الربّ: «كلّما لم تفعلوا ذلك بأحد هؤلاء الصغار فبي لم تفعلوه» (متّى ٢٥/ ٤٥) يبيّن لنا أنّنا لا نقوم بتلك الواجبات بينما نظنّ أنّنا نقوم بها؛

ولو كنّا نعطي خبزًا، مسيحيًّا، يتضوّر جوعًا لكونه مسيحيًّا فبالتأكيد لا نرفض خبز البرّ الذي هو المسيح لأنّ الله لا ينظر إلى التقدمة بل إلى الروح الذي به نعمل تقدمتنا. وعليه فمَن أحبّ المسيح في مسيحيّ مدّ يده إلى أخيه بالروح عينه الذي به يقترب من المسيح وليس بالروح الذي به يدّعي حقّ الابتعاد دون عقاب عن المسيح إذ بقدر ما يحبّ الإنسان ما يشجبه المسيح يتخلّى بقدر ذلك عن المسيح. وفي الواقع ماذا ينفع العماد الإنسان إن لم يكن مبرّرًا؟ إنّ الذي قال: «إن لم يولد الإنسان من الماء والروح فلن يدخل ملكوت الله» (يو ٣/ ٥) ألم يقل أيضًا: «إن لم يزِدْ برّكم على الكتبة والفرّيسيّين فلن تدخلوا ملكوت السماوات» (متّى ٥/ ٢٠) ولِمَ يدفع الخوف من ذلك الحكم الأوّل هذا العدد الكبير من البشر إلى العماد؟ ولِمَ لا يخافون، من الحكم الثاني فلا يبالي عدد كبير منهم بتبرير أنفسهم؟ وكما أنّه لا يدعو أخاه «أحمق» ذاك الذي يغضب، ملقيًا بتلك الإهانة على الخطيئة الأخويّة، لا على الشخص؛ وإلّا لاستحقّ النار الأبديّة (متّى ٥/ ٢٢) وعلى هذا النحو، وبخلاف ما تقدّم، فإنّ مَن يساعد مسيحيًّا لا يساعده لكونه مسيحيًّا إن لم يكن يحبّ فيه المسيح؛ ولا يحبّ المسيح مَن يرفض أن يتبرّر بالمسيح. وبما أنّ الإنسان الذي اقتنع بأنّه ارتكب خطيئة ضدّ قريبه حين وصفه بأحمق، لا لأنّه استسلم إلى كراهية الخطيئة بل لكونه وقع في عنف غير مبرَّر لن يكون مبرّرًا بالصدقة إذا لم يزد العلاج على المصالحة؛ «إذا جئت لتقدّم قربانك إلى الهيكل وذكرت هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا، دع قربانك أمام المذبح وعد فصالح أخاك لتقدّم من جديد قربانك إلى المذبح» (متّى ٥/ ٢٣) إنّ المساعدة التي نجنيها من الصدقات

وإن تكن كبيرة هي تعويض عقيم عن الخطايا حين يثبت الإنسان على عادته في الخطيئة.

أمّا الصلاة اليوميّة التي يعلّمناها السيّد نفسه فمن أين جاءها اسم الصلاة الربّيّة التي إذا صلّيناها يوميًّا تغفر الخطايا اليوميّة «اغفر لنا ذنوبنا». وإن عملنا في الوقت عينه ما نقول: «كما نغفر لمَن خطئ إلينا» ولكنّها صلاة تقال لأنّنا نخطأ لأنّ المخلّص أراد من خلالها، أيًّا يكن برّ أعمالنا في هذه الحياة المظلمة والتعيسة لا تخلو من الخطايا التي يجب أن نطلب المسامحة عليها كما نسامح مَن يخطأ إلينا فتغفر كذلك خطايانا. وحين يقول لنا الربّ: «إن غفرتم للناس خطاياهم فسيغفر لكم أبوكم السماويّ خطاياكم» ولا ينوي أن يشجّعنا من خلال فهم خاطئ لتلك الصلاة على ارتكاب جرائم جديدة، كلّ يوم، إمّا عن تسلّط بحيث نرتفع فوق القوانين البشريّة وإمّا عن مهارة فنخدع الناس؛ ولكنّه يريد أن يعلمنا ألّا نعتقد بأنّنا بلا خطيئة، معصومين من كلّ جريمة؛ وهي أمثولة أعطاها الله كهنة الشريعة القديمة حين أمرهم بأن يبدأوا بتقديم الذبائح أوّلًا عن خطاياهم ثمّ عن خطايا الشعب. فلنلقِ نظرة دقيقة على كلمات معلّمنا الإلهيّ العظيم فلا يقول: «إذا غفرتم للناس ما خطئوا به ضدّكم فأبوكم يغفر لكم خطاياهم ضدّكم، أيًّا تكن؛ يقول «خطاياكم» إذًا إنّه يعلّم صلاة لكلّ يوم ويتحدّث مع تلاميذه المبرَّرين فيقول «خطاياكم» ماذا تعني؟ إنّها الخطايا التي لن تُعصموا منها أنتم أنفسكم وقد حصلتم على البرّ والقداسة؟ وهناك يبحث أخصامنا في هذه الصلاة عن مناسبة للآثام اليوميّة ويزعمون أنّ الربّ يتكلّم عن الخطايا الكبيرة إذ لا يقول: أبوكم يغفر لكم خطاياكم الخفيفة.

بل «سيغفر لكم خطاياكم»؛ وأمّا نحن فإذ نتأمّل في الناس الذين يتحدّث إليهم لا يجوز أن نفهم بكلمة «خطاياكم» سوى الخطايا الخفيفة؛ لكونهم تلاميذ الربّ فلا يعودون يرتكبون سوى الخطايا الخفيفة. بيد أنّ تلك الخطايا ذاتها التي يجب أن نتخلّص منها بتوبة حقيقيّة لا يمكن أن تغفر لنا بالصلاة إن لم نتمّم الكلمة التالية: «كما نحن نغفر لكلّ مَن خطئ إلينا» إن كانت الخطايا الخفيفة التي لا تخلو منها حياة الأبرار لا تجد رحمة إلّا بذاك الشرط فهل يحظى ببعض الرحمة الخطأة الكبار والمذنبون الكبار وإن امتنعوا عن ارتكابها احتفظوا تجاه الإهانات بحقد فظيع؟ ألا يقول الربّ: «إن لم تغفروا للناس زلّاتهم فولا أبوكم يغفر لكم». وبهذا المعنى يقول يعقوب الرسول إنّ الدينونة ستكون بلا رحمة لمَن لا يرحم. وهذا ما يذكّرنا به ذلك العبد المسكين الذي سامحه معلّمه بعشرة آلاف دينار ثمّ طالبه بها من جديد لأنّه لم يُشفِق على رفيقٍ له في العبوديّة وكان له عليه مائة دينار (متّى ١٨/ ٢٣). في أمثال أبناء الرحمة والموعد تتحقّق كلمات الرسول نفسه التالية: «إنّ الرحمة تنتصر على الدينونة» (يع ٢/ ١٣) لأنّ أولئك الأبرار أنفسهم الذين بلغوا من القداسة حدًّا أهّلهم لأن يُقبَلوا في المخادع الأبديّة، هؤلاء الذي اكتسبوا صداقتهم من الإثم ولم يصلوا إلى تلك الحال إلّا بفضل رحمة مَن يبرّر الأثيم ويمنح الجزاء بحسب نعمته وليس استنادًا إلى استحقاقات الخاطئ. ومن بين أولئك الناس الرسول القائل: «إنّ الربّ رحمني أن أكون أمينًا». (١ قور ٧/ ٢٥)

والذين يقبلهم الأبرار في المخادع الأبديّة لم تكن لهم حياة خالية من كلّ لوم وعيب لكي يستغنوا عن مساعدة القدّيسين،

وذاك ما يجب الاعتراف به؛ والرحمة تجاههم تنتصر على الدينونة. ومن ثمّ، لا يتصوّرنّ أحد أنّ أكثر الناس إنّما يستطيع أن يدخل المنازل الأبديّة دون أن يتوب ويصلح سلوكه لمجرّد اتّخاذه أصدقاء له بمال الظلم (لو ١٦/٩) أيْ بما له من ذهب وثروات حصّلها بطرق سيّئة وغير شرعيّة؛ ولكنّها ثروات بمال الظلم غريبة كلّيًّا عن الثروات الحقيقيّة التي تعتبر مالًا شرعيًّا لمَن يقبلون الآخرين في المخادع الأبديّة. وعليه فهناك نظام في الحياة لا يستوجب شجبًا تامًّا يبطل مفعول الثروات التي تقدّم كسبًا لملكوت السماوات على أيدي الأبرار الذين يقومون بمهمّة الوساطة والشفاعة؛ ولا يعتبر ذا نقاء تامّ يكفي بحدّ ذاته بمعزل عن شفاعة الأصدقاء السماويّين للحصول على الرحمة والسعادة القصوى (هنا أعجب دومًا لهذه الكلمات التي أجدها في فيرجل على لسان الربّ: «إجعلوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتّى إذا أدرككم الاضمحلال يقبلونكم في المظال الأبديّة» (لو ١٦/٩) أو بتعبير آخر: «مَن قَبِل نبيًّا باسم نبيّ فأجر نبيّ ينال. ومَن قَبِل صدّيقًا باسم صدّيق فأجر صدّيق ينال» (متّى ١٠/٤١) وإذ يصف الشنزاليزه حيث يضع الوثنيّون مقام النفوس السعيدة فالشاعر يضع فيها الناس الذين رفعوا إلى تلك المقامات الممجّدة استنادًا إلى استحقاقاتهم الشخصيّة بل وأيضًا أولئك الذين ثبتوا في الذاكرة وقد استحقّوا تقدير الآخرين إذ نبّهوا مسبقًا سواهم بما قاموا به من أعمال طيّبة فحقّ لهم أن يذكرهم الناس بالخير؛ أو ليست الصلاة التي تتلفّظ بها في كلّ برهة شفاه المسيحيّين حين يستسلم المؤمن متواضعًا إلى شفاعة إنسان بارّ قائلًا له: «أذكرني» هي التي تستميل عطفه؟ ولكن ما هو ذاك النظام الحياتيّ وما هي

تلك الخطايا التي تغلق أبواب الملكوت دون أن تبقى صامدة أمام صلوات القدّيسين الأصدقاء؟ من الصعب جدًّا اكتشاف ذلك الأمر ومن الخطورة بمكان تقريره! أمّا أنا، وبالرغم من الجهود التي بذلتها حتّى اليوم فما توصّلت إلى اكتناه ذلك السرّ. وقد يبقى ملتبسًا علينا مخافة أن يخفّ حماسنا على تجنّب كلّ خطيئة لأنّ الإنسان لو عرف ما هي العادات الأثيمة التي تسمح له، على الرغم من الاستمرار فيها الذي يشجّع عليه نسيان كلّ عقاب أبديّ، بأن يسعى إلى شفاعة القدّيسين ويرجوها بينما الكسل البشريّ المغلّف بطمأنينة، برداء عيوبه، لا يطالب أيّة فضيلة بأن تخلّصه منه، متوكّلًا في أمر خلاصه على استحقاقات أولئك الأصدقاء التي يحصل عليها على حساب مال الظلم. ولكنّنا إذ نجهل اليوم قياس الظلم العرضيّ في الثبات فمن الأكيد أنّ حماسنا على الإصلاح الداخليّ يضاعف مثابرتنا الواعية على الصلوات ولا يخفّف من نشاط الصدقة التي تؤمّن لنا صداقات مقدّسة.

وعليه، فإنّ ذلك الخلاص الذي نحصل عليه، سواءٌ أكان بواسطة الصلاة الفرديّة أم بشفاعة القدّيسين، يستدرك حقًّا الهلاك في النيران الأبديّة إنّما لا يؤدّي بعد زمن معيّن من التكفير إلى إخراج المجرم الملقى في تلك الوهاد السفلى لأنّ هؤلاء الذين، بواسطة تلك الأرض الطيّبة من الكتاب المقدّس التي تعطي ثمارًا وفيرة، إحداها ثلاثين والأخرى ستّين أو أخيرًا مائة يعنون القدّيسين الذين بحسب تنوّع استحقاقاتهم يخلّصون بعضهم ثلاثين والآخرون ستّين وسواهم مائة نفس بشريّة؛ أقول إنّ أولئك يضعون هذا الخلاص، يوم الدينونة، وليس بعد الدينونة. يقال

إنّ أحد الناس المتأثّر بعدم المعاقبة الغريبة التي يعد الناس بها أنفسهم، عملًا بذلك الرأي الذي يدّعي أنّه يضمن للجميع افتداءهم، أجاب بشكل ذكيّ أنّ الموضوع يعني، بالأحرى، أن يحيا الإنسان حياة صالحة ويُقبَل شخصيًّا في مصاف الشفعاء، خوفًا من أن يكونوا نادرين جدًّا، بحيث يصلون إلى الثلاثين أو الستّين أو المائة نفس بشريّة من حسابهم فيبقى عدد كبير لا تستطيع شفاعتهم أن تخلّصهم من العذابات؛ ومن هذا العدد كلّ إنسان ألقاه عماه السخيف على كثرة الثمار الغريبة. هذا كافٍ كجواب، على ما أظنّ، على أولئك الذين دون أن يحتقروا سلطة الكتاب المقدّس الذي يلتمسونه مثلنا يقرأون فيه من خلال تفسير خاطئ لا ما يبشّر به بل ما يرغب فيه قلبهم. لقد أعطي جوابنا؛ وهكذا كما وعدنا نُنْهي هذا الكتاب.

الكتاب الثاني والعشرون

مقدّمة
سعادة الأبرار: القيامة

آخر ما يريده العلم الإلهيّ، هو أن يسعد الأبرار في ملكوت الله الأبديّ، الذي فيه تتحقّق وعود الله والعقل البشريّ الحرّ. في هذا الفكر الحرّ تكمن عظمة الإنسان، منذ البدء، الذي لم يحرم منه؛ وإن يكن قادرًا على أن يخطأ ويرتكب شرورًا عدّة تقوده أخيرًا إلى جهنّم كنهاية لتلك الحرّيّة. ولن تكون السعادة الأخيرة نتيجة الرأي الحرّ.

ويجيب أوغسطينس على اعتراضات الفلاسفة، فيما يختصّ بسعادة الأبرار النهائيّة والتي تتعلّق بقيامة الأجساد ويبيّن أنّ القيامة، بنظر المسيحيّين، لا تمتّ بصلة إلى تأليه الأبطال في ديانة الرومان، فضلًا عن أنّها ثابتة بواسطة العجائب التي حدثت، والتي تحدث حاليًّا، في أفريقيا، كما يشهد بذلك أوغسطينس في ما تركه من آثار غنيّة.

ومع أنّه يعترف بجهله كيف تصير القيامة يستند إلى الموقف البولسيّ ويضعه مقابل حالة الإنسان في ذلك العصر الذي يجمع بين الشرور الكثيرة والجمالات الرائعة. إن كان جسم الإنسان جميلًا، فكيف يكون جسد القائمين من الموت؟ فالطبيعة البشريّة

بكلّ ما فيها من جمال وشرّ تنال من الله، الخلود، هبةً.

الخلاف لا يدور حول السعادة السماويّة بل حول قيامة الأجساد. يزعم بورفيروس أنّ سعادة النفس تقوم على هروبها من الجسد. وأفلاطون يقول إنّ لا سعادة للنفوس إلى الأبد بدون أجسادها؛ ويحاول أوغسطينس إجراء نقاش أخير مع بورفيروس وأفلاطون تاركًا الكلمة النهائيّة لهما وهي تقوم على إعلان سبت اليوم السابع الذي فيه ندخل في راحة الله وهي راحة واضحة بالنسبة لأوغسطينس التي لن تكون لا في هذا الزمان ولا في هذا العالم.

١

خلق الله الملائكة والبشر

تحقيقًا لما وعدتُ به في كتابي السابق. ضمَّنت هذا الأخير من مؤلّفي، عرضًا للسعادة الأبديّة في مدينة الله؛ وهي السعادة التي دُعيتْ أبديّة، لا لكونها تمتدّ على مدى أجيال وتنتهي في يوم من الأيّام، بل لكونها تبرّر ما جاء في الإنجيل: «ولن يكون لملكه انقضاء» (لو ١/٣٣) ولا لأنّها استمراريّة في الأجيال التي يأخذ منها الموت، وتعطيها الولادة، فتوهم الناس بالديمومة فيرون على الشجرة المكسوّة بالأوراق الغضّة الألوان الزاهية حينما يتعاقب عليها، بحركة دائمة، تساقط الأوراق اليابسة وظهور الأخرى المتجدّدة محتفظة لها بشرف الظلّ؛ بل لأنّ جميع سكّان المدينة المقدّسة سيكونون خالدين؛ إذ ذاك ينال البشر ما لم

يفقده أبدًا الملائكة القدّيسون. وذاك ما سوف يعمله الله القدير، مؤسّس المدينة، بحسب ما وعد؛ ولن يكذب؛ ويعطي، برهانًا على أمانته، المواعيد التي التزم بها والعجائب التي صنعها بلا وعد.

وفي الواقع، إنّه في البدء خلق الكون وملأه بجميع الخيرات المرئيّة والطبائع التي يدركها العقل؛ ولم يُبدع أفضل من الأرواح العاقلة التي أهّلها لأن تعرفه وتدركه، رابطًا فيما بينها، بما يجمع في واحدة، سمّيناها المدينة المقدّسة السماويّة؛ حيث مبدأ الوجود والسعادة، الله ذاته، الحياة للكلّ والقوت المشترك لهم جميعًا. هو الذي أعطى هذه الطبيعة العاقلة الحرّيّة بحيث إنّ الإرادة التي لا تكون أمينة لله ولسعادتها بالذات تشقى حالًا؛ وهو الذي استدرك وجود عدد كبير من الملائكة، يتكبّرون ويعتمدون على سعادتهم الخاصّة، دون سواها، ويسقطون من تلك السعادة السامية فترك لهم حرّيّة الاختيار؛ وإذ رأى أنّه لمن الأفضل لقدرته وجودته أن تُخرج من الشرّ خيرًا على أن لا يسمح للشرّ بأن يكون وهو شرّ لا يكون لولا أنّ تلك الطبيعة القابلة للتغيير، وإن تكن صالحة، وهي أجمل ما صنعه الله، الخير الأسمى، الخالق لكلّ خير؛ لم تصنع في ذاتها الشرّ بالخطيئة. ومن خلال شهادة الخطيئة اقتنعت بأنّها قد خلقت صالحة. وفي الواقع لو لم تكن خيرًا عظيمًا، إنّما أدنى من الخالق السامي، لما كان تخلّيها عن الله، كما عن النور، شرًّا كبيرًا لها. العمى عيب في العين؛ وهذا العيب يشهد على أنّ العين خُلِقتْ لترى النور؛ وهذا العيب يشهد أيضًا على أهمّيّة العضو القادر على النور (وإلّا هل يمكن أن يعتبر عيبًا الحرمان

من النور؟) وعلى هذا النحو فإنّ الطبيعة التي كانت تتمتّع بالله، تعلّمنا، من خلال ما جعلها به شقيّة، أنّ أصلها كان ساميًا؛ لكونها لم تعد تتمتّع بالله؛ شقاء أبديّ وعقاب عادل على سقوط الملائكة بحرّيّتهم بيد أنّ محبّة الملائكة الأمينين للخير السامي استبقت، بتأكيدٍ من خلال أمانتها، المكافأة على تلك الأمانة لله الذي خلق الإنسان مستقيمًا، مالكًا لحرّيّة الاختيار، حيوانيًّا أرضيًّا، إنّما يستحقّ أن يكون للسماء، إن بقي متّحدًا بخالقه؛ حتّى إذا تخلّى عنه، شقيَ في طبيعته. وإذ علم مسبقًا أنّ ثورته على شريعة الله تجعله يخطأ من خلال تخلّيه عن الله الذي لم يحرمه من حرّيّة الاختيار لأنّه كان يعرف أيّ خير سوف يجنيه من ذاك الشرّ. وفي الواقع، نجد أنّ نعمته جمعت من تلك الذرّيّة الصائرة إلى الموت، المحكوم عليها بالعدل، شعبًا كبيرًا يملأ الفراغ الذي أحدثه سقوط الملائكة ويعوّض عنه. وعلى هذا النحو فإنّ هذه المدينة المقدّسة والمحبوبة فبدلًا من أن تقع في خطأ مع بنيها قد تجمع للسعادة، عائلة أوفر عددًا.

٢

إرادة الله ثابتة لا تتغيّر إلى الأبد

إنّه لصحيح أنّ الأشرار يقومون بأعمال كثيرة مخالفة لإرادة الله؛ ولكن، تلك هي عظمة حكمته وقدرته على أنّ الأعمال التي تبدو مخالفة لإرادته تتّجه إلى الغايات المحدّدة الصحيحة والجيّدة التي سبق فرسمها. وعلى هذا النحو فحين يقال، إنّ الله غيّر إرادته، وأنّه يغضب مثلًا على الذين كان ينظر إليهم راضيًا،

فالناس هم الذين يغيّرون وليس الله؛ وأنّهم يجدونه متغيّرًا من خلا
عذابهم. وعلى هذا النحو فإنّ الشمس تتغيّر بالنسبة إلى الأعي
الجريحة؛ إنّ نورها اللامتناهي بعذوبته يصبح مزعجًا وغي
مقبول، مع أنّه باقٍ كما كان في جوهره. وتدعى مشيئة الله تلك
التي يكوّنها في القلوب الملتزمة بوصاياه، وهي التي قال فيه
الرسول: «إنّ الله هو الذي يُحدث فينا الإرادة والعمل لإرضائه»
(فل ٢/١٣) وبما أنّ برّ الله ليس فقط ذلك البرّ الذي هو به بارّ
بل ذلك الذي يعمله في الإنسان الذي به يتبرّر، فإنّ شريعة ا
هي شريعة البشر؛ إنّما يعطيها الله؛ ولا شكّ في أنّ يسوع كا
يتحدّث إلى بشر بالشكل التالي: «لقد كتب في ناموسكم» (يو ٨
١٧) وإن كنّا نقرأ في مكان آخر: «شريعة الله في قلبه» (مز ٣٦
٣١) وبحسب هذه الإرادة التي يكوّنها في الناس يقال إنّ الله يري
ما لا يريده هو ذاته إنّما يفرض على جماعته كما يقال إنّه يعرف
ما يُعرَف به الإنسان الجاهل. وفي الواقع حين يقول الرسول
«أمّا الآن فبعد أن عرفتم الله بل بالحريّ عرفكم الله» (غل ٤/٩)
فلا يجوز الاعتقاد بأنّ الله عرفهم فقط آنذاك هو الذي يعرفهم
قبل أن يخلق العالم؛ إنّما يعرفهم الآن من حيث إنّه يهبه
المعرفة. وهو تعبير تكلّمت عنه سابقًا بحسب ما أذكر. وعل
فإنّ الله يريد أشياء كثيرة لا يعملها بحسب تلك الإرادة التي ب
يريد ما يجعل الآخرين يريدونه هم الذين يجهلون المستقبل.

إنّ قدّيسيه يريدون أيضًا بمشيئة مقدّسة، ينفحهم بها، كثيرًا م
الأشياء، لا تتحقّق؛ ويرفعون إليه من أجل شخصٍ ما، صلوا
حارّة وخشوعيّة، فلا يستجيب لهم؛ وإن يكن بحركة من رو
القدّوس أوجد فيهم هذه الإرادة للصلاة. وعلى هذا النحو

عندما يُلهم الله القدّيسين الصلاة، لأجل خلاص كلّ واحد، نستطيع أن نقول إنّ الله يريد، ولا يعمل؛ بتعبير آخر، يجعلهم يريدون. وبموجب تلك الإرادة الأبديّة، كما هو علمه المسبق، صنع في السماء وعلى الأرض كلّ ما أراد: الماضي والحاضر والمستقبل. ولكن قبل أن يأتي الزمن بما سبق علمه وحدّد إتمامه قبل الزمان نقول: سيتمّ متى شاء الله. وإذا ما فاتتنا معرفة حدٍّ ما، وفاتنا زمن حصوله، نقول: سيحدث، إن شاء الله؛ لا، أن يصير الله إرادة لم تكن؛ إنّما ما رتّبه من الأزل، بإرادة منه ثابتة، إذ ذاك، يكون.

٣

وعد القدّيسين بالسعادة الأبديّة والأشرار بالعقاب

ولكي نحتفظ بالصمت حول ظروف كثيرة أخرى، نرى أنّ ما وعد الله به إبراهيم يتحقّق في المسيح: «ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض»؛ وهكذا سوف يتحقّق ما وعد به ذلك النسل حين يقول بلسان نبيّه: «والذين في القبور يقومون» وفي مكان آخر يقول: «هاءنذا أخلق سماوات جديدة وأرضًا جديدة فلا تُذكر السالفة ولا تخطر على البال. بل تهلّلوا وابتهجوا إلى الأبد بما أخلق فإنّي هاءنذا أخلق أورشليم ابتهاجًا وشعبها سرورًا. وأبتهج بأورشليم وأُسرُّ بشعبي ولا يُسمع فيها، من بعد، صوت بكاءٍ ولا صوت صراخ». (أش ٦٥/١٧-١٩) وما يقول بلسان نبيّ آخر لهذا النبيّ: «وفي ذلك الزمان ينجو شعبك كلّ مَن يوجد مكتوبًا في الكتاب، وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون:

بعضهم للحياة الأبديّة وبعضهم للعار والرذل الأبديّ». (دا ١٢/١) وفي مكان آخر بالنبيّ ذاته يقول: «لكنّ قدّيسي العليّ يأخذون الملك ويحوزونه إلى الأبد، وإلى أبد الآباد» (دا ٧/١٨) ثمّ: «وسيكون ملكه ملكًا أبديًّا» (دا ٧/٢٧) وهنالك شهادات أخرى ذكرتها في الكتاب العشرين؛ وكثير سواها لم أذكره وقد ورد في الأسفار المقدّسة. وسوف تتحقّق تلك النبوءات كما تحقّقت تلك التي شكّك بها غير المؤمنين. كلّها وعود، وتنبّؤات لله، الذي ترتجف أمامه آلهة الوثن؛ وذاك ما يعترف به بورفير الفيلسوف الوثنيّ الشهير.

٤

الردّ على الفلاسفة الرافضين القيامة للأجساد إلى السماء

ولكنّ أولئك العلماء والحكماء الرافضين للسلطان القدير الذي، بحسب ما تنبّأ، هدى، من جميع النواحي، إلى هذا الإيمان والرجاء، عددًا كبيرًا من البشر يتصوّرون أنّهم يواجهون قيامة الأجساد ببرهان قاطع حين يتذرّعون بذلك المقطع من شيشرون في كتابه الثالث «الجمهوريّة» القائل إنّ هركول ورومولوس أصبحا إلهين دون أن يُرفع جسداهما إلى السماء لأنّ الطبيعة ترفض لأن يكون مكان غير الأرض لما هو أرضيّ (الجمهوريّة ١١١، ٢٨، ٤٠) ذاك ما كان يفكّر به بصواب ذانك الحكيمان اللذان كان الربّ عالمًا بأفكارهما لأنّنا إن لم نكن سوى نفوس أي أرواح بلا أجساد ونقيم في السماء ونجهل أنّ هنالك حيوانات أرضيّة وجاءنا مَن يقول لنا إنّنا سوف نرتبط يومًا

ما بأجساد أرضيّة لنحييها، ألا نجد سببًا أقوى بكثير لعدم تصديق شيءٍ من ذلك؟ ألا نقول إنّ الطبيعة لا يمكنها أن تسمح لما هو غير جسديّ بأن يكبَّل بقيود جسديّة؟ ومع ذلك فالأرض تعجُّ بالنفوس التي تحيي أعضاء أرضيّة متّحدةً بها اتّحادًا وثيقًا جدًّا غير قابل للفهم. ولماذا لا تستطيع إرادة الله ذاته الذي خلق الكائن الحيّ أن تحوّل جسدًا أرضيًّا إلى جسد سماويّ إن استطاع أن يرتبط بواسطة الروح الذي هو أسمى من كلّ جسد وتاليًا أسمى من كلّ جسد سماويّ، بجسد أرضيّ؟ قطعة حقيرة من التراب استطاعت أن تحبس فيها ما هو أسمى وأعلى من الجسد السماويّ لكي تحصل منه على الشعور والحياة؛ والسماء تترفّع عن قبول ذاك التراب الحيّ والحسّاس الذي ينبض بشعور وحياة جاءته من طبيعة أسمى بكثير من كلّ جسم سماويّ؟ بيد أنّ هذا الشيء لا يتحقّق اليوم لأنّ الوقت لم يحن، أي الوقت الذي حدَّده صاحب هذه الأعجوبة الراهنة التي اعتادت عليها أعيننا فجعلتها شيئًا عاديًا؛ وهي أعجوبة أروع من تلك التي يأبون الاعتقاد بها. وأخيرًا أليس هذا الترابط بين الأرواح اللاجسديّة الأسمى من كلّ جسد سماويّ والأجساد الأرضيّة هو الذي يدعو إلى الإعجاب أكثر ممّا يدعو إلى الإعجاب تحويل أجساد أرضيّة إلى منازل سماويّة وإنّما جسديّة؟ من هاتين الأعجوبتين نرى يوميًّا الأعجوبة التي نحن فيها قبل أن نرى الأخرى التي لم نصل إليها. إنّ العقل السليم الذي يؤخذ به، يجد بكلّ تأكيد أنّ العمل الإلهيّ في الجمع بين الجسديّ وغير الجسديّ أدعى إلى الإعجاب بالجمع بين الأجساد، مهما تباينت؛ ولكونها جسديّة وسماويّة؛ لأنّه جمع يربط بين جسد وآخر.

٥

قيامة الجسد إلى الأبد مرفوضة لدى البعض ومقبولة لدى البعض الآخر

أن يكون هذا الشيء غيرَ قابل للتصديق فيما مضى فإنّي أوافق عليه؛ وها هو العالم يؤمن اليوم بأنّ جسد المسيح الترابيّ صعد إلى السماء؛ وها هم علماء وجهال، ما خلا عدد زهيد، منذهلون، يؤمنون بقيامة الأجساد وصعودها إلى المنازل السماويّة. إذا آمنوا بما هو قابل للتصديق، فعلى مَن لا يؤمنون، أن يلاحظوا ما هم عليه من السخافة! وإن كان هذا الأمر الذي به يؤمنون غير قابل للتصديق فإن يؤمنوا بما لا يصدَّق فهذا أمر غير ممكن وغير قابل للتصديق. إليكم أمرين لا يمكن تصديقهما: الأوّل، قيامة جسدنا إلى الأبد؛ والثاني إيمان العالم العتيد بهذا الأمر غير القابل للتصديق. الله ذاته حدّثنا مسبقًا عنهما قبل أن يتحقّقا؛ وإنّنا نرى واحدًا من هذين الأمرين غير القابلين للتصديق يتحقّق: العالم ذاته يؤمن بواحد غير قابل للتصديق؛ فلماذا نيأس من حدوث الثاني وقد حدث الأوّل الذي هو أصعب قبولًا للتصديق من الثاني: إيمان العالم حدث لا يصدَّق؛ وهذان الأمران اللذان لا يصدّقان، أحدهما نراه والآخر نؤمن به؛ ألم يسبق الكلام عنهما في الأسفار عينها التي يستند إليها العالم في إيمانه؟ وإذا تأمّلنا في الطريقة عينها التي بها آمن العالم ألا نجدها غير قابلة لأن تصدَّق أكثر من سواها؟ ومع ذلك نجد أناسًا، جهّالًا، عميانًا، لا كياسة لهم، لا يعرفون شيئًا من قواعد اللغة والمنطق، لا

جرأة لهم على الكلام، جماعة من الصيّادين بعث بها المسيح مع شباك الإيمان إلى بحر العالم فاصطادوا سمكًا من كلّ الأنواع، سمكًا رائعًا ونادرًا؛ لقد اصطادوا بشباكهم فلاسفة. لنضف إلى ذينك الحدثين اللذين لا يصدّقان، هذا إذا شئنا، أو بالأحرى كما يُفرض علينا الحدث الثالث: أحداث ثلاثة نراها تتحقّق: أن يكون المسيح قد قام بجسده وأن يكون قد صعد إلى السماء فهذا أمر لا يصدّق؛ وأن يكون العالم قد صدّق هذا الحدث غير القابل للتصديق وأن يصدّق بأنّ أناسًا بسطاء، جهّالًا، وأن تنبري قبضة منهم فتنجح إلى ذاك الحدّ بإقناع علماء العالم وحكمائه بذاك الأمر غير القابل للتصديق: أخصامنا يرفضون تصديق الأوّل ولكنّهم مضطرّون إلى أن يروا الثاني الذي لا يستطيعون تفسيره إلّا إذا آمنوا بالثالث. لقد بُشّر الناس بأنّ المسيح قام من القبر وصعد بجسده إلى السماء وآمن العالم كلّه به. وإذا لم يكونا قابلين للتصديق فكيف يؤمن بهما العالم كلّه؟ إن أكّد ذلك شهود كثيرون مشهود لهم بالعلم والكرامة أنّهم قد رأوهما وإن أعلنوا عمّا رأوا وشاهدوا فلا عجب أن صدّقهم العالم بينما نرى أناسًا يرفضون بكلّ عناد وسخافة أنْ يصدّقوهم. أمّا إذا كان العالم قد صدّق استنادًا إلى ما قاله وكتبه بعض الشهود وهم من جهّال العالم والمرذولين فيه، فلِمَ يرفض هذا العدد الضئيل الإيمان، ولا يتّخذ إيمان العالم حجّةً لإعلان الإيمان به؟ ولقد صدّق العالم ذاك العدد القليل من عامّة الشعب، المرذولين والجهلة، لأنّ الألوهة قد تجلّت من خلالهم، وتجلّت بشكل واضح وصريح، لأنّهم لم يتميّزوا بالفصاحة، ولا ببيان الكلام بل بالعجائب؛ وفي الواقع لقد سمعهم الناس يتكلّمون بلغات الكون

قاطبةً، وهم لا يكادون يعرفون لغة أو اثنتين؛ وها هو إنسان أعرج منذ ولادته وفي الأربعين من سنّه يشفى ويقف منتصبًا؛ من لَمْس ثيابهم كان المرضى يُشفَوْن؛ وكانوا يضعون المرضى على اختلاف أمراضهم ويُطرحون على أقدامهم؛ وحسبهم أن يمرّ عليهم ظلّ الرسل لكي يشفوا من أمراضهم. وكم من عجائب كانت تتمّ باسم يسوع المسيح! وكم من أمواتٍ قاموا من القبر لدى سماعهم صوت الرسل. إن قبلوا كلّ ذلك الذي جاء في الأسفار المقدّسة فيا للأحداث غير القابلة للتصديق التي نضيفها إلى الثلاثة الأولى. وأخيرًا حين نكدّس شهادات أصيلة لكثير من الأحداث غير القابلة للتصديق لنحملهم على تصديق هذا الحدث، الذي لا يصدّق، أي القيامة العتيدة وصعود الجسد إلى السماء فلا نقوى على تليين قساوة قلوب غير المؤمنين! ولكن إن لم يؤمن الإنسان أنّ الرسل صنعوا تلك المعجزات ليبرهنوا عن ضرورة الإيمان بقيامة المسيح وصعوده بالجسد فحسبنا تلك المعجزة الكبرى أنّ العالم آمن بها دون اللجوء إلى العجائب.

٦

الرومان أحبّوا رومولوس فألّهوه والكنيسة أحبّت المسيح الإله

نذكر هنا المقطع الذي يعجب به شيشرون كيف أنّ ألوهة رومولوس استطاعت أن تنال تصديقًا. وإليكم ما يقوله بالحرف الواحد: «إنّ ما يمتاز به تأليه رومولوس عن سواه هو أنّ ما جرى لسواه في هذا المجال قد تمّ في أجيال قلّ فيها العلم؛ حيث الميل إلى الخرافة عزّزه استعداد طبيعيّ إلى سرعة

التصديق، بسبب ما كان عليه الإنسان من الجهل. ولكنّ المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن رومولوس أقلّ من ستّ مائة سنة راحت فيها العلوم والآداب تقتلع ضلالات متأصّلة في عمق الحياة البشريّة. (شيشرون، **الجمهوريّة** ١١/١٠، ١٨) ثمّ يضيف بعد قليل: «فمن الواضح إذًا أنّ هوميروس يسبق رومولوس بسنوات طويلة وأنّ الأنوار المفاضة على أناس كثيرين، وعلى العصر ذاته، قلَّ ما تركت مجالًا لخرافات جديدة لأنّ الأجيال القديمة سمحت باختراع أساطير، على شيءٍ من السفاهة، إنّما التهذيب الذي عرف به الجيل اللاحق قد نبذ واحتقر كلّ ما كان يتّصف بالمستحيل». إنّ شيشرون أحد أعلم رجال عصره وأفصحهم يتعجّب من الأخذ بألوهة رومولوس لأنّ عصره كان على شيء من المعرفة التي ترفض الخرافات والأباطيل. ومع ذلك، ومَن ذا الذي اعتقد بألوهة رومولوس، سوى روما يوم كانت ضعيفة في مهدها؟ أمّا الأجيال التالية فقد حافظت على خرافة أجدادها؛ وهي خرافة رضعتها، نوعًا ما، مع حليب الأمّ؛ وإذ كبرت المدينة الرومانيّة وبلغت تلك الدرجة من القدرة وراحت تسيطر من علٍ وتبسط سلطانها على الشعوب أدخلت ما كانت تعتقد به في كلّ مكان؛ وراح أبناؤها الرافضون لألوهة رومولوس يعلنونها خوفًا من أن يثيروا المدينة التي يخدمونها برفضهم اللقب الذي أعطته لمؤسّسها، وذلك لا حبًّا بالضلال بل خوفًا من أن يزيّفوا عن حبّها. أمّا المسيح الذي أسّس المدينة السماويّة، الأبديّة فهي لا تؤمن به إلهًا لكونه أسّسها بل تستحقّ أن تكون مؤسّسة لكونها تؤمن به إلهًا. أورشليم الجديدة تضع المسيح الإله الذي بناها، بمثابة أساس لإيمانها، بغية أن تكون مبنيّة ومكرّسة، تلك، حبًّا

برومولوس، اعتقدته إلهًا. وهذه أحبّت يسوع، إيمانًا منها بأنّه إله. إحداهما أُبلغت مسبقًا في حبّها لتصدّق باختيارها خيرًا وهميًّا صوّبت إليه حبّها؛ والأخرى أُبلغت مسبقًا بإيمانها لكي تحبّ بإخلاص خيرًا حقيقيًّا صوّبت إليه إيمانها؛ نبوءات تكلّمت عن المسيح الإله، وهي إلهيّة وجديرة بأن تصدّق، ولا ننتظر تحقيقها على مثال آبائنا بل إنّنا نثبت اليوم أنّها تحقّقت فضلًا عن تلك المعجزات الكثيرة والصريحة التي أثبتت أنّ المسيح هو الله. رومولوس أسّس مدينة روما وملك عليها؛ وهذا ما يشهد له به التقليد والتاريخ إنّما ما من نبوءة سابقة له تحكي عنه. أمّا قبوله في مصاف الآلهة فذلك اعتقاد ينقله التاريخ وليس حدثًا يثبته. ما من حدث خارقٍ للطبيعة ظاهر يبرّر حقيقة ذلك التأليه. تلك اللبوءة التي ترضع رومولوس، ذلك الحدث الغريب الذي طالما ينوّهون به هل هو يا ترى برهانٌ مقنع عن ألوهة إنسان؟ وهل كانت تلك اللبوءة حقًّا حيوانًا أم خليلةً له، علمًا بأنّه حدث غريب مشترك بين الأخوين وواحد منهما إله؟ ومَن ذا الذي حرّم عليه الإعلان عن ألوهة رومولوس وهركول وسواهما من الناس وآثر الموت على أن يصمت؟ أو بالأحرى هل من أمّة كرّمت، بين آلهتها، رومولوس؛ دون أن تخشى اسم الرومانيّ؟ ولكن مَن ذا الذي يستطيع أن يحصي الذين قبلوا الموت وتحمّلوا عذابات لا توصف لأنّهم أبوا أن ينكروا أنّ المسيح إله؟ وعلى هذا النحو وهروبًا من ملاحقات روما وانتقاماتها، نجد مدنًا كثيرة، مرغمة بحكم سيطرة روما عليها، بأن تعبد رومولوس كإله؛ ولكن ما من شيء يستطيع أن يغيّر في موقف جماهير الشهداء، في الأرض، من المسيح والاعتراف به إلهًا. ولا يواجهون تحدّيًا بسيطًا بل

التصديق، بسبب ما كان عليه الإنسان من الجهل. ولكنّ المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن رومولوس أقلّ من ستّ مائة سنة راحت فيها العلوم والآداب تقتلع ضلالات متأصّلة في عمق الحياة البشريّة. (شيشرون، **الجمهوريّة** ١١/ ١٠، ١٨) ثمّ يضيف بعد قليل: «فمن الواضح إذًا أنّ هوميروس يسبق رومولوس بسنوات طويلة وأنّ الأنوار المفاضة على أناس كثيرين، وعلى العصر ذاته، قلَّ ما تركت مجالًا لخرافات جديدة لأنّ الأجيال القديمة سمحت باختراع أساطير، على شيءٍ من السفاهة، إنّما التهذيب الذي عرف به الجيل اللاحق قد نبذ واحتقر كلّ ما كان يتّصف بالمستحيل». إنّ شيشرون أحد أعلم رجال عصره وأفصحهم يتعجّب من الأخذ بألوهة رومولوس لأنّ عصره كان على شيء من المعرفة التي ترفض الخرافات والأباطيل. ومع ذلك، ومَن ذا الذي اعتقد بألوهة رومولوس، سوى روما يوم كانت ضعيفة في مهدها؟ أمّا الأجيال التالية فقد حافظت على خرافة أجدادها؛ وهي خرافة رضعتها، نوعًا ما، مع حليب الأمّ؛ وإذ كبرت المدينة الرومانيّة وبلغت تلك الدرجة من القدرة وراحت تسيطر من علٍ وتبسط سلطانها على الشعوب أدخلت ما كانت تعتقد به في كلّ مكان؛ وراح أبناؤها الرافضون لألوهة رومولوس يعلنونها خوفًا من أن يثيروا المدينة التي يخدمونها برفضهم اللقب الذي أعطته لمؤسّسها، وذلك لا حبًّا بالضلال بل خوفًا من أن يزيّفوا عن حبّها. أمّا المسيح الذي أسّس المدينة السماويّة، الأبديّة فهي لا تؤمن به إلهًا لكونه أسّسها بل تستحقّ أن تكون مؤسّسة لكونها تؤمن به إلهًا. أورشليم الجديدة تضع المسيح الإله الذي بناها، بمثابة أساس لإيمانها، بغية أن تكون مبنيّة ومكرّسة، تلك، حبًّا

برومولوس، اعتقدته إلهًا. وهذه أحبّت يسوع، إيمانًا منها بأنّه إله. إحداهما أُبلغت مسبقًا في حبّها لتصدّق باختيارها خيرًا وهميًّا صوّبت إليه حبّها؛ والأخرى أُبلغت مسبقًا بإيمانها لكي تحبّ بإخلاص خيرًا حقيقيًّا صوّبت إليه إيمانها؛ نبوءات تكلّمت عن المسيح الإله، وهي إلهيّة وجديرة بأن تصدّق، ولا ننتظر تحقيقها على مثال آبائنا بل إنّنا نثبت اليوم أنّها تحقّقت فضلًا عن تلك المعجزات الكثيرة والصريحة التي أثبتت أنّ المسيح هو الله. رومولوس أسّس مدينة روما وملك عليها؛ وهذا ما يشهد له به التقليد والتاريخ إنّما ما من نبوءة سابقة له تحكي عنه. أمّا قبوله في مصاف الآلهة فذلك اعتقاد ينقله التاريخ وليس حدثًا يثبته. ما من حدث خارقٍ للطبيعة ظاهر يبرّر حقيقة ذلك التأليه. تلك اللبوءة التي ترضع رومولوس، ذلك الحدث الغريب الذي طالما ينوّهون به هل هو يا ترى برهانٌ مقنع عن ألوهة إنسان؟ وهل كانت تلك اللبوءة حقًّا حيوانًا أم خليلةً له، علمًا بأنّه حدث غريب مشترك بين الأخوين وواحد منهما إله؟ ومَن ذا الذي حرّم عليه الإعلان عن ألوهة رومولوس وهركول وسواهما من الناس وآثر الموت على أن يصمت؟ أو بالأحرى هل من أمّة كرّمت، بين آلهتها، رومولوس؛ دون أن تخشى اسم الرومانيّ؟ ولكن مَن ذا الذي يستطيع أن يحصي الذين قبلوا الموت وتحمّلوا عذابات لا توصف لأنّهم أبوا أن ينكروا أنّ المسيح إله؟ وعلى هذا النحو وهروبًا من ملاحقات روما وانتقاماتها، نجد مدنًا كثيرة، مرغمة بحكم سيطرة روما عليها، بأن تعبد رومولوس كإله؛ ولكن ما من شيء يستطيع أن يغيّر في موقف جماهير الشهداء، في الأرض، من المسيح والاعتراف به إلهًا. ولا يواجهون تحدّيًا بسيطًا بل

عذابات جمّة ومتنوّعة، حتّى الموت الأفظع من كلّ شيء. وإن تكن مدينة الله المسافرة فوق هذه الأرض قد جنّدت الكثير من الشعوب والأمم فما كان لها أن تحارب من أجل سلامها الزمنيّ بل من أجل الخلاص الأبديّ احتقرت كلّ مقاومة. أبناؤها يُوثقون ويُسجنون ويُجلَدون ويُعذّبون ويُحرقون ويُمزّقون ويُذبحون ويتكاثرون. إنّهم لا يصدّقون أنّهم يحاربون في سبيل الخلاص إن لم يحتقروا خلاصهم حبًّا بالمخلِّص.

أنا أعرف أنّ شيشرون في الجزء الثالث من كتابه «الجمهوريّة»، على ما أعتقد، يقول إنّ دولة حسنة التنظيم، لا تحارب إلّا في سبيل إيمان أقسمت به أو في سبيل خلاصها. ولكن، ماذا يعني التعبير: «في سبيل السلام» أو ماذا يريد أن يعني بكلمة «السلام»؟ هذا ما يشير إليه بوضوح في محلّ آخر قائلًا: «إنّ الإنسان غالبًا ما يهرب من الفقر والنفي والسجن والجلد وهي عقابات يشعر بها أكثر الناس فظاظة؛ ألا يجد فيها سبيلًا إلى الموت السريع؟ أمّا بالنسبة إلى الدول فالموت، بحدّ ذاته عقاب، هو الذي يبدو وكأنّه يحرّر الأفراد من كلّ عقاب؛ لأنّه على الدولة أن تقوم في تركيبها على مبدأ الأبديّة ولا يمكن أن يكون الموت لها شيئًا طبيعيًّا كما هو ضروريّ أو مرغوب فيه للإنسان. ولكن حين تسقط دولة تختفي وتتلاشى، يتصوّر الإنسان أنّ الكون يتلاشى (مقارنة بين الكبير والصغير) (شيشرون، **الجمهوريّة**، ٣٤، ٢٣، ١١١) ويظنّ شيشرون مع الأفلاطونيّين أنّ العالم لا يجوز أن يفنى. وعليه، وبكلّ تأكيد حين يريد أن تتسلّح الدولة حفاظًا على سلامتها فإنّه يعني بذلك، المدى الأبديّ للدولة، فوق هذه الأرض، على الرغم من تعاقب

الأفراد، بحركة مستمرّة في الولادة والموت. وعلى هذا النحو فإنّ ظلّ الزيتونة وشجرة الغار وكلّ شجرة يبقى هو ذاته وإن تساقطت أوراقها وتجدّدت بشكل خاصّ لأنّ شيشرون يعتبر أنّ الموت عقاب للدولة، لا للفرد الذي يحرّره الموت من كلّ عقاب. وهنا تبرز بشكل طبيعيّ المسألة التالية: وهل كان حسنًا ما فعلته ساغونت Sagonte عندما فضّلت أن تموت على أن تخون الدولة الرومانيّة؟ تضحيتها أكسبتها ثناء مواطني المدينة الأرضيّة؟ ولكن هل أثبت المبدأ القائل إنّه يجب حمل السلاح حفاظًا على القَسَم أو على السلامة؟ إنّنا لم نجد كلامًا حول ما يجب على الإنسان أن يختار حينما يفرض الخطر الضرورة القاسية بخلاص الواحدة وهلاك الأخرى. إنّ ساغونت، باختيارها الخلاص تخون إيمانها؛ وبحفاظها على الإيمان تتخلّى عن السلامة. بيد أن خلاص مدينة الله قائم على شروط أخرى؛ إذ يمكن للإنسان أن يؤمّنه أو يحصل عليه مع الإيمان، وبالإيمان؛ لأنّ فقدان الإيمان يجلب الهلاك. هذه هي المفكّرة الصادرة عن قلب سخيّ وقويّ ضدّ الألم الذي تسبّب بعدد كبير جدًّا من الشهداء. أين هم الشهداء، هل بينهم مَن اعترف بألوهة رومولوس المزعومة؟

٧

إيمان البشر بالمسيح يستند إلى قدرة الله لا إلى اقتناع بشريّ

إنّه لسخيف جدًّا التكلّم عن ألوهيّة رومولس الكاذبة مع الكلام عن المسيح. إن كان عهد رومولوس، الذي سبق زمن شيشرون بستمئة سنة، على شيء من الثقافة جعله يرفض ما لا يمكن

تصديقه، فالأحرى بالأزمنة التالية، في أيّام شيشرون، وما تلاها، ولا سيّما في زمن أغوسطوس وتيباريوس، الذي عرف تقدّمًا حضاريًّا ملموسًا، أن تدفع بالعقل البشريّ الرافض لقيامة المسيح بالجسد وصعوده إلى السماء إلى إغلاق أذن الإنسان وقلبه عن الاعتقاد بذلك لو لم يشهد لصحّة ذاك الحدث وإمكانيّة حصوله الحقيقة الإلهيّة أو الألوهة الحقيقيّة ولولا ما تمّ من معجزات باهرة. وهكذا، وبالرغم من الاضطهادات العنيفة والرهيبة فقد أصبحت قيامة المسيح بالجسد ودخوله المجد الأبديّ التي سوف تتحقّق في جميع الناس، في الأزمنة الجديدة موضوع إيمان عميق ورسالة جريئة وبذارًا كُتب له أن يُخصب ويُكثّر في كلّ الأرض دم الشهداء؛ لأنّ ما حكى عنه الأنبياء، في القديم، شهدت له المعجزات، حتّى ظهرت الحقيقة عينها، مناقضة للعادة، أكثر ممّا هي مناقضة للعقل فاعتنق الكون، بإيمان، ما كان يضطهده، بغضب.

٨

العجائب التي تحقّقت في سبيل تنشيط إيمان العالم لا تزال قائمة في أيّامنا الحاضرة

ويقولون: لماذا لا تُجترح اليوم، المعجزات التي بها تفاخرون؟ فأقول إنّها كانت ضروريّة قبل أن يؤمن العالم لكي تحمله على الإيمان. وكلّ مَن يطلب اليوم أعجوبة لكي يؤمن، يكون هو ذاته أعجوبة كبرى؛ لأنّه لا يؤمن حينما يؤمن العالم. ولكنّهم لا يتكلّمون هكذا إلّا لكي ينقضوا الإيمان بصحّة تلك

المعجزات؟ وعليه فمن أين هو ذلك الإيمان الذي يُعلن عن صعود المسيح بالجسد إلى السماء؟ وكيف آمن العالم بأمور لا تصدّق، في أزمنة نيّرة، وبلا معجزات، يرفض الناس فيها المستحيل؟ وهل يقولون إنّ تلك الأحداث كانت قابلة للتصديق حتّى آمن بها الناس؟ وإذا كان الأمر هكذا فلماذا لا يصدّقونها؟ وبكلمة واحدة إليكم ما نقوله: إمّا أن يكون حدث ما، لا يرى ولا يصدّق، قام على أحداث أخرى، غير قابلة للتصديق؛ إنّما واقعيّة ومرئيّة؛ وإمّا أنّ ذاك الحدث هو قابل للتصديق بحيث لا يحتاج لأيّة أعجوبة تثبته، ويشكو من المغالاة في قلّة إيمانهم. إنّ ذاك الجواب يضع حدًّا لكلّ معاندٍ ببطل. وفي الواقع أن تكون عدّة معجزات قد تمّت للشهادة لأعجوبة القيامة العظيمة والخلاصيّة في صعود المسيح بالجسد إلى السماء فذاك ما لا يمكننا أن ننكره. جميعها موجودة في الكتب الصحيحة التي تشهد لصحّة تلك العجائب وللإيمان الذي يجب أن يقوم عليها. إنّ شهرة تلك المعجزات انتشرت لبيان الإيمان؛ والإيمان هذا يعمل على إبراز شهرتها. تقرأ على مسامع الشعوب لكي يؤمنوا بها؛ ولكن، لولا الإيمان بها لما كانوا يقرأون؛ لأنّ اليوم أيضًا نجد معجزات تتمّ باسم يسوع وأسراره وأخرى بواسطة صلاة القدّيسين وذخائرهم؛ بيد أنّ النور الأقلّ لمعانًا الذي ينيرها حيث ما تظهر يُضيّق من حدود انتشارها. أمّا الأولى فإنّ قانون الأسفار المقدّسة الذي هو مقرّر يعمّم قراءتها في كلّ مكان ويثبتها في ذاكرة الشعوب قاطبة؛ المعجزات الأخرى مجهولة وتكاد تكون معروفة في المدينة أو المكان الذي فيه قد تمّت. إذ إنّها، في غالب الأحيان، وقد عرفها عدد قليل، فالقسم الأكبر يجهلها ولا سيّما في مدينة

كبيرة؛ وغالبًا ما يكون الشهود الذين يخبرون بها لا يتمتّعون بسلطة تمنع الشكّ والاعتراض، مع أنّهم أمناء يتوجّهون إلى المؤمنين.

إنّ المعجزة التي حدثت في ميلانو خلال إقامتنا فيها حين استعاد أعمى نظره كان بإمكانها أن تحدث دويًا عظيمًا لأنّها مدينة كبيرة وتمّ ذلك بوجود الأمبراطور وشهد لها شعب غفير تراكض أمام جسد الشهيدين Protrais و Gervais. إنّ المكان الذي كانا فيه على غير معرفة من الجميع قد أوحي به في الحلم إلى المطران أمبروسيوس إذ ذاك تبدّدت عن عيني ذلك الأعمى ظلماتها القديمة وتفتّحت عيناه.

ومَن هو الذي سمع، بمعزل عن عدد قليل من الناس، في قرطاجة بالشفاء السريع للمدعوّ Innocentius الذي كان محاميًا في المحافظة؛ وهو شفاء قد تمّ بحضورنا ورأيناه، بأمّ العين، أنا وشقيقي اليبيوس في عودتنا دون أن نكون آنذاك بعد في سلك الإكليريكيّة؛ إنّما ملتزمان خدمة الله؛ كان ذلك الرجل تقيًا جدًّا كما هي حال أهل بيته وقد استقبلنا في بيته وأقمنا معه وكان الأطبّاء يعالجون فيه نواسير باسوريّة كثيرة وعميقة واستعملوا له الجراحة ووضعوا كلّ فنّهم العلميّ لشفاء ما تبقّى فنتج له من جرّاء تلك العمليّة أوجاع وآلام قاسية وطويلة؛ ولكنّ جرحًا ما خفي عن أنظار الأطبّاء وعن مبضعهم. أمّا الأخرى التي فتحوها وعالجوها فقد شفيت ما خلا جرح واحد لم ينفع فيه علاجهم المتواصل، فراح المريض ييأس بسبب تأخّر الشفاء ويخشى عمليّة جراحيّة ثانية كان قد حدّثه عنها أحد الأطبّاء المقرّبين إليه الذي لم يسمح له الأطبّاء السابقون بحضور العمليّة الجراحيّة الأولى. فطرده معلّمه غاضبًا من بيته ثمّ عاد فقبله على كدر.

وأغضب التأخير المريض فثار ثائره وقال صارخًا: «ماذا؟ أتريدون أيضًا أن تقطعوا لحمي؟ وهل يجب اللجوء إلى مَن طردتموه؟ أمّا هم وقد سخروا من جهل زميل لهم، راحوا يهدّئون من مخاوفه، بطيب الكلام؛ ومرّت أيّام ولم تنفع فيها علاجات؛ ومع ذلك فقد ثابر الأطبّاء على متابعة الوعد بشفاء الجرح دون اللجوء إلى عمليّة واستدعوا كذلك طبيبًا آخر متقدّمًا في السنّ وعالمًا بأمثال تلك العلاجات وهو أمُّونيوس Ammonius الذي كان لا يزال حيًّا يرزق؛ واطّلع على الجرح؛ واستنادًا إلى مهارة زملائه، تبنّى ما كانوا قد وعدوا به؛ فاطمأنّ دينوشنسيوس وكأنّه قد شفي تمامًا وهزئ بطبيبه الخاصّ الذي سبق وأنذره بعمليّة جراحيّة جديدة. وأخيرًا ماذا نقول؟ ومرّت أيّام على آمال باطلة، كان يرجوها؛ فأعيوا جميعًا واتّفقوا على إجراء عمليّة جراحيّة ضروريّة فامتقع لون المريض واضطرب جدًّا؛ وما إن استعاد روعه وقدرته على الكلام حتّى طلب منهم أن يخرجوا ولا يعودوا إليه نهائيًّا. بكى طويلًا حتّى خارت قواه، ولم يعد قادرًا على شيء؛ ولم يبقَ لديه سوى أن يستدعي جرّاحًا شهيرًا من الإسكندريّة ليعهد إليه بالعمليّة التي أبى على الآخرين أن يجروها له. قدم الطبيب، وبنظرة خبيرة، بموضع الجراح، أثنى على مهارة الأطبّاء الآخرين؛ وبكلّ كرامة أشار إلى المريض بعدم انتزاع ثمرة الشغل من أيدي الأطبّاء السابقين، مضيفًا إلى ذلك، أنّ الشفاء غير ممكن إلّا بإجراء عمليّة ثانية؛ وأنّ كرامته تأبى عليه أن يخلف أناسًا ماهرين عُنُوا، بغيرة، في معالجته ولم يتركوا شيئًا إلّا وعملوه له؛ ولا يجوز له أن ينزع ما اكتسبوه من استحقاقات بفضل الجهود التي قاموا بها تجاهه. وعلى هذا الأساس، فقد صالح المريض

أطبّاءه وتقرّر أن يُجروا له العمليّة بحضور الطبيب الإسكندرانيّ لأنّها وحدها تؤمّن له الشفاء. وأرجئت العمليّة إلى اليوم التالي، ولكن لدى خروج الأطبّاء وقع ربّ البيت في انهيار فظيع، حتّى إنّ الحزن عمّ البيت وكدنا لا نضبط الدموع التي رحنا نذرفها على نعشٍ. كلّ يوم كانت الزيارات المقدّسة ترد عليه: زيارات من أساتورينوس أسقف أوزاليس السعيد الذكر ومن الكاهن جلوزوس Gelosus وشمامسة كنيسة قرطاجة؛ والوحيد بينهم الذي لا يزال قيد الحياة، إنسان جليل القدر والاحترام، الأسقف أوراليوس Aurelius؛ وإذ كانا يستعيدان أعمال الله العجيبة، بدأنا نتحدّث في ما أقصُّه؛ ووجدته قويّ الذاكرة كما كنت أعهده. وفي المساء وقد جاؤوا كعادتهم لزيارة المريض الذي راح يتوسّل إليهم بدموع غزيرة وبكاء مرير أن يحضروا في اليوم التالي مأتمه بدلًا من عذاباته لأنّه قد احتفظ من عذابه الأوّل بخوف رهيب ظنّ نفسه يموت حتمًا بين أيدي الأطبّاء؛ عزّوه وشجّعوه على أن يضع ثقته بالله ويقبل بمشيئته، بتسليم كلّيّ. ومن ثمّ دخلنا في الصلاة وركعت على الأرض كما تعوّدنا؛ أمّا هو فقد سقط على ركبتيه كما لو أنّ قوّة غريبة قد ألقته وراح يصلّي كيف؟ وبأيّة حرارة واندفاع؟ والدموع تنهمر من عينيه، بغزارة، ويزفر ويبكي ويشهق، فمَن ذا الذي يستطيع أن يتصوّر حالته تلك؟ أعضاؤه كلّها ترتجف حتّى كاد يختنق؟ وما كنت أدري إن كان الآخرون يصلّون أو أنّهم يتّجهون إلى الضجّة التي تثيرها تلك الهنيهات من التضرّع أمّا أنا فقد كان يصعب عليّ جدًّا أن أصلّي إنّما قلت من عمق أعماق قلبي هذه الكلمات الوجيزة: «يا ربّ أيّ صلاة تستجيب من خدّامك ولا تقبل هذه التوسّلات!» إذ كان يبدو لي

أنّ لا شيء يمكن أن يضاف إليها سوى أن يلفظ الإنسان أنفاسه وهو يصلّي. نهضنا؛ وبعد بركة الأسقف انسحبنا؛ إذ ذاك استحلف من جديد الحاضرين وطلب إليهم أن يعودوا إليه صباح اليوم التالي؛ أمّا هم فدعَوْه إلى مزيد من الشجاعة. ولمّا جاء اليوم المشؤوم قدم خدّام الله، بحسب ما وعدوه، ودخل الأطبّاء، وقد أعطي كلّ ما هو ضروريّ؛ وأخرجت الآلات الحديديّة الرهيبة وبقي كلّ واحد في هلع وخوف؛ فالذين كانوا على شيءٍ من السلطة أخذوا يرفعون، بأقوال مشجّعة، من معنويات المريض المتدهورة؛ وُضع الجسم بشكل ملائم يساعد على تحرّك الجرّاح في عمله؛ فُكّت الضمادات وكشف عن الجهة المريضة من الجسم وتفحّصها الطبيب وبيده الآلة الرهيبة، راح يبحث عن الناسورة الواجب فتحها. تفحّصها مليًّا ولمسها بإصبعه وأخيرًا بعد أن قام بمحاولات متعدّدة وجد جرحًا مغلقًا وقاسيًا. الفرح والمدائح وأفعال الشكر المرفوعة إلى إله الرحمة القدير التي انتشرت حينذاك كلامًا ودموع فرح لا يمكن أن تسلَّم إلى هذا الخبر؛ أترك للعقل ما أعجز عن قوله.

في مدينة قرطاجة ذاتها، امرأة تقيّة من علّيّة القوم تدعى إينوشنسيا Innocentia كانت مصابة بسرطان في الثدي، لا يمكن شفاؤه، حسب رأي الأطبّاء. من العادة المعروفة أن تجرى عمليّة بتر العضو المريض؛ أو بالأحرى إذا أريد للمريض أن تطول حياته، نوعًا ما، بتأخير المرض بضع هنيهات، والموت المحتّم، يجب استنادًا إلى قول هيبوكرات الامتناع عن كلّ علاج؛ وذاك ما قد تعلّمته تلك المرأة من طبيب ماهر بين أصدقائها الحميمين، وعلى هذا الأساس توجّهت إلى الله وحدها بالصلاة. وعند

اقتراب عيد الفصح أوحي إليها في الحلم، ليلًا، بأن تتّجه في الكنيسة إلى جرن المعموديّة، لجهة النساء، إلى المرأة الأولى التي تلتقيها وترجوها أن تضع إشارة الصليب على موضع الوجع؛ أطاعت وللحال تمّ الشفاء. إنّ الطبيب الذي كان أشار عليها بعدم اللجوء إلى أيّ علاج إن أرادت أن تعيش بعض الوقت لم يتأخّر عن زيارتها وإذ وجدها متعافية تمامًا من مرضها الذي تفحّصه، طلب منها، متأثّرًا، أن تخبره عن الطريقة التي استعملتها؛ والإنسان يدرك اضطراره إلى معرفة ذاك السرّ الذي يتغلّب على مبدأ هيبوكرات؛ عرف منها ما فعلته؛ وبما أنّ منظره وصوته أشارا إلى نوع من الاستهزاء، وخافت المرأة من أن يتلفّظ بكلام مهين للمسيح خيّل إليها أنّه قال: «كنت أتصوّر أنّني سأتعلّم شيئًا ما عجيبًا». وارتجفت المرأة مرتعبة، وأضاف قائلًا: «يا للعجب! هل للمسيح أن يشفي من سرطان هو الذي أقام من الموت ميتًا بعد أربعة أيّام!» حين علمت بهذا الخبر ثار ثائري وقلت: ماذا؟ في قرطاجة ولمصلحة شخص ذي مكانة عالية تمّت أعجوبة هكذا عظيمة وتبقى في السرّ؟ رأيت أنّ من واجبي أن أنبّه عنها تلك المرأة ولربّما أؤنّبها فأجابتني بأنّها لم تسكت عمّا جرى لها فسألت نساءً صديقات لها إن كنّ قد علمن بالأمر فأجبن بأنّهن لم يعرفن شيئًا من ذلك بالإطلاق، فقلت: «أهكذا تسكتين عمّا جرى لك وتتركين في الجهل أشخاصًا ترتبطين بهم ارتباطًا وثيقًا!» ولمّا كنت قد طرحت السؤال بكلمات وجيزة جعلتها تعيد قصّة ما جرى لها بأمانة على مسامع صديقاتها اللواتي استأثر بهنّ العجب ورحن يمجّدن الله.

في المدينة ذاتها طبيب مصاب بداء المفاصل كان قد أعطى

اسمه، طالبًا العماد؛ وفي الليلة السابقة لعماده، رأى في الحلم، أولادًا سودًا، أقزامًا ظنّهم شياطين، منعوه من قبول العماد في تلك السنة. وبما أنّه على الرغم من تحذيراتهم الغاضبة التي حملتهم على إلحاق الضرر برجليه وتكبيده عذابًا مبرحًا بقي مصرًّا على العماد ولم يعبأ بغضبهم؛ وقبل العماد في الوقت المعيّن؛ فشفي ليس فقط من الألم الشديد الذي ألحقوه به ولم يعد يشعر به بل شفي أيضًا من داء المفاصل؛ ذاك الإنسان الوفيّ لعهده والمتغلّب على غضبهم تجدّد في جرن العماد وشفي ليس فقط من الألم الحادّ الذي أصابه بل وأيضًا من داء المفاصل وعاش طويلًا. مَن ذا الذي علم بتلك الأعجوبة؟ ومع ذلك فقد علمنا بها كما علم بها نفر قليل من إخوانٍ لنا استطاع أن يتّصل بهم.

مؤرّخ قديم من سكّان كوروبا Curube مصاب بالشلل وباسترخاء بشع شفي بواسطة مياه الخلاص من كليهما كما لو لم يكن مصابًا بهما وصعد درجات مركز العماد. مَن ذا الذي علم بالموضوع سوى جماعة كوروب وآخرون قليلون كان لهم الحظّ بالسماع به؟ أمّا نحن فإذ علمنا به وبناءً على أمر من أوروليوس المطران القدّيس استدعينا ذلك الرجل إلى قرطاجة مع أنّ شهودًا كثيرين أكّدوه لنا ولم يبقَ لدينا أدنى شكّ في حدوثه.

إنّ هسبريوس Hasperius الذي مرَّ على مركز الإدارة بالقرب منّا؛ يملك على أرض فوسالس Fussales مزرعة مسمّاة زوبديا Zubedie؛ وإذ تأكّد من أنّ الأرواح الشرّيرة تعمل عملها بين أفراد عبيده وتنشر في أجوائهم كما في أجواء قطعانه وفي بيته الخوف والقلق، قصد كهنتنا، بينما كنت غائبًا، طالبًا منهم، أن يرسلوا أحدهم ليطرد، بصلواته، تلك الأرواح الشرّيرة. لبّى طلبه

أحد الكهنة وأقام الذبيحة الإلهيّة والصلوات الحارّة ليبطل تلك الهجمات الضارّة. فاستجاب الله، برحمته؛ على أنّ هسبريوس كان قد استلم من صديق له قليلًا من تراب الأرض المقدّسة من أورشليم حيث قبر المسيح وقام في اليوم الثالث وعلّقه في غرفته ليبقي ذاته في حمى من كلّ روح شرّير؛ ولكن عندما تحرّر بيته تساءل عمّا يجب عليه أن يصنع بذلك التراب الذي أبى أن يحتفظ به في غرفته احترامًا له. وصادف أن كنّا في الجوار، أنا وزميلي، أسقف سنيت Synite المدعوّ مكسيمينوس. دعانا بإلحاح إلى أن نذهب إلى بيته فلبّينا دعوته؛ فبعد أن قصّ علينا ما جرى له، طلب منّا أن ندفن ذاك التراب في مكانٍ ما ونقيم عليه مكانًا للصلاة يمكن للمسيحيّين أن يجتمعوا لإقامة الأسرار الإلهيّة فيه فقبلنا المهمّة ونفّذنا رغبته. على مقربة من ذاك المكان، مزارع شابّ مشلول سمع بالخبر فألحّ على والديه أن يحملاه دون تأخّر إلى ذلك المكان المقدّس وما كاد يصل إليه حتّى أخذ يصلّي فشفي تمامًا وعاد منه سيرًا على قدميه.

في قصر ڤيكتوريانا، على مسافةٍ تكاد لا تبلغ الثلاثين ميلًا عن مدينة هيبون، بلاطة رُفعت، تخليدًا لذكرى شهداء ميلانو، بروته وجرفيه Protais et Gervais؛ حُمِل إليها فتى عند الظهيرة في فصل الصيف؛ وبينما كان يسقي حصانه على حافّة نهر داخله الشيطان فراح يتمرّغ على الأرض وكان أشبه بالميّت حين جاءت كعادتها صاحبة المكان ترافقها نساؤها وبعض الراهبات لترنيم الأناشيد وصلوات المساء. وبدأن يرتّلن وكأنّ أصواتهنّ أخذت تضرب الشيطان وتوقظه فأمسك بالمذبح وراح يهزّه بقوّة، ولم يجرؤ على زعزعته أو لم يستطع؛ فمكث وكأنّه مسمّر عليه، أو

مرتبط به؛ وإذ راح يستميح المغفرة بصوت شاكٍ اعترف أين وكيف ومتى استولى على ذلك الفتى. وأخيرًا أعلن أنّه سيخرج من جسمه وسمّى كلّ عضو من أعضائه مهدّدًا بقطعها وهو يخرج منه؛ ثمّ خرج. غير أنّ عين الشابّ سقطت على خدّه وبقيت معلّقة بشريان صغير كما بجذر داخليّ وأصبح البؤبؤ أبيض بعد أن كان أسود. عندما رأى الحاضرون هذا المشهد ارتموا أرضًا، يصلّون لأجله، وآخرون تراكضوا على صراخه بالرغم من فرحهم لرؤيته يعود إلى صوابه وراحوا يأسفون لخسارة عينه ويبحثون عن طبيب. إذ ذاك فإنّ صهره الذي كان قد جاء به راح يصرخ: «الله الذي طرد الشيطان تجاوبًا مع صلاة القدّيسين ألا يستطيع أن يردّ إليه عينه؟» وللحال أعاد إليه العين كما استطاع بعد أن خرجت من محلّها وتعلّقت وربطها بمحرمةٍ كانت بيده؛ وما ظنّ أنّه يحقّ له أن ينزعها عنها قبل سبعة أيّام؛ بعد انقضاء تلك المدّة وجدت العين وقد برئت تمامًا. شفاءات أخرى تمّت في ذلك المكان؛ ولكن يطول بنا الوقت إذا أردنا أن نذكرها هنا.

فتاة من هيبونا سكبت على جسمها زيتًا كان الكاهن الذي يصلّي لأجلها وقد مزجه بدموعه فخلصت من الشيطان. وكذلك، فإنّ الشيطان خرج فجأة من شخص ممسوس بعد أن صلّى عليه أسقف دون أن يراه.

فلورنسيوس، عجوز فقير، من جماعتنا في هيبون، متديّن، يعيش من شغل الإبرة؛ فقد ثوبه وإذ لم يكن له ما يشتري به ثوبًا آخر جاء في ذكرى العشرين شهيدًا، وهي مشهورة لدينا، وتضرّع إليهم بصوت عالٍ لكي يؤمّنوا له بديلًا. نفر من الشبّان كانوا هناك، ساخرين منه، وعندما خرج لحقوا به هازئين كما لو أنّه

طلب من الشهداء خمسين دينارًا ليبتاع له ثوبًا. أمّا هو وقد سار بصمت فقد شاهد سمكة كبيرة تسقط وتتململ على الشاطئ. أسرع الشباب لمساعدته إذ ذاك استولى عليها وباعها من طبّاخ بثلاثمئة دينار وكان الطبّاخ الذي يدعى كاتوزُس Catosus مسيحيًّا غيورًا فأخبره بما جرى له. وبثمن تلك السمكة استعدّ لمشترى قماش تعمل له منه زوجته ما استطاعته ولكنّ الطبّاخ فتح السمكة فوجد في بطنها خاتمًا من ذهب. وإذ تأثّر ممّا رأى، وبرهبة دينيّة، أعاد الخاتم إلى ذلك الرجل قائلًا له: «هاك الثوب الذي يقدّمه إليك العشرون شهيدًا».

الأسقف براجكتوس Praejectus، وقد حمل إلى تيبيليس Tibilis، رفات الشهيد الممجّد القدّيس أثناسيوس تجمّع عدد كبير من المؤمنين لإحياء ذكراه، امرأة من أهل البلاد، عمياء، يقودها أناس إلى الأسقف المسؤول عن الرفات المقدّس. تقدّم الزهور التي كانت تحملها؛ أرجعوها إليها؛ أدنتْها من عينيها وللحال ترى. وأمام تعجّب الحاضرين، استولى عليها الفرح قبلهم، تقدّمت ومنذ ذلك الحين لم تعد تطلب مَن يساعدها ويدلّها ليحميها في سيرها.

إنّ ذخائر الشهيد نفسه الموضوعة في سينيت في جوار مستعمرة هيبون كان يحملها الأسقف المكاني. لوسيللوس يسبقه شعبه ويسير بأكمله وراءه كان يعاني من ناسورة منذ زمن طويل وينتظر يد الجرّاح، نال للحال الشفاء، بواسطة ذلك الحمل المقدّس لأنّ الأسقف لم يعد يجد في جسمه أثرًا لذلك الألم.

أوخاريوس كاهن من إسبانيا يقيم في كالاما Calama كان

يشعر، منذ سنوات، بألم شديد لازمه طويلًا، شفي منه بواسطة رفات ذلك القدّيس الذي حمله إلى كالاما الأسقف بوسيديوس Possidius ثمّ إنّ ذلك الكاهن أصيب بمرض عضال كاد يودي بحياته ولكنّه شفي منه بفضل ذلك القدّيس الشهيد عندما وضع ثوبه عليه.

لقد كان بين وجهاء تلك المدينة رجل يدعى مارسيال Martial طاعن في السنّ يكره الديانة؛ وكانت له ابنة مسيحيّة قد تعمّد زوجها تلك السنة؛ وإذ مرض والدها جاءته وزوجها تلحّان عليه بأن يصير مسيحيًّا فرفض رفضًا باتًّا وطردهما من أمام وجهه؛ فكّر صهره بأن يستغيث بالقدّيس إسطفانوس فيتوسّل إلى الله كي يلهم العجوز أن يعتنق ديانة المسيح دون تأخّر. صلّى إليه، باكيًا، بكلّ تقوى وحرارة إيمان وقبل أن يخرج من الكنيسة تناول عن المذبح بعض الزهور، وإذ كان الوقت ليلًا جاء ووضعها بالقرب من رأس المريض. نام المريض ولكنّه قبل أن يطلع الفجر صرخ طالبًا الأسقف الذي كان معي في هيبون. وعندما علم بأنّه غائب استدعى الكهنة ولمّا رآهم أعلن إيمانه بالمسيح ففوجئوا بما رأوا وسمعوا وسرّوا جدًّا ومنحوه سرّ العماد المقدّس. وفي المدّة التي بقيت له من العمر بعد عماده كان يردّد باستمرار: «أيّها المسيح اقبل روحي» وهي الكلمات الأخيرة التي قالها القدّيس إسطفانوس ساعة رجمه اليهود دون أن يعرف أنّها منه ثمّ أسلم الروح.

شفى الشهيد القدّيس في ذلك المكان اثنين مصابين بداء المفاصل، أحدهما مواطن لنا والثاني غريب عن المدينة. شفاء أحدهما كان تامًّا والثاني أوحي إليه بما يجب أن يعمله حين

تشتدّ العذابات عليه فعمل وللحال كان يهدأ الوجع.

أودوروس Audurus مكان شيّدت فوقه كنيسة وفيها ذكر للقدّيس إسطفانوس. كان ولد صغير يلعب في ساحتها فإذا بثورين يجرّان عربة خرجا عن الطريق وسحقا الطفل تحت الدواليب الذي مات للحال. حملته أمّه وأدنته من ذخيرة القدّيس فقام للحال دون أن يظهر عليه أيّ أثر للجراح.

في كاسباليوم Caspallium وهي أرض مجاورة مرضت راهبة مرضًا غير قابل للشفاء فحملوا ثوبًا لها إلى ذخيرة القدّيس إنّما توفّيت الراهبة فغطّى ذووها جسمها بذلك الثوب فعادت إليها الحياة والعافية.

في هيبون، رجل من سوريا يدعى بسّوس Bassus راح يصلّي أمام ذخيرة القدّيس لأجل شفاء ابنة له كانت في خطر الموت وكان قد حمل معه إلى الكنيسة فستان ابنته؛ وبينما هو على تلك الحال جاءه خدّام له مسرعين لكي يخبروه أنّ ابنته قد ماتت؛ وبينما هو يصلّي استوقف أصدقاءُ له الخدّام ومنعوهم من نقل خبر الوفاة إليه خوفًا من أن يستسلم إلى البكاء والنحيب على مشهد من الجميع. ولمّا عاد إلى البيت وقد كان يضجّ بالبكاء والعويل ألقى الفستان على ابنته وللحال عادت إليها الحياة.

إبن أحد هواة المجموعات المدعوّ إيرينايوس Irenaeus يموت مريضًا وبينما كان جثمانه مسجّى والجنّاز يهيّأ وسط العويل والنحيب تقدّم أحد الأصدقاء من والده تاركًا لغيره أن يقدّم التعازي اقترح على والده بأن يرشّ على الجثمان زيت الشهيد. وللحال قام الميّت.

إنّ النائب القديم ألوزينوس Eleusinus وضع على ذخيرة الشهيد القدّيس الكائنة في حيّ من أحياء هيبون ابنه الذي فتك به مرض عضال فعادت إليه الحياة بعدما بكى طويلًا وصلّى لأجله.

ما العمل؟ إنّ الحدّ الذي وضعتُه لهذا الكتاب يلحّ عليّ بأن أتقيّد به، ولا يسمح لي بأن أذكر كلّ المعجزات التي أعرفها؛ وكم من المؤمنين الذي يقرأون ما كتبته، ويرون، بألم، كم أغفلت من أحداث يعرفونها مثلي! أطلب منهم أن يسامحوني وأن ينظروا إلى ما يتطلّب من وقت التبسّطُ بكلّ تلك الأخبار التي لا تسمح لها بها الحدود التي اضطرّتني إلى الامتناع عن ذكرها؛ حتّى إذا اكتفيت بسرد الشفاءات العجائبيّة التي تمّت على يدَي إسطفانوس الشهيد الممجّد في كالاما وهيبون وحدهما لاضطررت إلى أن أملأ منها عدّة مجلّدات على أنّنا جمعنا فقط ما يمكننا أن نجعل منه مادّة مطالعةٍ للناس؛ ولقد رتّبناها بحسب ما رأينا من عجائب مماثلة لها في الأزمنة تتجدّد في أيّامنا الحاضرة فكان من الواجب أن نبقيها حيّة في ذاكرة الشعوب. وقبل أن تمرّ سنتان على وجود ذخيرة القدّيس إسطفانوس الثمينة في هيبون؛ ومع أنّنا لم نحصِ كلّ المعجزات التي حصلت بواسطتها على أنّها بلغت حتّى الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمات سبعين أعجوبة. في كالاما التي ضمّت الذخيرة المقدّسة، منذ زمن طويل، تتجدّد تلك الأحداث باستمرار حتّى فاقت كثيرًا العدد السابق ذكره.

إنّنا نعلم أيضًا أنّ عجائب كثيرة قد تمّت على يدي الشهيد ذاته في مدينة أوزال Uzales وهي مستعمرة لأوتيكا وكانت تملك بفضل الأسقف أفوديوس ذخائر للقدّيس قبل هيبون بزمان طويل. على أنّه

لم تجر العادة هناك على تسجيل حوادث، من هذا النوع، إنّما خلال وجودنا في ذاك المكان، طلبنا موافقة الأسقف من المدعوّ بترونيا، وهي سيّدة من طبقة الأشراف، أن تدوّن شفاءها العجائبيّ من مرض عضال استنفد كلّ معارف الأطبّاء لنجعل ممّا تكتبه مادّة للمطالعة. وأمام إلحاحنا انصاعت وكتبت حادثًا لا أستطيع إلّا أن أدوّنه وإن كانت قد بلغت الحدَّ الذي فرضته على نفسي في هذا الكتاب. قالت السيّدة: «لقد أقنعني شخص يهوديّ بأن أضع على جسمي وتحت ثيابي زنّارًا مجدولًا من الشعر فيه خاتم يحمل حجرًا مأخوذًا من كلوة ثور؛ زنّرت نفسي بهذا السرّ الخلاصيّ وجئت إلى كنيسة القدّيس الشهيد. ولكنّني في أحد الأيّام انطلقت من قرطاجة وتوقّفت في إحدى مناطقها على شاطئ نهر بغرادا Bagrada وإذ قمت لمتابعة سيري شاهدت الخاتم على قدميّ فتعجّبت ومددت يدي إلى حيث كان مثبّتًا في الزنّار ولمّا تأكّدت من متانة العقد التي كانت تشدّ الزنّار ظننت أنّ الخاتم قد انقطع وسقط وإذ رأيته سالمًا علمت أنّ هذا هو إشعار لي بأنّي قد استعدت عافيتي فحللت الزنّار ورميته مع الخاتم في النهر». أنتم لا تصدّقون هذا الحدث يا مَن لا تؤمنون أنّ ربّنا يسوع خرج من حشا أمّه دون أن يشوّه عذريّتها وأنّه دخل على تلاميذه في خلوتهم والأبواب موصدة. ومع ذلك تأكّدوا من هذا الموضوع وإذا ما حصلتم على البرهان آمنوا بالباقي. تلك امرأة شهيرة المحتد، متزوّجة من رجل شهير تسكن قرطاجة المدينة الشهيرة والشخص هو من عليّة القوم والبحث عن هذا الخبر يكون مجديًا. لكن الذي نال بصلواته الشفاء لتلك المرأة، ذاك الشهيد القدّيس آمن بابن المرأة التي بقيت بتولًا؛ آمن به

يدخل على تلاميذه في خلوتهم والأبواب موصدة؛ ولكي نقول كلّ شيء لقد آمن به يصعد إلى السماء بالجسد الذي أقامه من القبر. ولهذا فهناك عجائب كثيرة يصنعها ذاك الشهيد الذي بذل حياته إيمانًا به. واليوم أيضًا عجائب كثيرة تحدث؛ والله ذاته يصنعها مع مَن يشاء وكما يشاء هو الذي صنع العجائب التي نطالعها. غير أنّ هذه الأخيرة ليست معروفة كسواها؛ وقراءة متكرّرة لا تطبعها على حقل الذاكرة الخفيّ لأنّ الذين يسمعون قراءتها، مرّة واحدة، حيث يهتمّ المسؤولون بإلقائها على الشعب مرّة، قد ينسونها ولا نجد واحدًا من الحاضرين ينقلها إلى آخر، لم يكن حاضرًا حدثًا سمعه لكي يطلعه عليه.

إليكم أعجوبة حدثت في هيبون، أكيدة، ولكنّها ليست أعظم ممّا تحدّثت سابقًا عنه وهي معروفة لدى الجميع من أبناء المدينة. أمّا لأنّهم رأوها أو سمعوا بها، ولا أحد يستطيع أن ينساها مدى الحياة. عشرة إخوة (سبعة أبناء وثلاث بنات) في أسرة شهيرة في قيصريّة كبادوكية نزلت عليهم لعنة والدتهم التي وجدت نفسها محرومة، بعد وفاة زوجها، وقد عاملوها معاملة سيّئة جدًّا، فأصبحوا جميعًا مصابين بارتجاج رهيب في أعضائهم. وإذ خجلوا من الظهور بهذه الحال الكريهة أمام مواطنيهم تشتّتوا تحت كلّ سماء؛ تائهين في العالم الرومانيّ. جاء اثنان منهم إلى هيبون، أخ وأخت له، بول وبلاديا وأصبحا معروفين في أمكنة أخرى ببشاعتهم؛ وصلا إلى هيبون قبل الفصح بخمسة عشر يومًا وراحا يزوران الكنيسة باستمرار ولا سيّما ذخائر القدّيس إسطفانس، يتضرّعان إلى الله طالبَين منه المغفرة واستعادة العافية التي كانا فيها سابقًا؛ وهناك وحيثما توجّها كانا يجتذبان أنظار

ناس في المدينة. وإذ رآهما بعض الناس في مكان آخر واطّلعوا
لى حقيقة أحوالهما كانوا يخبرون الناس عنهما وعمّا تسبَّب
هما بتلك الحال. يوم الفصح ومنذ الصباح الباكر، أمَّ الكنيسة
دد غفير من المؤمنين فإذا بالشابّ الممسك بدرابزين المكان
مقدّس الذي يحتوي على ذخيرة القدّيس يسقط رأسًا على عقب
يبقى كأنّه نائم دون أن يشعر بالارتجاج الذي ما كان ليفارقه
تّى في النوم. خاف الناس أمام هذا المشهد واستولى على
ضهم الدهشة وعلى الآخرين الشفقة، فأراد بعضهم أن ينهضوه
آخرون منعوهم، منتظرين النهاية كيف تكون. للحال وقف دون
ن يرتجف وقد شفي تمامًا؛ انتصب وراح يتطلّع إلى الشعب
يتبادل معه النظرات. أيّ إنسان استطاع آنذاك أن يرتفع بعاطفته
ى الله؟ فضجَّت الكنيسة بصراخات الفرح. ركض الجميع نحوي
يث كنت جالسًا وقد هممت بالوقوف. والجميع وثبوا يخبروني
ما جرى. فرحت وشكرت الله وإذا بالشابّ يأتي إليّ محاطًا
ثيرين؛ ركع على ركبتي ثمّ نهض فقبّلته وتقدّمنا معًا إلى الشعب
ذي ملأ الكنيسة وراح يهتف بفرح قائلًا: «الشكر لله! المجد
!» هتافات كانت تصدر من كلّ نواحي الكنيسة على ألسنة
جميع. حيّيت الشعب فتضاعفت الهتافات وأخيرًا خيَّم الصمت
رحنا نتلو الكتاب المقدّس وبعدئذ حان الوقت لكي أقول كلمة
ول عيد النهار وسعادة اليوم الذي نحن فيه تاركًا للشعب أن
جب من فصاحة الله في عمله هذا الإلهيّ بدلًا من الاستماع
ى كلامي. تناول الشابّ الطعام معنا وقصَّ علينا، بالتفصيل،
ب تعاسته، تعاسة أمّه وإخوته. وفي اليوم التالي، بعد العظة،
دت بأن أقرأ علنًا كلّ ما جرى. وفي الأحد الثالث بعد

الفصح وبينما كانت قراءة ما جرى تتلى على مسامع الناس أقمت الأخ وأخته على درجات المنبر الذي صعدت إليه، لأتكلّم إلى الشعب، وراح الناس ينظرون إليهما، الشقيق واقف وقد برئ من ذلك المرض القبيح، بينما شقيقته كانت لا تزال ترتجف، بكلّ أعضائها؛ حتّى إنّ الذين ما كانوا قد رأوا الشابّ قبل شفائه كانوا يرون في شقيقته ما عملت رحمة الله له فشكروا الله عمّا أنعم به عليه وتوسّلوا إليه من أجل أخته. بعد أن أنهيت قراءة قصّتهما طلبت من الناس أن يخرجوهما من الكنيسة وبدأت أعطي بعض الأفكار حول مجموع تلك الأحداث بينما رحت أسمع هتافات فرح جديدة صادرة من جهة قبر الشهيد القدّيس أوقفتني عن متابعة الكلام. والسبب هو أنّ الفتاة التي ما أن نزلت درجات المنبر حتّى راحت تصلّي على قبر القدّيس. وما كادت تلمس الدرابزين حتّى سقطت أرضًا كأنّها نائمة ثمّ نهضت بريئة. سألناها عمّا جرى ومن أين تأتي هتافات الفرح فإذا بها تعود عن قبر الشهيد العجائبيّ إلى الكنيسة حيث كنّا؛ إذ ذاك ارتفعت هتافات الإعجاب من جميع مَن هم في الكنيسة فضلًا عن الحماس ودموع الفرح التي انهمرت من العيون دون انقطاع. إقتادوها إلى حيث كانت سابقًا ترتجف فشاعت في الجماهير موجة من الغبطة؟ ولم يعد لها أن تغار ممّا كان عليه شقيقها من سعادة؛ كلّ صلاة سبقتها الرحمة الإلهيّة تستجاب للحال في الإرادة السابقة لها! وتعالى إلى الله دعاء من المحبّة بحماسٍ لم يُفصح عنه بالكلام تكاد آذاننا لا تقوى على ردّه. ماذا كانت تخبّئ تلك القلوب المنتظرة في أعماقها؟ الإيمان بالمسيح الذي سفك إسطفانوس دمه لأجله.

٩

العجائب التي جرت على أيدي الشهداء باسم المسيح تشهد لإيمانهم بالمسيح

لمَن تشهد تلك العجائب، إلّا للإيمان الذي يعلن عن قيامة المسيح وصعوده إلى السماء بالجسد؟ لأنّ الشهود أنفسهم كانوا شهداء لذلك الإيمان واستحقّت تلك الشهادة كراهية العالم له والاضطهادات التي تغلّبوا عليها لا بمقاومتهم بل بموتهم. في سبيل ذلك الإيمان ماتوا هم الذين يستطيعون أن يحصلوا على تلك النِعَم من الربّ وقد ذبحوا من أجل اسمه. من أجل ذلك الإيمان تعذّبوا ونتجت عن صبرهم الرائع تلك المعجزات الباهرة، إذ لو لم تسبق في المسيح قيامته بالجسد للحياة الأبديّة كما بشّر بها المسيح وتكلّم عنها الأنبياء الذين تنبّأوا عن المسيح فلِمَ يعطى أمواتٌ ذلك السلطان؟ ولِمَ يذبح أناس في سبيل الإيمان بالقيامة؟ إمّا لأنّ الله، بحسب الأسلوب غير المدرك الذي تعمل به أزليّته في الزمان، يحقّق تلك المعجزات مباشرة أو بواسطة خدّامه وإمّا إنّه يصنع بعضها بواسطة أرواح شهدائه كما لو أنّهم لا يزالون يحيون على هذه الأرض حياتهم الجسديّة أو أنّه يصنعها كلّها بواسطة الملائكة الذين يسيطر عليهم بشكل غير منظور، ثابت وروحيّ، بحيث إنّ المعجزات المنسوبة إلى الشهداء تعود إلى صلواتهم وحدها دون أيّ تدخّل فعّال. وأخيرًا أيًا تكن الطريقة التي لا يدركها البشر والتي تصير بها تلك المعجزات فإنّها تؤدّي دومًا شهادةً لذاك الإيمان الذي يعلم أنّ الأجساد تقوم في الأبديّة.

١٠

الفرق بين ما يسمّى معجزات لدى الشياطين والعجائب التي يجترحها الشهداء

وقد يقولون هنا إنّ آلهتهم صنعوا بعض المعجزات المماثلة. يا للحظّ السعيد إن توصّلوا إلى مقارنة آلهتهم بأناس منّا لم يعد لهم وجود! وهل يقولون إنّهم هم أيضًا قد أخرجوا آلهة من أولئك الناس الذين ماتوا: هركول وروملوس وآخرون كثيرون يظنّون أنّهم قد رُفعوا إلى مصاف الآلهة؟ أمّا بالنسبة إلينا فالشهداء ليسوا آلهة لأنّنا نعرف أنّه واحد إلهنا وإله الشهداء... وهلّا يقارنون بين المعجزات التي تمّت بفضل شهدائنا وتلك التي يدّعون أنّها تمّت بواسطة هياكل آلهتهم؟ وإن كان هنالك بعض الشبه فإنّ شهداءنا يهزمون آلهتهم كما هزم موسى مجوس فرعون. إنّ غرائب الشياطين هي بوحي من ذلك الصلف الفاسد الذي يدفع به لأن يكونوا آلهة أولئك الناس. أمّا معجزات الشهداء أو تلك التي يصنعها الله تجاوبًا مع صلاتهم أو بالمساهمة معهم فإنّها لا تبغي إلّا نشر الإيمان الذي يجعلنا نؤمن أنّهم ليسوا آلهة لنا وليس لهم معنا سوى إله واحد. وفي النهاية، إنّهم يبنون لآلهتهم معابد - ويا لهم من آلهة - هؤلاء يبنون معابد، يقيمون مذابح، يكرّسون كهنة ويقدّمون ذبائح؛ ونحن لا نبني هياكل لشهدائنا كما للآلهة بل نبني كما لبشر ماتوا تعيش نفوسهم بقرب الله؛ ولا نقيم فيها مذابح لنذبح للشهداء بل لله وحده، إلههم وإلهنا؛ وفي تلك الذبيحة بصفتهم رجال الله، غلبوا العالم باعترافهم باسمه فهم

يسمّون في مكانهم ورتبتهم بيد أنّ الكاهن الذي يقدّم الذبيحة لا يدعوهم. أمّا الذبيحة ذاتها فهي جسد المسيح الذي لا يقدَّم لهم لأنّهم هم أنفسهم أيضًا ذاك الجسد. وأيّة معجزات تاليًا نفضّل للإيمان؟ أمعجزات الذين يدَّعون أنّهم آلهة أو معجزات الذين لا يريدون شيئًا سوى إقامة الإيمان بالله، الإيمان بيسوع المسيح؟ هل نؤمن بالذين يريدون تكريس مساوئهم أو بالذين يأبون أن يكرّسوا مدائحهم مقدّمين كلّ مديح شرعيّ لمجد مَن هم فيه يُمدحون؟ لأنّنا، بالربّ نعظّم نفوسهم. وعليه، فلنؤمن إذًا بهم، بصحّة كلماتهم وعظمة عجائبهم. بالتبشير بالحقيقة والمعاناة في سبيلها قادهم صبرهم إلى أن يكونوا قديرين. وإنّ إحدى الحقائق التي يبشّرون بها هي أنّ المسيح قد قام من بين الأموات وأنّه أوّل مَن أظهر في جسده أنّ القيامة أبديّة وقد وعدنا بها في بداية الوضع الجديد وفي نهاية هذا الدهر.

١١

الردّ على ادّعاء الأفلاطونيّين بأنّ الجسد الترابيّ لا يكون في السماء

ضدّ هذه النعمة الإلهيّة اللامحدودة فإنّ تلك الأفكار التي يعرفها الله بكلّ ما فيها من بطلان تعتمد على ثقل العناصر. ألم يتعلّموا من أفلاطون معلّمهم أنّ الجسمين الأكبر في الكون القائمَين على أبعد مسافة ممكنة الواحد عن الآخر يربط ويوحّد بينهما عنصران هما الماء والهواء؟ ومن ثمّ، يقولون طالما أنّ الأرض، صعودًا، هي الجرم الأوّل والماء الجرم الثاني فوق

الأرض؛ الهواء هو الثالث فوق المياه، والسماء الجرم الرابع فوق الهواء فمن المستحيل على جرم أرضيّ أن يكون في السماء لأنّه يجب على كلّ جرم لكي يثبت في نظامه أن يتأرجح بحسب حركاته الخاصّة. بهذه الحجج، فإنّ الإنسان الضعيف المستسلم إلى الباطل يناقض قدرة الله. وتاليًا ماذا تعمل عدّة أجرام أرضيّة معلّقة في الهواء، ثالث جرم فوق الأرض؟ ألا يقدر أن يعطي الأجسام البشريّة التي أصبحت لا تموت أن تقوم في أعالي السماوات ذاك الذي أعطى أجسام الطيور الأرضيّة أن تحلّق في الهواء بطيران خفيف؟ وعلى الحيوانات الأرضيّة غير القادرة على الطيران ومن بينها البشر أن تعيش تحت الأرض كما هي حال الأسماك والحيوانات المائيّة التي تعيش تحت المياه. وعليه، فلِمَ لا يأخذ الحيوان الأرضيّ على الأقلّ حياته من العنصر الثاني أي من الماء بدلًا من الثالث؟ ولماذا، وهو مختصّ بالأرض، لا يستطيع أن يعيش في العنصر الثاني الذي هو فوق الأرض دون أن يصاب للحال بالاختناق؟ ولكي يعيش فهل يجب أن يعيش في الثالث؟ وهل هناك من خطأ في نظام العناصر؟ أو بالأحرى أليس تفكيرهم في ضلال وليست الطبيعة؟ ودون أن أكرّر ما قلت في الكتاب الثالث، كم من أجسام أرضيّة ثقيلة كالرصاص يمكن ليد الفنّان أن يعطيها شكلًا معيّنًا يرفعها على سطح الماء؛ ولكن، أن يكون الجسم البشريّ قابلًا لأن يأخذ صفة ترفعه إلى السماء وتثبّته فيها فذاك يكون تحدّيًا للفنّان الأعظم!

ومن ثمّ فلا يمكنهم أن يقدّموا فكرة واحدة مأخوذة من نظام العناصر الذي إليه يستندون، مناوئةً لما قدّمتُه؛ لأنّ ذلك النظام الترابيّ الذي يرتفع من الأرض إلى الماء ومن الماء إلى الهواء

ومن الهواء إلى السماء لا يقدر، فوق كلّ شيء، إلّا أن تحلّق طبيعة النفس. أرسطاطاليس يعمل منها جسمًا خامسًا ويأبى أن تكون جسمًا. بالطبع أن تكون جسمًا خامسًا يعني أنّها أسمى من الكلّ؛ ولكن بما أنّها ليست جسمًا فهي تسمو بشكل لا يحدّ على كلّ جسم؛ وماذا تعمل إذًا في جسم أرضيّ؟ تحت ذاك الحجم ماذا تعمل تلك الطبيعة الأسمى من الكلّ؟ وتحت ذاك الوزن الأخفّ من الكلّ؟ وتحت هذا البطء الأكثر حدّة في الكلّ؟ إنّ طبيعةً بذاك الامتياز تؤهّل جسدَها لأن يرتفع إلى السماء! ماذا؟ هل إنّ كتلة من طين تستبقي النفس تحت؛ ولا تستطيع النفس أن ترفع في يوم من الأيّام هذه الكتلة إلى فوق؟

لننتقل إلى معجزات آلهتهم التي يضعونها مقابل عجائب شهدائنا. ألا نجدها تصبّ في مصلحتنا؟ وإن كان ما سمّوه معجزة كبرى يحكي عنها فرّون عندما اتّهمت زورًا بالخلاعة عذراء إلهيّة فملأت غربالًا من مياه التيبر وحملته إلى قضاتها دون أن تضيع منه نقطة مياه واحدة. مَن ذا الذي استبقى على الغربال ثقل الماء؟ مَن ذا الذي منع المياه من أن تتسرّب من خلال الثقوب الكثيرة؟ سوف يقولون: إله ما أو شيطان ما؟ إن كان ذاك إلهًا فهل هو أعظم من خالق الكون؟ أو كان شيطانًا فهل هو أقدر من الملاك الخاضع للإله الذي خلق الكون؟ إن كان تاليًا إلهًا أدنى، ملاكًا أو شيطانًا استطاع أن يمسك بوزن عنصر سائر بحيث إنّ الماء ظهر في طبيعة متغيّرة؛ فالله القدير، خالق العناصر كلّها ألا يستطيع أن يحرّر جسدًا أرضيًّا من وزنه ليسكن، وقد منح الحياة، حيث يروق للروح المحيي أن يضعه؟

الآن، حين يضعون الهواء وسيطًا بين النار والماء، تحت

الواحد وفوق الآخر، ألا يرون أنّه يوجد غالبًا بين الماء والماء، بين الماء والأرض؟ وبحسب ما يقولون هل السحب هي غير الماء؟ ومع ذلك ألا ينتشر الهواء بينها وبين البحر؟ ما هو الوزن؟ أسأل؛ ما هو النظام في العناصر الذي يجعل الأنهر الجارفة تبقى فوق الهواء مجمّعة في السحب قبل أن تجري تحت الهواء فوق الأرض؟ ولماذا أيضًا في الكون الفسيح نجد الهواء بين أعالي السماء والأرض العراء إن كان له محلّ بين السماء والماء كما أنّ للمياه محلّها بين الأرض والسماء؟

وأخيرًا، إن كان ذاك هو نظام العناصر بحسب رأي أفلاطون وهو أنّ الجسمين المتوسّطين الهواء والماء يجمعان الطرفين النار والأرض، أحدهما يشغل مناطق السماء العليا والآخر المكان الأدنى كالأساس الأخير للكون؛ وانطلاقًا من ذلك فالأرض لا يمكنها أن تكون في السماء، فلم النار هي ذاتها على الأرض؟ واستنادًا إلى هذا القول فإنّ ذينك العنصرين الأرض والنار يبقيان حتمًا كلّ منهما في مكانه الخاصّ، الأعلى والأدنى حتّى إذا حرّم على العنصر الأدنى أن يصعد فلا يجوز أن يُسمح للعنصر الأسمى بأن ينزل. وإن كان رأي الفلاسفة يقول بأن تُطرد من السماء، اليوم وإلى الأبد، أقلّ ذرّة أرضيّة فلا يجوز أن تظهر فوق الأرض شرارة ناريّة من السماء مهما تكن صغيرة. ومع ذلك فالنار هي حقيقيّة على الأرض؛ ماذا أقول؟ تحت الأرض، فلتتقيّأها قمم الجبال؛ ألا نراها مفيدة لتلبية حاجات الإنسان فوق الأرض؟ ألا نراها تخرج من الأرض عندما تتفجّر من الخشب والحجر وهما جسمان أرضيّان؟ ولكنّهم يقولون إنّ النار السامية هي نار هادئة، أنيقة، بريئة وأبديّة بينما هذه النار هي عنيفة

محمَّلة بالبخار، قابلة للفساد والأفساد. ومع ذلك فإنّها لا تفسد الجبال والمغاور حيث الاحتراق إلى الأبد. على أنّي أقبل بذلك الفرق للتأليف بينها وبين الأرض حيث نسكن؛ لماذا لا يريدون الآن أن يدعونا نؤمن أنّ طبيعة الأجسام الأرضيّة، التي تصبح يومًا ما غير قابلة للفساد تتآلف مع السماء كما هي النار القابلة للفساد اليوم تتآلف مع الأرض؟ إنّ وزن العناصر ونظامها لا يقدّمان أيّ برهان يجعلنا ننكر على الله القدير القدرة على التغيير في أجسامنا حتّى تصبح قادرة على السكنى في السماء.

١٢

الردّ على ادّعاءات غير المؤمنين واتّهاماتهم المسيحيّين بما يختصّ بالقيامة

ولكنّ الوثنيّين الذين يمطروننا بالأسئلة الاستهزائيّة الموجّهة إلى إيماننا بقيامة الجسد يسألوننا عمّا إذا كانت الثمار المجهضة تقوم أيضًا من الموت؟ وبما أنّ الربّ قال: «الحقّ الحقّ أقول لكم لا تسقط شعرة واحدة من رؤوسكم». (لو ٢١/ ١١) يسألون إن كانت القامة والقوّة هما متساويتان لدى الجميع أو إن كانت الأجسام مختلفة في حجمها؟ لأنّه إن كانت الأجسام متساوية فمن أين، لتلك الثمار المجهضة لدى قيامتها، أن يكون لها ما لم يكن لها ها هنا؟ أو إن لم يكن لها أن تقوم من الموت لأنّها لم تعرف الولادة فإنّهم يحرّكون السؤال ذاته بالنسبة إلى الأطفال الذين يموتون لدى الولادة ومن أين لهم النموّ الجسديّ الذي لم يكن لهم اليوم؟ إنّنا لن ننكر القيامة على الذين يمكنهم أن يولدوا

بل على الذين يمكنهم أن يولدوا من جديد. ومن ثمّ نسأل عن أسلوب المساواة الشاملة. القامات الكبرى والأطوال في هذا العالم هل تصبح من الآن وصاعدًا القاعدة العامّة؟ إذ ذاك لن يشمل هذا السؤال الأطفال وحدهم، بل القسم الأكبر من الناس؟ إن كان على كلّ إنسان أن يستعيد ما كان له ها هنا فمن أين يحصل معظم الناس على ما افتقدوه ها هنا؟ إن كان علينا بحسب قول الرسول أن نبلغ «ملء قامة المسيح» (أف ٤/ ١٣) وإن كان الله «قد أعدّنا لنكون على مثال صورة ابنه» (روم ٨/ ٢٩) يعني أنّ قامة جسد المسيح وقياسه يصبحان القامة والقياس بالجسد لجميع الذين سوف يجمعهم في ملكوته؛ إذ ذاك يقولون إنّه يجب الاقتطاع من هيكليّة عدد كبير ونسبهم؛ وماذا تصبح العبارة: «لن تهلك شعرة واحدة من رؤوسكم» إن كانت عظمة الأجساد مؤهّلة لأن تخسر وإن استطعنا أن نسأل أيضًا فيما يختصّ بالشعر إن كان الشعر الذي قصّه الحلّاق سوف يرجع إلينا أيضًا. إن كان الأمر هكذا فمَن ذا الذي لا يرتجف أمام ذلك التشويه؛ وكذلك تكون حال الأظافر التي خسرناها حفاظًا على نظافة أجسادنا! وأيّ محلّ يكون للياقة في حالة الخلود مستقبلًا التي تختلف بكلّ تأكيد عمّا هي عليه في حالة الفساد الراهن؟ ولكن إن لم يرجع كلّ ذلك فهل كلّ ذاك إلى فساد؟ وكيف يكون صحيحًا أنّ كلّ شعرة من الرأس لا تهلك؟ واعتراض مشابه ينشأ حول الضعف والبدانة إن كانت مساواة فلا بدانة ولا ضعف. بل نموّ لأناس وتراجع لآخرين. وانطلاقًا من ذلك لا يعاد شيء ولا يزاد شيء آخر لم يكن هنا يؤخذ ما كان.

أمّا فساد الجثث وانحلالها بعودة قسمٍ منها إلى التراب وتبخّر

القسم الآخر، فالبعض تفترسه الحيوانات وتلتهمه النيران والبعض الآخر تبتلعه الأغوار وتنساب أجسادها في سائل فاسد؛ ذاك أيضًا أمر صعب بالنسبة إلى الوثنيّين؛ أن يعود ذاك الاهتراء وذاك التراب ويصطلح ويعود جسدًا فهذا ما لا يصدّقونه. إنّهم لا يزالون متمسّكين بكلّ نقص جسديّ سواء أكان متأتّيًا عرضًا أم بالولادة. وإذ يتكلّمون بسخرية ورهبة عن ولادات الأقزام يسألون عن نوع القيامة التي إليها تصير لأنّنا قد نجيب بأنّ جسم الإنسان سيقوم متحرّرًا من كلّ فساد ويتخيّلون أنّهم يدحضون رأينا بواسطة قروح الربّ يسوع التي نصرّح بأنّها تقوم معه. ولكن ها هو السؤال الأصعب بين كلّ الأسئلة التي يطرحونها علينا؛ لمَن يعود جسم الإنسان الذي جعلت منها أحشاء الإنسان طعامًا لها؟ ذاك الجسم جعل ذاته الطبيعيّة الخاصّة لمَن التهمها؛ تلك الفراغات التي أظهرها الضعف عبّأها. هل يعود للإنسان الذي كان له في البدء جسمًا له أو للذي أصبح له غذاءً؟ ذاك هو الاعتراض الذي يقدّمونه للسخرية من الإيمان بالقيامة ووعد النفس البشريّة، إمّا، مع أفلاطون تقلّبات أبديّة لشقاء حقيقيّ وسعادة كاذبة، وأمّا مع برفيروس، بعد تنقّلات عديدة في أجساد متنوّعة، حدًّا نهائيًّا لتلك الشقاوات ليس بواسطة الخلود الجسديّ بل بالهروب من كلّ جسد.

١٣

مشكلة الولادات الإجهاضيّة

إنّ رحمة الله التي تغيث جهودي تسمح لي بأن أجاوب على

الاعتراضات التي عرضتها على نفسي من قبل خصومنا. إنّ الثمار المجهضة التي تموت في بطون أمّهاتها حيث عاشت، هل هي قابلة للقيامة؟ أنا لا أستطيع أن أنفي ولا أن أؤكّد. ومع أنّي لا أرى لماذا تهتمّ بقيامة الموتى إن لم يوضعوا خارج عدد الأموات. لأنّه، أو أنّ الأموات لا يقومون جميعهم وبعض النفوس البشريّة تبقى إلى الأبد بلا أجساد، هي التي كان لها أجسام بشريّة في بطون أمّهاتها، هناك، وهذا صحيح. أو أنّ الأنفس تستعيد أجسامها المدعوّة إلى القيامة حيث كانت لها طوال حياتها، أو أنّها قد تركتها في الموت ولست أجد ما أقوله ضدّ قيامة بعض الموتى من بين الذين ماتوا في حشا أمّهاتهم. ولكن أيًّا يكن شعورنا في هذا المجال فيجب أن نطبّق عليهم إن قاموا من بين الأموات ما سوف نقوله في الأطفال المولودين حديثًا.

١٤

هل يكون للأولاد في القيامة الجسم الكامل القامة؟

ماذا نقول في الأطفال سوى أنّهم لا يقومون في أجسادهم الصغيرة التي فاجأهم فيها الموت؟ إنّما النموّ المتأخّر الذي سمح لهم به الزمن فيأخذونه فجأة وبأعجوبة من القدرة الإلهيّة لأنّ كلمة الربّ التالية: «لن تسقط شعرة من رؤوسكم» تؤكّد أنّه لن ينقصنا شيء ممّا أخذنا ولكنّها لا تنكر أنّه لا يضاف شيء إلى ما كان ينقصنا. إن ما ينقص الطفل عندما يموت هو النموّ الكامل لجسده؛ للطفل الكامل تنقص القامة الكاملة التي يجب أن يبلغها؛ الحدّ الذي يقف عنده النموّ. غير أنّ قياس النموّ هذا

يأخذونه من الحبل ذاته وفي الولادة إنّما بالقوّة وليس بالمادّة؟ هكذا هي الأعضاء موجودة في الزرع وإن كان أطفال مولودون حديثًا تنقصهم عدّة أعضاء كالأسنان وسواها من الأعضاء المماثلة في هذه الطاقة الكامنة في الجوهر المادّيّ يقوم نوعًا ما في الحالة البدائيّة ما لا وجود له حتّى الآن أو ما هو مستتر وغير ظاهر الذي يبرز ويظهر مع التقدّم في العمر. بها يظهر الولد كبيرًا أو صغيرًا، هو الذي يكون في يوم من الأيّام صغيرًا أو كبيرًا؛ واستنادًا إليها لا يجوز أن نخاف من أيّ ضرر جسديّ في قيامة الأجساد. وفي الواقع، إذا ما فرضت المساواة بين جميع الناس قامة جبّارة فالذين كانوا جبابرة ها هنا لا يفقدون شيئًا من قامتهم الأولى، لأنّ في ذلك تكذيبًا لكلمة المسيح القائل أنْ لا شعرة واحدة تسقط من الرأس؛ ثمّ هل يكون الخالق الذي أبدع كلّ شيء من العدم في غفلة ولا يعرف، هو الفنّان الرائع، ما يجب عليه أن يعمل؟

١٥

هل يبلغ القائمون من الموت قامة السيّد المسيح؟

إنّ المسيح قد قام في الأحجام الجسديّة التي فيها مات ولا يجوز أن يقال بأنّه في يوم القيامة العامّة يجب أن يتساوى جسده والقامات الكبرى. فيبلغ ما لم يكن عليه من الضخامة التي لم تكن له ساعة ظهر لتلاميذه وبها عرفوه. وهل نقول إنّ أعظم الأجسام سوف تأخذ القياس الذي لجسد المسيح؟ إذ ذاك سيحذف الكثير من أجساد الكثيرين وإن يكن الربّ نفسه قد

وعدنا بأن لا تسقط شعرة واحدة من رأسنا؛ يبقى على كلّ منّا أن يستعيد القامة التي كانت له في شبابه وإن يكن قد مات طاعنًا في السنّ أو تلك التي كان عليه أن يبلغها لو لم يفاجئه الموت. أمّا قياس العمر الكامل للمسيح الذي يتكلّم عنه الرسول فإمّا أن نفهمه على غير ما ذكرنا أي إنّ ذاك الرئيس السرّيّ للشعوب المسيحيّة يجد في الكمال العتيد لجميع أعضائه القياس المتمّم لعمره أو إذا كانت هذه العبارة تعني قيامة الأجساد إذ ذاك يجب تفسيرها بأنّ الأجساد لن تقوم لا فوق الشباب ولا بعده بل في السنّ والقدرة التي نعرف أنّ المسيح جاء بهما إلى أرضنا. وبحسب ما يحدّده أشهر العلماء في هذا العالم فإنّ الشباب هو في الثلاثين من العمر تقريبًا؛ بعد تلك السنّ يأخذ الإنسان في الانحدار حياتيًّا ولا يقال بحسب قياس الجسم والقامة بل بحسب «عمر المسيح الكامل».

١٦

شابهنا المسيح بالموت لنكون شبيهين به بالحياة إلى الأبد

وعندما يتكلّم الرسول عن الأبرار «الذين اعدّهم الله ليكونوا على مثال صورة ابنه» (روم ٨/ ٢٩) فقد يعني أيضًا الإنسان الباطنيّ؛ ولهذا يقول لنا في محلّ آخر: «لا تتشبّهوا بهذه الدنيا بل تبدّلوا بتجدّد عقولكم». (روم ١٢/ ٢) وعلى هذا النحو، فحيث نتجدّد لئلّا نتشبّه بهذه الدنيا هناك نصبح مشابهين لابن الله. ويمكننا أن نشرحه على الوجه التالي: كما صار مشابهًا لنا بالموت نصبح مشابهين له بالخلود. وهذا يرتبط أيضًا بقيامة

جسد. إذا كانت تلك الكلمات تعلّمنا الطريقة التي بها نقوم، لمشابهة» «كالقياس» تتعلّق بالسنّ وليس بالقامة. كلّ واحد يقوم يرًا كما كان أو كما كان في شبابه؛ وإن لم يكن من أهمّيّة كل الجسد، ليكون شكل الطفولة أو الشيخوخة لأنّ كلّ مرض النفس أو الجسد يختفي. حتّى وإن ادّعى إنسان ما أنّ كلّ سان يقوم بالشكل الذي كان عليه جسده ساعة موته فلا مجال خول معه في نقاش محضٍ.

١٧

وهل للمرأة أن تحتفظ بجنسها في القيامة؟

من خلال عبارة الرسول: «حتّى نصل جميعًا إلى قياس عمر س الكامل» ومن هذه أيضًا: «ليكونوا على مثال صورة ابن يستنتج بعضهم أنّ النساء لا يقمن بحسب الجنس، بل كلّهم ون بجنس الرجل ، لأنّ الله كوّن الرجل وحده من طين ض وأنّه سحب المرأة من الرجل بيد أنّ ما يبدو لي أكثر هو الرأي القائل بقيامة هذا الجنس وذاك لأنّ الشهوة تبطل ك ما يتسبّب بالالتباس. قبل الخطيئة كان الرجل والمرأة ن دون أن يخجلا. وتاليًا فالرذيلة تُنتزع من الأجسام وتبقى ة. لكنّ الجنس الأنثويّ ليس رذيلة بل طبيعة معصومة بعد ن الزواج والولادة وإذ يُبعد جسم المرأة ممّا كان قد أعدّ له يرتدي جمالًا جديدًا لا يعود يشعل بواسطة النظر الشهوة طفأت نهائيًا بل يمجّد حكمة الله ورأفته الذي صنع ما لم حرّر من الفساد ما قد صنعه. كان من الضروريّ في بداية

الجنس البشريّ أن تُكوَّن المرأة من ضلع مستلّ من جنب الرجل وهو نائم؛ لأنّ ذلك الحدث يتنبّأ عن المسيح والكنيسة. رقاد الرجل يعني موت المسيح، المعلّق على الصليب، المفتوح الجنب بالحربة النازف دمًا وماءً من ذاك الجرح الذي قامت عليه الكنيسة بأسرارها لأنّ الكتاب يستخدم ذلك التعبير حين يقوله إنّ الله لا يكوّن بل «يبني» من جنب الرجل امرأة (تك ٢/ ٢٢) والرسول أيضًا يسمّي الكنيسة «بناء جسم المسيح» وتاليًا فالمرأة كما هو الرجل، خليقة الله؛ ولكن بصفتها مصنوعة من الرجل فهي تدلّ على الوحدة؛ لكونها مصنوعة من الإنسان فهي ترمز إلى يسوع المسيح والكنيسة، على أنّ الذي أقام هذا الجنس وذاك يعيد هذا وذاك. وأخيرًا، إنّ يسوع نفسه عندما سأله الصدّوقيّون الرافضون للقيامة لمَن من الإخوة السبعة تكون المرأة زوجةً، تباعًا، واحدًا بعد الآخر، بحسب مرسوم الشريعة تأمينًا للنسل لأخيه قال لهم: «أنتم في ضلال لأنّكم لا تعرفون الكتب ولا قدرة الله». (متّى ٢٩/٢٢) وبدلًا من أن يقول كما هو المكان؛ إنّ تلك التي تكلّموني عنها لم تعد امرأة بل رجلًا قال لهم: «في القيامة لا يزوّجون ولا يتزوّجون؛ وكلّهم يصبحون كملائكة الله في السماء». مساوون للملائكة بخلودهم وسعادتهم؛ ولكن لا من حيث الجسد بل في القيامة التي لا يحتاج إليها الملائكة لأنّهم لا يستطيعون أن يموتوا؛ والربّ يعلن بأنّ الأعراس وليست النساء لن يكون لها محلّ في القيامة؛ ويعلنه أيضًا فيما يختصّ بالسؤال المطروح كان جواب أكثر سهولة وجزمًا، إنكار الجنس الأنثويّ لو أنّه استدرك أنّه سيكون هذا؛ ماذا أقول؟ «لا يتزوّجون» وهذا مختصّ بالمرأة «لا يزوّجون» وهذا مختصّ بالرجل. إنّ الذين

الجسد. إذا كانت تلك الكلمات تعلّمنا الطريقة التي بها نقوم، «المشابهة» «كالقياس» تتعلّق بالسنّ وليس بالقامة. كلّ واحد يقوم كبيرًا كما كان أو كما كان في شبابه؛ وإن لم يكن من أهمّيّة لشكل الجسد، ليكون شكل الطفولة أو الشيخوخة لأنّ كلّ مرض في النفس أو الجسد يختفي. حتّى وإن ادّعى إنسان ما أنّ كلّ إنسان يقوم بالشكل الذي كان عليه جسده ساعة موته فلا مجال للدخول معه في نقاش مضنٍ.

١٧

وهل للمرأة أن تحتفظ بجنسها في القيامة؟

من خلال عبارة الرسول: «حتّى نصل جميعًا إلى قياس عمر الناس الكامل» ومن هذه أيضًا: «ليكونوا على مثال صورة ابن الله» يستنتج بعضهم أنّ النساء لا يقمن بحسب الجنس، بل كلّهم يقومون بجنس الرجل، لأنّ الله كوّن الرجل وحده من طين الأرض وأنّه سحب المرأة من الرجل بيد أنّ ما يبدو لي أكثر تعقّلًا هو الرأي القائل بقيامة هذا الجنس وذاك لأنّ الشهوة تبطل وكذلك ما يتسبّب بالالتباس. قبل الخطيئة كان الرجل والمرأة عريانين دون أن يخجلا. وتاليًا فالرذيلة تُنتزع من الأجسام وتبقى الطبيعة. لكنّ الجنس الأنثويّ ليس رذيلة بل طبيعة معصومة بعد ذاك من الزواج والولادة وإذ يُبعد جسم المرأة ممّا كان قد أعدّ له قديمًا. يرتدي جمالًا جديدًا لا يعود يشعل بواسطة النظر الشهوة التي انطفأت نهائيًّا بل يمجّد حكمة الله ورأفته الذي صنع ما لم يكن وحرّر من الفساد ما قد صنعه. كان من الضروريّ في بداية

الجنس البشريّ أن تُكوَّن المرأة من ضلع مستلّ من جنب الرجل وهو نائم؛ لأنّ ذلك الحدث يتنبّأ عن المسيح والكنيسة. رقاد الرجل يعني موت المسيح، المعلّق على الصليب، المفتوح الجنب بالحربة النازف دمًا وماءً من ذاك الجرح الذي قامت عليه الكنيسة بأسرارها لأنّ الكتاب يستخدم ذلك التعبير حين يقول إنّ الله لا يكوّن بل «يبني» من جنب الرجل امرأة (تك ٢/ ٢٢) والرسول أيضًا يسمّي الكنيسة «بناء جسم المسيح» وتاليًا فالمرأة كما هو الرجل، خليقة الله؛ ولكن بصفتها مصنوعة من الرجل فهي تدلّ على الوحدة؛ لكونها مصنوعة من الإنسان فهي ترمز إلى يسوع المسيح والكنيسة، على أنّ الذي أقام هذا الجنس وذاك يعيد هذا وذاك. وأخيرًا، إنّ يسوع نفسه عندما سأله الصدّوقيّون الرافضون للقيامة لمَن من الإخوة السبعة تكون المرأة زوجةً، تباعًا، واحدًا بعد الآخر، بحسب مرسوم الشريعة تأمينًا للنسل لأخيه قال لهم: «أنتم في ضلال لأنّكم لا تعرفون الكتب ولا قدرة الله». (متّى ٢٢/ ٢٩) وبدلًا من أن يقول كما هو المكان؛ إنّ تلك التي تكلّموني عنها لم تعد امرأة بل رجلًا قال لهم: «في القيامة لا يزوّجون ولا يتزوّجون؛ وكلّهم يصبحون كملائكة الله في السماء». مساوون للملائكة بخلودهم وسعادتهم؛ ولكن لا من حيث الجسد بل في القيامة التي لا يحتاج إليها الملائكة لأنّهم لا يستطيعون أن يموتوا؛ والربّ يعلن بأنّ الأعراس وليست النساء لن يكون لها محلّ في القيامة؛ ويعلنه أيضًا فيما يختصّ بالسؤال المطروح كان جواب أكثر سهولة وجزمًا، إنكار الجنس الأنثويّ لو أنّه استدرك أنّه سيكون هذا؛ ماذا أقول؟ «لا يتزوّجون» وهذا مختصّ بالمرأة «لا يزوّجون» وهذا مختصّ بالرجل. إنّ الذين

يتزوّجون واللواتي يتزوّجن ها هنا، يكونون في القيامة؛ ولكن لن يكون هناك من قِران...

١٨

المسيح الإنسان الكامل والكنيسة جسده وكماله

أمّا بشأن نصّ الرسول الذي فيه يقول إنّنا سنصل جميعًا إلى قامة الإنسان الكامل فعلينا أن ندرسه بمجمله وفيه: «فذاك الذي نزل هو نفسه الذي صعد إلى ما فوق السماوات كلّها ليملأ كلّ شيء، وهو الذي أولى بعضهم أن يكونوا رسلًا وبعضهم أنبياء وبعضهم مبشّرين وبعضهم رعاةً ومعلّمين ليجعل القدّيسين أهلًا للقيام بتلك الخدمة التي ترمي إلى بناء جسد المسيح؛ فنصل بأجمعنا إلى وحدة الإيمان بابن الله ومعرفته ونصير الإنسان الكامل؛ ونبلغ القامة التي توافق سعة المسيح. فإذا تمّ ذلك فلن نبقى أطفالًا تتقاذفهم أمواج المذاهب ويعبث بهم كلّ ريح فيخدعهم الناس ويحتالون عليهم بمكرهم ليضلّوهم. وإذا عملنا للحقّ بالمحبّة نمونا وتقدّمنا في جميع الوجوه، نحو ذاك الذي هو الرأس، نحو المسيح، فإنّ به إحكام الجسد والتحامه، والفضل لجميع الأوصال التي تقوم بحاجته، ليتابع نموّه بالعمل الملائم لكلّ من الأجزاء ويُبنى بالمحبّة». (أف ٤/ ١٠-١٦) ذاك هو الإنسان الكامل، رأسًا وجسدًا، المركّب من الأعضاء كلّها التي في، الوقت المعيّن، يأخذ كلّ منها الكمال النهائيّ. غير أنّ أعضاءً جديدة تنضمّ كلّ يوم إلى ذلك الجسد بينما تُبنى الكنيسة التي توجّه إليها الكلمة التالية: «أنتم جسد المسيح وكلّ واحد

منكم عضو منه». (١ قور ١٢/ ٢٧) وفي مكان آخر «الجسده الذي هو الكنيسة» ثمّ «نحن جسد واحد لأنّه ليس هناك إلّا خبز واحد» (١ قور ١٠/ ١٧) وعن البنيان قيل هنا: «الكمال القدّيسين وعمل الخدمة ولبنيان جسد المسيح» ويضيف الرسول الكلمة التالية «فنصل بأجمعنا إلى وحدة الإيمان بابن الله ومعرفته ونصير الإنسان الكامل ونبلغ القامة التي توافق سعة المسيح». وما يتبع ذلك مبيّنًا بأيّ جسد نبلغ تلك القامة قائلًا: «نمونا وتقدّمنا في جميع الوجوه نحو ذاك الذي هو الرأس، نحو المسيح، الذي به إحكام الجسد والتحامه والفصل لجميع الأوصال التي تقوم بحاجته» وعلى هذا النحو فبما أنّ لكلّ جزء قياسه، هكذا هي حال الجسد بأكمله الذي يتكوّن من جميع أجزائه؛ وذلك هو الكمال حين يقول: «على قيام سعة المسيح» وهو كمال يعبّر عنه الرسول في مكان آخر بقوله: «لقد أقامه رأسًا على الكنيسة بأسرها التي هي جسده وملء ذلك الذي يسع كلّ شيء في كلّ شيء» (أف ١/ ٢٢). ولكن، وإن كان يعني هذا المقطع قيامة الأجساد فما الذي يمنعنا من أن ننسب للمرأة ما يقال أيضًا في الرجل متّخذين لفظة «الرجل» للاثنين معًا كما جاء في المزمور: «طوبى للرجل الذي يتّقي الربّ». (مز ١١١/ ١) وهي عبارة تعني النساء أيضًا اللواتي يتّقين الربّ.

١٩

كمال الجسم القائم من الموت

ما هو جوابي الآن بشأن الأظافر والشعر؟ إن كان لا يجوز أن

تسقط شعرة واحدة لكي لا يتشوّه الجسد يُفهم بذلك أنّ كلّ تشويه ينال الجسد كلّه ما عدا الأجزاء التي يتأثّر جمالها بذلك. ولو أنّ إناءً من فخار أعيد بكامله إلى ما كان عليه فلا يعني حتمًا أنّ هذا الجزء الترابيّ الذي صنعت منه الأذن أو أسفلها يعود إلى الأذن أو القعر؛ إذ يكفي، ترميمًا للإناء ذاته، أن تعود المادّة كلّها، دون فقدان شيء منها وتتحوّل إلى إناء من جديد. وعليه فإن كان الشعر والأظافر التي جرى قطعها غير مرّة لا يمكن إعادتها إلى مكانها دون تشويه فلن تعود أبدًا؛ على أنّها لا تسقط في الرجل الذي يقوم من الموت. وفي الواقع، وبفضل المادّة القابلة للتغيير فسوف تعود إلى الجسم عينه لتأخذ فيه محلًا متجانسًا، بشكل عامّ، مع الأجزاء كلّها، مع أنّ كلمة الربّ «لا تسقط شعرة واحدة من رؤوسكم كلّها محصاة» (لو ١٢/٧) ولست أعتقد بأنّه لا يسقط شيء ممّا هو طبيعيّ في الجسد بل كلّ حادث مشوّه مرتبط بطبيعتنا كشهادة على بؤسنا وعقابنا، فوق هذه الأرض، يعود إلى سلامة الجوهر، والتشويه وحده يسقط. مثلًا لو كان فنّان، مسلّطًا على التمثال الذي صنعه لغاية، في حالةٍ من النقصان، لكي يحوّله إلى شكل جميل، بحيث لا يخسر شيئًا من المادّة ويسقط فيه التشويه وحده؛ وإن استطاع لا أن يختلس من المادّة أو ينتزع منها شيئًا ممّا كان فيها مزعجًا للنظر، ولتناسق الأعضاء، بل أن يوزّع ويخلط من جديد في المجموع دون أن يتسبّب بأيّ تشويه أو خسارة من المادّة الموجودة بين يديه فكيف بالفنّان الأعظم وبما يفكّر فيه؟ كلّ ما في الأجسام البشريّة من عاهات، وليست فقط العاهات الاعتياديّة بل تلك التي هي أشدّ ندورة وغرابة. وهي عاهات تدخل في نظام حياتنا الشقيّة ومرفوضة بالنسبة إلى سعادة

القدّيسين في الحياة الأخرى ألّا يستطيع، أيًّا تكن، ومهما يكن الهوان الذي لحق طبيعيًا بالجوهر المادّيّ، أن يقتطعها أو يقضي عليها كلّيًا دون إلحاق الأذى بكمال الطبيعة المعنيّة؟

وعليه فإنّ الأفراد المصابين بالضعف أو بالبدانة لا يخشَون أن يكونوا آنذاك ما لم يريدوا أن يكونوا عليه ها هنا؛ لأنّ جمال الأجسام قائم على تناسق الأجزاء الذي يعبّر عنه نوع من السحر في اللون وعندما يفتقد ذاك التناسق، فالذي يزعج النظر هو ذاك الإفراط في المزيد أو النقصان. وهكذا فإنّ ذاك التشويه الناتج عن عدم التناسق بين الأجزاء يختفي ويصحّح كلّ نقص عندما يعوَّض من قبل الخالق وهو سرّ خاصّ به! حين يقتطع المزيد دون إلحاق الضرر بكمال الجوهر. أمّا اللون فيا له من بهاء قويّ وناعم! «ألا يسطع الصدّيقون كالشمس في ملكوت أبيهم؟» (متّى ١٣/٤٣) وحين قام المسيح من القبر فإنّ ذاك البهاء وهذا ما يجب الإيمان به، غاب عن أعين التلاميذ، دون أن يغيب عن جسده الممجّد، إذ ما كان باستطاعة العين المريضة والصائرة إلى الموت أن تتحمّل ذلك المنظر، حينما كان عليهم، أن يشاهدوا الربّ للتعرّف إليه؛ ولهذا فقد قدَّم إليهم آثار الجراح ليجسّوها وأكل وشرب معهم، لا عن حاجة، بل بالقوّة. ولكن، حين يكون شيء ما حاضرًا وغير مرئيّ بينما أشياء أخرى مرئيّة وحاضرة، هكذا فإنّ مجد الربّ يفوت منظره تلاميذه الذين يتعرّفون إلى قسمات شخصه؛ وهذا ما يترجمه اللاتين في سفر التكوين بلفظة عمى القلب Aveuglement بينما يسمّيه اليونان العمى الذي أصاب أهل صادوم عندما راحوا يبحثون عَبَثًا عن باب البارّ لأنّه لو كان الموضوع فقدانًا للبصر أو حرمانًا حقيقيًا

من النظر لما كانوا فتّشوا عن الباب ليدخلوا منه بل لكانوا بحثوا عن مرشدين ليقودوهم.

لكنّي لست أدري كيف أنّ محبّتنا للشهداء الطوباويّين تجعلنا نتوق لأن نرى على أجسادهم في الملكوت السماويّ آثار الجراح التي قبلوها لدى مجاهرتهم باسم المسيح؛ وقد نراها في المستقبل. لأنّ ذلك ليس تشويهًا بل كرامة؛ وإن يكن إشعاعهم منبعثًا من فضيلتهم وليس من أجسادهم. ولن يظهر الشهداء المقطّعو الأوصال هكذا لدى قيامة الموتى وقد قال لهم: «لن تسقط شعرة واحدة من رؤوسكم» ولكن إن كان على الجسد في نظام العهد الجديد، أن يستبقي آثار جراحه المجيدة والمكان الذي تلقّت عليه الأعضاء الضربات والتقطيع والبتر فآثارها تظهر على الأعضاء المستعادة غير المفقودة. ومع أنّ تلك العيوب التي حلّت بالجسد لن يبقى لها أثر فلا يجوز أن نسمّيها عيوبًا لأنّها شهادة للفضيلة.

٢٠

ترميم الجسم بجميع أجزائه وأعضائه في القيامة

حذار الخوف من أن تعجز قدرة الخالق عن إقامة الأجساد وإعادتها إلى الحياة، تلك التي افترستها الوحوش، أو التهمتها النيران أو ما تبعثر منها رمادًا وغبارًا وجرفته المياه أو تحوّل إلى بخار! حذار التفكير بأنّ البعض منها، في حشا الطبيعة، مخبّأ مخفيّ عن الخالق لا يستطيع أن يعرفه ويكتشفه. عندما حاول

شيشرون، بقدر ما تسمح له قواه العقليّة، أن يجد تحديدًا لله قال: «إنّه روح مستقلّ وحرّ، بعيد عن كلّ مركّب قابلٍ للانحلال، عارف بكلّ شيء، ومحرّك لكلّ شيء، وهو في حركة دائمة أبديّة». في هذا الكلام نجد صدى لكلّ الفلاسفة. وعلى هذا النحو وإذا تكلّمنا على مثالهم نقول ما الذي يبقى خفيًّا على مَن يعرف كلّ شيء وما الذي يستطيع أن يهرب إلى الأبد عمَّن يحرّك كلّ شيء؟

وهذا ما يؤمّن لنا جوابًا على السؤال الأصعب: لمَن يعود لحم إنسان ميّت، أصبح لحم إنسان حيّ، في القيامة؟ أن يكون إنسان، في الواقع، تحت تأثير هجمات الجوع القاسية، قد تغذّى من جثث بشريّة وهي مصائب رهيبة، يعطينا الأقدمون أكثر من مثل عنها، تجدّد من خلال تجربة مؤلمة، في أيّامنا السيّئة؛ فهل يمكننا الدفاع بحقّ عن الفكرة القائلة بأنّ كلّ مادّة اختفت من خلال منافذ سرّيّة وما حدث أيّ تمثّل لطبيعة الإنسان الذي تغذّى من إنسان في حين أنّ الهزال الذي كان إلى حين ثمّ توقّف يشهد بما فيه الكفاية للخراب الذي كان موجودًا فقضى عليه ذاك الطعام؟ بعض تلك النظريّات السابقة تعمل ولا بدَّ على حلّ المشكلة. وفي الواقع كلّ اللحوم التي استهلكها الجوع تبخّرت في الهواء ومن هناك يستطيع الله القدير، وهذا ما قلناه، أن يستعيد كلّ ما يتلاشى. إنّ ذاك الجسد يُعاد إلى الإنسان الذي به أخذ يكون جسدًا بشريًّا. أمّا الآخر فإنّه لا يملكه إلّا بصفة مقترض وهو ما يشبه قرضًا ماليًّا ملتزمًا بدفعه. وجسده الخاصّ الذي أفناه الجوع سوف يستعيده من ذاك الذي قادر على أن يستعيد ما يتبعثر. ماذا أقول؟ حين تفنى الطبيعة كلّيًّا لا يبقى شيء البتّة من أصغر عناصرها في طيّاتها الأكثر سرّيّة فالقدير يعرف كيف يُصلحها على

هواه. ولكن أمام هذا القول الحقّ: «لا تهلك شعرة واحدة من رؤوسكم» أليس من السخافة الاعتقاد بأنّ شعرة ما تهلك وأنّ عددًا كبيرًا من الأجساد التي افترستها الحيوانات أو التهمتها النيران تهلك؟

ينتج عن كلّ تلك الاعتبارات التي توسّعنا بها، بحسب ما نحن عليه من الضعف، وبكلام موجز، أنّ الأجسام تتمتّع إلى الأبد، في القيامة، بالقامة التي استوجبها، في كلّ إنسان، النموّ الطبيعيّ لشبابه؛ وقد يكون ذاك النموّ تامًّا أو متوقّفًا؛ وأنّ تناسقًا موفّقًا يحفظ الانسجام الصحيح بين جميع الأعضاء. وفي سبيل الإبقاء على هذا النمط من الحياة فهل من السخافة الاعتقاد بأنّه من الممكن إضافة شيءٍ ما على القامة الجسديّة حين يعتبر تشويهًا ما يفرضه على الكلّ النظام الضروريّ للجمال؛ هذا إذا اقتُطع جزء من نقطة، مبالغ فيها وتوزّعت الزيادة على الجسم كلّه بحيث، دون أيّة خسارة، يبقى التناسق المطلوب بين سائر الأجزاء؟ وهل يبقى مَن يدافع عن قيامة الإنسان في الأبعاد الجسديّة التي مات فيها؟ لست معارضًا لهذا الرأي بقوّة؛ شرط أن ينبذوا كلّ تشويه وضعف وبطء وفساد وبكلمة واحدة كلّ عيب يكون غريبًا عن ذلك الملكوت وحيث أبناء القيامة والموعد يكونون متساوين مع ملائكة الله إن لم يكن بالجسم والعمر فعلى الأقلّ بالسعادة.

الجسم الجديد الروحانيّ للقدّيسين

وعليه، فكلّ ما سقط من الأجسام الحيّة أو من الجثث، بعد الموت؛ سوف يعاد؛ وفي الوقت عينه كلّ ما بقي في القبور منتقلًا من رفات الجسد الحيوانيّ إلى جدّة الجسد الروحانيّ سوف يقوم لابسًا عدم الفساد وثوب الخلود؛ وإن يكن بسبب كارثة ما، أو من جرّاء غضب الأعداء قد تحوّل إلى غبار وتناثر في الهواء أو في الماء ولم تبقَ منه ذرّة واحدة فلا يصعب على القدرة الإلهيّة أن تجمعه: «لا تسقط شعرة واحدة من رؤوسكم» الجسد الروحانيّ يكون خاضعًا للروح، على أنّه جسد وليس روحًا، كما كان الروح الجسديّ خاضعًا للجسد؛ إنّما روح وليس جسدًا. وذاك ما نعرفه بالاختبار في سقوطنا المرير لأنّ الذين يتوجّه إليهم الرسول بما يلي ليسوا جسديّين، بحسب الجسد، بل بحسب الروح: «لم أكلّمكم لأناس روحانيّين بل لبشر كالأطفال في المسيح». (١ قور ٣/ ١) والذي نقول عنه، في الحياة الحاضرة، إنّه روحانيّ، يبقى في جسده، جسديًّا، وفي أعضائه سنّة أخرى تضاد سنّة الروح إنّما يكون روحانيًّا بالجسد عندما يقوم الجسد في ظروف تحقّق كلمة الكتاب القائلة: «يزرع جسد حيوانيّ ويقوم جسد روحانيّ». (١ قور ١٥/ ٤٤) فما هي كمالات الجسد الروحانيّ وقياساتها؟ وبما أنّنا نحتاج ها هنا إلى كلّ خبرة أخشى من أن أتقدّم بعبارة في هذا المجال. ولكن، بما أنّ مجد الله لا يسمح له بالصمت على فرح الرجاء الذي نعيشه، يخرج، من

عمق أعماق قلبنا المضطرم بحبٍّ له مقدّس، هذا الهتاف: «يا ربّ إنّي أحببت جمال بيتك» (مز ٢٥/٨) ولنبحث، بمساعدة الربّ، عن تخمين النِعَم التي يمنحها الله في هذه الحياة التعيسة، الصالحين والأشرار، وكم تكون ممتازة تلك التي لا نستطيع أن نتكلّم عنها، بكرامة، لعدم خبرتنا. إنّي أترك الأيّام التي صنع الله فيها الإنسان المستقيم، وحياة الزوجين السعيدة في أطايب الفردوس؛ إنّما سعادة وجيزة جدًّا لم تصل عذوبتها إلى أولادهما. غير أنّي أتكلّم عن هذه الحياة التي نعرفها، حيث لا نزال نعاني من التجارب، أو بالأحرى التي ليست، وطالما نحن فيها، وبالرغم ممّا أحرزنا من تقدّم، سوى تجربة مستمرّة. ومَن ذا الذي يستطيع أن يتكلّم عن جودة الله وصلاحه الذي لا يفتأ يغمر به الجنس البشريّ بأكمله؟

٢٢

وحدها نعمة المسيح تمحو وتقضي على كلّ ما ارتكبه الإنسان من قبائح

وفي الواقع، أن يكون الجنس البشريّ، بأسره، في البدء، قد حكم عليه، فحياته هذه، إن وجب أن نسمّيها حياة، تشهد على الشرور الهائلة التي تملأها. بماذا يشهد هذا القعر السحيق من الجهل الذي يُخرج كلّ ضلال، يبتلع من حشاه المظلم، كلّ ما كان ابنًا لآدم والذي لا يستطيع الإنسان أن يتحرّر منه إلّا بالعمل والألم والخوف؟ وبماذا يشهد ذلك الحبّ للأمور الباطلة والمضرّة التي تلد الهموم المضنية والأكدار والأحزان والأفراح

الكاذبة والخلافات والدعاوى والحروب والخيانات والانفعالات والعداوات والخداع والكذب والنفاق والسرقة والنهب والغدر والكبرياء والطمع والحسد والقتل والشراسة والتوحّش والشرّ وفساد الأخلاق والفجور والوقاحة وقلّة الحياء والقول البذيء والفسق والزنى مع ذوي القربى والجماع المضادّ للطبيعة والهرطقات والتجاديف والحنث وظلم البريء والنميمة والمعاملات السرّيّة الباطلة والأعمال الفاسدة التي يُستحى منها والعنف والسرقات والأحكام الظالمة وكلّ ما شابه ذلك من مساوئ لا تخطر على بال بشر وهي تلازم الحياة البشريّة؟ إنّها لجرائم يرتكبها الأشرار، والحقّ يقال؛ ولكنّها متأتّية من ذلك الأصل المبنيّ على الضلال والحبّ الفوضويّ الذي يحمله معه ابن آدم لدى ولادته. مَن ذا يجهل، في الواقع، في أيّ جهل للحقيقة، واضح وصريح منذ الولادة، وفي أيّ طوفان من الرغبات الباطلة التي تتنامى منذ الولادة، يدخل الإنسان هذه الحياة، حتّى إنّه إذا أراد أن يعيش حرًّا وأن يعمل ما يشاء، بين كلّ تلك الجرائم والفوضى التي أشرت إليها، وبين كلّ ما أغفلت ذكره، لا يبقى شيء واحد من كلّ ذلك إلّا ويلقي بنفسه فيه؟ ولكن، بما أنّ العناية الإلهيّة لا تتخلّى، كلّيًّا، عن الذين حكمت عليهم، وأنّ الله في غضبه لا يحبس رحماته، في البشريّة، فالشريعة والتوجيه يعملان ضدّ الظلمات التي تولد معنا، وتضعان حاجزًا أمام رغباتنا المتدفّقة، الطافحة بالآلام والمتاعب. وفي النهاية، ماذا تبغي وسائل التخويف المتنوّعة الضاغطة على خرافات الطفولة الفاسدة؟ ولماذا هؤلاء المربّون والمعلّمون والمستبدّون والسياط والمجالد، وبكلمة واحدة، ذلك النظام

عمق أعماق قلبنا المضطرم بحبٍّ له مقدّس، هذا الهتاف: «يا ربّ إنّي أحببت جمال بيتك» (مز ٢٥/٨) ولنبحث، بمساعدة الربّ، عن تخمين النِعَم التي يمنحها الله في هذه الحياة التعيسة، الصالحين والأشرار، وكم تكون ممتازة تلك التي لا نستطيع أن نتكلّم عنها، بكرامة، لعدم خبرتنا. إنّي أترك الأيّام التي صنع الله فيها الإنسان المستقيم، وحياة الزوجين السعيدة في أطايب الفردوس؛ إنّما سعادة وجيزة جدًّا لم تصل عذوبتها إلى أولادهما. غير أنّي أتكلّم عن هذه الحياة التي نعرفها، حيث لا نزال نعاني من التجارب، أو بالأحرى التي ليست، وطالما نحن فيها، وبالرغم ممّا أحرزنا من تقدّم، سوى تجربة مستمرّة. ومَن ذا الذي يستطيع أن يتكلّم عن جودة الله وصلاحه الذي لا يفتأ يغمر به الجنس البشريّ بأكمله؟

٢٢

وحدها نعمة المسيح تمحو وتقضي على كلّ ما ارتكبه الإنسان من قبائح

وفي الواقع، أن يكون الجنس البشريّ، بأسره، في البدء، قد حكم عليه، فحياته هذه، إن وجب أن نسمّيها حياة، تشهد على الشرور الهائلة التي تملأها. بماذا يشهد هذا القعر السحيق من الجهل الذي يُخرج كلّ ضلال، يبتلع من حشاه المظلم، كلّ ما كان ابنًا لآدم والذي لا يستطيع الإنسان أن يتحرّر منه إلّا بالعمل والألم والخوف؟ وبماذا يشهد ذلك الحبّ للأمور الباطلة والمضرّة التي تلد الهموم المضنية والأكدار والأحزان والأفراح

الكاذبة والخلافات والدعاوى والحروب والخيانات والانفعالات والعداوات والخداع والكذب والنفاق والسرقة والنهب والغدر والكبرياء والطمع والحسد والقتل والشراسة والتوحّش والشرّ وفساد الأخلاق والفجور والوقاحة وقلّة الحياء والقول البذيء والفسق والزنى مع ذوي القربى والجماع المضادّ للطبيعة والهرطقات والتجاديف والحنث وظلم البريء والنميمة والمعاملات السرّيّة الباطلة والأعمال الفاسدة التي يُستحى منها والعنف والسرقات والأحكام الظالمة وكلّ ما شابه ذلك من مساوئ لا تخطر على بال بشر وهي تلازم الحياة البشريّة؟ إنّها لجرائم يرتكبها الأشرار، والحقّ يقال؛ ولكنّها متأتّية من ذلك الأصل المبنيّ على الضلال والحبّ الفوضويّ الذي يحمله معه ابن آدم لدى ولادته. مَن ذا يجهل، في الواقع، في أيّ جهل للحقيقة، واضح وصريح منذ الولادة، وفي أيّ طوفان من الرغبات الباطلة التي تتنامى منذ الولادة، يدخل الإنسان هذه الحياة، حتّى إنّه إذا أراد أن يعيش حرًّا وأن يعمل ما يشاء، بين كلّ تلك الجرائم والفوضى التي أشرت إليها، وبين كلّ ما أغفلت ذكره، لا يبقى شيء واحد من كلّ ذلك إلّا ويلقي بنفسه فيه؟ ولكن، بما أنّ العناية الإلهيّة لا تتخلّى، كلّيًّا، عن الذين حكمت عليهم، وأنّ الله في غضبه لا يحبس رحماته، في البشريّة، فالشريعة والتوجيه يعملان ضدّ الظلمات التي تولد معنا، وتضعان حاجزًا أمام رغباتنا المتدفّقة، الطافحة بالآلام والمتاعب. وفي النهاية، ماذا تبغي وسائل التخويف المتنوّعة الضاغطة على خرافات الطفولة الفاسدة؟ ولماذا هؤلاء المربّون والمعلّمون والمستبدّون والسياط والمجالد، وبكلمة واحدة، ذلك النظام

القاسي الذي، على ما جاء في الكتاب المقدّس، (سير ٣٠/ ١٢) القائل بتأديب الابن العزيز لئلّا يسقط، في ما يُخجل منه، ما دام صغيرًا؟ ولِمَ كلّ تلك العقبات، إن لم تكن للتغلّب على الجهل والحدّ من الميول السيّئة، وهي شرّ مزدوج يرافق دخولنا في الحياة؟ ومن أين لنا هذه الصعوبة تذكّر لتلك الأشياء التي ننساها بسهولة؛ نتعب لكي نتعلّم؛ وننسى بسهولة؛ الاجتهاد يتطلّب تعبًا؛ والخمول أمر سهل جدًّا. وانطلاقًا من ذلك أليس واضحًا أنّ الطبيعة الفاسدة تنحني وتسقط تحت ثقلها الخاصّ وكم من جهود يستلزم إنهاضها؟ الخمول والكسل والإهمال والميوعة عيوب تهرب من الشغل بينما العمل ذاته الكثير الفائدة هو نوع من العقاب.

ولكن، ما خلا متاعب الطفولة التي لا تتعلّم إلّا ما يريده الأهل الذين لا يريدون إلّا بعض النافع لأولادهم، هنالك عدد، لا يحصى ولا يعدّ، من المتاعب التي تلاحق الجنس البشريّ؛ وهي أمور لا تتعلّق فقط بخبث الإنسان ورداءته بل بوضعه التعيس. بأيّ كلام نعبّر عنها؟ كيف نخرجها إلى عالم فكرنا؟ ترمُّل وحداد، خراب وأحكام، فساد وكذب، شكوك كاذبة وجرائم وأعمال عنف يقوم بها أناس، ويا له من إرهاب ودمار! ماذا أقول أيضًا؟ السرقات والأسر والقتل والحبس والنفي والعذابات وبتر الأعضاء وفقدان الحواسّ وأعمال التوحّش التي تمارس على الضحيّة إشباعًا للشهوات؛ وكم وكم من الفظائع التي ترتكب باستمرار! وماذا أقول عن الضربات التي لا تحصى، الخارجة عن إرادة الإنسان والتي تهدّده في جسده كالحرّ والبرد والصواعق والسيول الجارفة والهزّات التي تشقّ الأرض وتفتح

الأغوار والموت تحت الأنقاض، الإرهاب وهجمات الحيوانات الضارية والسموم المتنوّعة في النباتات والمياه والهواء والحيوان؛ لسعات الحيّات السامّة وعضّات الحيوانات المفترسة؛ هذا كلب يلاطف معلّمه يصاب بالكَلَب فيصبح أشدّ خطرًا على الإنسان من الأسد والتنّين؛ وعندما يقع الإنسان ضحيّة لسعة مميتة يصبح بالنسبة لأهل بيته وذويه لزوجته وأولاده أشدّ خطرًا من كلّ حيوان مفترس؟ أيّ خطر لا يواجه البحّارة والمسافرين؟ مَن هو الإنسان الذي لا يتوقّع في سيره حادثًا غير منتظر؟ هذا إنسان، مثلًا، راجع من السوق، بقدمٍ ثابتة إلى بيته، يقع فتنكسر رجله ويموت بسبب تلك السقطة. مَن ذا يبدو في أمان أكثر ممَّن هو قاعد؟ كبير الكهنة عالي يسقط عن عرشه ويموت. أنظروا إلى الفلّاحين أو بالأحرى إلى الناس أجمعين، أيّ شيءٍ لا يخشونه من السماء والأرض والحيوانات التي تؤذي خيرات الحقل؟ إنّهم لا يطمئنّون إلّا بعد حصاد القمح وجمعه في الأهراء؛ إنّما كثيرون، بحسب ما نعرف، شاهدوا غلّتهم كلّها تجرفها فيضانات مفاجئة، تزرع على طريقها الرعب والهروب. مقابل الإهانات الشيطانيّة العديدة مَن ذا الذي يطمئنّ إلى برارته؟ أجل، مَن ذا الذي يستطيع أن يثق جيّدًا عندما يرى أولادًا صغارًا معمّدين - وأيّ إنسان في العالم يضاهيهم في البرارة -؟ متروكين لما بهم من غضب، بسماح الله، لكي نعرف كم هي مؤسفة شقاوة هذه الحياة ومرجوّة سعادة الأخرى. إنّ الأمراض الجسديّة، العديدة التي، لكثرتها، تعجز كتب الطبّ عن فهمها! والأدوية ذاتها المستعملة كعلاج لها هي بحدّ ذاتها ألم وعذاب حتّى إنّ الإنسان لا يتفادى عذاب المرض إلّا بعذاب الدواء. ألم يدفع العطش الشديد بعض الناس إلى أن

يشربوا بول الإنسان؟ والجوع ذاته ألم يدفع الإنسان الجائع إلى الإقبال على الأكل من جسد الإنسان المذبوح لا من الإنسان الموجود ميتًا؟ ماذا أقول؟ شراسة لم نسمع بها، ولكنّه كَلَب إلى الجوع! ألم تفترس أمّهات أطفالهنّ؟ وأخيرًا، النوم ذاته، الذي اعتاد الناس أن يسمّوه راحة كيف لا تقلقه بشكل مزعج الأحلام والرؤى الليليّة؟ أيّ إرهاب لا يكدّر صفو الحواسّ والنفس التعيسة لدى رؤيتها الصور الباطلة التي يثيرها الوهم، بشكل حادّ وقويّ، يصعب على الإنسان أن يميّز بينها وبين الأشياء الحقيقيّة؟ في بعض الحالات المرَضيّة أو حالات التسمّم يضطرب الإنسان جدًّا حتّى ولو كان واعيًا ومتيقّظًا. غالبًا ما يكون ألعوبة بين أيدي الأرواح الشرّيرة؛ وإذا ما عجزوا عن جرّه إلى حزبٍ لهم فإنّهم يُقلِقون حواسّه في اندفاعهم لإقناعه، مهما كلّف الأمر، بالكذب.

لا شيء يخلّصنا من جحيم هذه الحياة التعيسة سوى نعمة المخلّص يسوع المسيح، إلهنا وربّنا. وفي الحقيقة ذاك هو معنى اسم يسوع: أي المخلّص وهو الذي يجب بنوع خاصّ التضرّع إليه خشية أن نخرج من هذه الحياة إلى حياة أخرى أشقى منها تنتظرنا، ملأى بؤسًا وتعاسة؛ أو بالأحرى تكون موتًا أبديًّا. إنّ النِعَم التي نطلبها في هذه الحياة ليست دومًا في متناولنا وإن يكن لنا في القداسة والقدّيسين تعزيات كبرى لأنّ لنا في الإقبال على الدين خيرًا آخر، وهو الحياة الأخرى، حيث لا مجال للشرّ. وفي خضمّ الشرور الحاضرة إذا وفّرت النعمة، مساعدةً للأبرار، فلكي يتحمّلوها بقلب يزداد قوّة كلّما ازداد أمانة ووفاء. حتّى إنّ الفلسفة في هذه الحياة إذا ما سمعنا لآراء حكماء هذا الدهر لا

تعدُّ شيئًا باطلًا. هي تلك الفلسفة التي قال عنها شيشرون إنّ الفلاسفة سلّموها إلى عدد قليل من الناس في حقيقتها الصافية. ويقول إنّهم ما استطاعوا أن يعطوا الناس هديّة أثمن منها؛ وهذا صحيح حتّى إنّ أخصامنا أنفسهم وجدوا مضطرّين إلى الاعتراف بأنّ الفلسفة الحقيقيّة هي نعمة إلهيّة. إن كانت العناية الإلهيّة وهبت الفلسفة عددًا ضئيلًا من الناس ليقاوموا بؤس الحياة الحاضرة فهذا هو برهان ساطع على أنّ تلك الشقاوات ليست سوى عقاب وقصاص للجنس البشريّ. ولكن، استنادًا إلى ما يقولون، إن لم تكن السماء قد استطاعت أن تعطينا هبة أغلى فالله وحده هو صاحبها؛ وذاك ما يجب الاعتقاد به؛ وذاك هو الذي، بنظر عبدة آلهة كثيرين، الأكبر من جميع الآلهة.

٢٣

التجارب الخاصّة بالأبرار

فضلًا عمّا للصالحين والأشرار، في هذه الحياة، من شرور مشتركة، فللأبرار ها هنا تجرُبتهم الخاصّة في الحرب المستمرّة ضدّ الشهوات، في تلك المعارك الرهيبة التي تنضمّ فيها التجربة إلى الخطر؛ لأنّ المعركة يحتدم أوارها أو يخفّ، في حين أنّها لن تهدأ أبدًا بين الجسد والروح بحيث إنّنا عاجزون، إذا شئنا، أن نقضي فينا على الشهوة المشؤومة؛ ولكن بقدر ما نستطيع وبواسطة العون الإلهيّ، أن نحدّ منها، إذا لم نقبل بها؛ على الحرّاس أن يكونوا ساهرين؛ وفي وعي دائم، خوفًا من أن ننخدع بأيّ مظهر من مظاهر الحقيقة، ونفاجأ، بكلمة خبيثة،

ونؤخذ في ضلال مقيت، ونعتبر خيرًا ما هو شرّ، أو شرًّا ما هو خير؛ علينا ألّا ندع الخوف يمنعنا من أن نقوم بواجبنا ولا نستسلم للشهوة فنعمل ما هو محرّم؛ لا تغرب الشمس على غضبنا ولا يحملنا الحقد على مبادلة الشرّ بالشرّ ولا نرزح تحت حزن، لا كرامة فيه، ولا حدّ له؛ لا ندع نفسنا تنام على جحود للفضل، حينما يجب الاعتراف بجميل؛ ولا نسمح للنميمة تعكّر صفو ضميرنا ولا للشكوك الهوجاء بالآخرين تخدعنا ولا شكوك الآخرين بنا تحطّمنا؛ لا يجوز أن ننقاد لشهوات الخطيئة التي تملك على جسدنا الصائر إلى الموت؛ لا نجعل من أعضائنا سلاح إثم للخطيئة ولا ندع عيننا تسير وراء الشهوة غير النقيّة؛ ولا شهوة الانتقام تسيّرنا؟ ولا ندع نظرنا أو فكرنا يتوقّف على شيء غير مقبول؛ ولا تنفتح أذننا بفرح لسماع كلمة سوء أو غير لائقة؛ نرفض كلّ عمل محرّم، أيًّا يكن الميل الذي يحملنا إليه؛ في هذه الحرب المليئة بالمتاعب والمخاطر حذار أن نَعِدَ نفسنا بالنصر اتّكالًا على قوانا الشخصيّة ولا أن ننسبه لذواتنا؛ بل كلّ المجد لمَن قال عنه الرسول: «المجد لله الذي آتانا الظفر على يد ربّنا يسوع المسيح!» (روم ٨/ ٣٧ و١ قور ١٥/ ٥٧) وفي مكان آخر يقول: «ولكنّا في ذلك فزنا فوزًا مبينًا ويعود الفضل إلى الذي أحبّنا». ولكن، فلنعرف جيّدًا مهما كنّا أقوياء في مقاومتنا للرذيلة وأحرزنا عليها من تقدّم وانتصارات وطالما نحن مقيمون في هذا الجسد فلا يجوز لنا إلّا أن نتحيَّن الفرصة لنقول لإلهنا: «إعفنا ممّا علينا» (متّى ٦/ ١٢). وبما في هذا الملكوت حيث نسكن لابسين إلى الأبد أجسادًا لا تموت؛ لن نعارك ولن نستدين؛ وهي ديون ومعارك كنّا منها معفَيْن لو أنّ طبيعتنا بقيت

على استقامتها الأولى. وهكذا فإنّ هذه الحرب المستمرّة التي نواجه فيها الخطر وفيها نتوق إلى النصر الأخير الذي يحرّرنا هي إحدى الضربات التي نعيشها فأقنعناها استنادًا إلى ما نشهد من ويلات بأنّها عقاب لنا.

٢٤

الأمور الجيّدة في الحياة الدنيا معرّضة دومًا للشجب

إن كان شقاء الجنس البشريّ يمجّد برّ الذي يعاقب فجميع الخيرات التي بها يعزّي ذاك الشقاء ألا تشهد لجودة الله، الذي يدبّر بحكمته جميع أعماله؟ وفي بداية الأمر هذه البركة التي ينفح بها الشرّ قبل الخطيئة قائلًا: «أنميا واكثرا واملأا الأرض». (تك ١/ ٢٨) لم يرد أن يحبسها عنهم بعد خطيئتهم؛ وفي نسلٍ، يشجبه برّه، ظلّت هبة الخصوبة قائمة؛ وقوّة الزرع الرائعة هذه الملازمة وشبه المندمجة في طبيعة الجسم البشريّ لم تستطع فوضى الخطيئة أن تنزعها عنها. مع أنّها حطّمتنا تحت حتميَّة الموت غير أنّ نهر الأجيال البشريّة السريع يحمل بأكمله الشرّ الذي أورثنا إيّاه أبونا الأوّل والخير الذي وهبناه الخالق. في الشرّ الأساسيّ شيئان: الخطيئة والعذاب؛ وفي الخير الأساسيّ شيئان: التكاثر والتكوين. لقد تكلّمنا بما فيه الكفاية عن تلك الشرور: أحدهما نابع من جسارتنا وهو الخطيئة والثاني من قضاء الله وهو العذاب. والآن أتكلّم عن الخيور التي أعطاها الله أو التي لا يزال يعطيها للطبيعة البشريّة التي فسدت وشجبت حكمًا؛ لأنّه بالحكم عليها لم يعرِّها من كلّ ما أعطاها؛ وإلّا لكانت

خسرت كيانها؛ وإذ تركها، عقابًا لها، تحت سلطة الشيطان، لم يتخلَّ عن كلّ سلطان عليها لأنّ الشيطان نفسه لم يتجرَّر من سلطانه لأنّ الشيطان، بصفته طبيعة، لا يمكنه أن يبقى من دون الكائن الأسمى ومبدأ كلّ كائن وكلّ وجود.

ومن هذين الخيرَين اللذين يغمر بهما ينبوع صلاحه الطبيعة الفاسدة والمشجوبة، أعطاها، منذ البداية، مع بركته، التكاثر، حينما خلق صنائعه الأولى التي استراح منها في اليوم السابع. أمّا التكاثر فهو مرتبط، باستمرار، بعمله الخلّاق؛ ولو أنّه احتفظ لذاته بقدرته الفعّالة لما كان للمخلوقات أن تتعدّى الحدّ الذي قسّمه لها؛ ولا أن تكمل المدّة التي تضعها لها، بقياس، كلّ حركاتها؛ ولا أن تبقى، برهة واحدة، في الوجود الذي أخذته منه. وعلى هذا النحو، فإنّ الله الذي خلق الإنسان أعطاه خصوبةً معيّنة، تسمح له بأن يتكاثر في أناس آخرين، ينقل إليهم تلك القدرة مع الحياة؛ قدرة وليست ضرورة؛ ويمنعها الله عن أناس؛ ويكونون عقماء؛ ومع ذلك، لم يسحب عن الجنس البشريّ تلك البركة الخصبة التي أعطاها الزوجين الأوّلين. ومع أنّ الخطيئة لم تقضِ في الإنسان على تلك الموهبة، فليست هي الآن، كما لو كان، بدون خطيئة: ومنذ أن سقط الإنسان من مجده بسبب الخطيئة، أصبح شبيهًا بالحيوانات، على مثالها يلد؛ وبما أنّه مخلوق، على صورة الله، في عقله، فقد احتفظ منه بشرارة معيّنة. ولو لم يتعاون التكاثر مع التكوين لما كان للتكاثر أن يؤمّن تطوّر الشكل والتصميم في النوع البشريّ. وهل كان الله بحاجة إلى مجامعة الرجل والمرأة لينفّذ إرادته، في ملء الأرض، بالناس؟ وكما أنّه خلق الإنسان وحده، دون مساهمة

الجنسين هكذا كان باستطاعته أن يخلق كلّ الناس. لكنّ مجامعة الجنسين، بمعزل عن فعل الخالق، تبقى عقيمة. وإنّ الرسول يقول عن النظام الروحيّ الذي يعدُّ الإنسان للتقوى والبرّ: «فليس الغارس بشيء ولا الساقي بل ذاك الذي يُنمّي وهو الله». (١ قور ٣/٧) يمكننا أن نقول أيضًا: فليس الوالد بشيء ولا الزارع بل الله الذي يكوّن وليس الأمّ هي التي تحمل الثمرة في حشاها وتغذّي ابنها، بشيء؛ بل الذي ينمّي؛ إنّه هو الذي يعمله، الذي يستمرّ حتّى الآن فيه، يجعل البذور تنمو متناغمة ومن أعماق الثنايا غير المرئيّة التي تغطّيها تنشئ الأشكال المرئيّة التي يظهر جمالها أمام أنظارنا. إنّه هو الذي يوحّد بربطٍ رائعة، بين الطبيعتين الجسديّة وغير الجسديّة يخلق الإنسان الحيّ، التحفة الرائعة العظيمة! وليس وحده الإنسان، الحيوان العاقل، أفضل حيوانات الأرض وأنبلها؛ بل الذبابة الأخيرة التي لا يمكن أن ترى والتي إذا تأمّلها الإنسان بشكل جدّيّ عجز عقله عن فهمها وأعجب بخالقها، هي أيضًا من روائعه.

إنّه هو الذي أعطى النفس البشريّة الفهم، حيث العقل والذكاء يبقيان شبه جامدين عن العمل، لدى الولد لكي يخرجا من ذاك العدم ويستيقظا، تلبية لنداء السنين، مؤهّلَين للمعرفة والتربية ومنفتحين على فهم الحقيقة ومحبّة الخير، آخذين من ينبوع الحكمة الفطنة والقدرة والاعتدال والعدالة التي تدافع ضدّ الضلالات والعيوب المتنقّلة مع الدم. توّاقة إلى النصر من خلال الرغبة الوحيدة في الحصول على ذاك الخير الأسمى اللامتغيّر. وإن تكن أحيانًا عقيمة تلك القدرة التي تملكها الطبيعة وتلد لدى خروجها من الأيدي الإلهيّة؛ أليست هي ذاتها تحفة رائعة صنعها

الكلّيّ القدرة؟ مَن ذا الذي يستطيع أن يرفع عاليًا كلمته أو فكرته؟ وفي الواقع، فضلًا عن فنّ العيشة الصالحة والوصول إلى السعادة الخالدة، فإنّ ذاك الفنّ الذي يسمّى فضيلة والذي تعطيه، وحدها، النعمة الإلهيّة، بالمسيح، أبناء الموعد والملكوت وكثيرًا من الفنون الأخرى البارزة الذي يعود الفضل في اختيارها وصقلها للضرورة أو للخيال؛ وهي فنون يبدع العقل في ما هو نافل منها. ماذا أقول؟ أن تكون خطرة أو مضرّة، قوّة رائعة من الفهم. والعقل، أيّ خير ليس لها في ذاتها مثل تلك الطبيعة لتكوّن ذاك الكنز من الاختراعات والفنون والعلوم؟ إلى أيّ غرائب في النسيج والعقاب، في بناء العمارات لم تصل بعد الصناعة البشريّة؟ أيّ تقدّم في الزراعة والملاحة؟ أيّ تخيّل وأيّ كمال في تلك الآنية المتعدّدة الأشكال وفي ذلك العدد الكبير من التماثيل واللوحات؟ أيّة غرائب عجيبة تعطى على المسارح تحت أعين المشاهدين تحكي في موضوعاتها الأسطورة! أيّة لباقة وأيّة حِيَل في الأخذ والقتل وترويض الحيوانات المفترسة! ومن ثمّ، عدد مماثل من السموم والأسلحة والآلات التي اخترعها الإنسان ضدّ الإنسان، أدوية مماثلة وأعمال مماثلة مدعوّة لحماية حياة الإنسان أو لاستعادتها! بأيّة متبّلات وبأيّة أطعمة لم تثر اللذات الجوع؟ أيّ تنوّع رائع في العلامات وفي الصفّ الأوّل والكلمات والأحرف المخترعة للاشتراك بأفكارنا! أيّة صلة يلبس الخطاب ليروق العقل! أيّة زينة يتّخذ الخطاب ليروق الفكر؟ أيّة إغراءات نسي الشعر والموسيقى والصوت ليشنّف الأذن؟ بأيّة حذاقة لم يجد علم العدد والمساحة مركز الأجرام السماويّة ومُنْحَناها؟ وأخيرًا بأيّ عدد لا يحصى، ولا يعدّ، من المعارف الطبيعيّة، لم

يمتلئ العقل البشريّ؟ مَن ذا الذي يستطيع أن يقول ذلك؟ وبخاصّة إن شئنا أن نتوقّف عند كلّ شيء، بمفرده، ولم نأخذها مجموعة. وحتّى إذا ما دافعنا عن أخطاء وأشياء مغلوطة مَن ذا الذي يستطيع أن يثمّن ما ارتفع من عقول ثاقبة، بين الفلاسفة والهراطقة؟ إنّني لا أتكلّم هنا إلّا عن طبيعة الإدراك البشريّ الذي يعتبر زينة هذه الحياة الصائرة إلى الموت، تاركًا الإيمان ومعابر الحقيقة التي توصل إلى الحياة الخالدة. أمّا أن تكون هذه الطبيعة النبيلة صنيعة واضحة للإله الحقّ، القدير، الذي يدبّر كلّ مخلوقاته، ويجمع في ذاته القدرة العظمى إلى العدالة السميا فلا يمكن لها أبدًا أن تكون قد سقطت في شقاوات هذه الحياة الحاضرة لتنتقل فيما بعد، ما خلا الأبرار، إلى شقاء أبديّ لو لم يكن قد سبق ذاك العقاب، في الإنسان الأوّل، أصل الجنس البشريّ، خطيئة فظيعة.

والجسد ذاته، مع أنّه بحالته الصائرة إلى الموت، يشبّهنا بالحيوانات، رغم أنّه أضعف من الكثير بينها، أيّ شهادة لا يؤدّي لجودة الله وعناية خالقه؟ مركز الحواسّ وتنظيم الأعضاء والأحجام وشكل الجسم وقوامه، كلّ شيء فيه، ألا يدلّ على أنّه مخلوق ليكون في خدمة نفس عاقلة؟ نرى الحيوانات محنيّةً حتّى الأرض؛ بيد أنّ الإنسان لم يخلق ليكون على ذاك الشكل؛ قامته مستقيمة ومرتفعة، تنبّهه إلى أن يرفع أشواقه إلى العلى. وتلك الحركة السريعة والعجيبة المعطاة للسانه وليده ليحكي ويكتب ليكمل ما تطلب الصناعة والواجب. فما هي تلك النفس التي وجب أن يكون لها جسم كذاك الجسم لكي يخدمها؟ وإن يكن، والحقّ يقال، بعيدًا عن ضرورة في العمل، تجانس في الأجزاء،

وتجاوب صحيح وصادق؛ فما من شكّ أنّ الخلق جمع بين الجميل والنافع فلا نجد فيه شيئًا مخلوقًا ليكون نافعًا إلا وهو على درجة من الجمال. وهذا يتّضح لنا أكثر لو أنّنا عرفنا ما بين الأجزاء كلّها من ضبط ودقّة في الأحجام؛ وقد يصل الذكاء البشريّ، بفضل ما يولي من عناية، إلى اكتشاف المزيد من العلاقات في الأعضاء الخارجيّة؛ أمّا ما كان منها مخفيًّا، ولم يظهر أمام أعيننا، كتلك الشبكة من الأعصاب والشرايين والأنسجة، سرّ القوى الحيويّة، فلا أحد يستطيع أن يصل إليها. ومع أنّ العلم القاسي للأطبّاء الذين يسمّون مشرّحين قد أعمل المبضع في الجثث، ماذا أقول؟ في مساكين قضوا تحت الأيدي التي تشقّ طريقًا تحت نظر الجراح؛ أن يكون المبضع اللاإنسانيّ قد اندسّ باحثًا في النواحي المظلمة من جسم الإنسان ليكشف عن مركز الداء وسرّه؛ مع ذلك فإنّ ذلك الترابط العجيب الذي أتكلّم عنه والذي يسمّيه الإغريق انسجامًا يؤلّف الآلة العجيبة لجسدنا في الداخل والخارج لم يجرؤ أحد أن يجده ولا أن يبحث عنه. لو كنّا نعرفه في الأحشاء ذاتها التي لا مظهر البتّة فيها للجمال لانكشف أمام عقلنا جمال وجاذبيّة أقوى من كلّ جمال خارجيّ يروق النظر، وانجذب إليه عقلنا الذي يستعمل العينين، وفي الجسد بعض أعضاء إضافيّة للزينة وليست للاستعمال. وعلى هذا النحو فصدر الإنسان يحتوي على ثديين ولوجهه لحية، زينة بسيطة للرجال أمّا وجه المرأة فهو عار، ولكان طالب باللحية، على ضعفه، لو كانت اللحية للدفاع. ومن بين جميع الأعضاء الظاهرة، لا نجد واحدًا منها نافعًا، ينفي الجمال وإن كانت أعضاء أخرى ليست إلّا للجمال ولا فائدة منها. وأظنّ أنّه من السهل جدًّا أن نقول إنّ

الجمال في تركيب قوام الإنسان يفضّل على الفائدة. لأنّه سيكون زمان تنقضي فيه الضرورة ولا يبقى سوى التمتّع بالجمال، الجمال الفاني، دون أيّة شهوة فاسدة. وإليكم ما يجب أن نمجّد فيه الخالق الذي قيل عنه في المزمور: «جلالًا وبهاءً لبست» (مز ١٠٣/١) وكثير من الجمالات الأخرى والخيور الكثيرة الموزّعة في الخليقة، كنوز حتّى في هذا المقام من البؤس، في هذا المنفى المضنيّ، وضعها الكرم الإلهيّ تحت تصرّف الإنسان كُرمى عينيه وتلبية لحاجاته. بأيّ كلام نستطيع أن نحصيها بالتمام؟ أيّ لوحة رائعة ومتنوّعة تقدّم لنا السماء والأرض والبحار؟ وذلك الأوقيانوس الرائع من النور والشمس والقمر والكواكب وأعماق الأحراج المظلمة، بهاء الأزهار وأريجها، أسراب الطيور المغرّدة، والحاملة للألوان الحادّة؛ وأيّ تنوّع في الحيوانات، أصغرها حجمًا، أشدّها جمالًا بنظرنا، (النحلة والنملة تبدوان في الواقع أمامنا تحفة تدعو إلى الإعجاب أكثر من جسم جبّار لحوتٍ في البحر) وهذا المنظر الكبير للبحر الذي يتغيّر باستمرار بألوانه المتعدّدة كما في ثياب متنوّعة، تارة في رداء مخضوضر، وطورًا في لون الأفق الأحمر؛ ما أجمل النظر إليه وهو في ثورة الغضب؛ ويزداد جماله رونقًا، إن كان التطلّع إليه يخلو من أخطار الغرق! ما أكثر الأطعمة ضدّ الجوع! وما أكثر ما تقدّم يد الطبيعة الغنيّة من مقبّلات، منعًا للقرف، دون اللجوء إلى مهارة الطبّاخين! ما أكثر الأدوية التي تستعمل لحفظ الصحّة واستعادتها. ما ألطف التقلّبات بين فترة الليل والنهار! ما أعذب طقس النسائم! ما أغنى الألبسة التي تقدّمها ثمار الأشجار وأصواف القطعان! مَن ذا الذي يستطيع أن يقول كلّ شيء؟ وكلّ

ما أطالعه نوعًا ما، مجموعًا، لو أردت أن أحلّه وأتأمّله بالتفصيل، كم يجب علينا أن نتأخّر في قراءة كلّ ذلك إذ إنّ كلّ واحدة من تلك الغرائب تحمل منها عدّة مثيلات لها؟ ومع ذلك فليست سوى تعازي لمحكومين تعساء؛ وليست جوائز لأناس طوباويّين. كيف تكون تلك المكافآت إن كانت هذه العظمة كلّها في التعازي؟ وماذا يعطي الله الذين يعدّهم للحياة إن كان أعطى كلّ ذلك الذين أعدّهم للموت؟ كيف تكون الخيرات التي يغمر بها في الحياة السعيدة هؤلاء التعساء الذين أرسل إليهم ابنه الوحيد ليتحمّل في سبيلهم العذابات والموت؟ والرسول أيضًا إذ يتكلّم عن المدعوّين إلى الملكوت يقول: «هو الذي لم يوفّر ابنه الوحيد بل أسلمه من أجلنا جميعًا ماذا يعطينا بعدما أعطاناه؟» (روم ٨/ ٣٢) عندما يتمّ هذا الوعد ماذا نكون؟ أو بالأحرى: ماذا لا نكون؟ أيّ خير لا نأخذه نحن الذين قد أخذنا المسيح يسوع المائت لأجلنا عربونًا؟ وماذا يكون روح الإنسان المتحرّر من الشهوة التي تستعبده ويتغلّب في مقاومته أو يحارب بمجد يحوز السلام الذي لا يشوبه كدر في الكمال؟ بأيّ علم رائع وأكيد وبلا خطأ ولا عمل ويصبح في سعادة تامّة وحرًّا ينهل من حكمة الله، من ينبوعها بالذات؟ كيف يكون جسده عندما يخضع بكلّيّته للروح الذي يحييه فلن يعود بحاجة إلى طعام لأنّه لن يعود حيوانيًّا بل روحانيًّا، في طبيعة الجسد، خاليًا من فساد الجسد.

٢٥

تشبّث الذين ينكرون قيامة الأجساد

أمّا الخيور التي يجب أن تتمتّع بها النفس السعيدة بعد هذه الحياة فمشاهير الفلسفة ليسوا ببعيدين في تكفيرهم بشأنها. إنّما يعترضون على قيامة الأجساد وينكرونها بكلّ قواهم. أمّا الشعب الذي يؤمن فإنّه يترك العدد الضئيل الرافض في وحدته. والمسيح إذ يبيّن بقيامته ما هو غير منطقيّ للحكماء يهدي إلى الإيمان به قلب الحكماء والجهّال، حكماء العالم والبسطاء. لأنّ العالم آمن بما قال الله؛ وإيمان العالم هذا قد سبق وتكلّم الله عنه أيضًا. على أنّ الله لا ينصاع لما يعمل بطرس من مساوئ حين يُعلن سابقًا عن إيمانه بمجد المؤمنين؛ لأنّي سبق وقلت ذلك؛ ولا أقوله مجدّدًا أنّ الله هذا هو بحسب ما يعترف برفيروس، واستنادًا إلى الشهادة التي يطلبها من أقواله آلهتُهُ يخيف أولئك الآلهة أنفسهم؛ هذا هو الإله الذي يمجّده حتّى إنّه يسمّيه أبًا وملكًا. ولكن حذار أن نفهم قوله كما يريد أن نفهمه أولئك الذين لا يشاطرون العالم إيمان العالم هذا كما تكلّم عنه. ولماذا لا يُفهم، وهو الأفضل، بحسب اعتقاد العالم الذي أعلن عنه أقوال الأقدمين؛ وليس بحسب الأقوال الباطلة لعدد ضئيل من الناس يرفضون أن يؤمنوا مع العالم ما قيل سابقًا بأنّ العالم سوف يؤمن؟ وفي الواقع، إن لم يصلوا، في النتيجة، إلى معنى آخر؛ وهو أنّه كيلا يهينوا الله هذا الذي يؤدّون له شهادة هكذا عظيمة بقولهم إنّ كلامه باطل أليس في ذلك الموقف إهانة توجّه

إليه وإهانة أخرى أفظع بقولهم إنّ هذا يجب أن يُفهم بخلاف ما يؤمن به العالم الذي أثنى الله ذاته على إيمانه وأعلن عنه وأتمّه؟ وهل يعني أنّه عاجز عن إقامة الجسد وعن جعله يحيا إلى الأبد؟ أو بالأحرى هل يجب الاعتقاد بأنّه لن يعمل ذلك على الإطلاق لأنّه شرّ وغير لائق به؟ أمّا قدرته التي تخلق كثيرًا ممّا لا يصدّق من عجائب فقد سبق وتكلّمت عنها الكثير. وهل يريدون أن يعرفوا ما يستطيع أن يفعله الكلّي القدرة؟ إليكم مثلًا على ذلك: إنّه لا يستطيع أن يكذب. فلنصدّق إذًا أنّه لا يستطيع أن يكذب إذ إنّه لا يصدّق ما لا يستطيع عمله؛ وإذ يعتقد بأنّه لا يستطيع أن يكذب. صدّقوا إذًا بأنّه سيفعل ما وعد به؛ صدّقوا، استنادًا إلى إيمان العالم، استنادًا إلى هذا الإيمان الذي سبق وأعلن عنه ومدحه؛ واستنادًا إلى هذا الإيمان الذي وعد به والذي ينفّذه تحت أنظارنا؟ ولكن هل يعتبر هذا شرًّا؟ والبرهان؟ على الفساد أن يزول، الفساد الذي هو شرّ الجسد. لقد سبق وناقشت نظام العناصر وسائر الاعتراضات التي يجازف بها الإنسان. ما هي رشاقة الجسد الذي لا يموت، يمكننا مثلًا تقديرها، في النظام الراهن، من خلال تناسق القوى، في حالة الصحّة، الصحّة لا شبه بينها وبين الخلود المستقبليّ؛ كلّ هذه الأمور أظنّ أنّني توسّعت فيها، بقدر ما يلزم، في الكتاب الثالث عشر؛ عودوا إلى قراءة ما سبق إذا ما كنتم قد قرأتم أو نسيتم ما قرأتموه.

٢٦

ما يقوله برفيروس بشأن النفس في سعادتها مرفوض لدى أفلاطون

ولكنّهم يقولون إنّ برفيروس يزعم أنّ سعادة النفس تتحقّق متى هربت من الجسد؛ ومن ثمّ، عبثًا نقيم عدم الفساد للفساد، إن كانت النفس لا تسعد إلّا إذا هربت من كلّ جسد. لقد ناقشت هذا الاعتراض سابقًا في الكتاب السابق الذي أريد أن أذكّر الآن بكلمة واحدة منه؛ أجل، على أفلاطون، أستاذكم جميعًا، أن يصحّح ما كتبه وليعلّم أنّ على آلهتكم أن يهربوا من أجسادهم ليكونوا سعداء؛ أي عليهم أن يموتوا، أولئك الآلهة؛ المسجونين، بنظره، في أجساد سماويّة، بينما الله الذي خلقهم وعدهم بالخلود، وبتعبير آخر، وعدهم بإقامة أبديّة في الأجساد عينها، وهي هبة فائقة الطبيعة شاء أن يؤمّنها لهم. وها هنا نراه يقضي على هذه الحجّة التي تنفي قيامة الجسد كشيء غير قابل للتصديق؛ لأنّه مستحيل: إذ إنّه واضح جدًّا، بحسب ذلك الفيلسوف ذاته أنّ الله غير المخلوق، الواعد الآلهة الذين خلقهم، بعدم الموت، يعلن عن أنّه سوف يعمل ما هو مستحيل. وإليكم الكلام الذي ينقله أفلاطون عن الله فيقول: «وبما أنّكم بدأتم تكونون فلا يمكنكم أن تكونوا خالدين وغير قابلين للانحلال. على أنّكم لن تعرفوا الانحلال ولا أيّ قدر مميت يستطيع أن يتغلّب على إرادتي التي هي وثاق لضمان استمراريّتكم أقوى من أولئك الذين جاؤوا ليجمعوا عناصر طبيعتكم. (أفلاطون *Tinée 41 ab*). وإذا جمعنا قليلًا بين السخافة والصمم

حسبنا أن نسمع الكلمات المذكورة كيلا يخامرنا شكّ بأنّ أفلاطون، الإله الخالق للآلهة لا يعدهم بالمستحيل. «لا يمكنكم أن تكونوا خالدين لكنّي إذا شئت ذلك ستكونون خالدين»؛ وهل يعني ذلك سوى أنّ ما لا يمكنكم أن تكونوه سأعمل على أن تكونوه؟ وسوف يقيم الجسد غير القابل للفساد، غير المائت، الروحانيّ هو الذي على حدّ قول أفلاطون يعد بغير الممكن. أن يعد الله به وما يؤمن به العالم استنادًا إلى وعد من الله، هذا التصديق عينه الموعود به، ذاك ما يسمّونه مستحيلًا عندما يكون هذا الإله، ذاك الذي وحده يقرُّ له أفلاطون بالقدرة على عمل المستحيل. وعلى هذا النحو أنّ سعادة النفس لا تتعلّق بهروبها من الجسد، بل بأن تأخذ منه ما هو غير قابل للفساد. وفي أيّ جسد غير قابل للفساد يمكنها أن تفرح وتسرّ أكثر من ذلك الجسد القابل للفساد الذي فيه عانت الكثير؟ إذ ذاك لن يكون لها تلك «العادة المستهجنة المشؤومة» التي ينسبها إليهم فيرجل على خطى أفلاطون عندما يحكي عن «رغبتهم الجديدة في العودة إلى أجسادها». (Virgile *Eneïde VI 721*) كلّا لن تكون لها تلك «العادة المستهجنة المشؤومة» لأنّها سوف تلبس الأجساد التي تتوق إليها وإذ تلبسها لا تتخلّى عنها إلى الأبد؛ ولو مرّ الموت عليها كما يمرّ الظلّ.

٢٧

التناقضات بين موقفَي أفلاطون وبرفيروس تقرّبهما من الحقيقة

إنّ أفلاطون وبرفيروس جاهرا برأيين، لو اندمجا معًا، لدفعا بهما إلى المسيحيّة. قال أفلاطون إنّ الأنفس لا تستطيع أن تكون

إلى الأبد بلا أجساد وقال أيضًا إنّ الأنفس ذاتها أنفس الحكماء، بعد زمنٍ، مهما تخيّلناه طويلًا سوف تعود إلى أجسادها. برفيروس يزعم أنّ النفس المطهّرة العائدة إلى حضن الآب لا تعود أبدًا إلى بؤس هذه الحياة. ومن ثمّ إن كانت هذه الحقيقة التي رآها، أعطاها أفلاطون برفيروس وهي أنّ أنفس الأبرار والحكماء المنقّاة تعود إلى أجساد بشريّة ولو أنّ برفيروس أشرك أفلاطون بالحقيقة التي عرفها أي إنّ الأنفس القدّيسة لن تعود أبدًا إلى بؤس الأجساد القابلة للفساد؛ لو أنّ الاثنين جمعا ما يجاهران به بدلًا من أن يعلن كلّ واحد من ناحيته، رأيه لوجدا، حقًّا، على ما أظنّ، أنّ الأنفس سوف تعود إلى أجساد، حيث يمكنها أن تعيش في السعادة والخلود. وبحسب رأي أفلاطون النفوس القدّيسة تعود إلى أجساد بشريّة كما أنّ برفيروس يقول إنّ النفوس القدّيسة لا تعود البتّة إلى بؤس الحياة الحاضرة؛ على برفيروس أن يقول مع أفلاطون: سوف تعود إلى أجساد، وعلى أفلاطون أن يقول مع برفيروس: لن تعود البتّة إلى شقاء هذه الحياة الحاضرة، إذ ذاك يتّفقان على القول إنّ الأنفس لن تعود إلى ما كانت عليه من شقاء، ويكونان على اتّفاق أنّ الأنفس ستعود إلى أجساد لن تتعذّب فيها. أوليس هذا ما وعد الله به هو الذي يؤمّن السعادة الأبديّة للأنفس في جسد أبديّ؟ وبالنتيجة أظنّ أنّهم يعطون هذه النهاية التي أتصوّرها. غير أنّ عودة الأنفس القدّيسة إلى أجساد غير مائتة ولماذا لا يسمح لها بالعودة إلى أجسادها التي عانت فيها شرور هذا العالم وحيث، بغية التخلّص منها، قدّمت إلى الله عبادة إيمانها ومحبّتها؟

٢٨

تقارب في الرأي وتباعد في التعبير

كثيرون بيننا، أصدقاء أفلاطون بسبب فصاحته الرائعة وبعض الحقائق التي يعلّمها، يدّعون بأنّ فكرته عن قيامة الموتى ليست بعيدّة جدًّا عن فكرتنا. لكنّ شيشرون الذي يلمّح إليها في كتبه «الجمهوريّة» يبدو أنّه يرى فيها، بالأحرى، مزاحًا وليس اقتناعًا جدّيًا؛ يقدّم إنسانًا عاد إلى الحياة ويضع، على لسانه، قصّةً مطابقة للآراء الأفلاطونيّة. ويحكي لأبيون Labéon ايضًا قصّة رجلَين ماتا في اليوم ذاته فالتقيا على مفترق طرق؛ وإذ تسلّما الأمر بالعودة إلى جسديهما تواعدا على أن يتصادقا ودامت صداقتهما حتّى موتهما الثاني. إنّ القيامة التي يخبر عنها هذان الرجلان شبيهة بقيامة الكثيرين ممَّن قاموا وعادوا إلى الحياة؛ ولكن لا في ظروف تعفيهم مجدّدًا من الموت. هناك، حدث أكثر غرابة، هو الحدث الذي يرويه فرّون في كتابه: «الشعب» وإليكم كلماته الشخصيّة التي آخذ على نفسي أن أعيدها عليكم حيث يقول: «منجّمون كتبوا أنّ البشر يحقّقون شريعة النهضة هذه التي يسمّيها الإغريق وهي بحسب رأيهم، بعد حقبة أربعمئة وأربعين سنة، وإذ يقرّبون الجسد ذاته والنفس ذاتها اللذين اجتمعا، ماضيًا في إنسان، توثّق مجدّدًا روابط تلك الوحدة» (فرّون: في الشعب الرومانيّ) إذ ما يقوله فرّون هنا أو ما ينقله عن المنجّمين المجهولين الذين لا يسمّيهم، وإن يكن خطأً (لأنّ النفوس التي عادت إلى أجسادها، لا يمكنها أن تتركها في

المستقبل) بكلمة واحدة، لا يتأخّر عن قلب تلك البراهين رأسًا على عقب، ويقضي عليها لكونها مستخرجة من المستحيل؛ لأنّ الذين جاهروا بذلك الرأي أو يجاهرون به اليوم لم يعتقدوا أنّه يستحيل على الأجساد المنشورة في الجوّ، غبارًا أو رمادًا، أو ماءً، والتي اندمجت بطبيعة الحيوانات أو البشر وأصبحت بالنسبة إليهم طعامًا يعود مرّة ثانية إلى ما كانت عليه. إن كان أفلاطون أو برفيروس أو مؤيّدوهما الذين لا يزالون أحياء، على اتّفاق معنا أنّ النفوس المقدّسة تعود إلى أجسادها حسب ما يقول أفلاطون وأنّها لن تعود إلى ما كانت عليه من شقاء، حسب رأي برفيروس، يُستنتج من ذلك أنّ الإيمان المسيحيّ يعلّم أنّها تدخل في أجساد، لا تمرض، لتعيش في سعادة أبديّة؛ وأنّ أولئك الأفلاطونيّين، بنظري، يأخذون أيضًا عن فرّون أنّها تعود إلى الأجساد عينها التي كانت فيها سابقًا؛ وبعدئذ تنحلّ بالنسبة إليهم مشكلة قيامة الجسد.

٢٩

كيف يرى القدّيسون والأبرار الله في العالم الآتي؟

نرى الآن، بقدر ما يساعدنا الله، ما سوف يعمل القدّيسون في أجسادهم الخالدة والروحانيّة؛ في الجسد الذي لا يعيش، منذئذ، بحسب الجسد، بل بحسب الروح. وعليه، ماذا يكون ذلك العمل أو بالأحرى تلك الراحة والهدوء. حقًّا، إنّي لا أعرف؟ وإنّي ادّعيت العودة بذلك إلى العقل أو الفهم، فما هو ذكاؤنا بحضرة ذلك الكمال؟ وفي الواقع، هناك يقوم «سلام الله الذي يفوق كلّ

إدراك» (فل ٤/ ٧) وأيّ إدراك سوى إدراكنا؛ ولربّما إدراك الملائكة أنفسهم؟ لا شكّ أنّهم دون إدراك الله. وعليه فإن كان على القدّيسين أن يعيشوا في سلام الله، فبكلّ تأكيد، يعيشون في السلام الأسمى من كلّ إدراك، أسمى من إدراكنا، فمَن ذا يشكّ في ذلك؟ ولكن إن فاق أيضًا إدراك الملائكة لأنّ العبارة «كلّ إدراك» لا يبدو أنّها تستثني شيئًا لمصلحتهم بل يجب فهمها بذلك السلام الإلهيّ الباطنيّ كما يعرفه؛ وكما لا نعرفه؛ ولا يعرفه أيّ من الملائكة. تاليًا إنّه «يفوق كلّ إدراك» ما عدا إدراكه؛ ولا شكّ في ذلك. ولكن بما أنّنا سوف نشترك نحن أيضًا، بحسب طاقتنا، بذلك السلام، سوف نحصل عليه سلامًا رفيعًا، فينا، فيما بيننا، ومعه، لكونه هو خيرنا الأسمى. وعلى هذا النحو يعرفه الملائكة القدّيسون، معرفةً تناسب قدرتهم... والبشر أيضًا يعرفونه معرفة أحطّ من تلك التي للملائكة، أيًّا يكن تقدّمهم في الروحانيّات. مَن هو الإنسان القائل: «لأنّ معرفتنا ناقصة ونبوءاتنا ناقصة. فمتى جاء الكمال زال الناقص؟» «فنحن اليوم نرى في مرآة رؤية ملتبسة. وأمّا يومذاك فتكون رؤيتنا وجهًا لوجه». (١ قور ١٣/ ٩ وما يلي) على هذا النحو يرى الملائكة القدّيسون الذين يُدعون أيضًا ملائكتنا؛ ولكوننا خرجنا عن سلطان الظلمة، وانتقلنا إلى ملكوت المسيح، بقوّة عربون الروح القدس الذي أعطيناه، أصبحنا للملائكة الذين نملك وإيّاهم، بالاشتراك، ذاك الوطن المقدّس والعذب الذي هو مدينة الله. ملائكة الله، أولئك، هم أيضًا ملائكتنا، كما أنّ المسيح الله هو مسيحنا. إنّهم ملائكة الله لكونهم لم يتخلّوا عن الله؛ وهم ملائكتنا لأنّنا صرنا مواطنين لهم. والربّ يسوع قد قال: «إيّاكم أن تحتقروا أحدًا من هؤلاء

الصغار. أقول لكم إنّ ملائكتهم في السماء يشاهدون أبدًا وجه أبي الذي في السماوات». (متّى ١٨/ ١٠) وكما يشاهدون، سنشاهد نحن أيضًا؛ إنّما لسنا نشاهد حتّى الآن هكذا. ولهذا يقول الرسول ما سبق وذكرت: «فنحن اليوم نرى في مرآة رؤيةً ملتبسة. وأمّا يومذاك فتكون رؤيتنا وجهًا لوجه». إنّها لرؤية محفوظة لنا، مكافأةً لنا على إيماننا؛ وهي التي قال عنها يوحنّا الرسول: «عندما يظهر نصبح أشباهه لأنّا نراه كما هو» (١ يو ٣/ ٢). وجه الله هو ظهور الله وليس ذاك العضو من جسدنا الذي نسمّيه بذاك الاسم.

وأيضًا، حينما يسألونني عمّا يعمل القدّيسون في ذلك الجسد الروحانيّ لا أقول ما أراه بل أقول ما أؤمن به. «أؤمن ولهذا أتكلّم» (مز ١١٥/ ١٠)؛ وعليه فإنّي أقول إنّهم سيرون الله في ذلك الجسد؛ وهل يرونه بالجسد؟ على مثال ما نرى الآن الشمس والقمر والنجوم والبحر والأرض وما فيها. ليست المسألة بسيطة لأنّه من الصعب القول إنّ القدّيسين لن تكون لهم في أجسادهم القدرة على فتح أعينهم وإطباقها كما يريدون؛ ولكنّه من الأصعب أن يدّعي الإنسان أنّه هناك، بأعين مطبقة، لا يمكنه أن يرى الله. وفي الواقع، إذا كان النبيّ أليشاع، الغائب بالجسد، رأى خادمه جيازي يقبل هدايا من يد نعمان السريانيّ الذي شفاه النبيّ من البرص، وهو يظنّ أنّ معلّمه لا يراه فكم بالحريّ ذاك الجسد الروحانيّ يسمح للقدّيسين بأن يروا كلّ شيء، ليس فقط إذا كانت أعينهم مطبقة بل حتّى إذا كانوا غائبين بأجسادهم؟ إذ ذاك يتحقّق ذلك الكمال الذي يتكلّم عنه الرسول قائلًا: «معرفتنا ناقصة ونبوءاتنا ناقصة. فمتى جاء الكمال زال الناقص». ولكي يُظهر،

من خلال بعض الشبه، المسافة اللامتناهية الفاصلة بين الحياة الأخرى وهذه الحياة أيًّا تكن درجة القداسة التي بلغناها يقول الرسول: «لما كنت طفلًا، كنت أتكلّم كالطفل وأدرك كالطفل وأفكّر كالطفل. ولمّا صرت رجلًا، تركت ما هو للطفل. فنحن اليوم نرى في مرآة رؤية ملتبسة، وأمّا يومذاك فتكون رؤيتنا وجهًا لوجه. اليوم أعرف معرفة ناقصة وأمّا يومذاك فسأعرف مثلما أنا معروف». (١ قور ١٣/٩-١٢) ومن ثمّ إن كانت معرفة الأنبياء الأسمَيْن في هذه الحياة ليست سوى معرفة الولد بالمقارنة مع معرفة الرجل، مع ذلك فإنّ أليشاع رأى خادمه جيازي يقبل الهدايا حيث لم يكن موجودًا، فهل يجب أن نؤمن بأنّه عندما يصير الكمال ولا تعود هذه الجبلة الترابيّة تثقل على النفس وتبلغ عدم الفساد، يستغني القدّيسون عن الأعين الجسديّة ليروا بها كما كانت حال النبيّ أليشاع وهو غائب فرأى خادمه جيازي؟ وبحسب ما جاء في «السبعون» إليكم ما قاله النبيّ لجيازي: ألم يمل قلبي إليك عندما تخلّى ذلك الرجل عن مركبته وجاء إليكم فقبلت من المال». أو بحسب ترجمة القدّيس إيرونيموس عن العبريّة: «ألم يكن قلبي هناك حين انعطف الرجل عن مركبته للقائك، وأتى إليك؟» (٤ مل ٥/٢٦) وهكذا يقول النبيّ إنّه رأى من القلب، مستنيرًا بنور روحيّ وإلهيّ حقًّا. وكم تكون تلك النعمة أوفر في القدّيسين الذين يكون فيهم كلًّا في الكلّ. على أنّ عينَي الجسد يعملان ويكونان في موضعهما والروح يستخدمهما بواسطة الجسد الروحانيّ. ومع أنّ ذلك النبيّ لم يكن بحاجة إليهما، ليشاهد إنسانًا غائبًا؛ فلا يعني أنّه لم يستخدمهما لرؤية الأشياء الحاضرة. وهي أشياء كان باستطاعته أن يراها

بالروح، مطبق العينين؛ وكأنّه غائب رأى ما كان يجري خلال غيابه. حذارِ أن ندّعي أنّ القدّيسين في الحياة الأخرى لن يستطيعوا أن يشاهدوا الله، وأعينهم مطبقة وأنّهم سوف يشاهدون دومًا بالروح القدس.

ولكن هل يرونه أيضًا بأعين الجسد حين يفتحونها؟ تلك هي المسألة. إذا كانت أعينهم روحانيّة في جسد روحانيّ كما يجب أن تكون فلا تكون لها قدرة مختلفة عن تلك التي لنا اليوم، وبكلّ تأكيد، فسوف تعجز عن رؤية الله: قدرتها تكون مختلفة، كلّيًا، عمّا هي اليوم، إن كنّا نرى بواسطتها تلك الطبيعة غير المادّيّة التي ليست محدودة في مكان، بل هي بكاملها في كلّ مكان. وإن قلنا في الواقع إنّ الله في السماء وعلى الأرض («أنا أملأ السماء والأرض») يقول بلسان النبيّ، فهل نقول إنّ جزءًا منه في السماء وآخر على الأرض؟ إنّه بكلّيّته في السماء وبكلّيّته على الأرض، وليس مناوبةً بل بكلّيّته؛ وهذا شيء مستحيل على الطبيعة الجسديّة. إذ ذاك تلك المشاهدة تكون أقوى بشكل لا محدود؛ ولا مجال للمقارنة بين تلك المشاهدة وهذه التي يتمتّع بها بعض الأجناس من النسور أو الزحافات (إذ إنّها مهما بلغت من القدرة فلن تستطيع أن ترى إلّا الأجسام) بينما تمتاز تلك الأعين بأنّها ترى ما ليس جسديًّا. وهل هي تلك الرؤية الخارقة التي في هذا الجسد الزائل أعطيت لبرهة من الزمن لعيني أيّوب البارّ حين قال لله: «كنت قد سمعتك سمعَ الأذن أمّا الآن فعيني قد رأتك، فلذلك أنكر مقالتي وأندم في التراب والرماد». (أي ٤٢/٥) وإن يكن هذا ممكن التطبيق، بلا صعوبة، على عين الروح، التي قال فيها الرسول: «وأن ينير بصائر قلوبكم» (أف

١٨/١) ولكن إن لم يكن الله يُرى بتلك الأعين فذاك ما لا يشكّ فيه أيّ مسيحيّ الذي يقبل، بقلب أمين، كلمة معلّمنا الإلهيّ القائل: «طوبى للنقيّة قلوبهم فإنّهم يعاينون الله» (متّى ٥/٨) ولكن هل يُرى الله أيضًا بأعين الجسد، هذه هي المسألة التي نحن نناقشها.

وفي الواقع، أنّ ما كتب: «وكلّ بشرٍ يرى خلاص الله» (لو ٣/ ٦) يمكن أن يعني بكلّ سهولة كما لو قيل: وكلّ إنسانٍ يرى مسيح الله الذي رأوه بالجسد؛ وبالجسد سوف يُرى عندما يدين الأحياء والأموات؛ ولكن، أن يكون خلاص الله؛ فهذا تصرّح به الكتب المقدّسة وتشهد له مرارًا؛ ولكنّه يبدو واضحًا، في كلمات الشيخ سمعان الذي أخذ الطفل يسوع بين يديه وهتف قائلًا: «الآن، يا ربّ، أطلق عبدك بسلام لأنّ عينيّ رأتا خلاصك» (لو ٢/ ٢٩) وذاك النصّ لأيّوب كما ورد في النصّ العبريّ: «ومن جسدي أعاين الله» (أي ١٩/ ٢٦) يُعلن، بلا شكّ، عن قيامة الأجساد؛ لكنّه لم يقل: بواسطة جسدي أعاين، ولو أنّه قال ذلك لأمكن فهمه عن المسيح الله الذي بواسطة جسده سوف يرى في الجسد. ولكن: «ومن جسدي أعاين الله» قد يفهم على الشكل التالي: سوف أكون في جسدي وسأعاين الله. وتعبير الرسول: «وجهًا لوجه» لا يضطرّنا إلى أن نؤمن بأنّنا سوف نرى الله بواسطة ذلك الوجه الجسديّ، وفيه الأعين الجسديّة، هو الذي نراه باستمرار بالفكر. ولو لم يكن للإنسان الباطنيّ وجهه أيضًا لما قال الرسول: «ونحن جميعًا نعكس صورة مجد الربّ بوجوه مكشوفة كأنّها مرآة فنتحوّل إلى تلك الصورة بعينها، من مجد إلى مجد، كما يكون من الربّ الروح» (٢ قور ٣/ ١٨) ولسنا نفهم بطريقة مغايرة كلام المزمور: «تأمّلوا فيه واستنيروا ولا تخزَ وجوهكم».

(مز ٣٣/ ٦) لأنّنا بالإيمان ندنو من الله؛ وبالتأكيد فإنّ ذاك الإيمان هو من القلب وليس من الجسد. ولكن بما أنّنا لا نعرف درجة الكمال التي يستطيع الجسد الروحانيّ أن يبلغها (لأنّ الخبرة تنقصنا في ذاك المجال) ولا يهبُّ سلطان الكتاب للقائنا ومساعدتنا بنصٍّ يعطي معنى آخر، علينا أن نجد في ذواتنا تطبيقًا للنصّ من الحكمة القائل: «إنّ أفكار البشر ذات إحجام وبصائرنا غير راسخة» (حك ٩/ ١٤).

لو تأكّد بواسطة تفكير الفلاسفة أنّ بين ما يتوق إليه الإدراك وما تتوق إليه الحواسّ ذلك التوزيع بحيث يستحيل الوصول إلى ما هو قابل للفهم بواسطة الجسد كما أنّ النفس بذاتها لا تستطيع أن ترى الحقائق الجسديّة فقد يكون مؤكّدًا كذلك أنّ الله لا يُرى بأعين الجسد ولو كان الجسد روحانيًّا. بيد أنّ العقل السليم وسلطان الأنبياء لا يعبآن بذلك التفكير الباطل. مَن هو الإنسان الذي أغفل الحقيقة ليتجاسر على أن يقول إنّ الله لا يعرف الأشياء الجسديّة؟ وهل له جسد ليعرف تلك الأشياء بأعين الجسد؟ وإنّ ما سبق وقلته عن النبيّ أليشاع أليس برهانًا ساطعًا بأنّ الروح بمعزل عن الجسد يستطيع أن يرى الأشياء الماديّة؟ حينما استلم الخادم تلك الهدايا تمّ الأمر بصورة ماديّة مع أنّ النبيّ رأى بالروح ما حصل وليس بالجسد. وعليه، فكما أنّه ثابت أنّ الأجساد تُرى بالروح فلماذا يأبون على القدرة المجهولة للجسد الروحانيّ أن يرى الروح بواسطة الجسد؟ الله هو روح؛ وكلّ منّا يعرف حياته الخاصّة والحياة التي يتمتّع بها في ذلك الجسد؛ مبدأ نباتيّ يحيي الأعضاء الأرضيّة، بخلاف ما هو الشعور الداخليّ؛ بيد أنّ الحياة في الآخرين وإن تكن غير

منظورة فإنّه يراها بعين الجسد. وفي الواقع، كيف نميّز الأجساد الحيّة من تلك التي لا حياة فيها إلّا لأنّنا نرى معًا الجسد والحياة التي لا يمكننا أن نراها إلّا بواسطة الجسد. لكنّ الحياة بدون الجسد لا تقع تحت نظر العين الجسديّة.

فمن الممكن إذن والمقبول أنّ رؤيتنا للأجساد المتجدّدة، في النظام العتيد، في السماء الجديدة والأرض الجديدة، لن يكون بدون رؤية الله، الحاضر في كلّ مكان، والمدبّر لكلّ شيء جسديّ؛ سوف نراه بأجسادنا المتحوّلة إلى كلّ الأجساد التي تصل إليها أنظارنا؛ سوف نراه بوضوح شفّاف؛ ولا نراه كما نراه، الساعة، حيث كمالاته اللامنظورة لا ترى إلّا من خلال أعماله للعقل البشريّ كما في المرآة وباللغز، موضوع الإيمان الذي يجعلنا نؤمن، بواسطة مظهر الأشياء الجسديّة التي نراها بأعيننا الجسديّة. وكما أنّنا نرى البشر الذين نعايشهم يحيَون ويقومون بكلّ الحركات التي تتطلّبها الحياة فلسنا نؤمن فقط بل نرى إنّهم يعيشون؛ وهي حياة قد تختفي عن بصائرنا لو لم تكن في أجسادهم ماثلةً؛ وفي الجسد نراها فيهم دون أدنى شكّ. وعلى هذا النحو حيثما وجّهنا الأعين الروحانيّة لأجسادنا الروحانيّة نجد الله غير الجسديّ يدبّر كلّ شيء؛ وسوف نشاهده أيضًا بواسطة الأجساد. وهكذا حيثما كان الله منظورًا بتلك الأعين التي ارتقت إلى قدرة مجاورة للروح الذي يسمح لها بالبلوغ إلى الطبيعة غير الجسديّة، وهذا ما يصعب أو يستحيل البرهان عنه، من خلال مثال معيّن، أو شهادة من الكتب الإلهيّة، أو افتراض أقرب إلى الفهم؛ فالله سيكون واضحًا ومعروفًا بحيث يكون منظورًا بالروح من قِبَل كلّ واحد منّا وفي كلّ واحد منّا،

يراه الواحد في الآخر ويراه في ذاته، يراه في السماء الجديدة والأرض الجديدة؛ وفي كلّ خليقة ستكون؛ وحتّى إنّه يُرى بالجسد، في كلّ جسد، وحيثما توجّه الأعين الروحانيّة للجسد الروحانيّ شعاعها الرفيع؛ وستكون أيضًا أفكارنا شفّافة إذ ذاك تتمّ كلمة الرسول: «لا تدينوا أحدًا قبل الأوان... بل انتظروا مجيء الربّ فهو الذي ينير خفايا الظلمات ويظهر سرائر القلوب، وعندئذ ينال كلّ واحد من الله ما يعود عليه من الثناء». (١ قور ٤/ ٥)

٣٠

السعادة الأبديّة لمدينة الله في السبت الأبديّ

يا لها من سعادة تتحقّق عندما يبطل كلّ شرّ ويخرج كلّ خير إلى النور؛ ولن يستسلم الإنسان إلّا إلى مديح الله الذي يكون كلًّا في الكلّ! وهل يعمل الإنسان شيئًا آخر، إذ يكون في مأمن من سقم البطالة وهموم الفاقة؟ أنا متأكّد من ذلك حين أخلد إلى أنغام النشيد المقدّس التي تطرق أذنيّ أو أطالعها بناظري: «طوبى لسكّان بيتك فإنّهم لا يبرحون يسبّحونك من جيل إلى جيل». (مز ٨٣/ ٥) إنّ تلك الأعضاء ومفاصل الجسم غير القابل للفساد والخاضعة اليوم في مختلف وظائفها، لحكم الضرورة، التي لن يعود لها محلّ بل تملك السعادة الأبديّة الكاملة والثابتة التي لا يشوبها كدر، كلّها تعمل على تمجيد الله. أين تلك القياسات الضروريّة للانسجام الجسديّ الموزّعة داخليًّا وخارجيًّا في جميع أجزاء الجسد تخرج آنذاك من السرّ الذي كان يخفيها

عنّا، وبالاتّفاق مع سواها من الروائع الكثيرة التي تنكشف في تلك الساعة تجتذب بسحر جمالها المعقول النفوس العاقلة إلى مديح ذلك الفنّان الأسمى. ولكن، ماذا تكون حركات تلك الأجساد المتحوّلة، لا أجرؤ على أن أغامر، بأيّ قرار، حيث يمرّ كلّ عقلي. إنّما الحركة والموقف والتعبير، كلّ ذلك يكون في التوافق؛ حيث لا شيء يخدّش الانسجام. إنّما الأكيد أنّ الجسد يصير فجأة حيثما يريد الروح؛ والروح لا يريد شيئًا مخالفًا للروح والجسد. هناك المجد الحقيقيّ الذي لا يعطى لا على سبيل الخطأ ولا على سبل التملّق. هناك الشرف الحقيقيّ الذي يُعطى مَن يستحقّه دون سواه؛ ولا مجال لمَن لا يستحقّه ولا يمكن لشخص أن يكون فيه إلّا إذا كان جديرًا به. وأخيرًا، هناك السلام الحقيقيّ حيث الإنسان لا يعاني ممّا يضادّه، لا في ذاته ولا في الآخرين. خالق الفضيلة هو المكافأة؛ وهذه المكافأة التي وعد بها هي العظمى والفضلى وهو نفسه المكافأة. وأيّ معنى آخر يمكن أن يكون لهذه العبارة من النبيّ: «سأكون لهم إلهًا ويكونون لي شعبًا». (إر ٧/٢٣) وإلّا سأكون ما منه يشبعون؛ سأكون ما يتوق إليه الناس شرعًا: حياة، صحّة، غذاء، غنى ومجدًا، شرفًا وسلامًا، وكلّ الخير، بكلمة واحدة؟ ذاك هو المعنى الحقيقيّ لهذه الكلمة من الرسول: «ليكون الله كلًّا في الكلّ». (١ قور ١٥/٢٨) إنّه غايتنا الوحيدة، نحبّه، بشوق، ونعظّمه بلا انقطاع. تلك النعمة والمحبّة والعمل كما الحياة الأبديّة من نصيب الجميع.

ولكن ما هي درجات المجد والشرف المتنوّعة التي يصل إليها الأبرار استنادًا إلى استحقاقاتهم؛ مَن يستطيع أن يقول أو يتصوّر

ذلك؟ لا شكّ في أنّه لا وجود لتلك الدرجات. وتلك هي نعمة من نِعَم المدينة السماويّة أنّ الأدنى لا يغار من الأعلى كما أنّ الملائكة لا يغارون من رؤساء الملائكة وكلّ واحد يكتفي بما هو فيه؛ وإن يكن مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمَن ينال أكثر، فلا غيرة منه، كما هي الأصبع بالنسبة إلى العين، علمًا بأنّ كلًّا من العضوين يساهم في تركيب الجسم ذاته تأمينًا للانسجام. وعلى هذا النحو، يضاف إلى الهبة التي تختلف حجمًا عن سواها هبة أخرى وهي الاكتفاء بما قسّم الله.

وهذا لا يعني أنّ حرّيّة الرأي تختفي حين يبطل إغراء الخطيئة؛ بل يزداد حرّيّةً؛ ولكونه تخلّص من الانجذاب إلى الخطيئة يقوى ميله إلى عدم الخطيئة لأنّ حرّيّة الرأي الأولى المعطاة للإنسان لدى خلقه في الاستقامة الأولى كانت القدرة على عدم ارتكاب الخطيئة وأيضًا القدرة على ارتكاب الخطيئة. وحرّيّة الاختيار حيث الثانية تقوى بقدر ما يستحيل ارتكاب الخطيئة، بهبة من الله، دون أن يكون للطبيعة أيّ إسهام بذلك. وفي الواقع آخر هو أن يكون الله وآخر هو المشاركة بالله. من طبعه، لا يخطأ الله؛ والكائن الذي يشترك بالله يأخذ من الله القدرة على أن لا يخطأ. هكذا كان من الضروريّ المحافظة على النظام في الهبة الإلهيّة التي نالها الإنسان من خلال اختيار أوّل حرّ بالقدرة على ألّا يخطأ؛ وفي الثاني نال النعمة بألّا يقدر على أن يخطأ. الأولى بصفتها تجربة والثانية بصفتها مكافأة. ولكن بما أنّ هذه الطبيعة الضعيفة خطئت، حينما كانت قادرة على ارتكاب الخطيئة، خلّصتها نعمة أقوى لتقودها إلى هذه الحرّيّة القائمة على عدم القدرة على ارتكاب الخطيئة. وبما أنّ آدم فَقَد نعمة الخلود

الأولى بارتكابه الخطيئة، وهي القدرة على عدم الموت؛ فالثانية ستكون في أنّه يستحيل عليه أن يموت. وكما أنّ الحرّيّة الأولى كانت على القدرة على ألّا يخطأ فالثانية تقدم على عدم قدرته على ارتكاب الخطيئة.

وعلى هذا النحو فإنّ إرادة البرّ والمساواة في الإنسان غير قابلة للفقدان بالنسبة ذاتها التي يشتهي بها السعادة؛ إذ إنّنا بالخطيئة نفقد التقوى والسعادة؛ ولكن حين نفقد السعادة فلا نفقد الرغبة فيها. إن كان الله لا يقدر على أن يخطأ فهل ننكر عليه حرّيّة اختياره؟ إنّ إرادة تلك المدينة المقدّسة ستكون واحدة في الكلّ وغير قابلة للانقسام في كلّ واحد، إرادة حرّة، بعيدة عن كلّ شرّ، مليئة بكلّ خير، متمتّعة بملذّات الفرح الأبديّ التي لا ينضب لها معين، ناسية أخطاءها وشقاءها ولكن دون أن تنسى الخلاص الذي مَنَّ به عليها محرّرها وتحفظ له الجميل.

أمّا بشأن المعرفة فستذكر النفس شرور الماضي؛ أمّا الحواسّ فنسيان كلّيّ لها. نجد أنّ طبيبًا يعرف تقريبًا كلّ ما في الجسد من أمراض، بحسب ما يكشف له العلم؛ ولكن بحسب تجربة الألم نجهل تقريبًا كلّ شيءٍ عنه. وبما أنّ هناك طريقتين لمعرفة الآلام، إمّا بقدرة الفكر الذي يصل إليها، بالنظر، وإمّا بواسطة الحواسّ التي تشعر بها (والعيوب تعرف بطريقة أخرى عن طريق الحكمة بخلاف معرفتها بالتجربة في حياة فوضويّة) وهناك أيضًا طريقتان لنسيانها؛ ينساها، بشكل مخالف، مَن عرفها عن طريق العلم، عمَّن اختبرها بالمعاناة؛ ذاك ينساها في التخلّي عن عمله وهذا ينساها بالتجرّد عن بؤسه، وهذه هي طريقة القدّيسين الذي ينسون آلامهم الماضية ويعفون من كلّ تلك الآلام دون أن يبقى لهم

منها أيّ شعور. على أنّ تلك القدرة على المعرفة التي تكون عظيمة فيهم لا يمكنها أن تجهل ليس فقط شقاء الماضي بل العذاب الأبديّ الذي يكابده المحكوم عليهم. وإن كان يجب عليهم أن ينسوا عذاباتهم الماضية فكيف يرنّمون، بحسب قول النبيّ، بمراحم الربّ إلى الأبد؟ وهل من شيء أعذب على المدينة المقدّسة من هذا النشيد في تعظيم المخلّص ونعمته ودمه الذي افتدانا به؟ تتحقّق العبارة: «كفّوا فاعلموا أنّي أنا الله» (مز ٤٥/ ١١) هناك هو السبت العظيم الحقيقيّ الذي لا مساء له، السبت الذي يقول عنه الربّ في الخليقة الأولى: «وفي اليوم السابع فرغَ الله من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدّسه لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه الله ليصنعه». لأنّنا سوف نكون «اليوم السابع» إذ نمتلئ من بركته وقداسته. هنالك في الراحة سوف نرى أنّه هو الله، طبيعة سامية ادّعيناها لنا حينما هبطنا من أعالي عهده على صوت الشيطان الذي أغوانا قائلًا: «تصيران كآلهة» لم نحفظ الأمانة لهذا الإله الذي كان قادرًا على أن يجعل منّا آلهة لو لم نجحد نِعَمه ونتخلّف عن الاتّحاد معه. وماذا عملنا خارجًا عنه سوى السقوط تحت غضبه؟ وإذ تجدَّدنا به وكمَّلنا، بنعمة منه أوفر، فسوف نرى في تلك الراحة الأبديّة أنّه هو الله، الذي نمتلئ به، حين يكون كلًّا في الكلّ؛ لأنّ أعمالنا الصالحة حين نعرف كيف ننسبها إليه وحده، تُعزى إلينا، حصولًا على ذلك السبت، أمّا إذا نسبناها لأنفسنا تكون أعمال عبيد؛ وقد قيل في السبت: «واليوم السابع سبت للربّ لا تعمل فيه عملًا». (تث ٥/ ١٤) وانطلاقًا من ذلك يقول حزقيال النبيّ: «وأعطيتهم سبوتي

لتكون علامةً بيني وبينهم ليعلموا أنّي أنا الربّ مقدّسهم» (حز ٢٠/ ١٢) إذ ذاك سنعرفهم معرفة كاملة حينما نصبح في السبت بالتمام ونرى بشكل تامّ أنّه ذاته هو الله.

إن أحصينا العصور، وكأنّها أيّام، بحسب ما عبّرت عنها الأسفار المقدّسة، يتّضح أكثر فأكثر ذاك السبت لأنّه السابع. وفي الواقع، فالعصر الأوّل، الذي نشبّهه باليوم الأوّل، يمتدّ من آدم حتّى الطوفان، والثاني من الطوفان حتّى إبراهيم، والاثنان متساويان، لا من حيث عدد الأيّام بل من حيث الأجيال لأنّ في كلّ حقبة عشرة أجيال. من إبراهيم، بحسب تقدير متّى الإنجيليّ، ثلاثة أجيال تتوالى حتّى مجيء المسيح ويتضمّن كلّ منها أربعة عشر جيلًا، الأوّل من إبراهيم حتّى داود، والثاني من داود حتّى أسر بابل، والثالث من أسر بابل حتّى ميلاد المسيح؛ في الزمن: خمسة أجيال كلّها. والسادس يجري حاليًّا ولا يقاس بواسطة أيّ عدد أكيد من الأجيال. الربّ يقول: «ليس لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة التي جعلها الآب في سلطانه». (رسل ١/ ٧) بعد العصر السادس سوف يستريح الربّ كما لو أنّه في يوم سابع وعندما يجعل ذلك اليوم راحة نكون قد دخلنا إلى ألوهيّته. إنّ درس كلّ نوع من الأجيال يتطلّب وقتًا طويلًا. ولكنّ تلك الحقبة السابعة ستكون سبتنا الذي لن يكون له مساء بل يحدّد أجله أحد أبديّ يتكرّس بقيامة المسيح من القبر ويرمز إلى الراحة الأبديّة، راحة الروح وراحة الجسد. هناك نكون في سلام وسوف نرى؛ سوف نرى ونحبّ؛ سوف نحبّ ونسبّح. ذاك ما يكون في النهاية دون نهاية. وأيّة نهاية لنا تكون سوى الوصول إلى الملكوت الذي لا نهاية له؟

يبدو أنّني قمت، بعون الربّ، بأداء ما يجب عليّ في هذا العمل الضخم؛ إن وجد القارئ أنّني بالغت أو قصّرت أطلب السماح؛ أمّا إذا رأى أنّني وفّيت الموضوع حقّه فالشكر ليس لي؛ بل واجب عليّ وعليه معًا، إلى الربّ. آمين.

إنتهى بعون الله

فهرس المحتويات

لصفّ والإخراج : شركة الطبع والنشر اللبنانيّة
(خليل الديك وأولاده)

لطباعة : مطبعة ليزار ش.م.ل.

٢٠٠٧/٤/٣٠-١،٥-١٤٢٨